

ألف ليلة وليلة

(الجزء السادس)



ألف ليلة وليلة (الجزء السادس)



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥١٦ ٦

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١١	فلما كانت الليلة ٨٧٤
١٥	فلما كانت الليلة ٨٧٥
١٩	فلما كانت الليلة ٨٧٦
٢٣	فلما كانت الليلة ٨٧٧
٢٧	فلما كانت الليلة ٨٧٨
٣١	فلما كانت الليلة ٨٧٩
٣٥	فلما كانت الليلة ٨٨٠
٣٩	فلما كانت الليلة ٨٨١
٤٣	فلما كانت الليلة ٨٨٢
٤٧	فلما كانت الليلة ٨٨٣
٥١	فلما كانت الليلة ٨٨٤
٥٥	فلما كانت الليلة ٨٨٥
٥٧	فلما كانت الليلة ٨٨٦
٦١	فلما كانت الليلة ٨٨٧
٦٥	فلما كانت الليلة ٨٨٨
٦٩	فلما كانت الليلة ٨٨٩
٧٣	فلما كانت الليلة ٨٩٠
٧٧	فلما كانت الليلة ٨٩١
٨١	فلما كانت الليلة ٨٩٢
٨٣	فلما كانت الليلة ٨٩٣

ألف ليلة وليلة (الجزء السادس)

٨٥	فلما كانت الليلة ٨٩٤
٨٩	فلما كانت الليلة ٨٩٥
٩١	فلما كانت الليلة ٨٩٦
٩٣	فلما كانت الليلة ٨٩٧
٩٥	فلما كانت الليلة ٨٩٨
٩٧	فلما كانت الليلة ٨٩٩
١٠١	فلما كانت الليلة ٩٠٠
١٠٣	فلما كانت الليلة ٩٠١
١٠٧	فلما كانت الليلة ٩٠٢
١١١	فلما كانت الليلة ٩٠٣
١١٥	فلما كانت الليلة ٩٠٤
١١٧	فلما كانت الليلة ٩٠٥
١٢١	فلما كانت الليلة ٩٠٦
١٢٣	فلما كانت الليلة ٩٠٧
١٢٧	فلما كانت الليلة ٩٠٨
١٣١	فلما كانت الليلة ٩٠٩
١٣٥	فلما كانت الليلة ٩١٠
١٣٩	فلما كانت الليلة ٩١١
١٤٣	فلما كانت الليلة ٩١٢
١٤٥	فلما كانت الليلة ٩١٣
١٤٩	فلما كانت الليلة ٩١٤
١٥٣	فلما كانت الليلة ٩١٥
١٥٧	فلما كانت الليلة ٩١٦
١٥٩	فلما كانت الليلة ٩١٧
١٦٣	فلما كانت الليلة ٩١٨
١٦٧	فلما كانت الليلة ٩١٩
١٧١	فلما كانت الليلة ٩٢٠
١٧٥	فلما كانت الليلة ٩٢١
١٧٩	فلما كانت الليلة ٩٢٢

المحتويات

١٨١	فلما كانت الليلة ٩٢٣
١٨٥	فلما كانت الليلة ٩٢٤
١٨٩	فلما كانت الليلة ٩٢٥
١٩٣	فلما كانت الليلة ٩٢٦
١٩٧	فلما كانت الليلة ٩٢٧
٢٠١	فلما كانت الليلة ٩٢٨
٢٠٣	فلما كانت الليلة ٩٢٩
٢٠٧	فلما كانت الليلة ٩٣٠
٢١١	فلما كانت الليلة ٩٣١
٢١٣	فلما كانت الليلة ٩٣٢
٢١٧	فلما كانت الليلة ٩٣٣
٢٢١	فلما كانت الليلة ٩٣٤
٢٢٥	فلما كانت الليلة ٩٣٥
٢٢٩	فلما كانت الليلة ٩٣٦
٢٣٣	فلما كانت الليلة ٩٣٧
٢٣٧	فلما كانت الليلة ٩٣٨
٢٣٩	فلما كانت الليلة ٩٣٩
٢٤١	فلما كانت الليلة ٩٤٠
٢٤٥	فلما كانت الليلة ٩٤١
٢٤٩	فلما كانت الليلة ٩٤٢
٢٥٣	فلما كانت الليلة ٩٤٣
٢٥٧	فلما كانت الليلة ٩٤٤
٢٥٩	فلما كانت الليلة ٩٤٥
٢٦٥	فلما كانت الليلة ٩٤٦
٢٦٩	فلما كانت الليلة ٩٤٧
٢٧٣	فلما كانت الليلة ٩٤٨
٢٧٧	فلما كانت الليلة ٩٤٩
٢٧٩	فلما كانت الليلة ٩٥٠
٢٨٣	فلما كانت الليلة ٩٥١

ألف ليلة وليلة (الجزء السادس)

٢٨٥	فلما كانت الليلة ٩٥٢
٢٨٩	فلما كانت الليلة ٩٥٣
٢٩١	فلما كانت الليلة ٩٥٤
٢٩٥	فلما كانت الليلة ٩٥٥
٢٩٩	فلما كانت الليلة ٩٥٦
٣٠١	فلما كانت الليلة ٩٥٧
٣٠٥	فلما كانت الليلة ٩٥٨
٣٠٩	فلما كانت الليلة ٩٥٩
٣١٣	فلما كانت الليلة ٩٦٠
٣١٧	فلما كانت الليلة ٩٦١
٣٢١	فلما كانت الليلة ٩٦٢
٣٢٥	فلما كانت الليلة ٩٦٣
٣٢٩	فلما كانت الليلة ٩٦٤
٣٣٣	فلما كانت الليلة ٩٦٥
٣٣٧	فلما كانت الليلة ٩٦٦
٣٤١	فلما كانت الليلة ٩٦٧
٣٤٥	فلما كانت الليلة ٩٦٨
٣٤٧	فلما كانت الليلة ٩٦٩
٣٥١	فلما كانت الليلة ٩٧٠
٣٥٥	فلما كانت الليلة ٩٧١
٣٥٩	فلما كانت الليلة ٩٧٢
٣٦١	فلما كانت الليلة ٩٧٣
٣٦٥	فلما كانت الليلة ٩٧٤
٣٦٩	فلما كانت الليلة ٩٧٥
٣٧١	فلما كانت الليلة ٩٧٦
٣٧٥	فلما كانت الليلة ٩٧٧
٣٧٩	فلما كانت الليلة ٩٧٨
٣٨٥	فلما كانت الليلة ٩٧٩
٣٨٧	فلما كانت الليلة ٩٨٠

المحتويات

٣٩١	فلما كانت الليلة ٩٨١
٣٩٥	فلما كانت الليلة ٩٨٢
٤٠١	فلما كانت الليلة ٩٨٣
٤٠٥	فلما كانت الليلة ٩٨٤
٤٠٩	فلما كانت الليلة ٩٨٥
٤١٣	فلما كانت الليلة ٩٨٦
٤١٧	فلما كانت الليلة ٩٨٧
٤١٩	فلما كانت الليلة ٩٨٨
٤٢٣	فلما كانت الليلة ٩٨٩
٤٢٧	فلما كانت الليلة ٩٩٠
٤٣١	فلما كانت الليلة ٩٩١
٤٣٥	فلما كانت الليلة ٩٩٢
٤٣٩	فلما كانت الليلة ٩٩٣
٤٤٣	فلما كانت الليلة ٩٩٤
٤٤٧	فلما كانت الليلة ٩٩٥
٤٥١	فلما كانت الليلة ٩٩٦
٤٥٥	فلما كانت الليلة ٩٩٧
٤٥٩	فلما كانت الليلة ٩٩٨
٤٦٣	فلما كانت الليلة ٩٩٩
٤٦٧	فلما كانت الليلة ١٠٠٠
٤٧١	فلما كانت الليلة ١٠٠١
٤٧٥	الخاتمة

فلما كانت الليلة ٨٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نور الدين قال للشيخ العطار: إنها جارية من أولاد الإفرنج. فقال له الشيخ: اعلم يا ولدي أن خيار أولاد الإفرنج عندنا في هذه المدينة ثمنه مائة دينار، ولكن والله يا ولدي قد عُمِلت عليك حيلة في هذه الجارية، فإن كنت أحببتها فبِتْ عندها في هذه الليلة، واقضِ غرضك منها، وأصبح انزلُ بها السوق وبِغها ولو كنتَ تخسر فيها مائتي دينار، وقدَّرْ أنك غرقتَ في البحر أو طلع عليك اللصوص في الطريق. فقال نور الدين: كلامك صحيح، ولكن يا عم أنت تعرف أنه ما كان معي غير الألف دينار التي اشتريتُ بها الجارية، ولم يَبْقَ معي شيء أنفقه ولا درهم واحد، وإني أريد من فضلك وإحسانك أن تقرضني خمسين درهماً أنفقتها إلى غدٍ، فأبيع الجارية وأردُّها لك من ثمنها. فقال الشيخ: أعطيك يا ولدي على الرأس. ثم وزن له خمسين درهماً وقال له: يا ولدي، أنت شاب صغير السن، وهذه الجارية مليحة وربما تعلَّقَ بها قلبك، فما يهون عليك أن تبيعها وأنت ما تملك شيئاً تنفقه، فتفرغ منك هذه الخمسون درهماً فتأتيني فأقرضك أول مرة، وثاني مرة، وثالث مرة إلى عشر مرات، فإذا أتيتني بعد ذلك فلا أَرُدُّ عليك السلام الشرعي، وتضيع محبتنا مع والدك. ثم ناوَلَه الشيخ خمسين درهماً، فأخذها نور الدين وأتى بها إلى الجارية، فقالت له: يا سيدي، رُح السوق في هذه الساعة وهاتِ لنا بعشرين درهماً حريراً ملوناً خمسة ألوان، وهاتِ لنا بالثلاثين الأخرى لحماً وخبزاً وفاكهةً وشراباً ومشموماً. فعند ذلك ذهب نور الدين إلى السوق واشترى منه كلَّ ما طلبته تلك الجارية، وأتى به إليها، فقامت من وقتها وساعتها وشَمَرَتْ عن يدها وطبخت طعاماً وأتقنَتْه غاية الإتيان، ثم قدَّمتْ له الطعامَ فأكل وأكلتْ معه حتى اكتفيا، ثم قدَّمتِ المدامَ وشربت هي وإياه، ولم تَزَلْ تسقيه وتؤانسه إلى أن سكر ونام، فقامت الجارية من وقتها وساعتها وأخرجت من بَقجتها جراباً من أديم طائفي وفتحتَه وأخرجت منه مسمارين، وقعدت

عملت شغلها إلى أن فرغ، فصار زناراً مليحاً فلَفَّتْهُ في خرقَةٍ بعد صقله وتنظيفه وجعلته تحت المخذة، ثم قامت تعرَّتْ ونامت بجانب نور الدين وكبسته، فانتبه من نومه فوجد بجانبه صبيةً كأنها فضة نقية، أنعم من الحرير وأطرى من اللية، وهي أشهر من عَلم وأحسن من حُمُر النُعم، خماسيةُ القَدِّ قاعدةُ النُهد، بحواجب كأنها قسيُّ السهام، وعيون كأنها عيونُ غزلان، وخدود كأنها شقائق النعمان، وبطنٌ خميصةُ الأعكان، وسُرَّةٌ تَسَعُ أوقيةً من دهن البان، وفخذيْن كأنهما مخدَّتَانِ محشوتَانِ من ريش النعام، وبينهما شيء يكلُّ عن وصفه اللسان، وتنسكب عند ذِكْرِهِ العَبْرَات، فكأن الشاعر قصَّدها بهذه الأبيات:

فَمِنْ شَعْرِهَا لَيْلٌ وَمِنْ فَرْقِهَا فَجْرٌ وَمِنْ حَدِّهَا وَرْدٌ وَمِنْ رِيْقِهَا حَمْرٌ
وَمِنْ وَصْلِهَا مَأْوَى وَمِنْ هَجْرِهَا لَطَى وَمِنْ تَغْرِهَا دُرٌّ وَمِنْ وَجْهِهَا بَدْرٌ

وما أحسن قول بعض الشعراء:

بَدَتْ قَمَرًا وَمَاسَتْ غُصْنَ بَانَ وَفَاحَتْ عَنَبَرًا وَرَنْتْ غَزَالَ
كَأَنَّ الْحَزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِي فَسَاعَةً هَجَرَهَا يَجِدُ الْوَصَالَ
لَهَا وَجْهٌ يَفُوقُ عَلَى الثُّرَيَّا وَنُورٌ جَبِينَهَا فَاقَ الْهَلَالَ

وقال بعضهم أيضًا:

سَفَرْنَ بُدُورًا وَأَنْجَلَيْنَ أَهْلَةً وَمَسْنَ غُصُونًا وَالتَّفَتْنَ جَازِرًا
وَفِيهِنَّ كَحَلَاءِ الْعُيُونِ لِحْسِنِهَا تَوَدُّ الثُّرَيَّا أَنْ تَكُونَ لَهَا ثَرَى

فعند ذلك التفت نور الدين من وقته وساعته إلى تلك الجارية وضَمَّها إلى صدره، ومَصَّ شفتها الفوقية بعد أن مَصَّ التحتية، ثم زرق اللسان بين الشفتين وقام إليها، فوجدها دُرَّةً ما تُقْبِت، ومَطِيَّةً ما رُكِبَتْ، فأزال بكارتها ونال منها الوصال، وانعدت بينهما المحبة بلا انفكاك ولا انفصال، وتابَعَ في خدها تقبيلًا كَوَقْعِ الحصى في الماء، ورَهْزًا كطعنِ الرماح في مغارة الشعواء؛ لأن نور الدين كان مشتاقًا إلى اعتناقِ الحُور، ومَصَّ الثغور، وحلَّ الشعور، وضَمَّ الخصور، وعَضَّ الخدود، وركوبِ النُهود، مع حركاتٍ مَصْرِية، وغَنَجٍ يمانية، وشهيقٍ حبشية، وفتورٍ هندية، وغلَمَةٍ نوبية، وتضجُّرٍ ريفية، وأنينٍ

دمياطية، وحرارة صعيدية، وفترة إسكندرية، وكانت هذه الجارية جامعةً لهذه الخصال مع فرط الجمال والدلال، كما قال فيها الشاعر:

هَٰذِي الَّتِي أَنَا طُولَ الدَّهْرِ نَاسِيَهَا	فَلَا جَنَحْتُ إِلَى مَنْ لَيْسَ يُدْنِيهَا
كَأَنَّهَا الْبَدْرُ فِي تَكْوِينِ صُورَتِهَا	سُبْحَانَ خَالِقِهَا سُبْحَانَ بَارِيهَا
إِنْ كَانَ ذَنْبِي عَظِيمًا فِي مَحَبَّتِهَا	فَلَيْسَ لِي تَوْبَةٌ يَوْمًا أَرْجِيهَا
قَدْ صَبَّرْتَنِي حَزِينًا سَاهِرًا دَنِفًا	وَالْقَلْبُ قَدْ حَارَ فِكْرًا فِي مَعَانِيهَا
وَأَنْشَدْتُ بَيْتَ شِعْرِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ	إِلَّا فَتَى لِقَوَافِي الشُّعْرِ يَرْوِيهَا
لَا يَعْرِفُ الشُّوقُ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ	وَلَا الصَّبَابَةُ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

ثم نام نور الدين هو وتلك الجارية إلى الصباح في لذةٍ وانشراح. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نور الدين لما نام هو وتلك الجارية إلى الصباح في لذة وانسراح، لابسين حُلَّ العناق المُحَكِّمة الأزرار، آمنين طوارق الليل والنهار، وقد باتًا على أحسن حالٍ، ولم يخشيًا في الوصال كثرة القيل والقال، كما قال فيهما الشاعر المفضل:

لَيْسَ الْحَسُودُ عَلَى الْهَوَى بِمُسَاعِدٍ	رُزْ مَنْ تُحِبُّ وَدَعْ مَقَالََةَ حَاسِدٍ
مَنْ عَاشِقَيْنِ عَلَى فِرَاشٍ وَاحِدٍ	لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ أَحْسَنَ مَنَظَرًا
مَنْوَسَّدَيْنِ بِمِعْصَمٍ وَبِسَاعِدٍ	مُتَعَانِقَيْنِ عَلَيْهِمَا حُلُّ الرِّضَا
فَالنَّاسُ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ	وَإِذَا تَأَلَّفَتِ الْقُلُوبُ عَلَى الْهَوَى
هَلْ تَسْتَطِيعُ صَلَاحَ قَلْبٍ فَاسِدٍ	يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى الْهَوَى أَهْلَ الْهَوَى
نَعَمْ الصَّدِيقُ وَعِشْ بِذَاكَ الْوَاحِدِ	وَإِذَا صَفَا لَكَ مِنْ زَمَانِكَ وَاحِدٌ

فلما أصبح الصباح وأضاء بنور ولاح، انتبه نور الدين من نومه، فرأها أحضرت الماء فاغتسل هو وإياها وأدّى ما عليه من الصلاة لربه، ثم أثنى بما تيسر من المأكل والمشروب فأكل وشرب، ثم أدخلت الجارية يدها تحت المخدة وأخرجت الزنار الذي صنعته بالليل وناولته إياه، وقالت له: يا سيدي، خذ هذا الزنار. فقال لها: من أين هذا الزنار؟ فقالت له: يا سيدي، هو الحرير الذي اشتريته البارحة بالعشرين درهماً، فقم واذهب به إلى سوق العجم وأعطه للدلال لينادي عليه، ولا تبغّه إلا بعشرين ديناراً سالمةً لديك. فقال لها نور الدين: يا سيدة الملاح، هل شيء بعشرين درهماً يُباع بعشرين ديناراً يُعمل في ليلة واحدة؟ قالت له الجارية: يا سيدي، أنت ما تعرف قيمة هذا، ولكن اذهب به إلى السوق وأعطه للدلال، فإذا نادى عليه الدلال ظهرت لك قيمته. فعند ذلك أخذ نور الدين الزنار

من الجارية وأتى به إلى سوق الأعاجم، وأعطى الزنار للدلال وأمره أن ينادي عليه، وقعد نور الدين على مصطبة دكان، فغاب الدلال عنه ساعة، ثم أتى إليه وقال له: يا سيدي، قم اقبض ثمنَ زنارك، فقد بلغ عشرين دينارًا سالمًا لديك. فلما سمع نور الدين كلامَ الدلال، تعجَّب غايةَ العجب واهتزَّ من الطرب، وقام ليقبض العشرين دينارًا وهو ما بين مصدَّق ومكذَّب، فلما قبضها ذهب من ساعته واشترى بها كلها حرييرًا من سائر الألوان لتعمله الجارية كله زنانير، ثم رجع إلى البيت وأعطاهما الحرير، وقال لها: اعمليه كله زنانير، وعلميني أيضًا حتى أعمل معك، فإني طول عمري ما رأيتُ صنعةً أحسن من هذه الصنعة، ولا أكثر مكسبًا منها قطُّ، وإنها والله أحسن من التجارة بألف مرة. فضحكت الجارية من كلامه وقالت له: يا سيدي نور الدين، امض إلى صاحبك العطار واقترض منه ثلاثين درهماً، وفي غدٍ ادفعها له من ثمن الزنار هي والخمسين درهماً التي اقترضتها منه قبلها. فقام نور الدين وأتى إلى صاحبه العطار وقال له: يا عم، أقرضني ثلاثين درهماً، وفي غدٍ إن شاء الله تعالى أجيء لك بالثمانين درهماً جملةً واحدة. فعند ذلك وزن له الشيخ العطار ثلاثين درهماً، فأخذها نور الدين وأتى بها إلى السوق، واشترى بها لحماً وخبزاً ونُقلاً وفاكهةً ومشموماً كمل فعل بالأمس، وأتى بها إلى الجارية، وكان اسم تلك الجارية مريم الزنارية، فلما أخذت اللحم قامت من وقتها وساعتها وهيأت طعاماً فاخراً ووضعتة قدام سيدها نور الدين، ثم بعد ذلك هيأت سفرة المدام وتقدّمت تشرب هي وإياه وصارت تملأ وتسقيه وهو يملأ ويسقيها، فلما لعب المدام بعقلهما أعجبها حُسن لطافته ورقة معانيه، فأنشدت هذين البيتين:

أَقُولُ لِأَهْيَفَ حَيًّا بِكَاسٍ لَهَا مِنْ مِسْكٍ نَكْهَتِهِ خِتَامٌ
أَمِنْ خَدَيْكَ تُعْصَرُ؟ قَالَ: كَلَّا مَتَى عُصِرْتُ مِنَ الْوَرْدِ الْمُدَامُ؟

ولم تزل تلك الجارية تنادِم نور الدين وينادِهما، وتعطيه الكأس والطاس، وتطلب أن يملأ لها ويسقيها ما تطيب به الأنفاس، وإذا وضع يده عليها تتمنّع منه دلالاً، وقد زادها السُكْرُ حُسْنًا وجَمالًا، فأنشد هذين البيتين:

وَهَيْفَاءَ تَهْوَى الرَّاحَ قَالَتْ لِصَبَّهَا بِمَجْلِسِ أَنْسٍ وَهُوَ يَخْشَى مَلَأَهَا
إِذَا لَمْ تُدِرْ كَأْسَ الْمُدَامِ وَتَسْقِنِي أَبَيْتُكَ مَهْجُورًا فَخَافَ مَلَأَهَا

ولم يزالاً كذلك إلى أن غلب عليه السُّكْرُ ونام، فقامت هي من وقتها وساعتها وعملت
شغلها في الزنار على جري عادتها، ولما فرغت أصلحتَه ولفَّتَه في ورقة، ثم نزعَت ثيابها
ونامت بجانبه إلى الصباح. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مريم الزنارية لما فرغت من شغل الزنار أصلحته ولفته في ورقة، ونزعت ثيابها ونامت بجانبه إلى الصباح، وكان بينهما ما كان من الوصال، ثم قام نور الدين وقضى شغله وناولته الزنار، وقالت له: امض به إلى السوق وبعه بعشرين دينارًا كما بعث نظيره بالأمس. فعند ذلك أخذه ومضى به إلى السوق وباعه بعشرين دينارًا وأتى إلى العطار ودفع له الثمانين درهمًا، وشكر فضله ودعا له، فقال: يا ولدي، هل أنت بعث الجارية؟ فقال نور الدين: كيف أبيع روعي من جسدي؟ ثم إنه حكى له الحكاية من المبتدأ إلى المنتهى، وأخبره بجميع ما جرى له، ففرح الشيخ العطار بذلك فرحًا شديدًا ما عليه من مزيد، وقال له: والله يا ولدي، إنك قد فرحتني، وإن شاء الله أنت بخير دائمًا، فإني أود لك الخير لمحبتتي لوالدك وبقاء صحبتي معه.

ثم إن نور الدين فارق الشيخ العطار وراح من وقته وساعته إلى السوق واشترى اللحم والفاكهة والشراب، وجميع ما يحتاج إليه على جري العادة، وأتى به إلى تلك الجارية، ولم يزل نور الدين هو والجارية في أكل وشرب ولعب وانشراح وود ومنادمة مدة سنة، وهي تعمل في كل ليلة زنارًا، ويصبح يبيعه بعشرين دينارًا ينفق منها ما يحتاج إليه، والباقي يعطيه لها تحفظه عندها إلى وقت الحاجة إليه، وبعد السنة قالت له الجارية: يا سيدي نور الدين، إذا بعث الزنار في غد، فخذ لي من حقه حريرًا ملونًا ستة ألوان، فإنه قد خطر ببالي أن أصنع لك منديلًا تجعله على كتفك، ما فرحت بمثله أولاد التجار ولا أولاد الملوك. فعند ذلك خرج نور الدين إلى السوق وباع الزنار، واشترى الحرير الملون كما ذكرت له الجارية وجاء به إليها، فقعدت مريم الزنارية تصنع في المنديل جمعة كاملة؛ لأنها كلما فرغت من زنار في ليلة تعمل في المنديل شيئًا إلى أن خلصته، ثمناولته لنور الدين فجعله على كتفه، وصار يمشي به في السوق، فصار التجار والناس وأكابر

البلد يقفون عنده صفوفًا ليتفرَّجوا على حُسنه، وعلى ذلك المنديل وحُسن صنعته، فاتفق أن نور الدين كان نائمًا ذات ليلة من الليالي، فانتبه من منامه فوجد جاريتها تبكي بكاءً شديدًا، وتنشد هذه الأبيات:

دَنَا فِرَاقُ الْحَبِيبِ وَاقْتَرَبَا	وَا حَرَبَا لِلْفِرَاقِ وََا حَرَبَا
تُفَتَّتْ مُهَجَّتِي فَوَا أَسْفِي	عَلَى لَيَالٍ مَضَتْ لَنَا طَرَبَا
لَا بَدَّ أَنْ يَنْظُرَ الْحَسُودُ لَنَا	بِعَيْنِ سُوءٍ وَيَبْلُغَ الْأَرَبَا
فَمَا عَلَيْنَا أَضُرُّ مِنْ حَسَدٍ	وَمِنْ عُيُونِ الْوُشَاةِ وَالرُّقَبَا

فقال لها نور الدين: يا سيدتي مريم، ما لك تبكين؟ فقالت له: أبكي من ألم الفراق، فقد أحسَّ قلبي به. فقال لها: يا سيدة الملاح، ومن الذي يفرِّق بيننا، وأنا الآن أحبُّ الخلق إليك وأعشقهم لك؟ فقالت له: إن عندي أضعاف ما عندك، ولكنَّ حُسنَ الظن بالليالي يُوقع الناس في الأسف، ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

أَحْسَنْتَ ظَنَّنَكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ	وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَالَمْتَكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا	وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَخْدُثُ الْكَدَرُ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا	وَلَيْسَ يَكْلَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَكَمْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ خَضَرَاءٍ يَابِسَةٍ	وَلَيْسَ يُرْجَمُ إِلَّا مَا لَهُ ثَمَرُ
أَمَا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جَيْفٌ	وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَاعِهِ الدُّرُرُ

ثم قالت: يا سيدي نور الدين، إذا كنتَ تحرص على عدم الفراق، فخذْ حذرَكَ من رجلٍ إفرنجي أعور العين اليمنى، وأعرج الرِّجلِ الشمال، وهو شيخٌ أغبرُ الوجه مكلثم اللحية؛ لأنه هو الذي يكون سببًا لفراقنا، وقد رأيته أتى في تلك المدينة، وأظنُّ أنه ما جاء إلا في طلبِي. فقال لها نور الدين: يا سيدة الملاح، إن وقع بصري عليه قتلته ومثَّلتُ به. فقالت له مريم: يا سيدي، لا تَقْتله ولا تكلِّمه، ولا تبايعه ولا تُشَارِبه، ولا تعامله ولا تجالسِه ولا تُماشِيه، ولا تتحدَّثْ معه بكلامٍ قطُّ، وادعُ الله أن يكفينَا شرَّه ومكرَه. فلما أصبح الصباح أخذ نور الدين الزنار وذهب به إلى السوق وجلس على مصطبة دكان يتحدَّثُ هو وأولاد التجار، فأخذته سِنَّةٌ من النوم، فنام على مصطبة الدكان، فبينما هو نائم وإذا بذلك الإفرنجي مرًّا على ذلك السوق في تلك الساعة، ومعه سبعة من الإفرنج،

فرأى نور الدين نائماً على مصطبة الدكان ووجهه ملفوف بذلك المنديل، وطرفه في يده، فقعد الإفرنجي عنده وأخذ طرف المنديل وقلَّبه في يده، واستمرَّ يقلِّب فيه ساعة، فأحسَّ به نور الدين فأفاق من النوم، فرأى الإفرنجي الذي وصفته الجارية بعينه جالساً عند رأسه، فصرخ عليه نور الدين صرخةً عظيمةً أرعبته، فقال له الإفرنجي: لأي شيء تصرخ علينا؟ هل نحن أخذنا منك شيئاً؟ فقال له نور الدين: والله يا ملعون لو كنت أخذت مني شيئاً لكنتُ ذهبتُ بك إلى الوالي. فقال له الإفرنجي: يا مسلم، بحق دينك وما تعتقده أن تخبرني من أين لك هذا المنديل؟ فقال له نور الدين: هو شغلٌ والدتي. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الإفرنجي لما سأل نور الدين عن الذي عمل المنديل قال له: إن هذا المنديل شغل والدتي عملته لي بيدها. فقال له الإفرنجي: أتبيعه لي وتأخذ ثمنه مني؟ فقال له نور الدين: والله يا ملعون لا أبيعك ولا لغيرك، فإنها ما عملته إلا على اسمي، ولم تعمل غيره. فقال له: بعّه لي وأنا أعطيك ثمنه في هذه الساعة خمسمائة دينار، ودع التي عملته تعمل لك غيره أحسن منه. فقال له نور الدين: أنا ما أبيعك أبدًا؛ لأنه لا نظير له في هذه المدينة. فقال له الإفرنجي: يا سيدي، وهل تبيعه بستمائة دينار من الذهب الخالص؟ ولم يزل يزيده مائة بعد مائة إلى أن أوصله إلى تسعمائة دينار. فقال له نور الدين: يفتح الله، عليّ بغير بيعه، أنا ما أبيعك ولا بالقيّ دينار ولا بأكثر أبدًا. ولم يزل ذلك الإفرنجي يرغب نور الدين بالمال في ذلك المنديل إلى أن أوصله إلى ألف دينار، فقال له جماعة من التجار الحاضرين: نحن بعناك هذا المنديل، فادفع ثمنه. فقال نور الدين: أنا ما أبيعك والله. فقال له تاجر من التجار: اعلم يا ولدي أن هذا المنديل قيمته مائة دينار إن كثرت ووُجد له راعب، وأن هذا الإفرنجي دفع فيه ألف دينار جملةً، فربحك تسعمائة دينار، فأني ربح تريد أكثر من هذا الربح؟ فالرأي عندي أنك تبيع هذا المنديل وتأخذ الألف دينار، وتقول للتي عملته لك تعمل لك غيره أو أحسن منه، واربح أنت الألف دينار من هذا الإفرنجي الملعون عدو الدين. فاستحي نور الدين من التجار وباع الإفرنجي المنديل بألف دينار، ودفع له الثمن في الحضرّة، وأراد نور الدين أن ينصرف ويمضي إلى جاريته مريم ليبشّرها بما كان من أمر الإفرنجي، فقال الإفرنجي: يا جماعة التجار، احجزوا نور الدين فإنكم وإياه ضيوفاً في هذه الليلة، فإن عندي بتيّة خمرٍ رومي من معتق الخمر، وخروفاً سميناً، وفاكهةً ونُقلاً ومشموماً، فأنتم تؤانسونا في هذه الليلة، ولا يتأخّر منكم

أحد. فقال التاجر: يا سيدي نور الدين، نشتهي أن تكون معنا في مثل هذه الليلة لنتحَدِّثَ وإياك، فمن فضلك وإحسانك أن تكون معنا، فنحن وإياك ضيوف عند هذا الإفرنجي؛ لأنه رجل كريم. ثم إنهم حلفوا عليه بالطلاق، ومنعوه بالغصب عن الرواح إلى بيته، ثم قاموا من وقتهم وساعتهم وقفلوا الدكاكين، وأخذوا نور الدين معهم وراحوا مع الإفرنجي إلى قاعة مُطَيَّبَةٍ رحيبة بليوانين، فأجلسهم فيها ووضع بين أيديهم سفرة غريبة الصنع بديعة العمل، فيها صورة كاسر ومكسور، وعاشق ومعشوق، وسائل ومسئول، ثم وضع الإفرنجي على تلك السفرة الأواني النفيسة من الصيني والبلور، وكلها مملوءة بنفائس النُّقْل والفاكهة والمشموم، ثم قدَّمَ لهم الإفرنجي بتيَّةً ملانة بالخمير الرومي المعتق، وأمر بذبح خروف سمين.

ثم إن الإفرنجي أوقَدَ النارَ وصار يشوي من ذلك اللحم ويُطعمُ التجار ويسقيهم من ذلك الخمر، ويغمزهم على نور الدين أن ينزلوا عليه بالشراب، فلم يزالوا يسقونه حتى سكر وغاب عن وجوده، فلما رآه الإفرنجي مستغرقاً في السُّكْرِ قال: آنستنا يا سيدي نور الدين في هذه الليلة، فمرحباً بك، ثم مرحباً بك. وصار الإفرنجي يؤانسه بالكلام، ثم تقَرَّبَ منه وجلس بجانبه وسارَقَه في الحديث ساعةً زمانية، ثم قال له: يا سيدي نور الدين، هل تبيعني جاريتك التي اشتريتها بحضرة هؤلاء التجار بألف دينار من مدة سنة، وأنا أعطيك في ثمنها الآن خمسة آلاف دينار؟ فأبى نور الدين ولم يزل ذلك الإفرنجي يُطعمه ويسقيه ويرغِّبه في المال، حتى أوصلَ الجارية إلى عشرة آلاف دينار؛ فقال نور الدين وهو في سُكْرِهِ قدامَ التجار: بِعْتُكَ إياها، هات العشرة آلاف دينار. ففرح الإفرنجي بذلك القول فرحاً شديداً، وأشهدَ عليه التجار وباتوا في أكل وشرب وانشرح إلى الصباح.

ثم صاح الإفرنجي على غلمانه وقال لهم: ائتوني بالمال. فأحضروا له المال، فعَدَّ لنور الدين العشرة آلاف دينار نقدًا وقال له: يا سيدي نور الدين، تسلَّمْ هذا المال ثمن جاريتك التي بِعْتُها لي الليلة بحضرة هؤلاء التجار المسلمين. فقال نور الدين: يا ملعون، أنا ما بِعْتُكَ شيئاً، وأنت تكذب عليّ وليس عندي جوار. فقال له الإفرنجي: قد بعْتني جاريتك، وهؤلاء التجار يشهدون عليك بالبيع. فقال التجار كلهم: نعم يا نور الدين، أنت بِعْتَهُ جاريتك قدامنا، ونحن نشهد عليك أنك بعته إياها بعشرة آلاف دينار، قُمْ اقْبِضِ الثمن وسلِّمَ إليه الجارية، والله يعوّضك خيراً منها، أكره يا نور الدين أنك اشتريت جاريةً بألف دينار ولك سنة ونصف تتمتع بحُسْنِها وجمالها، وتتلذَّذ في كل يوم وليلة بمُنادِمَتها ووصالها، وبعد ذلك ربحتَ من هذه الجارية تسعة آلاف دينار فوق ثمنها الأصلي، وفي

كل يوم تعمل لك منديلاً تبيعه بعشرين ديناراً، وبعد ذلك كله تُنكر البيع وتستقلّ الربح؟ أي ربحٍ أكثر من هذا الربح؟ وأي مكسبٍ أكثر من هذا المكسب؟ فإن كنتَ تحبها، فها أنت قد شبعْتَ منها في هذه المدة، فاقبض الثمن واشترِ غيرها أحسن منها، أو نزوّجك بنتاً من بناتنا بمهرٍ أقل من نصف هذا الثمن، وتكون البنت أجمل منها، ويصير معك باقي المال رأس مالٍ في يدك. ولم يزل التجار يتكلمون مع نور الدين بالملاطفة والمخادعة إلى أن قبض العشرة آلاف دينار ثمن الجارية، وأحضر الإفرنجي من وقته وساعته القضاة والشهود، فكتبوا له حجّةً باشتراء الجارية التي اسمها مريم الزنارية من نور الدين.

هذا ما كان من أمر نور الدين، وأما ما كان من أمر مريم الزنارية، فإنها قعدت تنتظر سيدها جميع ذلك اليوم إلى المغرب، ومن المغرب إلى نصف الليل، فلم يَعدْ إليها سيدها، فجذعت وصارت تبكي بكاءً شديداً، فسمعها الشيخ العطار وهي تبكي، فأرسل إليها زوجته، فدخلتُ عليها فرأتها تبكي، فقالت لها: يا سيدتي، ما لكِ تبكين؟ فقالت لها: يا أمي، إني قعدتُ أنتظر مجيء سيدي نور الدين، فما جاء إلى هذا الوقت، وأنا خائفة أن يكون أحدٌ عمل عليه حيلة من أجلي لأجل أن يبيعي، فدخلت عليه الحيلة وباعني. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مريم الزنارية قالت لزوجة العطار: أنا خائفة أن يكون أحدٌ عملَ على سيدي حيلةً من شأني لأجل أن يبيعني، فدخلت عليه الحيلة وباعني. فقالت لها زوجة العطار: يا سيدتي مريم، لو أعطوا سيدك فيك ملءَ هذه القاعة ذهباً لم يبعك لما أعرفه من محبته لك، ولكن يا سيدتي مريم ربما يكون جماعة أتوا من مدينة مصر من عند والدته، فعمل لهم عزومةً في المحل الذي هم نازلون فيه، واستحى أن يأتي بهم إلى هذا المحل لأنه لا يسعهم، أو لأن مرتبتهم أقلُّ من أن يجيء بهم إلى البيت، أو أحبَّ أن يخفي أمرك عنهم، فبات عندهم إلى الصباح ويأتي إن شاء الله تعالى إليك في غدٍ بخير، فلا تحملي نفسك همًّا ولا غمًّا يا سيدتي، فهذا سبب غيابه عنك في هذه الليلة، وها أنا أبييت عندك في هذه الليلة وأسليك إلى أن يأتي إليك سيدك. ثم إن زوجة العطار صارت تلاهي مريم وتسليها بالكلام إلى أن ذهب الليل كله، فلما أصبح الصباح نظرت مريم سيدها نور الدين وهو داخل من الزقاق، وذلك الإفرنجي وراءه وجماعة التجار حواليه، فلما رأتهم مريم ارتعدت فرائضها واصفرَّ لونها، وصارت ترتعد كأنها سفينة في وسط بحر مع شدة الريح، فلما رأتها امرأة العطار قالت لها: يا سيدتي مريم، ما لي أراك قد تغيَّرت حالك، واصفرَّ وجهك، وزاد بك الذبول؟ فقالت لها الجارية: يا سيدتي، والله إن قلبي قد أحسَّ بالفراق وبُعد التلاقي. ثم إن الجارية تأوَّهت بتصاعد الزفرات، وأنشدت هذه الأبيات:

قِ فَإِنَّهُ مُرُّ الْمَدَاقِ	لَا تَرْكَنَنَّ إِلَى الْفِرَا
تَصْفَرُّ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ	الشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا
تَبْيَضُ مِنْ فَرَحِ التَّلَاقِ	وَكَذَلِكَ عِنْدَ شُرُوقِهَا

ثم إن مريم الزنارية بكّت بكاءً شديداً ما عليه مزيد، وتيقّنتِ الفراق وقالت لزوجها العطار: يا سيدتي، أما قلتُ لك إن سيدي نور الدين قد عُمِلت عليه حيلة من أجل بيعي؟ فما أشكُّ أنه باعني في هذه الليلة لهذا الإفرنجي، وقد كنتُ حذَرْتُه منه، ولكن لا ينفع حذر من قدر؛ فقد بانَ لك صدقُ قولي. فبينما هي وزوجة العطار في الكلام، وإذا بسيدها نور الدين قد دخل عليها في تلك الساعة، فنظرت إليه الجارية فرأته قد تغيّر لونه، وارتعدت فرائصه، ويُلوح على وجهه أثرُ الحزن والندامة، فقالت له: يا سيدي نور الدين، كأنك بعثتي؟ فبكى بكاءً شديداً وتأوّه وتنفس الصعداء، وأنشد هذه الأبيات:

هِيَ الْمَقَادِيرُ فَمَا يُغْنِي الْحَذَرُ	إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ الْقَدَرُ
فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا بِأَمْرِي	وَكَانَ ذَا عَقْلٍ وَسَمْعٍ وَبَصَرُ
أَصَمَّ أُذُنَيْهِ وَأَعَمَّى عَيْنَهُ	وَسَلَّ مِنْهُ عَقْلُهُ سَلَّ الشُّعْرُ
حَتَّى إِذَا أَنْفَذَ فِيهِ حُكْمَهُ	رَدَّ إِلَيْهِ عَقْلُهُ لِيَعْتَبِرُ
فَلَا تَقُلْ فِيمَا جَرَى كَيْفَ جَرَى	فَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرُ

ثم إن نور الدين اعتذر إلى الجارية وقال لها: والله يا سيدتي مريم، إنه قد جرى القلم بما الله حكم، والناس قد عملوا عليّ حيلةً من أجل بيعك، فدخلتُ عليّ الحيلة فبيعتُك وقد فرطتُ فيك أعظمَ تفريط، ولكن عسى من حكم بالفراق أن يَمُنَّ بالتلاقي. فقالت له: قد حذَرْتُكَ من هذا وكان في وهمي. ثم ضمته إلى صدرها وقبلته ما بين عينيه، وأنشدت هذه الأبيات:

وَحَقَّ هَوَاكُم مَّا سَلَوْتُ وَدَاكُم	وَلَوْ تَلَفْتُ رُوجِي هَوَى وَتَشَوُّقَا
أَنُوحُ وَأَبْكِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ	كَمَا نَاحَ قُمْرِي عَلَى شَجَرِ النَّقَا
تَتَغَصَّ عَيْشِي بَعْدَكُمْ يَا أَحِبَّتِي	مَتَى غِنْتُمْ عَنِّي فَمَا لِي مُلْتَقَى

فبينما هما على هذه الحالة، وإذا بالإفرنجي قد طلع عليهما وتقدّم ليقبل أيادي السيدة مريم، فلطمته بكفها على خده وقالت له: ابعد يا ملعون، فما زلت ورائي حتى خدعت سيدي، ولكن يا ملعون إن شاء الله تعالى لا يكون إلا خيراً. فضحك الإفرنجي من قولها، وتعجّب من فعلها، واعتذر إليها وقال لها: يا سيدتي مريم، أي شيء ذنبي أنا؟

وإنما سيدك نور الدين هذا هو الذي باعك برضا نفسه وطيب خاطره، وإنه وحق المسيح لو كان يحبك ما فرطَ فيك، ولولا أنه فرغ غرضه منك ما باعك، وقد قال بعض الشعراء:

مَنْ مَلَّنِي فَلْيَمُضْ عَنِّي عَامِدًا إِنْ عُدْتُ أَذْكُرْهُ فَلَسْتُ بِرَاشِدٍ
مَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ بِأَسْرِهَا حَتَّى تَرَانِي رَاغِبًا فِي زَاهِدٍ

وقد كانت هذه الجارية بنت ملك إفرنجة، وهي مدينة واسعة الجهات كثيرة الصنائع والغرائب والبنات، تشبه مدينة القسطنطينية، وقد كان لخروج تلك الجارية من مدينة أبيها حديثٌ غريب وأمرٌ عجيب، نسوقه على الترتيب حتى يطرب السامع ويطيب. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنَّ لخروج مريم الزنارية من عند أبيها وأمها سببًا عجيبًا وأمراً غريبًا؛ وذلك أنها تربّت عند أبيها وأمها في العزّ والدلال، وتعلّمت الفصاحة والكتابة والحساب والفروسية والشجاعة، وتعلّمت جميع الصنائع مثل الزركشة والخياطة والحياكة وصناعة الزنار والعقادة، ورمي الذهب على الفضة، والفضة على الذهب، وتعلّمت جميع صنائع الرجال والنساء حتى صارت فريدة زمانها ووحيدة عصرها وأوانها، وقد أعطاه الله عزّ وجلّ من الحُسْن والجمال والظرف والكمال، ما فاقت به على جميع أهل عصرها، فخطبها ملوك الجزائر من أبيها، وكلُّ مَنْ خطبها منه يأبى أن يزوّجها له؛ لأنه كان يحبّها حبّاً عظيماً، ولا يقدر على فراقها ساعة واحدة، ولم يكن عنده بنت غيرها، وكان معه من الأولاد الذكور كثير، ولكنه كان مشغولاً بحبها أكثر منهم؛ فاتفق أنها مرضت في بعض السنين مرضاً شديداً حتى أشرفت على الهلاك، فنذرت على نفسها أنها إذا عوفيت من هذا المرض تزور الدير الفلاني الذي في الجزيرة الفلانية، وكان ذلك الدير معظماً عندهم، ويُنذرون له النذور ويتبرّكون به، فلما عوفيت مريم من مرضها أرادت أن توفيّ بنذرها الذي نذرته على نفسها لذلك الدير، فأرسلها والدها ملك إفرنجة إلى ذلك الدير في مركب صغير، وأرسل معها بعضاً من بنات أكابر المدينة ومن البطارقة لأجل خدمتها، فلما قرّبت من الدير خرج مركب من مراكب المسلمين المجاهدين في سبيل الله، فأخذوا جميع ما في تلك المركب من البطارقة والبنات والأموال والتّحف، فباعوا ما أخذوه من مدينة القيروان، فوقعت مريم في يد رجل أعجمي تاجر من التجار، قد كان ذلك الأعجمي عنيماً لا يأتي النساء، ولم تنكشف له عورة على امرأة فجعلها للخِدمة، ثم إن ذلك الأعجمي مرض مرضاً شديداً حتى أشرف على الهلاك، وطال عليه المرض مدة شهور، فخدمته

مريم وبالعَت في خدمته إلى أن عافاه الله من مرضه، فتذَكَّر ذلك الأعجمي منها الشفقة والحنية عليه والقيام بخدمته، فأراد أن يُكافئها على ما فعلته معه من الجميل، فقال لها: تمنِّي عليَّ يا مريم. فقالت: يا سيدي، تمنَّيتُ عليك ألا تبيعني إلا لمن أريده وأحبه. فقال لها: نعم، لك عليَّ ذلك، والله يا مريم ما أبيعك إلا لمن تريدينه، وقد جعلتُ بيعك بيدك. ففرحت فرحاً شديداً، وكان الأعجمي قد عرض عليها الإسلام فأسلمت، وعلمها العبادات فتعلَّمت من ذلك الأعجمي في تلك المدة أمر دينها، وما وجب عليها، وحفظها القرآن وما تيسَّر من العلوم الفقهية والأحاديث النبوية، فلما دخل بها مدينة إسكندرية باعها لمن أَرَادته، وجعل بيعها بيدها كما ذكرنا، فأخذها علي نور الدين كما أخبرنا.

هذا ما كان من سبب خروجها من بلادها، وأما ما كان من أمر أبيها ملك إفرنجة، فإنه لما بلغه أمر ابنته ومن معها، قامت عليه القيامة وأرسل خلفها المراكب، وصحبتهم البطارقة والفرسان والرجال الأبطال، فلم يقعوا لها على خيرٍ بعد التفتيش في جزائر المسلمين، ورجعوا إلى أبيها بالويل والتُّبور وعظائم الأمور؛ فحزن عليها أبوها حزناً شديداً، فأرسل وراءها ذلك الأعوار اليمين والأعرج الشمال؛ لأنه كان أعظم وزرائه، وكان جبَّاراً عنيداً ذا حيلٍ وخداع، وأمره أن يفتش عليها في جميع بلاد المسلمين ويشترئها ولو بملءٍ مركبٍ ذهباً، ففتش عليها ذلك الملعون في جزائر البحار وسائر المدن، فلم يقع لها على خبر، إلى أن وصل إلى مدينة إسكندرية وسأل عنها، فوقع على خبرها عند نور الدين علي المصري، فجرى له معه ما جرى، وعمل عليه الحيلة حتى اشتراها منه كما ذكرنا بعد الاستدلال عليها بالمنديل الذي لا يُحسن صنعته غيرها، وكان قد وصَّى التجار وأنفق معهم على خلاصها بالحيلة، فلما صارت عنده مكثت في بكاءٍ وعويل، فقال لها: يا سيدتي مريم، خُلي عنك هذا الحزن والبكاء، وقومي معي إلى مدينة أبيك ومحل مملكتك، ومنزل عزكِ ووطنك، لتكوني بين خَدَمِك وغلمانك، واتركي هذا الذلَّ وهذه الغربة، ويكفي ما قد حصل لي من التعب والسفر من أجلك وصرف الأموال، فإن لي في السفر والتعب وصرف الأموال نحو سِنَةٍ ونصف، وقد أمرني والدك أن أشتريك ولو بملءٍ مركبٍ ذهباً.

ثم إن وزير ملك إفرنجة صار يقبِّل قدميها ويتخضع لها، ولم يزل يكرِّر تقبيل يديها وقدميها ويزداد غضبها عليه كلما فعل ذلك أدباً معها، وقالت له: يا ملعون، الله تعالى لا يبلغك ما في مرادك. ثم قدَّم إليها الغلمان في تلك الساعة بغلةً بسرَّجٍ مزركش، وأركبوها عليها، ورفعوا فوق رأسها سحابةً من حرير بعواميد من ذهب وفضة، وصاروا الإفرنج يمشون حولها حتى طلَعوا بها من باب البحر وأنزلوها في قارب صغير، وصاروا

يجدّون بها إلى أن أوصلوها إلى المركب الكبير وأنزلوها فيه؛ فعند ذلك نهض الوزير الأعور وقال لبحرية المركب: ارفعوا الصاري. فرفعوه من وقتهم وساعتهم، ونشروا القلوع والأعلام، ونشروا القطن والكتان، وأعملوا المجاديف، وسافر بهم ذلك المركب. هذا كله ومريم تنظر ناحية إسكندرية حتى غابت عن عينها، فصارت تبيكي في سرّها بكاءً شديداً. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن وزير ملك إفرنجة لما سافر بهم المركب وفيه مريم الزنارية، صارت تنظر إلى ناحية إسكندرية حتى غابت عن عينها، فبكّت وانتحبت وسكبت العبرات، وأنشدت هذه الأبيات:

أَيَا مَنْزِلَ الْأَحْبَابِ هَلْ لَكَ عَوْدَةٌ	إِلَيْنَا وَمَا عَلِمِي بِمَا اللَّهُ صَانِعُ
فَسَارَتْ بِنَا سَفُنُ الْفِرَاقِ وَأَسْرَعَتْ	وَطَرْفِي قَرِيحٌ قَدْ مَحَتْهُ الْمَدَامُ
لِفُرْقَةٍ خَلَّ كَانَ غَايَةً مَقْصِدِي	بِهِ يُشْتَفَى سَقَمِي وَتُمْحَى الْمَوَاجِعُ
أَلَا يَا إِلَهِي كُنْ عَلَيْهِ خَلِيفَتِي	فَعِنْدَكَ يَوْمًا لَا تَضِيعُ الْوَدَائِعُ

ولم تزل مريم كلما تذكّرت تبكي وتنوح، فأقبل عليها البطارقة يلاطفونها، فلم تقبل منهم كلامًا، بل شغلها داعي الوجد والغرام، ثم إنها بكّت وأنتت واشتكت، وأنشدت هذه الأبيات:

لِسَانُ الْهَوَى فِي مُهْجَتِي لَكَ نَاطِقُ	يُخَبِّرُ عَنِّي أَنَّنِي لَكَ عَاشِقُ
وَلِي كَبْدٌ جَمْرُ الْهَوَى قَدْ أَذَابَهَا	وَقَلْبِي جَرِيحٌ مِنْ فِرَاقِكَ خَافِقُ
وَكَمْ أَكْتَمُ الْحُبَّ الَّذِي قَدْ أَذَابَنِي	فَجَفَنِي قَرِيحٌ وَالْدُمُوعُ سَوَابِقُ

ولم تزل مريم على هذه الحالة لا يقر لها قرار، ولا يطاوعها اصطبار مدة سفرها. هذا ما كان من أمرها هي والوزير الأعور، وأما ما كان من أمر نور الدين علي المصري ابن التاجر تاج الدين، فإنه بعد نزول مريم المركب وسفرها، ضاقت عليه الدنيا وصار لا يقرّ له قرار، ولا يطاوعه اصطبار، فتوجّه إلى القاعة التي كان مُقيماً بها هو ومريم، فرآها

في وجهه سوداء مُظلمة، ورأى العدة التي كانت تشغل عليها الزنانير، وثيابها التي كانت على جسدها، فضَمَّها إلى صدره وبكى، وفاضت من جفنه العبرات، وأنشد هذه الأبيات:

وَبَعْدَ تَوَالِي حَسْرَتِي وَتَلَفُّتِي	تَرَى هَلْ يَعُودُ الشَّمْلُ بَعْدَ تَشَتُّتِي
فَيَا هَلْ تَرَى أَحْظَى بِوَصْلِ حَبِيبَتِي	فَهَيْهَاتَ مَا قَدْ كَانَ لَيْسَ بِرَاجِعِ
وَيَذْكُرُ أَحْبَابِي عُهْدَ مَوَدَّتِي	وَيَا هَلْ تَرَى قَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَنَا
وَيَرَعَى عُهْدِي ثُمَّ سَالَفَ صُحْبَتِي	وَيَحْفَظُ وَدِّي مِنْ بَجْهَلِي أَضْعَفُهُ
وَهَلْ تَرْتَضِي الْأَحْبَابُ يَوْمًا مَنِّي	فَمَا أَنَا إِلَّا مَيِّتٌ بَعْدَ بُعْدِهِمْ
لَقَدْ ذُبْتُ وَجَدًا مِنْ تَزَايُدِ حَسْرَتِي	فَيَا أَسْفِي إِنْ كَانَ يُجِدِي تَأْسُفِي
فَيَا هَلْ تَرَى دَهْرِي يَجُودُ بِمُنِّي	وَضَاعَ زَمَانٌ كَانَ فِيهِ تَوَاصُلِي
دُمُوعًا وَلَا تَبْقَى الدُّمُوعَ بِمُقْلَتِي	فَيَا قَلْبَ زِدْ وَجَدًا وَيَا عَيْنَ أَهْمَلِي
وَقَدْ قَلَّ أَنْصَارِي وَزَادَتْ بَلِيَّتِي	وَيَا بَعْدَ أَحْبَابِي وَفَقْدَ تَصَبُّرِي
بِعُودِ حَبِيبِي وَالْوِصَالِ كَعَادَتِي	سَأَلْتُ إِلَهِي أَنْ يَتِمَّ فَرَحَتِي

ثم إن نور الدين بكى بكاءً شديداً ما عليه من مزيد، ونظر إلى زوايا القاعة وأنشد هذين البيتين:

وَأَجْرِي فِي مَوَاطِنِهِمْ دُمُوعِي	أَرَى آثَارَهُمْ فَأَذُوبُ شَوْقًا
يَمُنُّ عَلَيَّ يَوْمًا بِالرُّجُوعِ	وَأَسْأَلُ مَنْ قَضَى بِالْبُعْدِ عَنْهُمْ

ثم إن نور الدين نهض من وقته وساعته، وقفل باب الدار وخرج يجري إلى البحر، وصار يتأمل في موضع المركب الذي سافر بمريم، ثم بكى وصعد الزفّرات، وأنشد هذه الأبيات:

وَإِنِّي عَلَى الْحَالَيْنِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ	سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَيْسَ لِي عَنْكُمْ غِنَى
وَأَشْتَاكُمْ شَوْقَ الْعِطَاشِ إِلَى الْوَرْدِ	أَحْنُ إِلَيْكُمْ كُلَّ وَقْتٍ وَسَاعَةٍ
وَتَذَكَّارُكُمْ عِنْدِي أَلَدُ مِنَ الشَّهْدِ	وَعِنْدَكُمْ سَمْعِي وَلَبِّي وَنَاطِرِي
وَحَادَتْ بِكُمْ تِلْكَ السَّفِينَةُ عَنْ قَصْدِي	فَيَا أَسْفِي لَمَّا اسْتَقَلَّتْ رِكَابُكُمْ

ثم إن نور الدين ناح وبكى، وأنَّ وَحَنَ واشتكى، ونادى: يا مريم، يا مريم، هل كانت رؤيتي لك في المنام أم أضغاث أحلام؟ ولما زادت به الحسرات أنشد هذه الأبيات:

فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْبُعْدِ عَيْنِي تَرَاكُمُ وَأَسْمَعُ مِنْ قُرْبِ الدِّيَارِ نِدَاكُمُ
وَتَجْمَعُنَا الدَّارُ الَّتِي أَنْسَتُ بِنَا وَأَعْطَى مَنَى قَلْبِي وَأَنْتُمْ مُنَاكُمُ
خُذُوا لِعِظَامِي أَيْنَ سِرْتُمْ مَحَفَّةً وَأَيْنَ حَلَلْتُمْ فَادْفَنُونِي حِذَاكُمُ
فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ عَشْتُ بِوَاحِدٍ وَأَنْزَلْتُ قَلْبًا مُغْرَمًا فِي هَوَاكُمُ
وَلَوْ قَبِلَ لِي مَاذَا عَلَى اللَّهِ تَشْتَهِي لَقُلْتُ رِضَا الرَّحْمَنِ ثُمَّ رِضَاكُمُ

فبينما نور الدين على هذه الحالة يبكي ويقول: يا مريم، يا مريم. وإذا بشيخ قد طلع من مركب وأقبل عليه، فراه يبكي وينشد هذين البيتين:

يَا مَرِيَمَ الْحُسْنَ عُوْدِي إِنَّ لِي مَقْلًا سَحَابُ الْمَزْنِ تَجْرِي مِنْ سَوَاكِهَا
وَاسْتَخْبِرِي عَذْلِي دُونَ الْأَنَامِ تَرِي أَجْفَانِ عَيْنِي غَرْقَى فِي كَوَاكِهَا

فقال له الشيخ: يا ولدي، كأنك تبكي على الجارية التي سافرت البارحة مع الإفرنجي. فلما سمع نور الدين كلام الشيخ خرَّ مغشيًا عليه ساعةً زمانية، ثم أفاق وبكى بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد، وأنشد هذه الأبيات:

فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْبُعْدِ يُرْجَى وَصَالُهَا وَلَذَّةُ أَنْسِي قَدْ يَعُودُ كَمَالُهَا
فَإِنَّ بِقَلْبِي لَوَعَةً وَصَبَابَةً وَيُزْعِجُنِي قِيلُ الْوُشَاةِ وَقَالَهَا
أَقِيمْ نَهَارِي بَاهِتًا مُتَحَيِّرًا وَفِي اللَّيْلِ أَرْجُو أَنْ يَزُورَ خِيَالُهَا
فَوَاللَّهِ لَا أَسْلُو عَنْ الْعِشْقِ سَاعَةً وَكَيْفَ وَنَفْسِي فِي الْوُشَاةِ مُلَالُهَا
مُنْعَمَةً الْأَطْرَافِ مَهْضُومَةً الْحَشَا لَهَا مُقْلَةً فِي الْقَلْبِ مِنْ نِبَالُهَا
يُحَاكِي قَضِيبَ الْبَانِ فِي الرُّوْضِ قَدْهَا وَيُخْجَلُ ضَوْءُ الشَّمْسِ حُسْنًا جَمَالُهَا
وَلَوْلَا أَخَافُ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَقُلْتُ لِبَذَاتِ الْحُسَنِ: جَلَّ جَلَالُهَا

فلما نظر ذلك الشيخ إلى نور الدين ورأى جماله وقَدَّه واعتداله، وفصاحةً لسانه ولطفًا افتتانه، حزن قلبه عليه ورقَّ لحاله، وكان ذلك الشيخ رئيسَ مركبٍ مسافرةً إلى مدينة تلك الجارية، وفيها مائة تاجر من تجَّار المسلمين المؤمنين؛ فقال له: اصبر ولا يكون إلا خير، فإن شاء الله سبحانه وتعالى أوصلك إليها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ الرئيس لما قال لنور الدين: أنا أوصلك إليها إن شاء الله تعالى. قال له نور الدين: متى السفر؟ قال الرئيس: قد بقي لنا ثلاثة أيام ونسافر في خير وسلامة. فلما سمع نور الدين كلام الرئيس فرح فرحاً شديداً وشكر فضله وإحسانه، وبعد ذلك تذكَّرَ أيامَ الوصال واجتماع الشَّمْل بجاريته العديمة المثال، فبكى بكاءً شديداً، وأنشد هذه الأبيات:

فَهَلْ يَجْمَعُ الرَّحْمَنُ لِي وَلَكُمْ شَمْلًا وَهَلْ أَلْبُغُ الْمَقْصُودَ يَا سَادَتِي أَمْ لَا
وَيَسْمَحُ صَرْفُ الدَّهْرِ مِنْكُمْ بِزُورَةٍ وَأَطْبِقُ أَجْفَانِي عَلَى ذَاتِكُمْ بُخْلًا
وَلَوْ كَانَ وَضَلُّكُمْ يُبَاعُ اشْتَرَيْتُهُ بِرُوحِي وَلَكِنِّي أَرَى وَضَلُّكُمْ أَعْلَى

ثم إن نور الدين طلع من وقته وساعته وتوجَّهَ إلى السوق، وأخذ منه جميع ما يحتاج إليه من الزاد وأدوات السفر، وأقبلَ على ذلك الرئيس، فلما رآه قال له: يا ولدي، ما هذا الذي معك؟ قال: زوادتي وما أحتاج إليه في السفر. فضحك الرئيس من كلامه وقال له: يا ولدي، هل أنت رائح تتفرَّجَ على عمود السواري؟ إن بينك وبين مقصدك مسيرة شهرين إذا طاب الريح وصفَّتِ الأوقات. ثم إن ذلك الشيخ أخذ من نور الدين شيئاً من الدراهم، وطلع إلى السوق واشترى له جميع ما يحتاج إليه في السفر على قدر كفايته، وملأ له بتيَّة ماءً حلواً، ثم أقام نور الدين في المركب ثلاثة أيام إلى أن تجهَّزَ التجار وقضوا مصالحهم ونزلوا في المركب، ثم حلَّ الرئيس قلوها وساروا مدةً واحدٍ وخمسين يوماً، وبعد ذلك خرج عليهم القراصين قطاع الطريق، فنهبوا المركب وأسروا جميع مَنْ فيها، وأتوا بهم إلى مدينة إفرنجة وعرضوهم على الملك، وكان نور الدين من جملتهم،

فأمر الملك بحبسهم، وفي وقت نزولهم من عند الملك إلى الحبس، وصل الغُراب الذي فيه الملكة مريم الزنارية مع الوزير الأعور، فلما وصل الغُراب إلى المدينة طلع الوزير إلى الملك وبشَّره بوصول ابنته مريم الزنارية سالمةً، فدقُّوا البشائر وزَيَّنوا المدينة بأحسن زينة، وركب الملك في جميع عسكره وأرباب دولته، وتوجَّهوا إلى البحر ليقابلوها، فلما وصلت المركب طلعت ابنته مريم فعانقها وسلَّم عليها وسلَّمت عليه، وقدَّم لها جوادًا فركبته، فلما وصلت إلى القصر قابلتها أمها وعانقتها وسلَّمت عليها وسلَّمتها عن حالها، وهل هي بِكْرٍ مثل ما كانت عندهم سابقًا أو صارت امرأةً ثَيِّبًا؟ فقالت لها مريم: يا أمي، بعد أن يباع الإنسان في بلاد المسلمين من تاجر إلى تاجر ويصير محكومًا عليه، كيف يبقى بنتًا بكْرًا؟ إن التاجر الذي اشتراني هَدَّدني بالضرب وغصبني وأزال بكارتي وباعني لآخر، وآخر باعني لآخر. فلما سمعت أمها منها هذا الكلام، صار الضياء في وجهها ظلامًا، ثم أعادت على أبيها هذا الكلام، فصعب ذلك عليه وكَبُر أمره لديه، وعرض حالها على أرباب دولته وبطارقته، فقالوا له: أيها الملك، إنها تنجَّست من المسلمين، وما يطهِّرها إلا ضرب مائة رقبة من المسلمين. فعند ذلك أمر بإحضار الأسارى الذين في الحبس، فأحضروهم جميعًا بين يديه ومن جملتهم نور الدين، فأمر الملك بضرب رقابهم، فأول من ضربوا رقبته ريس المركب، ثم ضربوا رقاب التجار واحدًا بعد واحد، حتى لم يَبْقَ إلا نور الدين، فشرطوا ذيله وعصبوا عينيه وقَدَّموه إلى نطح الدم، وأرادوا أن يضربوا رقبته، وإذا بامرأة عجوز أقبلت على الملك في تلك الساعة وقالت له: يا مولاي، أنت كنت نذرت لكل كنيسة خمسة أسارى من المسلمين، إن ردَّ الله بنتك مريم، لأجل أن يساعدوا في خدمتها، والآن قد وصلت إليك بنتك السيدة مريم، فأوفِّ بنذك الذي نذرت. فقال لها الملك: يا أمي، وحقَّ المسيح والدين الصحيح، لم يَبْقَ عندي من الأسارى غير هذا الأسير الذي يريدون قتله، فخذيه معك يساعدك في خدمة الكنيسة إلى أن يأتي إلينا أسارى من المسلمين، فأرسل إليك أربعة آخرين، ولو كنت سبقت قبل أن يضربوا رقاب هؤلاء الأسارى لأعطيناك كل ما تريد. فشكرت العجوز صنيع الملك ودعت له بدوام العز والبقاء والنعم، ثم تقدَّمت العجوز من وقتها وساعتها إلى نور الدين وأخرجته من نطح الدم، ونظرت إليه فرأته شابًا لطيفًا ظريفًا رقيق البشرة، ووجهه كأنه البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر، فأخذته ومضت به إلى الكنيسة وقالت له: يا ولدي، اقلع ثيابك التي عليك فإنها لا تصلح إلا لخدمة السلطان. ثم إن العجوز جاءت لنور الدين بجبة من صوف أسود، ومئزر من صوف أسود، وسير عريض، فألبسته تلك الجبة وعمَّمته بالمئزر، وشدَّت وسطه بالسير،

وأمرته أن يخدم الكنيسة، فخدم الكنيسة مدة سبعة أيام، فبينما هو كذلك وإذا بتلك العجوز قد أقبلت عليه وقالت له: يا مسلم، خذ ثيابك الحرير والبسها، وخذ هذه العشرة دراهم واخرج في هذه الساعة لتتفرج في هذا اليوم، ولا تقف هنا ساعة واحدة لئلا تروح روحك. فقال لها نور الدين: يا أمي، أي شيء الخبر؟ فقالت له العجوز: اعلم يا ولدي، أن بنت الملك السيدة مريم الزنارية تريد أن تدخل الكنيسة في هذا الوقت لأجل أن تزورها وتترك بها وتتبرك بها وتقرب لها قرباناً حلاوة السلامة بسبب خلاصها من بلاد المسلمين، وتوفي لها النذر التي نذرتها إن نجاها المسيح، ومعها أربعمئة بنت، ما واحدة منهن إلا كاملة في الحسَن والجمال، ومن جملةهن بنت الوزير وبنات الأمراء وأرباب الدولة، وفي هذه الساعة يحضرون، وربما يقع نظرهن عليك في هذه الكنيسة فيقطعنك بالسيوف. فعند ذلك أخذ نور الدين من العجوز العشرة دراهم بعد أن لبس ثيابه وخرج إلى السوق، وصار يتفرج في شوارع المدينة حتى عرف جهاتها وأبوابها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نور الدين لما لبس ثيابه أخذ العشرة دراهم من العجوز، ثم خرج إلى السوق وغاب ساعة حتى عرف جهات المدينة، ثم رجع إلى الكنيسة فرأى مريم الزنارية بنت ملك إفرنجة قد أقبلت على الكنيسة ومعها أربعمئة بنت نواهد أبكار كأنهن الأقمار، ومن جملتهن بنت الوزير الأعور وبنت الأمراء وأرباب الدولة، وهي تمشي بينهن كأنها القمر بين النجوم، فلما وقع نظر نور الدين عليها لم يتمالك نفسه، بل صرخ من صميم قلبه وقال: يا مريم، يا مريم. فلما سمعت البنات صياح نور الدين وهو ينادي يا مريم، هجمن عليه وجردن بيض الصفاح مثل الصواعق، وأردن قتله في تلك الساعة، فالتفت مريم وتأملت فعرفته غاية المعرفة، فقالت للبنات: اتركن هذا الشاب فإنه مجنون بلا شك؛ لأن علامة الجنون لائحة على وجهه. فلما سمع نور الدين من السيدة مريم هذا الكلام كشف رأسه وحملق عينيه، وأشاح يديه وعوج رجليه، وأخرج الزبد من فيه وشدقيه، فقالت السيدة مريم: أما قلت لكن إن هذا مجنون. أحضرته عندي وابعذن عنه حتى أسمع ما يقول، فإني أعرف كلام العرب وأنظر حاله، وهل داء جنونه يقبل المداواة أم لا. فعند ذلك حمله البنات وجئن به بين يديها، ثم بعدن عنه، فقالت له: هل جئت إلى هنا من أجلي، وخاطرت بنفسك وعملت نفسك مجنوناً؟ فقال لها نور الدين: يا سيدتي، أما سمعت قول الشاعر:

قَالُوا جُنُنْتُ بِمَنْ تَهَوَّى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
هَاتُوا جُنُونِي وَهَاتُوا مَنْ جُنُنْتُ بِهِ فَإِنْ وَفَى بِجُنُونِي لَا تُلُومُونِي

فقال له مريم: والله يا نور الدين، إنك الجاني على نفسك، فإني حذرتك من هذا قبل وقوعه، فلم تقبل قولي وتبعت هوى نفسك، وأنا ما أخبرتك لا من باب الكشف ولا من باب الفراسة ولا من باب الرؤية في المنام، وإنما هو من باب المشاهدة والعيان؛ لأنني رأيت الوزير الأعور، فعرفت أنه ما دخل في هذه البلدة إلا في طلبي. فقال لها نور الدين: يا سيدتي مريم، نعوذ بالله من زلة العاقل. ثم تزايد بنور الدين الحال فأنشد هذا المقال:

هَبْ لِي جِنَايَةَ مَنْ زَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ قَدْ يَشْمَلُ الْعَبْدُ مِنْ سَادَاتِهِ كَرَمُ
حَسْبُ الْمُسِيءِ بِذَنْبٍ مِنْ جِنَايَتِهِ فَرَطُ النَّدَامَةِ إِذْ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ
فَعَلْتُ مَا يَقْتَضِي التَّأْدِيبُ مُعْتَرِفًا فَأَيْنَ مَا يَقْتَضِيهِ الْعَفْوُ وَالْكَرَمُ

ولم يزل نور الدين هو والسيدة مريم الزنارية في عتاب يطول شرحه، وكل منهما يحكي لصاحبه ما جرى له، وينشدان الأشعار ودموعهما تجري على خدودهما شبه البحار، ويشكوان لبعضهما شدة الهوى وأليم الوحدة والجوى، إلى أن لم يبق لأحدهما قوة على الكلام، وكان النهار قد ولى وأقبل الظلام، وقد كان على السيدة مريم حلة خضراء مزركشة بالذهب الأحمر، مرصعة بالدر والجوهر، فزاد حُسْنُها وجمالها وظرف معانيها، وقد أجاد من قال فيها:

تَبَدَّتْ كَبَدِرِ النَّمِّ فِي الْحَلَالِ الْخَضِرِ مُفَكِّكَةَ الْأَزْزَارِ مَحْلُولَةَ الشَّعْرِ
فَقُلْتُ لَهَا: مَا الْإِسْمُ؟ قَالَتْ: أَنَا الَّتِي كَوَيْتُ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ عَلَى الْجَمْرِ
أَنَا الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ وَالذَّهَبُ الَّذِي يُفَكُّ بِهِ الْمَأْسُورُ مِنْ شِدَّةِ الْأَسْرِ
فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الصَّدُودَ أَذَابَنِي فَقَالَتْ: أَتَشْكُو لِي وَقَلْبِي مِنْ صَخْرِ
فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ كَانَ قَلْبُكَ صَخْرَةً فَقَدْ أَنْبَعَ اللَّهُ الزَّلَالَ مِنَ الصَّخْرِ

فلما جنَّ الليل أقبلت السيدة مريم على البنات وقالت لهن: هل أغلقتن الباب؟ فقلن لها: قد أغلقناه. فعند ذلك أخذت السيدة مريم البنات وأتت بهنَّ إلى مكان يُقال له «مكان السيدة مريم العذراء أم النور»؛ لأن النصارى يزعمون أن روحانياتها وسرها في ذلك المكان، فصار البنات يتبركن به ويَطْفَنَ في الكنيسة كلها، ولما فرغن من زيارتها التفتت السيدة مريم إليهنَّ وقالت لهنَّ: إني أريد أن أدخل وحدي في هذه الكنيسة وأتبرك بها، فإنه حصل لي اشتياق إليها بسبب طول غيبيتي في بلاد المسلمين، وأما أنتنَّ فحيث فرغتنَّ

من الزيارة، فنمّن حيث شئتُن. فقلن لها: حباً وكرامة، وافعلي أنتِ ما تريدينه. ثم إنهن تفرّقن عنها في الكنيسة ونمّن، فعند ذلك استغفلتهن مريم وقامت تفتّش على نور الدين، فرأته في ناحية جالساً على مقالي الجمر وهو في انتظارها، فلما أقبلت عليه قام لها على قدميه وقبّل يديها، فجلست وأجلسته في جانبها، ثم نزعته ما كان عليها من الحلي والحل ونفيس القماش، وضمت نور الدين إلى صدرها وجعلته في حضنها، ولم تزل هي وإياه في بوس وعناق، ونغمات خاق باق، وهما يقولان: ما أقصر ليل التلاقي، وما أطول يوم الفراق، وينشدان قول الشاعر:

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَبِكُرِّ الدَّهْرِ بَلْ أَنْتِ غُرَّةُ اللَّيَالِي الْغُرِّ
قَدْ جِئْتَنِي بِالصُّبْحِ وَقَتِ الْعَصْرِ هَلْ كُنْتُ كُحْلاً فِي عُيُونِ الْفَجْرِ
أَوْ كُنْتُ نَوَماً فِي عُيُونِ رُمِدٍ
يَا لَيْلَةَ الْهَجْرِ وَمَا أَطْوَلَهَا آخِرُهَا مُوَاصِلُ أَوَّلَهَا
كَحَلَقَةٍ مُفْرَعَةٍ مَا إِنَّ لَهَا مِنْ طَرْفٍ وَالْحَشْرِ أَيْضاً قَبْلَهَا
فَالصَّبُّ بَعْدَ الْبُعْثِ مَيِّتُ الصَّدِّ

فبينما هما في هذه اللذة العظيمة والفرحة العميمة، وإذا بـغلامٍ من الغلمان النفيسة يضرب الناقوس فوق سطح الكنيسة، ليقيم من عبادتهم الشعائر، وهو كما قال الشاعر:

رَأَيْتُهُ يَضْرِبُ النَّاقُوسَ قُلْتُ لَهُ: مَنْ عَلَّمَ الظَّبِّيَّ ضَرْباً بِالنَّوْاقِيسِ
وَقُلْتُ لِلنَّفْسِ: أَيُّ الضَّرْبِ يُؤْلِمُكَ ضَرْبُ النَّوْاقِيسِ أَمْ ضَرْبُ النَّوَى قِيسِي

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مريم الزنارية ما زالت هي ونور الدين في لذة وطرب إلى أن طلع الغلام النواقيسي فوق سطح الكنيسة وضرب الناقوس، فقامت من وقتها وساعتها ولبست ثيابها وحليها، فشق ذلك على نور الدين وتكدّر وقته، فبكى وسكب العبرات، وأنشد هذه الأبيات:

لَا زِلْتُ أَلْتَمُّ وَرَدَ خَدِّ غَضٍّ	وَأَعُضُّ ذَاكَ مُبَالِغًا فِي الْعُضِّ
حَتَّى إِذَا طَبْنَا وَنَامَ رَقِيبُنَا	وَعْيُونُهُ مَالَتْ لِنَحْوِ الْغُمُضِّ
ضَرَبَتْ نَوَاقِيسَ فَشَبَّهَ مِثْلُهَا	بِمُؤَدِّنِ يَدْعُو صَلَاةَ الْفَرَضِ
قَامَتْ عَلَى عَجَلٍ لِلْبُسِ ثِيَابَهَا	مِنْ خَوْفِ نَجْمِ رَقِيبِنَا الْمُنْقَضِ
وَتَقُولُ: يَا سُوْلِي وَيَا كُلَّ الْمُنَى	جَاءَ الصَّبَاحُ بِوَجْهِهِ الْمُبْيَضِّ
أَقْسَمْتُ لَوْ أُعْطِيتُ يَوْمَ وَلَايَةِ	وَبَقِيتُ سُلْطَانًا شَدِيدَ الْقَبْضِ
لَهَدَمْتُ أَرْكَانَ الْكَنَائِسِ كُلِّهَا	وَقَتَلْتُ كُلَّ مَقْسِسٍ فِي الْأَرْضِ

ثم إن السيدة مريم ضمت نور الدين إلى صدرها، وقبّلت خده وقالت له: يا نور الدين، كم يومًا لك في هذه المدينة؟ فقال: سبعة أيام. فقالت له: هل سرت في هذه المدينة وعرفت طرقها ومخارجها وأبوابها التي من ناحية البر والبحر؟ قال: نعم. قالت: وهل تعرف طريق صندوق النذر الذي في الكنيسة؟ قال: نعم. قالت له: حيث كنت تعرف ذلك كله، إذا كانت الليلة القابلة ومضى ثلث الليل الأول، فإذهب في تلك الساعة إلى صندوق النذر وخذ منه ما تريد وتشتهي، وافتح باب الكنيسة الذي فيه الخوخة التي توصل إلى البحر، فإنك تجد سفينة صغيرة فيها عشرة رجال بحرية، فمتى رآك الرئيس يمد يديه

إليك، فناوله يدك فإنه يطلعك في السفينة، فاقعد عنده حتى أجيء إليك، والحذر ثم الحذر من أن يلحقك النوم في تلك الليلة، فتندم حيث لا ينفعك الندم. ثم إن السيدة مريم ودَّعت نور الدين وخرجت من عنده في تلك الساعة ونبَّهت جواربها وسائر البنات من نومهن، وأخذتهن وأتت إلى باب الكنيسة ودقَّتْه، ففتحت العجوز الباب، فلما طلعت منه رأت الخُدام والبطارقة وقوفاً، فقدَّموا لها بغلةً فركبتها وأرْحَوْا عليها ناموسية من الحرير، وأخذ البطارقة بزمَامِ البغلة ووراءها البنات، واحتاط بها الجاوشية وبأيديهم السيوف مسلولة، وساروا بها إلى أن وصلوا إلى قصر أبيها.

هذا ما كان من أمر مريم الزنارية، وأما ما كان من أمر نور الدين المصري، فإنه لم يَزَلْ مختفياً وراء الستارة التي كان مستتراً خلفها هو ومريم إلى أن طلع النهار، وانفتح باب الكنيسة وكثرت الناس فيها، فاختلط بالناس وجاء إلى تلك العجوز قيَّمة الكنيسة، فقالت له: أين كنت راقداً في هذه الليلة؟ قال: في محلٍّ داخل المدينة كما أمرتني. فقالت له العجوز: إنك فعلت الصواب يا ولدي، ولو كنت بتَّ الليلة في الكنيسة كانت قتلتك أقبح قتلة. فقال لها نور الدين: الحمد لله الذي نجَّاني من شر هذه الليلة. ولم يزل نور الدين يقضي شغله في الكنيسة إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بدياجي الاعتكار، فقام نور الدين وفتح صندوق النذر وأخذ منه ما خفَّ حمله وغلا ثمنه من الجواهر، ثم صبر إلى أن مضى ثلث الليل الأول وقام ومشى إلى باب الخوخة التي توصل إلى البحر، وهو يطلب الست من الله، ولم يزل يمشي إلى أن وصل إلى الباب وفتحه وخرج من تلك الخوخة وراح إلى البحر، فوجد السفينة راسيةً على شاطئ البحر بجوار الباب، ووجد الرئيس شيخاً كبيراً ظريفاً، لحيته طويلة وهو واقف في وسطها على رجليه، والعشرة رجال واقفون قدامه، فناوله نور الدين يده كما أمرته مريم، فأخذه من يده وجذبه من البحر، فصار في وسط السفينة، فعند ذلك صاح الشيخ الرئيس على البحرية وقال لهم: اقلعوا مرساة السفينة من البر، وعوموا بنا قبل أن يطلع النهار. فقال واحد من العشرة البحرية: يا سيدي الرئيس، كيف نعوم والملك أخبرنا أنه في غدٍ يركب السفينة في هذا البحر ليطلع على ما فيه؛ لأنه خائف على ابنته مريم من سراق المسلمين؟ فصاح عليهم الرئيس وقال: ويلكم يا ملاعين، هل بلغ من أمركم أنكم تخالفونني وتردُّون كلامي؟ ثم إن ذلك الشيخ الرئيس سلَّ سيفه من غمده وضرب به ذلك المتكلم على عنقه، فخرج السيف يلمع من رقبتة، فقال له واحد: وأي شيء عمل صاحبنا من الذنوب حتى تضرب رقبتة؟ فمدَّ يده إلى السيف وضرب به عنق هذا المتكلم، ولم يزل ذلك الرئيس يضرب أعناق البحرية واحداً بعد واحد حتى قتل

العشرة ورماهم على شاطئ البحر، ثم التفت إلى نور الدين وصاح عليه صيحة عظيمة أرعبته، وقال له: انزل اقلع الوتد. فخاف نور الدين من ضرب السيف ونهض قائماً ووثب إلى البر وقلع الوتد، ثم طلع في السفينة أسرع من البرق الخاطف، وصار الرئيس يقول له: افعل كذا وكذا، ودور كذا وكذا، وانظر في النجوم، ونور الدين يفعل جميع ما يأمره به الرئيس وقلبه خائف مرعوب، ثم رفع شراع المركب وسارت بهما في البحر العجاج المتلاطم الأمواج. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ الرئيس لما رفع شراع المركب توجّه بالمركب هو ونور الدين في البحر العجاج، وقد طاب لهما الريح، كل ذلك ونور الدين ماسك بيده الراجع وهو غريق في بحر الأفكار، ولم يزل مستغرقاً في الفكر ولم يعلم بما هو مخبوء له في الغيب، وكلما نظر إلى الرئيس ارتعب قلبه ولم يعلم بالجهة التي يتوجّه إليها الرئيس، بل صار مشغولاً في فكرٍ ووسواسٍ إلى أن تضحّى النهار، فعند ذلك نظر نور الدين إلى الرئيس، فرآه قد أخذ لحيته الطويلة بيده وجذبها، فطلعت من موضعها في يده، وتأمّلها نور الدين فوجدها لحية كانت مُلصقة زوراً، ثم تأمّل نور الدين في ذات الرئيس ودقّق نظره فيها، فرآه السيدة مريم معشوقته ومحبوبة قلبه، وكانت قد تحيلت بتلك الحيلة حتى قتلت الرئيس، وسلخت وجهه بلحيته وأخذت جلده وركبته على وجهها؛ فتعجّب نور الدين من فعلها وشجاعتها، ومن قوة قلبها، وقد طار عقله من الفرح، واتسع صدره وانشرح وقال لها: مرحباً يا مُنيّتي وسؤلي وغاية مطلبي. ثم إن نور الدين هزّه الشوق والطرب، وأيقن ببلوغ الأمل والأرب، فردّد صوته بأطيب النغمات، وأنشد هذه الأبيات:

قُلْ لِقَوْمٍ هُمْ لِعِشْقِي جَهَلُوا فِي حَبِيبٍ مَا إِلَيْهِ وَصَلُوا
عَنْ غَرَامِي بَيْنَ قَوْمِي فَاسْأَلُوا قَدْ حَلَا نَظْمِي وَرَقَّ الْغَزَلُ
فِي هَوَى قَوْمٍ بِقَلْبِي نَزَلُوا
نَكْرُهُمْ عِنْدِي يُزِيلُ السَّقَمَا عَنْ فَوَائِي وَيُزِيحُ الْأَلَمَا
زَادَ شَوْقِي وَهَيَْامِي عِنْدَمَا أَصْبَحَ الْقَلْبُ كُثْبًا مُغْرَمَا
وَبِهِ فِي النَّاسِ سَارَ الْمَثَلُ

أَنَا لَا أَقْبَلُ فِيهِمْ لَوْمَةً لَا وَلَا أَقْصِدُ عَنْهُمْ سَلْوَةً
لَكِنَّ الْحُبَّ رَمَانِي حَسْرَةً أَشْعَلَتْ مِنْهُ بِقَلْبِي جَمْرَةً
حَرُّهَا فِي كَبِيدِي يَشْتَعِلُ
مَنْ عَجِيبٌ قَدْ أَبَاحُوا سَقَمِي مَعَ سُهَادِي طُولَ لَيْلٍ مُظْلِمٍ
كَيْفَ رَامُوا بِالتَّجَافِي عَدَمِي وَاسْتَحَلُّوا فِي الْهُوَى سَفْكَ دَمِي
إِنَّهُمْ فِي جَوْرِهِمْ مَا عَدَلُوا
يَا تُرَى مَنْ ذَا الَّذِي أَوْصَاكُمْ بِالتَّجَافِي عَنْ فَتَى يَهْوَاكُمْ
وَلَعَمْرِي وَالَّذِي أَنْشَاكُمْ إِنْ يَقُلْ عُدْلٌ قَوْلًا عَنْكُمْ
كَذَبُوا وَاللَّهِ فِيمَا نَقَلُوا
لَا أَزَاحَ اللَّهُ عَنِّي عِلًّا لَا وَلَا شَافٍ لِقَلْبِي غَلًّا
يَوْمَ أَشْكُو مِنْ هَوَاكُمْ مَلًّا أَنَا لَا أَرْضَى سِوَاكُمْ بَدَلًا
عَذَّبُوا قَلْبِي وَإِنْ شِئْتُمْ صَلُّوا
لِي فَوَادٌ لَمْ يَحُلْ عَنْ حُبِّكُمْ لَوْ يُعَانِي حَسْرَةً مِنْ صَدِّكُمْ
سُخْطُ هَذَا وَالرَّضَا مِنْ عِنْدِكُمْ مَا تَشَاءُوا فَافْعَلُوا فِي عِبْدِكُمْ
هُوَ بِالرُّوحِ لَكُمْ لَا يَبْخُلُ

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت منه السيدة مريم غاية العجب، وشكرته على قوله، وقالت له: مَنْ هذه حالته ينبغي أن يسلك مسالك الرجال، ولا يفعل فعل الأندال والأرذال، وقد كانت السيدة مريم قوية القلب، تعرف بأحوال سير المراكب في البحر المالح، وتعرف الأهواء واختلافها، وتعرف جميع طرق البحر، فقال لها نور الدين: والله يا سيدتي، لو أطلت عليّ هذا الأمر لمتُ من شدة الخوف والفرع، خصوصاً مع نار الوجد والاشتياق وأليم عذاب الفراق. فضحكت من كلامه وقامت من وقتها وساعتها وأخرجت شيئاً من المأكول والمشروب، فأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا، بعد ذلك أخرجت من البواقيت والجواهر وأصناف المعادن والذخائر الغالية وأنواع الذهب والفضة ما خفَّ حملة وغلا ثمنه، من الذي جاءت به وأخرجته من قصر أبيها وخزائنه، وعرضت ذلك على نور الدين، ففرح به غاية الفرح، كل ذلك والريح معتدل والمركب سائرة، ولم يزالوا سائرين حتى أشرَفوا على مدينة إسكندرية وشاهدوا أعلامها القديمة والجديدة، وشاهدوا عمود السواري. فلما وصلوا إلى المينا، طلع نور الدين من وقته وساعته على تلك السفينة وربطها في حجر من أحجار القصارين، وأخذ معه شيئاً من الذخائر التي جاءت بها الجارية معها، وقال



الريحُ معتدل والمركبُ سائرةٌ بنور الدين والسيدة مريم إلى مدينة إسكندرية.

للسيدة مريم: اقعدي يا سيدتي في السفينة حتى أطلع بك إلى إسكندرية مثل ما أحب وأشتهي. فقالت له: ولكن ينبغي أن يكون ذلك بسرعة؛ لأن التراخي في الأمور يورث الندامة. فقال لها: ما عندي تراخٍ. فقعدت مريم في السفينة وتوجّه نور الدين إلى بيت العطار صاحب أبيه ليستعير لها من زوجته نقابًا وحبرة وخفًا وإزارًا كعادة نساء إسكندرية، ولم يعلم بما لم يكن له في حساب من تصرّفات الدهر أبي العجب العجائب.

هذا ما كان من أمر نور الدين ومريم الزنارية، وأما ما كان من أمر أبيها ملك إفرنجة، فإنه لما أصبح الصباح تفقد ابنته مريم فلم يجدها، فسأل عنها من جواريتها وخدمها فقالوا له: يا مولانا، إنها خرجت بالليل وراحت إلى الكنيسة، وبعد ذلك لم نعرف لها خبراً. فبينما الملك يتحدث مع الجواري والخدم في تلك الساعة، وإذا بصريختين عظيمتين تحت القصر دوى لهما المكان؛ فقال الملك: ما الخبر؟ فقالوا له: أيها الملك، إنه وُجد عشرة رجال مقتولون على ساحل البحر، وسفينة الملك قد فُقدت، ورأينا باب الخوخة الذي في الكنيسة من جهة البحر مفتوحاً، والأسير الذي كان في الكنيسة يخدمها قد فُقد. فقال الملك: إن كانت سفينتي التي في البحر فُقدت فبنتي مريم فيها بلا شك ولا ريب. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ملك إفرنجة لما فُقدت ابنته مريم جاءوا له بالخبر وقالوا له: إن سفينتك فُقدت. فقال: إن كانت سفينتي قد فُقدت فابنتي مريم فيها بلا شك ولا ريب. ثم إن الملك دعا من وقته وساعته بريس المينا وقال له: وحقّ المسيح والدين الصحيح إن لم تلحق سفينتي في هذه الساعة بعسكرٍ وتأتيني بها وبمن فيها لأقتلنك أشنع قتلًا، وأمثّل بك. ثم صرخ عليه الملك، فخرج من بين يديه وهو يرتعد، وطلب العجوز من الكنيسة وقال لها: ما كنت تسمعين من الأسير الذي كان عندك في شأن بلاده؟ ومن أي البلاد هو؟ فقالت له: كان يقول أنا من مدينة إسكندرية. فلما سمع الرئيس كلام العجوز، رجع من وقته وساعته إلى المينا وصاح على البحرية وقال لهم: تجهّزوا وحلّوا القلوع. ففعلوا ما أمرهم به وسافروا، ولم يزالوا مسافرين ليلاً ونهاراً حتى أشرفوا على مدينة إسكندرية في الساعة التي طلع فيها نور الدين من السفينة وترك فيها السيدة مريم، وكان من جملة الإفرنج الوزير الأعور الذي كان اشتراها من نور الدين، فرأوا السفينة مربوطة فعرفوها، فربطوا مراكبهم بعيداً عنها وأتوا إليها في مركب صغير من مراكبهم يعوم على ذراعين من الماء، وفي ذلك المركب مائة مقاتل، ومن جملتهم الوزير الأعور الأعرج؛ لأنه كان جبّاراً عنيداً، وشيطاناً مريداً، ولصّاً محتالاً لا يقدر أحدٌ على احتياله، يشبه أبا محمد البطال؛ ولم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى تلك السفينة، فهجموا عليها وحملوا حملة واحدة، فلم يجدوا فيها أحداً إلا السيدة مريم، فأخذوها هي والسفينة التي هي فيها بعد أن طلّعوا على الشاطئ وأقاموا زمناً طويلاً، ثم عادوا من وقتهم وساعتهم إلى مراكبهم وقد فازوا ببغيتهم من غير قتال ولا شُهر سلاح، ورجعوا قاصدين بلاد الروم، وسافروا وقد طاب لهم الريح، ولم يزالوا مسافرين على حمايةٍ إلى أن وصلوا إلى مدينة إفرنجة،

وطلعوا بالسيدة مريم إلى أبيها وهو في تخت مملكته؛ فلما نظر إليها أبوها قال لها: ويلك يا خائنة، كيف تركت دين الآباء والأجداد وحصن المسيح الذي عليه الاعتماد، واتَّبعت دين الإسلام الذي قام بالسيف على رغم الصليب والأصنام؟ فقالت له مريم: أنا ما لي ذنب؛ لأنني خرجت في الليل إلى الكنيسة لأزور السيدة مريم وأتبرَّك بها، فبينما أنا في غفلة وإذا بسرَّاق المسلمين قد هجموا عليَّ وسدُّوا فمي وشدُّوا وثاقي، وحطُّوني في السفينة وسافروا بي إلى بلادهم، فخادعتهم وتكلَّمتُ معهم في دينهم إلى أن فكُّوا وثاقي، وما صدَّقتُ أن رجالك أدركوني وخلَّصوني، وأنا وحقُّ المسيح والدين الصحيح، وحقُّ الصليب ومَن صُلب عليه، قد فرحتُ بفكاكي من أيديهم غاية الفرح، واتَّسع صدري وانشرح، حيث خلصت من أسر المسلمين. فقال لها أبوها: كذبتِ يا فاجرة يا عاهرة، وحقُّ ما في مُحكم الإنجيل من منزل التحريم والتحليل، لا بد لي من أن أقتلك أقبح قتلة، وأمثل بك أشنع مُثلة، أما كفاك الذي فعلته في الأول ودخل علينا محالك، حتى رجعتِ إلينا ببُهتانك؟ ثم إن الملك أمر بقتلها وصلَّبها على باب القصر، فدخل عليه الوزير الأعور في تلك الساعة وكان مُغرماً بحبها قديماً وقال له: أيها الملك، لا تقتلها وزوجني بها، وأنا أحرص عليها غاية الحرص، وما أدخل عليها حتى أبني لها قصرًا من الحجر الجلمود، وأعليَّ بنيانه حتى لا يستطيع أحدٌ من السارقين الصعودَ على سطحه، وإذا فرغتُ من بنيانه ذبحتُ على بابه ثلاثين من المسلمين، وأجعلهم قرباناً للمسيح عني وعنهما. فأنعمَ عليه الملكُ بزواجها، وأذنَ للقسيسين والرهبان والبطارقة أن يزوّجوها له، فزوّجوها للوزير الأعور، وأذنَ أن يشرعوا لها في بنیان قصرٍ مشيدٍ يليق بها، فشرعتِ العمَّال في العمل.

هذا ما كان من أمر الملكة مريم وأبيها والوزير الأعور، وأما ما كان من أمر نور الدين والشيخ العطار، فإن نور الدين لما توجَّه إلى العطار صاحب أبيه واستعار من زوجته إزاراً ونقاباً وخفّاً وثياباً كثياب نساء إسكندرية، ورجع بها إلى البحر وقصد السفينة التي فيها السيدة مريم، فوجد الجوَّ قَفْراً والمزارَ بعيداً. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نور الدين لما وجد الجوَّ قَفْرًا والمزار بعيدًا، صار قبله حزينًا، فبكى بدمع متواتر، وأنشد قول الشاعر:

سَرَى طَيْفٌ سَعْدَى طَارِقًا فَاسْتَفَزَّنِي سُجِيرًا وَصَحْبِي فِي الْفَلَاةِ رُقُودُ
فَلَمَّا انْتَبَهْنَا لِلْخَيَالِ الَّذِي سَرَى أَرَى الْجَوَّ قَفْرًا وَالْمَزَارَ بَعِيدُ

فمشى نور الدين على شاطئ البحر يتلَفَّتُ يمينًا وشمالًا، فرأى ناسًا مجتمعين على الشاطئ وهم يقولون: يا مسلمين، ما بقي لمدينة إسكندرية حرمةً حتى صار الإفرنج يدخلونها ويخطفون مَنْ فيها ويعودون إلى بلادهم على هَيْئَةٍ، ولا يخرج وراءهم أحدٌ من المسلمين ولا من العساكر المغازين؟! فقال لهم نور الدين: ما الخبر؟ فقالوا له: يا ولدي، إن مركبًا من مراكب الإفرنج فيه عساكر هجموا في تلك الساعة على تلك المينا، وأخذوا سفينةً كانت راسيةً هنا بَمَنْ فيها، وراحوا على حمايةٍ إلى بلادهم. فلما سمع نور الدين كلامهم وقع مغشيًا عليه، فلما أفاق سألوه عن قضيته، فأخبرهم بخبره من الأول إلى الآخر، فلما فهموا خبره صار كلُّ منهم يشتمه ويسبُّه ويقول له: لأيِّ شيء ما تخرجها إلا بإزار ونقاب؟ وسار كلُّ واحدٍ من الناس يقول له كلامًا مُؤْلَمًا، ومنهم مَنْ يقول: خلَّوه في حاله يكفيه ما جرى له. وصار كل واحد يُوجِّعه بالكلام ويرميه بسهام المَلَام حتى وقع مغشيًا عليه، فبينما الناس مع نور الدين على تلك الحالة، وإذا بالشيخ العطار مُقْبِلًا فرأى الناس مجتمعين، فتوجَّه إليهم ليعرف الخبر، فرأى نور الدين راقدًا بينهم وهو مغشي عليه، فقع عند رأسه ونَبَّهه، فلما أفاق قال له: يا ولدي، ما هذا الحال الذي أنت فيه؟ فقال له: يا عم، إن الجارية التي كانت راحتْ مني قد جئتُ بها من مدينة أبيها في مركب،

وقاسيت ما قاسيت في المجيء بها، فلما وصلتُ بها إلى هذه المدينة ربطتُ السفينة في البر وتركتُ الجاريةَ فيها، وذهبتُ إلى منزلك وأخذتُ من زوجتك مصالِحَ للجارية لأطلعها بها إلى المدينة، فجاء الإفرنج وأخذوا السفينة والجارية فيها، وراحوا على حماية حتى وصلوا إلى مراكبهم.

فلما سمع الشيخ العطار من نور الدين هذا الكلام، صار الضياءُ في وجهه ظلامًا، وتأسَّفَ على نور الدين تأسُّفًا عظيمًا، وقال له: يا ولدي، لأيِّ شيء ما أخرجتها من السفينة إلى المدينة من غير إزار؟ ولكن في هذا الوقت ما ينفع الكلام، قُمْ يا ولدي واطلع معي إلى المدينة، لعل الله يرزقك تجارية أحسن منها، فتتسلَّى بها عنها، والحمد لله الذي ما خسرَكَ فيها شيئًا، بل حصل لك الربح فيها، واعلم يا ولدي أن الاتصال والانفصال بيد الملك المتعال. فقال له نور الدين: والله يا عم إنني ما أقدر أن أسلاها أبدًا، ولا أترك طلبها ولو سُقِيتُ من أجلها كأس الردى. فقال له العطار: يا ولدي، وأي شيء في ضميرك تريد أن تفعله؟ فقال له: نويتُ أن أرجع إلى بلاد الروم، وأدخل إلى مدينة إفرنجة، وأخطر بنفسى، فإما عليها وإما لها. فقال له: يا ولدي، إنَّ في الأمثال السائرة: «ما كل مرة تسلم الجرة». وإن كانوا ما فعلوا بك في المرة الأولى شيئًا، ربما يقتلونك في هذه المرة، لا سيما وقد عرفوك حق المعرفة. فقال نور الدين: يا عم، دَعْنِي أسافر وأُقَتِّل في هواها سريعًا ولا أُقَتِّل بتركها صبرًا وتحسُّرًا.

وكان بمصادفة القدر مركب راسٍ في المينا مجهَّز للسفر وركَّابه، قد قضى جميعَ أشغاله، وفي تلك الساعة قلعوا أوتاده، فنزل فيه نور الدين وسافر ذلك المركب مدة أيام، وقد طاب لركَّابه الوقت والريح، فبينما هم سائرون وإذا بمركب من مراكب الإفرنج دائر في البحر العجاج، لا يرون مركبًا إلا يأسرونه خوفًا على بنت الملك من سراق المسلمين، وإذا أخذوا مركبًا يوصلون جميعَ مَنْ فيه إلى ملك إفرنجة، فيذبحهم ويوفي بهم نَذْرَه الذي كان نَذَرَه من أجل ابنته مريم، فأروا المركب الذي فيه نور الدين فأسروه وأخذوا كلَّ مَنْ كان فيها وأتوا بهم إلى الملك أبي مريم، فلما أوقفوهم بين يديه وجدهم مائة رجل من المسلمين، فأمر بذبحهم في الوقت والساعة، ومن جملةهم نور الدين، فذبحوهم كلهم ولم يَبْقَ منهم غير نور الدين، وكانَّ الجلَّاد قد أحرَّه شفقةً عليه لصِغَر سنه ورشاقة قَدِّه، فلما رآه الملك عرفه حق المعرفة، فقال: أَمَا أنت نور الدين الذي كنتَ عندنا في المرة الأولى قبل هذه المرة؟ فقال له: ما كنتُ عنديكم، وليس اسمي نور الدين، وإنما اسمي إبراهيم. فقال له الملك: تكذب، بل أنت نور الدين الذي وهبتُكَ للعجوز القيِّمة على الكنيسة لتساعدَها في خدمة

الكنيسة. فقال نور الدين: يا مولاي، أنا اسمي إبراهيم. فقال له الملك: إن العجوز قيِّمة الكنيسة إذا حضرتَ ونظرتك تعرف هل أنت نور الدين أم غيره. فبينما هم في الكلام وإذا بالوزير الأعور الذي تزوج بنت الملك قد دخل في تلك الساعة وقبّل الأرض بين أيادي الملك، وقال له: أيها الملك، اعلم أن القصر قد فرغ بنيانه، وأنت تعرف أنني نذرتُ للمسيح إذا فرغتُ من بنائه أن أذبح على بابه ثلاثين من المسلمين، وقد أتيتك لأخذ من عندك ثلاثين مسلمًا فأذبحهم وأوفي بهم نذرَ المسيح، ويكونوا في ذمتي على سبيل القرض، ومتى جاءني أسارى أعطيتك بدلهم. فقال الملك: وحقّ المسيح والدين الصحيح، ما بقي عندي غير هذا الأسير. وأشار إلى نور الدين، وقال له: خذه واذبحه في هذه الساعة حتى أُرسلَ إليك البقية إذا جاءني أسارى من المسلمين. فعند ذلك قام الوزير الأعور وأخذ نور الدين ومضى به إلى القصر ليذبحه على عتبة بابه، فقال له الدهّانون: يا مولانا، بقي علينا من الدهان شغل يومين، فاصبر علينا وأخرّ ذبح هذا الأسير حتى نفرغ من الدهان، عسى أن يأتي إليك بقية الثلاثين فتذبح الجميع دفعةً واحدةً، وتوفي بنذكرك في يوم واحد. فعند ذلك أمر الوزير بحبس نور الدين. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما أمر بحبس نور الدين أخذه مقيّدًا جائعًا عطشانًا يتحسّر على نفسه وقد نظر الموت بعينه، وكان بالأمر المقدّر والقضاء المبرّم للملك حصانان أخوان شقيقان، أحدهما اسمه سابق والآخر اسمه لاحق، وكانت بحسرة تحصيل واحدٍ منهما الملوك الأكاسرة، وكان أحدهما أشهب نقيًا، والآخر أدهم كالليل الحالك، وكان ملوك الجزائر جميعًا يقولون: كلُّ من سرق لنا حصانًا من هذين الحصانين نعطيه جميع ما يطلبه من الذهب الأحمر والدر والجوهر، فلم يقدر أحدٌ على سرقة واحد من هذين الحصانين، فحصل لأحدهما مرض في عينيه، فأحضر الملك جميع البيطرة لدوائه فعجزوا عنه كلهم، فدخل على الملك الوزير الأعور الذي تزوّج ابنته، فرآه مهمومًا من قبل ذلك الحصان، فأراد أن يزيل همه فقال: أيها الملك، أعطني هذا الحصان وأنا أدأويه. فأعطاه له، فنقله إلى الإصطبل الذي محبوبس فيه نور الدين، فلمّا فارّق هذا الحصان أخاه، صاح صيحةً عظيمةً وصهل حتى أزعج الناس من الصياح، فعرف الوزير أنه ما حصل منه هذا الصياح إلا لفراقه من أخيه، فراح وأعلم الملك بذلك، فلما تحقّق الملك كلامه قال: إذا كان ذلك حيوانًا ولم يصبر على فراق أخيه، فكيف بذوي العقول؟ ثم أمر الغلمان أن ينقلوا الحصان عند أخيه بدار الوزير زوج مريم، وقال لهم: قولوا للوزير إن الملك يقول لك إن الحصانين إنعامٌ منه عليك لأجل خاطر ابنته مريم.

فبينما نور الدين نائم في الإصطبل وهو مقيّد مُكبّل، إذ نظرَ الحصانين فوجدَ على عيني أحدهما غشاوة، وكان عنده بعض معرفة بأحوال الخيل وممارسة دوائها، فقال في نفسه: هذا والله وقت فرصتي، فأقوم وأكذب على الوزير وأقول له أنا أدأوي هذا الحصان، وأعمل له شيئًا يُتلف عينيه فيقتلني وأستريح من هذه الحياة الذميمة. ثم إن نور الدين انتظرَ الوزير إلى أن دخلَ الإصطبل ينظر الحصانين، فلما دخل قال له

نور الدين: يا مولاي، أيُّ شيء يكون لي عليك إذا أنا داوَيْتُ لك هذا الحصان، وأعمل له شيئاً يطيب عَيْنَيْه؟ فقال له الوزير: وحياتِ رأسي إن داوَيْتَه أعتقك من الذبح، وأخليك تتمنّى عليّ. فقال له: يا مولاي، مُرْ بفقّ قيدي. فأمر الوزير بإطلاقه، فنهض نور الدين وأخذ زجاجاً بكراً وسحقه، وأخذ جيراً بلا طفي وخلطه بماء البصل، ثم وضع الجميع في عَيْنَي الحصان وربطهما، وقال في نفسه: الآن تغور عيناه فيقتلوني وأستريح من هذه العيشة الذميمة.

ثم إن نور الدين نام تلك الليلة بقلبٍ خالٍ من وسواس الهمِّ، وتضرّع إلى الله تعالى وقال: يا رب، في علمك ما يُعْني عن السؤال. فلما أصبح الصباح وأشرقت الشمس على الروابي والبطاح، جاء الوزير إلى الإصطبل وفكّ الرباط عن عَيْنَي الحصان ونظر إليهما، فرأهما أحسن عيون ملاح بقدرة الملك الفتّاح. فقال له الوزير: يا مسلم، ما رأيتُ في الدنيا مثلك في حُسْن معرفتك، وحق المسيح والدين الصحيح إنك أعجبْتَنِي غاية الإعجاب، فإنه عجز عن دواء هذا الحصان كلُّ بيطار في بلادنا. ثم تقدّم إلى نور الدين وحلّ قَيْدَه بيده، ثم ألْبَسَه حلّةً سنّية وجعله ناظرًا على خيله، ورَتَّبَ له مرتبات وجرايات، وأسكنه في طبقة على الإصطبل، وكان في القصر الجديد الذي بناه للسيدة مريم شَبَّاكٌ مُطْلٌ على بيت الوزير وعلى الطبقة التي فيها نور الدين، فقعد نور الدين مدّة أيام يأكل ويشرب، ويتلذّد ويضطرب، ويأمر وينهى على خدمة الخيل، وكلُّ مَنْ غاب منهم ولم يعلق على الخيل المربوطة على الطوّالة التي فيها خدمته، يرميه ويضربه ضرباً شديداً، ويضع في رجليه القيدَ الحديد. وفرح الوزير بنور الدين غاية الفرح، واتسع صدره وانشرح، ولم يدِرْ ما يتول أمره إليه. وكان نور الدين كلَّ يوم ينزل إلى الحصانين ويمسحهما بيده لِمَا يعلم من معرّتهما عند الوزير ومحبته لهما، وكان للوزير الأعور بنتٌ بَكْرٌ في غاية الجمال، كأنها غزال شارد وغصن مائد، فاتفق أنها كانت جالسةً ذات يوم من الأيام في الشباك المُطْلٌ على بيت الوزير، وعلى المكان الذي فيه نور الدين، إذ سمعت نور الدين يغني ويسلّي نفسه على المشقات، بإنشاد هذه الأبيات:

يَا عَاذِلًا أَصْبَحَ فِي ذَاتِهِ	مُنَعَّمًا يَزْهُو بِلَذَاتِهِ
لَوْ عَضَّكَ الدَّهْرُ بِأَفَاتِهِ	لَقُلْتُ مِنْ ذَوْقِ مَرَارَاتِهِ
أَهْ مِنْ الْعُشْقِ وَحَالَاتِهِ	أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
لَكِنْ سَلِمْتُ الْيَوْمَ مِنْ غَدْرِهِ	وَمِنْ تَنَاهِيهِ وَمِنْ جُورِهِ

وَقَالَ مِنْ فَرَطٍ صَبَابَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
وَلَا تَكُنْ عَوْنًا عَلَى عَذْلِهِمْ
مُجَرَّعًا مِنْ مَرٍّ لَوَعَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
كَمِثْلِ مَنْ بَاتَ خَلِيَّ الْفُؤَادِ
حَتَّى دَعَانِي لِمَقَامَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
إِلَّا الَّذِي أَسْقَمَهُ طَوْلُهُ
وَشُرْبُهُ مِنْ مَرٍّ جُرْعَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
وَأَحْرَمَ الْجَفْنَ لَذِيذَ الْكَرَى
تَجَرِّي عَلَى الْخَدِّ بِلَوَعَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
سَهْرَانَ مِنْ وَجْدٍ بَعِيدِ الْمَنَامِ
مَنْ قَدْ نَفَى عَنْهُ مَنَامَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
وَسَالَ دَمْعِي مِنْهُ كَالْعَنْدَمِ
مَا كَانَ حُلُوءًا فِي مَذَاقَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
وَبَاتَ فِي جُنْحِ اللَّيَالِي أَرْقُ
يَشْكُو مِنَ الْعِشْقِ وَزَفَرَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
وَمَنْ نَجَا مِنْ كَيْدِهِ الْأَسْهَلِ
وَأَيَّنَ مَنْ فَازَ بِرَاحَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ
وَكَفَلَهُ نَعْمَ أَنْتَ مِنْ كَافِلِ

فَلَا تَلُمَنَّ مَنْ حَارَ فِي أَمْرِهِ
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
كُنْ عَازِرَ الْعُشَّاقِ فِي حَالِهِمْ
إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَدَّ فِي حَبْلِهِمْ
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
قَدْ كُنْتُ مِنْ قَبْلِكَ بَيْنَ الْعِبَادِ
لَمْ أَعْرِفِ الْعِشْقَ وَطَعَمَ السُّهَادِ
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
لَمْ يَدِرْ مَا الْعِشْقُ وَمَا ذُلُّهُ
وَضَاعَ مِنْهُ فِي الْهَوَى عَقْلُهُ
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
كَمْ عَيْنٌ صَبَّ فِي الدُّجَى أَسْهَرَ
وَكَمْ أَسَالَ دَمْعُهُ أَنْهَرَا
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
كَمْ فِي الْوَرَى مِنْ مُغْرَمٍ مُسْتَهَامِ
أَلْبَسَهُ ثَوْبَ الضَّنَى وَالسَّقَامِ
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
كَمْ قَلَّ صَبْرِي وَبَرَى أَعْظَمِي
مُهِفْهَفٌ أَمْرٌ مِنْ مَطْعَمِي
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
مُسْكِينٌ مَنْ فِي النَّاسِ مِثْلِي عَشِقُ
إِنْ عَامَ فِي بَحْرِ التَّجَافِي غَرِقُ
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
مَنْ ذَا الَّذِي بِالْعِشْقِ لَمْ يَبْتَلِ
وَمَنْ يَعِشُ مِنْهُ بِعَيْشِ الْخَلِي
أَهٍ مِنَ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
يَا رَبِّ دَبَّرْ مَنْ بِهِ قَدْ بُلِي

وَأَرْزُقُهُ مِنْكَ بِالتَّجَبَّاتِ الْجَلِي
وَالطُّفِّ بِهِ فِي كُلِّ آفَاتِهِ
أَهْ مِنْ الْعِشْقِ وَحَالَاتِهِ
أَحْرَقَ قَلْبِي بِحَرَازَاتِهِ

فلما استتم نور الدين أقصى كلامه، وفرغ من شعره ونظامه، قالت في نفسها بنت الوزير: وحقَّ المسيح والدين الصحيح، إن هذا المسلم شاب مليح، ولكنه لا شكَّ عاشق مفارق، فيا تُرى هل معشوق هذا الشاب مليحٌ مثله؟ وهل عنده مثل ما عنده أم لا؟ فإن كان معشوقه مليحًا مثله يحقُّ له إسالة العَبَرَاتِ وشكوى الصبابات، وإن كان غير مليح فقد ضيَّع عمره في الحسرات، وحُرِّمَ طَعْمَ اللذات. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بنت الوزير قالت في نفسها: فإن كان معشوقه مليحاً يحقُّ له إسالة العبرات، وإن كان غير مليح فقد ضيَّع عمره في الحسرات. وكانت مريم الزنارية زوجة الوزير قد نُقلت إلى القصر أمس ذلك اليوم، وعلمتُ منها بنتُ الوزير ضيقَ الصدر، فعزمت أن تذهب إليها وتحدِّثها بخبر هذا الغلام، وما سمعت منه من النظام، فما استتمتِ الفكرَ في هذا الكلام، حتى أرسلت خلفها السيدة مريم زوجة أبيها لأجل أن تؤانسها بالحديث، فذهبت إليها فرأت صدرها ضيقاً ودموعها جارية على خدها، وهي تبكي بكاءً شديداً ما عليه من مزيد، تكفِّفِ العبرات وتنشد هذه الأبيات:

مَضَى عُمْرِي وَعُمُرُ الْوَجْدِ بَاقٍ وَصَدْرِي ضَاقَ مِنْ فَرْطِ اشْتِيَاقِي
وَقَلْبِي ذَابَ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ يُؤَمِّلُ عَوْدَ أَيَّامِ التَّلَاقِي
لِيَنْتَظِمَ الْوِصَالُ عَلَى اتِّسَاقٍ
أَقْلُوا اللَّوْمَ عَنْ مَسْلُوبِ قَلْبٍ نَجِلُ الْجِسْمِ مِنْ شَوْقٍ وَكَرْبٍ
وَلَا تَرْمُوا هَوَاهُ بِسَهْمِ عَنَبٍ فَمَا فِي الْكُونِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ
فَمُرُّ الْعِشْقِ حُلُوٌّ فِي الْمَذَاقِ

فقالت بنت الوزير للسيدة مريم: ما لك أيتها الملكة ضيقة الصدر مشتتة الفكر؟ فلما سمعت السيدة مريم كلامَ بنت الوزير تذكَّرت ما فات من عظيم اللذات، وأنشدت هذين البيتين:

سَأَصْبِرُ تَوَطُّيئًا عَلَى هَجْرِ صَاحِبِي وَأُرْسِلُ دُرَّ الدَّمْعِ نَثْرًا عَلَى نَثْرِ
عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ طَوَى كُلَّ يَسْرِ تَحْتَ جَانِحَةِ الْعُسْرِ

فقال لها بنت الوزير: أيتها الملكة، لا تضيقى صدرًا وقومي معي في هذه الساعة إلى شباك القصر، فإن عندنا في الإصطبل شابًا مليحًا رشيق القوام حلّو الكلام كأنه عاشق مفارق. فقالت لها السيدة مريم: بأي علامة عرفت أنه عاشق مفارق؟ فقالت لها بنت الوزير: أيتها الملكة، عرفت ذلك بإنشاده القصائد والأشعار آناء الليل وأطراف النهار. فقالت السيدة مريم في نفسها: إن كان قول بنت الوزير بيقين، فهذه صفات الكئيب المسكين علي نور الدين، فيا هل تُرى هو ذلك الشاب الذي ذكرته بنت الوزير؟ ثم إن السيدة مريم زاد بها العشق والهيام، والوجد والغرام، فقامت من وقتها وساعتها ومشت مع بنت الوزير إلى الشباك ونظرت منه، فرأت محبوبها وسيدها نور الدين، ودققت النظر فيه فعرفته حق المعرفة، ولكنه سقيم من كثرة عشقه لها ومحبتة إياها، ومن نار الوجد وألم الفراق والوله والاشتياق، قد زاد به النحول فصار ينشد ويقول:

لَيْسَ لَهَا سَحَابَةٌ مُجَارِيَهُ	الْقَلْبُ مَمْلُوكٌ وَعَيْنِي جَارِيَهُ
وَالنَّوْحُ وَالْحُزْنُ عَلَى أَحْبَابِيهِ	بَيْنَ بُكَائِي وَسُهَادِي وَالْجَوَى
تَكَامَلَتْ أَعْدَادُهَا ثَمَانِيَهُ	وَأَحْزَقْتِي وَأَحْسَرْتِي وَالْوَعْيِي
أَلَا قِفُوا وَاسْتَمِعُوا مَقَالِيَهُ	وَتَابَعْتَهَا خَمْسَةَ فِي خَمْسَةِ
وَفَرَطُ شَوْقِي وَاشْتِغَالُ بَالِيهِ	ذِكْرٌ وَفِكْرٌ وَزَفِيرٌ وَضَنْي
وَلَهْفَةٌ وَفَرَحَةٌ تَرَانِيَهُ	فِي مَحْنَةٍ وَعُزْبَةٍ وَصَبُوبَةٍ
لَمَّا نَأَى صَبْرِي دَنَا مُحَالِيَهُ	قَلَّ اصْطِبَارِي وَاحْتِمَالِي لِلْجَوَى
يَا سَائِلًا عَنْ نَارِ قَلْبِي مَا هِيَ	قَدْ زَادَ فِي قَلْبِي تَبَارِيحُ الْجَوَى
فَنَارُ قَلْبِي لَا تَزَالُ حَامِيَهُ	مَا بَالُ دَمْعِي مُوقِدًا فِي مُهْجَتِي
وَمِنْ لَطَى هَذَا الْهَوَى فِي هَاوِيَهُ	أَصْبَحْتُ فِي طُوفَانِ دَمْعِي غَارِقًا

فلما رأت السيدة مريم سيدها نور الدين وسمعت بليغ شعره وبديع نثره، وتحققت أنه هو، ولكنها كتمت أمرها عن بنت الوزير وقالت لها: وحق المسيح والدين الصحيح، ما كنت أحسب أن عندك خبرًا بضيق صدري. ثم نهضت من وقتها وساعتها وقامت من الشباك ورجعت إلى مكانها، ومضت بنت الوزير إلى شغلها، ثم صبرت السيدة مريم ساعةً زمانية ورجعت إلى الشباك وجلست فيه، وصارت تنتظر إلى سيدها نور الدين وتتأمل في

لطفه ورقة معانيه، فرأته كالبدر إذا بدَرَ في ليلة أربعة عشر، لكنه دائم الحسرات جاري العبرات؛ لأنه تذكَّر ما فات، فأنشد هذه الأبيات:

أَمَلْتُ وَصَلَ أَجَبَّتِي مَا نِلْتُهُ	أَبَدًا وَمُرُّ الْعَيْشِ قَدْ وَاصَلْتُهُ
دَمْعِي يُحَاكِي الْبَحْرَ فِي جَرْيَانِهِ	وَإِذَا رَأَيْتُ عَوَازِلِي كَفَكَفْتُهُ
أَهْ عَلَى دَاعٍ دَعَا بِفِرَاقِنَا	لَوْ نَلْتُ مِنْهُ لِسَانُهُ لَقَطَعْتُهُ
لَا عَتَبَ لِلْأَيَّامِ فِي أَفْعَالِهَا	مَزَجَتْ بِصَرْفِ الْمُرِّ مَا جُرَّعْتُهُ
فَلِمَنْ أَسِيرٌ إِلَى سِوَاكُمْ قَاصِدًا	وَالْقَلْبُ فِي عَرَصَاتِكُمْ خَلَفْتُهُ
مَنْ مُنْصِفِي مَنْ ظَالِمٌ مُتَحَكِّمٌ	يَزْدَادُ ظُلْمًا كُلَّمَا حَكَّمْتُهُ
مَلَكْتُهُ رُوحِي لِيَحْفَظَ مُلْكُهُ	فَأَضَاعَنِي وَأَضَاعَ مَا مَلَكْتُهُ
أَنْفَقْتُ عُمْرِي فِي هَوَاهُ وَلَيْتَنِي	أَعْطَى وَصَالًا بِالَّذِي أَنْفَقْتُهُ
يَا أَيُّهَا الرَّشَاءُ الْمَلِمُ بِمُهْجَتِي	يَكْفِي مِنَ الْهَجْرَانِ مَا قَدْ نُقْتُهُ
أَنْتَ الَّذِي جَمَعَ الْمَحَاسِنَ وَجْهَهُ	لَكِنْ عَلَيْهِ تَصَبَّرِي فَرَفَقْتُهُ
أَحْلَلْتُهُ قَلْبِي فَحَلَّ بِهِ الْبَلَا	إِنِّي لَرَاضٍ بِالَّذِي أَحْلَلْتُهُ
وَجَرَتْ دُمُوعِي مِثْلَ بَحْرٍ زَاخِرٍ	لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ مَسْلَكًا لَسَلَكْتُهُ
وَخَشِيتُ خَوْفًا أَنْ أَمُوتَ بِحَسْرَةٍ	وَيَفُوتَ مِنِّي كُلُّ مَا أَمَلْتُهُ

فلما سمعت مريم من نور الدين العاشق المفارق المسكين إنشاد هذه الأشعار، حصل عندها من كلامه إشعار، فأفاضت دموع العين وأنشدت هذين البيتين:

تَمَنَيْتُ مَنْ أَهْوَى فَلَمَّا لَقَيْتُهُ	نُهِلْتُ فَلَمْ أَمْلِكْ لِسَانًا وَلَا طَرْفًا
وَكُنْتُ مُعِدًّا لِلْعِتَابِ دَفَاتِرًا	فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا مَا وَجَدْتُ وَلَا حَرْفًا

فلما سمع نور الدين كلام السيدة مريم عرفها، فبكى بكاءً شديدًا وقال: والله إن هذه نغمة السيدة مريم الزنارية بلا شك ولا ريب ولا رجم الغيب. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نور الدين لما سمعها تنشد الأشعار قال في نفسه: إن هذه نعمة السيدة مريم بلا شك ولا ريب ولا رجم غيب، فيا تُرى هل ظنّي صحيح وأنها هي بعينها أم غيرها؟ ثم إن نور الدين زادت به الحسرات، فتأوّه وأنشد هذه الأبيات:

لَمَّا رَأَيْتُ لَأَيْمِي فِي الْهَوَى	صَادَفْتُ جَبِّي فِي مَكَانٍ رَجِيبٍ
وَلَمْ أَفْهَ بِالْعَتَبِ عِنْدَ اللَّقَا	وَرُبَّ عَتَبٍ فِيهِ بُرْءُ الْكَثِيبِ
فَقَالَ: مَا هَذَا السُّكُوتُ الَّذِي	صَدَّكَ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ الْمُصِيبِ؟
فَقُلْتُ: يَا مَنْ قَدْ غَدَا جَاهِلًا	بِحَالِ أَهْلِ الْعِشْقِ كَالْمُسْتَرِيبِ
عَلَامَةُ الْعَاشِقِ فِي عِشْقِهِ	سُكُوتُهُ عِنْدَ لِقَاءِ الْحَبِيبِ

فلما فرغ من شعره أحضرت السيدة مريم دواةً وقرطاسًا، وكتبت فيه بعد البسملة الشريفة: «أما بعد، فسلام الله عليك ورحمته وبركاته، وأخبرك أن الجارية مريم تسلم عليك، وهي كثيرة الشوق إليك، وهذه مراسلتها إليك، فساعة وقوع هذه الورقة بين يديك، انهض من وقتك وساعتك واهتم بما تريده منك غاية الاهتمام، والحدّر كلّ الحدّر من المخالفة ومن أن تنام، فإذا مضى ثلث الليل الأول، فإن تلك الساعة من أسعد الأوقات، فلا يكون لك فيها شغل إلا أن تشدّ الفرسين وتخرج بهما خارج المدينة، وكل من قال لك: أين أنت رائح؟ فقلّ له: أنا رائح أسيرهما. فإذا قلت ذلك لا يمنعك أحدٌ، فإن أهل هذه المدينة واثقون بقفل الأبواب.»

ثم إن السيدة مريم لفّت الورقة في منديل حرير ورمتها إلى نور الدين من الشباك، فأخذها وقرأها وفهم ما فيها وعرف أنه خط السيدة مريم، فقبلها ووضعها بين عينيه، وتذكّر ما حصل له معها من طيب الوصال، فأسال دمع العين وأنشد هذين البيتين:

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكُمْ جُنْحَ لَيْلَةٍ فَهَيَّجَنِي شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَأَبْرَانِي
وَذَكَّرَنِي عَيْشًا مَضَى بِوَصَالِكُمْ فَسُبْحَانَ رَبِّي بِالتَّفَرُّقِ أَبْلَانِي

ثم إن نور الدين لما جنّ عليه الليل، اشتغل بإصلاح الحصانين، وصبر حتى مضى من الليل ثلثه الأول، ثم قام من وقته وساعته إلى الحصانين، ووضع عليهما سرجين من أحسن السروج، وخرج بها من باب الإصطبل وقفل الباب وسار بهما إلى باب المدينة، وجلس ينتظر السيدة مريم.

هذا ما كان من أمر نور الدين، وأما ما كان من أمر الملكة مريم، فإنها ذهبت من وقتها وساعتها إلى المجلس الذي هو مُعدُّ لها في ذلك القصر، فوجدت الوزير الأعور جالساً في ذلك المجلس متكئاً على مخدة محشوة من ريش النعام، وهو مستح أن يمدّ يده إليها أو يخاطبها، فلما رآته ناجت ربها في قلبها وقالت: اللهم لا تبلغه مني أرباً، ولا تحكم عليّ بالنجاسة بعد الطهارة. ثم أقبلت عليه وأظهرت له المودة، وجلست في جانبه ولاطفته وقالت له: يا سيدي، ما هذا الإعراض عني؟ هل هو منك تيهٌ ودلالٌ علينا؟ ولكن صاحب المثل السائر يقول: «إذا بار السلام سلمت القعود على القيام.» فإن كنت يا سيدي ما تجيء عندي وتخاطبني، أجيء أنا عندك وأخاطبك. فقال لها الوزير: الفضل والجميل لك يا ملكة الأرض في الطول والعرض، وهل أنا إلا من بعض خدامك وأقل غلمانك؟ وإنما أنا مستح أن أتهجّم على مخاطبتك الفخيمة أيتها الدرة اليتيمة، وجهي منك في الأرض. فقالت له: دُعنا من هذا الكلام وآتنا بالمأكل والمشرب. فعند ذلك صاح الوزير على جواريه وخدّمه، وأمرهم بإحضار المأكل والمشرب، فقدموا له سفرة فيها ما درج وطار وسبح في البحار، من قطا وسُمان وأفراخ الحمام، ورضيع الضأن وإوز سمين، وفيها دجاج محمّر وفيها سائر الأشكال والألوان. فمدّت السيدة مريم يدها إلى السفرة وأكلت وصارت تلقّم الوزير وتبوسه في فمه، وما زالاً يأكلان حتى اكتفيا من الأكل، ثم غسلا أيديهما، وبعد ذلك رفع الخدم سفرة الطعام وأحضروا سفرة المدام، فصارت مريم تملأ وتشرب وتسقيه، وقامت بخدمته حق القيام حتى كاد أن يطير قلبه من الفرح، واتسع صدره وانشرح، فلما غاب عقله عن الصواب، وتمكّن منه الشراب، مدّت يدها إلى جيبها وأخرجت

منه قرصًا من البنج البكر المغربي، الذي إذا شَمَّ منه الفيلُ أدنى رائحةٍ نام من العام إلى العام، كانت أعدَّتْه لهذه الساعة، ثم غافَلَتِ الوزيرَ وفركته في القدح وملأته وأعطته إياه، فطارَ عقله من الفرح وما صدَّق أنها تناوله إياه، فأخذ القدح وشربه، فما استقرَّ في جوفه حتى خرَّ صريعًا على الأرض في الحال، فقامت السيدة مريم على قدميها وعمدت إلى خُرْجَيْن كبيرين وملأتهما مما خَفَّ حملة وغلا ثمنه، من الجواهر واليواقيت وأصناف المعادن المثمّنة، ثم حملت معها شيئًا من المأكّل والمشرب، ولبست آلة الحرب والكفاح من العدة والسلاح، وأخذت معها لنور الدين ما يسرُّه من الملابس الملوكية الفاخرة وأُهبَة السلاح القاهرة، ثم إنها رفعت الخُرْجَيْن على أكتافها وخرجت من القصر، وكانت ذات قوة وشجاعة، وتوجَّهَتْ إلى نور الدين. هذا ما كان من أمر مريم، وأما ما كان من أمر نور الدين ... وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مريم لما خرجت من القصر توجّهت إلى نور الدين، وكانت ذات قوة وشجاعة. هذا ما كان من أمر مريم، وأما ما كان من أمر نور الدين العاشق المسكين، فإنه قعد على باب المدينة ينتظرها ومقاود الحِصانين في يده، فأرسل الله عز وجل عليه النوم، فنام وسبحان من لا ينام، وكانت ملوك الجزائر في ذلك الزمان يبذلون المال رشوة على سرقة هذين الحِصانين أو واحد منهما، وكان موجودًا في تلك الأيام عبدٌ أسود تربى في الجزائر يُعرف بسرقة الخيل، فصار ملوك الإفرنج يرشونه بمال كثير لأجل أن يسرق أحد الحِصانين، ووعدوه أنه إن سرق الحِصانين يعطوه جزيرةً كاملةً، ويخلعوا عليه خلعًا سنيّةً، وقد كان لذلك العبد زمان طويل يدور في مدينة إفرنجة وهو متخفّ، فلم يقدر على أخذ الحِصانين وهما عند الملك، فلما وهبهما للوزير الأعور ونقلهما إلى إصطبله، فرح العبدُ فرحًا شديدًا وطمع في أخذهما وقال: وحق المسيح والدين الصحيح لأسرقنهما.

ثم إن العبد خرج في تلك الليلة قاصدًا ذلك الإصطبل ليسرق الحِصانين، فبينما هو ماشٍ في الطريق؛ إذ لاحَتْ منه التفاتة فرأى نور الدين نائمًا ومقاود الحِصانين في يده، فنزع المقاود من رأسيهما وأراد أن يركب واحدًا ويسوق الآخر قدامه، وإذا بالسيدة مريم قد أقبلت وهي حاملة الخُرَجَيْن على كتفها، فظنّت أن العبد هو نور الدين، فناولته أحد الخُرَجَيْن فوضعه على الحصان، ثم ناولته الثاني فوضعه على الحصان الآخر وهو ساكت وهي تظن أنه نور الدين، ثم إنها خرجت من باب المدينة والعبد ساكت، فقالت له: يا سيدي نور الدين، ما لك ساكت؟ فالتفت العبد إليها وهو مغضب وقال لها: أي شيء تقولين يا جارية؟ فسمعت بريرة العبد، فعرفت أنها غير لغة نور الدين، فرفعت رأسها إليه ونظرته فوجدت له مناخير كالإبريق، فلما نظرته صار الضياء في وجهها ظلامًا.

فقالت له: مَنْ تكون يا شيخ بني حام؟ وما اسمك بين الأنام؟ فقال لها: يا بنت اللثام، أنا اسمي مسعود سراق الخيل والناس نيام. فما رَدَّتْ عليه بشيء من الكلام، بل جَرَدَتْ من وقتها الحسام وضربته على عاتقه، فطلع يلمع من علائقه، فوقع صريعاً على الأرض يختبط في دمه، وعَجَلَ الله بروحه إلى النار وبئس القرار.

فعند ذلك أخذَتِ السيدة مريم الحصانين وركبت واحداً منهما، وقبضَتِ الآخرَ بيدها ورجعت على عقبها تفتش على نور الدين، فلقىته راقداً في المكان الذي واعدته بالاجتماع فيه، والمقاود في يده وهو نائم يغطُّ في نومه، ولم يعرف يدِيه من رجله، فنزلت عن ظهر الحصان ولكزته بيدها، فانتبه من نومه مرعوباً، وقال لها: يا سيدتي، الحمد لله على مجيئك سالمة. فقالت له: قُمْ اركبْ هذا الحصان وأنت ساكت. فقام وركب الحصان والسيدة مريم ركبت الحصان الثاني، وخرجَا من المدينة وسارَا ساعة زمانية، وبعد ذلك التفتت مريم إلى نور الدين وقالت له: أَمَا قَلْتُ لَكَ لَا تَنَمْ؟ فَإِنَّهُ لَا أَفْلَحَ مَنْ يَنَام. فقال: يا سيدتي، أنا ما نمتُ إلا من برد فؤادي بميعادك، وأي شيء جرى يا سيدتي؟ فأخبرته بحكاية العبد من المبتدأ إلى المنتهى، فقال لها نور الدين: الحمد لله على السلامة، ثم جدًّا في إسراع المسير، وقد أسلماً أمرهما إلى اللطيف الخبير، وصارَا يتحدثان حتى وصلَا إلى العبد الذي قتلته السيدة مريم، فرآه مرمياً في التراب كأنه عفريت، فقالت مريم لنور الدين: انزل جرِّده من ثيابه وحُدِّ سلاحه. فقال لها: يا سيدتي، والله أنا لا أقدر أن أنزل عن ظهر الحصان ولا أقف عنده ولا أتقرب منه. وتعجَّب نور الدين من خلقته، وشكر السيدة مريم على فعلها، وتعجَّب من شجاعتها وقوة قلبها، ثم سارَا ولم يَزَالَا سائرِينَ سِيراً عَنيفاً بقية الليل إلى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، وانتشَرَتِ الشمسُ على الروابي والبطاح، فوصلَا إلى مرج أفيح فيه الغزلان تمرح، وقد اخضرت منه الجوانب وتشكَّلت فيه الأثمار من كل جانب، وأزهاره كبطون الحيات والطيور فيه عاكفات، وجداوله تجري مختلفة الصفات، كما قال فيه الشاعر وأجاد، ووفى بالمراد:

وَقَانِي لَفَحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ	وَفَاهُ مُضَاعِفُ النَّبْتِ الْعَمِيمِ
نَزَلْنَا دَوْحَةً فَحَنَّا عَلَيْنَا	حَنُوُ الْمُرْضَعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالًا	أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَصُدُّ الشَّمْسُ أَنِّي وَاجَهْتُنَا	فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ
تَرَوُعُ حَصَاهُ حَالِيَّةِ الْعَذَارَى	فَتَلْمُسُ جَانِبِ الدَّرِّ النَّظِيمِ

وكما قال الآخر:

وَإِذَا تَرَنَّمَ طَيْرُهُ وَعَدِيرُهُ يَشْتَاقُهُ الْوُلَهَانُ فِي الْأَسْحَارِ
فَكَأَنَّهُ الْفَرْدَوْسُ فِي أَكْنَافِهِ ظِلٌّ وَفَاكِهَةٌ وَمَاءٌ جَارِ

فعند ذلك نزلت السيدة مريم هي ونور الدين ليستريحاً في ذلك الوادي. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة مريم ونور الدين لما نزلًا في ذلك الوادي أكلًا من أثماره، وشربًا من أنهاره، وأطلقًا الحصانين يأكلان في المرعى، فأكلًا وشربًا من ذلك الوادي، وجلس نور الدين هو ومريم يتحدثان ويتذكران حكايتهما وما جرى لهما، وكلُّ منهما يشكو لصاحبه ما لاقاه من ألم الفراق، وما قاساه من البُعد والاشتياق، فبينما هما كذلك وإذا بغبار قد ثار حتى سدَّ الأقطار، وسمعا صهيل الخيل وقعقة السلاح، وكان السبب في ذلك أن الملك لما زوّج ابنته للوزير ودخل عليها في تلك الليلة وأصبح الصباح، أراد الملك أن يصبح عليها كما جرت به العادة عند الملوك في بناتهم، فقام وأخذ معه أقمشة الحرير ونثر الذهب والفضة ليتخاطفها الحَدَمَة والمواشط، ولم يزل الملك يتمشى هو وبعض الغلمان إلى أن وصل إلى القصر الجديد، فوجد الوزير مرميًا على الفرش لا يعرف رأسه من رجليه، فالتفت الملك في القصر يمينًا وشمالًا فلم يرَ ابنته فيه، فتكدَّر حاله واشتغل باله وأمر بإحضار الماء السخن والخل البكر والكندر، فلما أحضروا له ذلك خلطها ببعضها وسعطَ الوزير بهم، ثم هزَّه فخرج البنج من جوفه كقطع الجبن. ثم إن الملك سعطَ الوزير بذلك ثاني مرة فانتبه، فسأله عن حاله وعن حال ابنته مريم، فقال له: أيها الملك الأعظم، لا عِلْمَ لي بها، غير أنها أسقنتني قدحًا من الخمر بيدها، فمن ذلك الوقت ما عرفت روعي إلا في هذه الساعة، ولا أعلم ما كان من أمرها. فلما سمع الملك كلام الوزير، صار الضياء في وجهه ظلامًا، وسحب السيف وضرب به الوزير على رأسه، فخرج يلمع من أضراسه، ثم إن الملك أرسلَ من وقته وساعته إلى الغلمان والسِّياس، فلما حضروا طلب منهم الحصانين، فقالوا له: أيها الملك، إن الحصانين فُقِدَا في هذه الليلة، وكبيرنا فُقِدَ معهما أيضًا، فإننا أصبحنا وجَدنا الأبواب كلها مفتوحة. فقال الملك: وحقُّ ديني وما يعتقدُه يقيني، ما أخذ الحصانين إلا ابنتي هي والأسير الذي كان يخدم الكنيسة، وكان

قد أخذها في المرة الأولى، وعرفته حق المعرفة ولم يخلصه من يدي إلا هذا الوزير الأعور، وقد جُوزي بفعله.

ثم إن الملك دعا في الوقت بأولاده الثلاثة، وكانوا أبطالاً شجعاناً، كل واحد منهم يقوم بألف فارس في حومة الميدان، ومقام الضرب والطعان، ثم صاح الملك عليهم وأمرهم بالركوب، فركبوا وركب الملك بجملتهم مع خواص بطارقتهم وأرباب دولته وأكابرهم، وصاروا يتبعون أثرهما، فلحقوهما في ذلك الوادي، فلما رأتهم مريم نهضت وركبت جوادها، وتقلدت بسيفها وحملت آلة سلاحها، وقالت لنور الدين: ما حالك؟ وكيف قلبك في القتال والحرب والنزال؟ فقال لها: إن ثباتي في النزال مثل ثبات الود في النخال. ثم أنشد وقال:

يَا مَرِيْمُ اطَّرِحِي أَلِيْمَ عِتَابِي	لَا تَقْصِدِي قَتْلِي وَطَوَّلْ عَذَابِي
مَنْ أَيْنَ لِي أَنِّي أَكُونُ مُحَارِبًا	إِنِّي لَأَفْرَعُ مِنْ نَعِيقِ غُرَابٍ
وَإِذَا نَظَرْتُ الْفَارَ أَفْزَعُ خِيفَةً	وَأَبُولُ مِنْ خَوْفِي عَلَى أَثْوَابِي
أَنَا لَا أُحِبُّ الطَّعْنَ إِلَّا خَلْوَةً	وَالْكُسُ يَعْرِفُ سَطْوَةَ الْأَزْبَابِ
هَذَا هُوَ الرَّأْيُ السَّيِّدُ وَمَا يَرَى	مَنْ دُونِ هَذَا الرَّأْيِ غَيْرُ صَوَابٍ

فلما سمعت مريم من نور الدين هذا الكلام والشعر والنظام، أظهرت له الضحك والابتسام، وقالت له: يا سيدي نور الدين، استقيم مكانك وأنا أكفيك شرهم، ولو كانوا عدد الرمل. ثم إنها تهيأت من وقتها وساعتها، وركبت ظهر جوادها، وأطلقت من يدها طرف العنان، وأدارت من الرمح جهة السنان، فخرج ذلك الحصان من تحتها كأنه الريح الهبوب، أو الماء إذا اندفق من ضيق الأنبوب، وقد كانت مريم أشجع أهل زمانها وفريدة عصرها وأوانها؛ لأن أباه علمها وهي صغيرة الركوب على ظهر الخيل، وخوض بحار الحرب في ظلام الليل، وقالت لنور الدين: اركب جوادك وكُنْ خلف ظهري، وإذا انهزمنا فاحرص على نفسك من الوقوع، فإن جوادك ما يلحقه لاحق. فلما نظر الملك إلى ابنته مريم، عرفها غاية المعرفة والتفت إلى ولده الأكبر وقال له: يا برطوط، يا ملقب برأس القلوط، إن هذه أختك مريم لا شك فيها ولا ريب، قد حملت علينا وطلبت حربنا وقتالنا، فابرز إليها واحمل عليها، وحق المسيح والدين الصحيح إنك إن ظفرت بها لا تقتلها حتى تعرض عليها دين النصارى، فإن رجعت إلى دينها القديم فارجع بها أسيرة، وإن لم ترجع إليه فاقتلها أقبح قتلة، ومثل بها أشنع مثلة، وكذلك هذا الملعون الذي معها مثل

به أقبح مُثْلَة. فقال له برطوط: السمع والطاعة. ثم برز لأخته مريم من وقته وساعته، وحمل عليها فلاقتَه وحملت عليه ودنّت منه وتقرّبت إليه، فقال لها برطوط: يا مريم، أمّا يكفي ما جرى منك حيث تركتِ دينَ الآباء والأجداد، واتّبعِ دينَ السيّاحين في البلاد؟ (يعني دين الإسلام)، ثم قال: وحق المسيح والدين الصحيح، إنّ لم ترجعي إلى دين آبائك وأجدادك من الملوك، وتسلكي فيه أحسن السلوك، لأقتلنك شرّ قِتْلَة وأمثّل بك أقبح مُثْلَة. فضحكتُ مريم من كلام أخيها وقالت: هيهاتَ هيهاتَ أن يعود ما فات، أو يعيش من مات، بل أُجرّعك أشدّ الحسرات، أنا والله لستُ براجعةٍ عن دين محمد بن عبد الله الذي عمّ هُداة، فإنه هو الدين الحق، فلا أترك الهدى ولو سقيتُ كنُوس الرّدى. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مريم قالت لأخيها: هيهات هيهات أن أرجع عن دين محمد بن عبد الله، الذي عمُّ هُداة، فإنه دين الهدى، ولو سُقِيتُ كئوسَ الرَّدَى. فلما سمع الملعون برطوط من أخته هذا الكلام، صار الضياء في وجهه ظلامًا، وعظمَ ذلك عليه وكُبرَ لديه، والتهب بينهما القتال، واشتدَّ الحرب والنزال، وغاص الاثنان في الأودية العِراض الطوال، وصبرًا على الشدائد وشَخَصَت لهما الأبصار، فأخذهما الانبهار، ثم جالًا مليًا واعتركا طويلاً، وصار برطوط كلما يفتح لأخته مريم بابًا من الحرب، تُبْطِله عليه وتسُدُّه بحُسن صناعتها وقوة براعتها ومعرفتها وفروسياتها، ولم يزالا على تلك الحالة حتى انعقدَ على رأسيهما الغبار، وغاب الفارسان عن الأبصار، ولم تزل مريم تحاوله وتسُدُّ عليه طريقه حتى كلَّ وبطلت همته، واضمحلَّ عزمه وضعُفَت قُوَّتُه، فضربته بالسيف على عاتقه فخرج من علائقه، وعجَّلَ الله بروحه إلى النار وبئس القرار.

ثم إن مريم جالت في حومة الميدان وموقف الحرب والطعان، وطلبت البراز وسألت الإنجاز. وقالت: هل من مقاتل؟ هل من مناجز؟ لا يبرز لي اليوم كسلان ولا عاجز، لا يبرز لي إلا أبطال أعداء الدين لأسقيهم كأس العذاب المهين، يا عبدة الأوثان وذوي الكفر والطغيان، هذا يوم تبيضُ فيه وجوه أهل الإيمان، وتسودُّ وجوه أهل الكفر بالرحمن. فلما رأى الملك ولده الكبير قد قُتِل، لطم على وجهه وشقَّ أثوابه، وصاح على ولده الوسطاني وقال له: يا برطوس، يا ملقب بخرء السوس، ابرز يا ولدي بسرعة إلى قتال أختك مريم، وخذ منها ثأر أخيك برطوط، واثنني بها أسيرة ذليلة حقيرة. فقال له: يا أبت، السمع والطاعة. ثم إنه برز لأخته مريم وحمل عليها، فلاقته وحملت عليه، فتقاتلت هي وإياه قتالًا شديدًا أشدَّ من القتال الأول، فرأى أخوها الثاني نفسه عاجزًا عن قتالها، فأراد

الفرار والهروب، فلم يمكنه ذلك من شدة بأسها؛ لأنها كلما ركن إلى الفرار تقربَتْ منه ولصقَتْه وضايقَتْه، ثم ضربته بالسيف على رقبتَه، فخرج يلعب من لَبِّه، وألحقَتْه بأخيه. وبعد ذلك جالَتْ في حومة الميدان وموقف الحرب والطَّعان، وقالت: أين الفرسان والشجعان؟ أين الوزير الأعور الأعرج صاحب الدين الأعوج؟ فعند ذلك صاح أبوها بقلب جريح، وطرف من الدمع قريح، وقال: إنها قتلتُ ولدي الأوسط، وحقَّ المسيح والدين الصحيح. ثم إنه صاح على ولده الصغير وقال له: يا فسيان، يا ملقَّب بسلح الصبيان، اخرج يا ولدي إلى قتال أختك وخُذْ منها ثأراً أخوَيْك وصادِمُها، إما لك أو عليك، وإنْ ظفرتْ بها فاقتُلْها أقبح قِتْلَةٍ. فعند ذلك برز لها أخوها الصغير وحمل عليها، فنهضت إليه ببراعتها، وحملت عليه بحُسن صناعتها وشجاعتها ومعرفتها بالحرب وفروسياتها، وقالت له: يا عدو الله وعدو المسلمين، لألحقَنَّك بأخوَيْك وبئس مَنوَى الكافرين. ثم إنها جذبتْ سيفها من غِمدِه وضربتَه، فقطعت عنقه وذراعَيْه وألحقَتْه بأخوَيْه، وعجَّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار. فلما رأى البطارقة والفرسان الذين كانوا راكبين مع أبيها أولاده الثلاثة قد قُتلوا وكانوا أشجع أهل زمانهم، وقع في قلوبهم الرعب من السيدة مريم وأدهشتهم الهيبة، ونكسوا رءوسهم إلى الأرض وأيقنوا بالهلاك والدمار، والذل والبوار، واحترقت قلوبهم من الغيظ بلهيب النار، فولَّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار.

فلما نظر الملك إلى أولاده وقد قُتلوا، وإلى عساكره وقد انهزموا، أخذته الحيرة والانبهار، واحترق قلبه بلهيب النار، وقال في نفسه: إن السيدة مريم قد استقلَّت بنا، وإن جازفتُ بنفسي وبرزتُ إليها وحدي، ربما غلبتُ عليَّ وقهرتني فتقتلني أشنع قِتْلَةٍ، وتمثِّل بي أقبح مُثْلَةٍ كما قتلتُ إخوتها؛ لأنها لم يَبْقَ لها فينا رجاء، ولا لنا في رجوعها طمع، والرأي عندي أن أحفظ حرمتي وأرجع إلى مدينتي. ثم إن الملك أرحى عنان فرسه، ورجع إلى مدينته، فلما استقرَّ في قصره انطلقت في قلبه النار من أجل قتل أولاده الثلاثة، وانهزام عسكره وهتك حرمته، فما استقرَّ نصف ساعة حتى طلب أرباب دولته وكبراء مملكته، وشكا إليهم فَعَلَ ابنته مريم معه، من قتلها لإخوتها، وما لاقاه من القهر والحزن، واستشارهم، فأشاروا عليه كلهم أن يكتب كتاباً إلى خليفة الله في أرضه أمير المؤمنين هارون الرشيد، ويُعلمه بهذه القضية. فكتب إلى الرشيد مكتوباً مضمونه: «بعد السلام على أمير المؤمنين، إن لنا بنتاً اسمها مريم الزنارية، قد أفسدَها علينا أسيرٌ من أسرى المسلمين اسمه نور الدين علي ابن التاجر تاج الدين المصري، وأخذها ليلاً وخرج بها إلى ناحية بلاده، وأنا أسأل من فضل مولانا أمير المؤمنين أن يكتب إلى سائر بلاد المسلمين بتحصيلها وإرسالها إلينا مع رسول أمين.» وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ملك إفرنجة لما كتب إلى الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد كتاباً يتضرّع إليه فيه بطلب ابنته مريم، ويسأله من فضله أن يكتب إلى سائر بلاد المسلمين بتحصيلها وإرسالها مع رسول أمين، من خدام حضرة أمير المؤمنين، ومن جملة مضمون ذلك الكتاب: «إننا نجعل لكم في نظير مساعدتكم لنا على هذا الأمر، نصف مدينة رومة الكبرى لتبنوا فيها مساجد للمسلمين، ويحمل إليكم خراجها.» وبعد أن كتب الكتاب برأي أهل مملكته وكبراء دولته، طواه ودعا بوزيره الذي جعله وزيراً مكان الوزير الأعور، وأمره أن يختم الكتاب بختم الملك، وكذلك ختمه أرباب دولته بعد أن وضعوا خطوط أيديهم فيه، ثم قال لوزيره: إن أتيت بها فك عندي إقطاع أميرين، وأخلع عليك خلعة بطرزين. ثم ناوَلَه الكتاب وأمره أن يسافر إلى مدينة بغداد دار السلام، ويوصل الكتاب إلى أمير المؤمنين من يده إلى يده. ثم سافر الوزير بالكتاب، وسار يقطع الأودية والقفار حتى وصل إلى مدينة بغداد، فلما دخلها مكث فيها ثلاثة أيام حتى استقر واستراح، ثم سأل عن قصر أمير المؤمنين هارون الرشيد فدُلَّوه عليه، فلما وصل إليه طلبَ إذنًا من أمير المؤمنين في الدخول عليه، فأذن له في ذلك، فدخل عليه وقبَّل الأرض بين يديه، وناوَلَه الكتاب الذي من ملك إفرنجة، وصحبته من الهدايا والتُّحف العجيبة ما يليق بأمر المؤمنين، فلما فتح الخليفة الكتاب وقرأه وفهم مضمونه، أمر وزرائه من وقته أن يكتبوا المكاتيب إلى سائر بلاد المسلمين، ففعلوا ذلك وبيَّنوا في المكاتيب صفة مريم وصفة نور الدين، واسمه واسمها، وأنهما هاربان، فكلُّ من وجدهما فليقبض عليهما ويرسلهما إلى أمير المؤمنين، وحدِّروهم من أن يعطوا في ذلك إمهالاً أو إهمالاً أو غفلة، ثم خُتمت الكتب وأُرسلت مع السعاة إلى العمال، فبادروا في امتثال الأمر، وساروا يفتشون في سائر البلاد على من يكون بهذه الصفة.

هذا ما كان من أمر هؤلاء الملوك وأتباعهم، وأما ما كان من أمر نور الدين المصري ومريم الزنارية بنت ملك إفرنجة، فإنهما ركبًا بعد انهزام الملك وعساكره من وقتهما وساعتهما، وسارًا إلى بلاد الشام، وقد ستر عليهما الستار، فوصلًا إلى مدينة دمشق، وكانت الطوالع التي أرسلها الخليفة قد سبقتهما إلى دمشق بيوم، فعلم أمير دمشق أنه مأمورٌ بالقبض عليهما متى وجدهما ليُحضرهما بين يدي الخليفة، فلما كان يوم دخولهما إلى دمشق، أقبلَ عليهما الجواسيس فسألوهما عن اسمهما، فأخبراهم بالصحيح، وقصًا عليهم قصتهما وجميع ما جرى عليهما، فعرفوهما وقبضوا عليهما، وأخذوهما وساروا بهما إلى أمير دمشق، فأرسلهما إلى الخليفة بمدينة بغداد دار السلام، فلما وصلوا إليها استأذنوا في الدخول على أمير المؤمنين هارون الرشيد، فأذنَ لهم، فلما دخلوا عليه قبلوا الأرض بين يديه، وقالوا له: يا أمير المؤمنين، إن هذه مريم الزنارية بنت ملك إفرنجة، وهذا نور الدين ابن التاجر تاج الدين المصري الأسير، الذي أفسدها على أبيها وسرقها من بلاده ومملكته، وهرب بها إلى دمشق، فوجدناها وقت دخولهما دمشق وسألناهما عن اسميهما فأجابانا بالصحيح، فعند ذلك أتينا بهما وأحضرناهما بين يديك. فنظر أمير المؤمنين إلى مريم فرأها رشيقةً القدَّ والقوام، فصيحة الكلام، مليحة أهل زمانها، فريدة عصرها وأوانها، حلوة اللسان، ثابتة الجنان، قوية القلب، فلما وصلتْ إليه قبلتْ الأرض بين يديه ودعتْ له بدوام العز والنعم، وزوال البؤس والنقم، فأعجبَ الخليفة حُسْن قوامها وعذوبة ألفاظها وسرعة جوابها، فقال لها: هل أنت مريم الزنارية بنت ملك إفرنجة؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين وإمام الموحدين، وحامي حومة الدين وابن عمِّ سيد المرسلين. فعند ذلك التفتَ الخليفة فرأى عليًّا نور الدين، شابًّا مليحًا حسن الشكل كأنه البدر المنير في ليلة تمامه، فقال له الخليفة: هل أنت علي نور الدين الأسير ابن التاجر تاج الدين المصري؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وعمدة القاصدين. فقال الخليفة: كيف أخذت هذه الصبية من مملكة أبيها وهربت بها؟ فصار نور الدين يحدثُ الخليفة بجميع ما جرى له من أول الأمر إلى آخره، فلما فرغ من حديثه تعجَّب الخليفة من ذلك غاية العجب، وأخذه من التعجُّب فرط الطرب، وقال: ما أكثر ما يقاسيه الرجال! وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة هارون لما سأل نور الدين عن قصته، أخبره بجميع ما جرى له من المبتدأ إلى المنتهى، فتعجب الخليفة من ذلك غاية العجب وقال: ما أكثر ما يقاسيه الرجال! ثم إنه التفت إلى السيدة مريم وقال لها: يا مريم، اعلمي أن والدك ملك إفرنجة قد كاتبنا في شأنك، فما تقولين؟ قالت: يا خليفة الله في أرضه، وقائماً بسنة نبية وفرضه، خلد الله عليك النعم، وأجارك من البؤس والنقم، أنت خليفة الله في أرضه، إني قد دخلت دينكم لأنه هو الدين القويم الصحيح، وتركت ملة الكفرة الذين يتكذبون على المسيح، وقد صرت مؤمنة بالله الكريم، ومصدقة بما جاء به رسوله الرحيم، أعبد الله سبحانه وتعالى وأوحده، وأسجد خاضعةً إليه وأمجده، وأنا قائلة بين يدي الخليفة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون؛ فهل في وسعك يا أمير المؤمنين أن تقبل كتاب ملك الملحين، وترسلني إلى بلاد الكافرين، الذين يشركون بالملك العلام، ويعظمون الصليب ويعبدون الأصنام، ويعتقدون إلهية عيسى وهو مخلوق؟ فإن فعلت بي ذلك يا خليفة الله، أتعلق بأذيك يوم العرض على الله، وأشكوك إلى ابن عمك رسول الله ﷺ يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. فقال أمير المؤمنين: يا مريم، معاذ الله أن أفعل ذلك أبداً، كيف أردت امرأة مسلمة موحدة بالله ومصدقة برسوله، إلى ما نهى الله عنه ورسوله؟ فقالت مريم: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فقال لها أمير المؤمنين: يا مريم، بارك الله فيك، وزادك هدايةً إلى الإسلام، وحيث كنت مسلمة موحدة بالله، فقد صار لك علينا حق واجب، وهو أنني لا أفرط فيك أبداً، ولو بذل لي من أجلك ملء الأرض جواهر وذهباً؛ فطبيبي نفساً وقرري عيناً وانشرحي صدرًا، ولا يكن خاطرك إلا طيباً، فهل رضيت أن يكون هذا الشاب علي المصري لك بعلًا وتكوني له أهلاً؟ فقالت مريم: يا أمير المؤمنين،

كيف لا أَرْضَى أَنْ يَكُونَ لِي بَعْلًا، وَقَدْ اشْتَرَانِي بِمَالِهِ وَأَحْسَنَ إِلَيَّ غَايَةَ الْإِحْسَانِ، وَمَنْ تَمَامُ إِحْسَانِهِ أَنَّهُ خَاطَرَ بِرُوحِهِ مِنْ أَجْلِي مَرَاتٍ عَدِيدَةً. فَرُؤِجَهَا بِهِ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَمِلَ لَهَا مَهْرًا وَأَحْضَرَ الْقَاضِي وَالشُّهُودَ وَأَكَابِرَ دَوْلَتِهِ يَوْمَ زَوَاجِهَا عِنْدَ كُتُبِ الْكِتَابِ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ التَّفَتَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَقْتِهِ وَسَاعَتِهِ إِلَى وَزِيرِ مَلِكِ الرُّومِ، وَكَانَ حَاضِرًا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَقَالَ لَهُ: هَلْ سَمِعْتَ كَلَامَهَا؟ كَيْفَ أُرْسِلَهَا إِلَى أَبِيهَا الْكَافِرِ وَهِيَ مُسْلِمَةٌ مُوَحَّدَةٌ؟ وَرَبِّمَا سَاءَهَا وَأَغْلَظَ عَلَيْهَا، خُصُوصًا وَقَدْ قَتَلْتُ أَوْلَادَهُ، فَاتَّحَمَلْتُ أَنَا ذَنْبَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، فَارْجِعْ إِلَى مَلِكِكَ وَقُلْ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَلَا تَطْمَعْ فِيهِ. وَكَانَ ذَلِكَ الْوَزِيرُ أَحْمَقُ، فَقَالَ لِلْخَلِيفَةِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَقَّ الْمَسِيحُ وَالِدِينَ الصَّحِيحَ، إِنِّي لَا يُمْكِنُنِي الرَّجُوعُ دُونَ مَرْيَمَ وَلَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً؛ لِأَنِّي لَوْ رَجَعْتُ إِلَى أَبِيهَا دُونَهَا يَقْتُلَنِي. فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: خَذُوا هَذَا الْمَلْعُونِ وَاقْتُلُوهُ. وَأَنْشَدَ هَذَا الْبَيْتَ:

هَذَا جَزَاءُ مَنْ عَصَى مَنْ فَوْقَهُ وَعَصَانِيَهُ

ثُمَّ أَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِ الْوَزِيرِ الْمَلْعُونِ وَحَرْقِهِ، فَقَالَتِ السَّيِّدَةُ مَرْيَمُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا تَنْجَسْ سَيْفَكَ بِدَمِ هَذَا الْمَلْعُونِ. ثُمَّ جَرَّدَتْ سَيْفَهَا وَضَرَبَتْهُ بِهِ، فَأَطَاحَتْ رَأْسُهُ عَنْ جَنْتِهِ، فَذَهَبَ إِلَى دَارِ الْبُورَارِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْقَرَارُ، فَتَعَجَّبَ الْخَلِيفَةُ مِنْ صَلَابَةِ سَاعِدِهَا وَقُوَّةِ جَنَانِهَا، ثُمَّ خَلَعَ عَلَى نَوْرِ الدِّينِ خُلْعَةً سَنِيَّةً، وَأَفْرَدَ لَهَا مَكَانًا فِي قَصْرِهِ هِيَ وَنَوْرُ الدِّينِ وَرَتَّبَ لَهَا الْمُرْتَبَاتِ وَالْجَوَامِكِ وَالْعُلُوفَاتِ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُنْقَلَ إِلَيْهِمَا جَمِيعُ مَا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَابِسِ وَالْمَفَارِشِ وَالْأَوَانِي النَّفِيسَةِ، وَأَقَامَا فِي بَغْدَادَ مَدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، وَهُمَا فِي أَرْغَدٍ عَيْشَ وَأَمْنَاهُ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ اشْتَقَ نَوْرُ الدِّينِ إِلَى أُمِّهِ وَأَبِيهِ، فَعَرَضَ الْأَمْرَ عَلَى الْخَلِيفَةِ وَطَلَبَ مِنْهُ إِذْنًا فِي التَّوَجُّهِ إِلَى بِلَادِهِ وَزِيَارَةِ أَقَارِبِهِ، وَدَعَا بِمَرْيَمَ وَأَحْضَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَجَازَهُ بِالتَّوَجُّهِ وَأَتَحَفَّهُ بِالْهَدَايَا وَالتَّحْفِ الْمُثَنَّى، وَأَوْصَى مَرْيَمَ وَنَوْرَ الدِّينِ بِبَعْضِهِمَا، ثُمَّ أَمَرَ بِالْمَكَاتِيبِ إِلَى أَمْرَاءِ مِصْرَ الْمُحْرُوسَةِ وَعِلْمَائِهَا وَكِبَرَائِهَا بِالْوَصِيَّةِ عَلَى نَوْرِ الدِّينِ هُوَ وَوَالِدَيْهِ وَجَارِيَتِهِ، وَإِكْرَامِهِمْ غَايَةَ الْإِكْرَامِ. فَلَمَّا وَصَلَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى مِصْرَ، فَرِحَ التَّاجِرُ تَاجُ الدِّينِ بِعُودِ وَلَدِهِ نَوْرِ الدِّينِ، وَكَذَلِكَ أُمُّهُ فَرِحَتْ بِذَلِكَ غَايَةَ الْفَرَحِ، وَخَرَجَ لِلِقَائِهِ الْأَكَابِرَ وَالْأَمْرَاءَ وَأَرْبَابَ الدَّوْلَةِ، مِنْ أَجْلِ وَصِيَّةِ الْخَلِيفَةِ، فَلَاقُوا نَوْرَ الدِّينِ، وَكَانَ لَهُمْ يَوْمَ مَشْهُودٌ مُلِيحٌ عَجِيبٌ،

اجتمع فيه المحب والمحبوب، واتصل الطالب بالمطلوب، وصارت الولائم كلّ يوم على واحد من الأمراء، وفرحوا بهم الفرح الزائد، وأكرمهم الإكرام المتصاعد. فلما اجتمع نور الدين بوالدته ووالده، فرحوا ببعضهم غاية الفرح، وزال عنهم الهمُّ والتَّرح، وكذلك فرحوا بالسيدة مريم وأكرموها غاية الإكرام، ووصلت إليهم الهدايا والتحف من سائر الأمراء والتجار العظام، وصاروا كلّ يوم في انشراح جديد وسرور أعظم من سرور العيد. ولم يزلوا في فرح ولذات، ونعم جزيلة مطربات، وأكل وشرب وفرح وسرور مدةً من الزمان، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرّق الجماعات، ومخرّب الدور والقصور ومعمّر بطون القبور، فانتقلوا من الدنيا بالممات، وصاروا في عداد الأموات، فسبحان الحي الذي لا يموت، وبيده مقاليد الملك والملوكوت.

حكاية الأمير شجاع الدين والمرأة الإفرنجية

ومما يُحكى أيضًا أن الأمير شجاع الدين محمد متولي القاهرة قال: بتنا عند رجل من بلاد الصعيد فضيّقنا وأكرمنا، وكان ذلك الرجل أسمرَ شديد السُّمرة وهو شيخ كبير، وكان له ولد صغار بيض، بياضهم مشرّب بحُمرة، فقلنا: يا فلان، ما بال أولادك هؤلاء بيضًا وأنت شديد السُّمرة؟ فقال: هؤلاء أمهم إفرنجية، أخذتها ولي معها حديث عجيب. فقلنا له: أتَحِفُّنا به. فقال: نعم، اعلموا أنني قد كنتُ زرعْتُ كِتَانًا في هذه البلدة وقلعته ونفضته وصرفت عليه خمسمائة دينار، ثم أردتُ بيعه فلم يجئ لي منه شيء أكثر من ذلك. فقالوا لي: اذهب به إلى عكاء لعلك تربح فيه ربحًا عظيمًا. وكانت عكاء ذلك الوقت في يد الإفرنج، فذهبتُ به إلى عكاء وبعْتُ بعضه صبرًا إلى ستة أشهر، فبينما أنا أبيع إذ مرّت بي امرأة إفرنجية، وعادة نساء الإفرنج أن تمشي في السوق بلا نقاب، فأتت لتشتري مني كِتَانًا، فرأيتُ من جمالها ما بهر عقلي، فبعْتُ لها شيئًا وتساهلت في الثمن، فأخذته وانصرفت، ثم عادت إليّ بعد أيام فبعْتُ لها شيئًا وتساهلت معها أكثر من المرة الأولى، فكُرِّرتُ مجيئها لي وعرفت أنني أحبها، وكان عادتُها أن تمشي مع عجوز، فقلت للعجوز التي معها: إني قد شُغِفْتُ بحبها، فهل تتحيّلين لي في الاتصال بها؟ فقالت: أتحيّل لك في ذلك، ولكن هذا السر لا يخرج من بين ثلاثتنا، أنا وأنت وهي، ومع ذلك لا بد من أن تبذل مالا. فقلتُ لها: إذا ذهبْتُ رُوحِي باجتماعي عليها فما هو كثير. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكّنت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما أجابت ذلك الرجل، قالت له: ولكن هذا السر لا يخرج من بين ثلاثتنا، أنا وأنت وهي، ولا بد من أن تبذل مالا. فقال لها: إذا ذهبت رُوحِي باجتماعي عليها فما هو كثير. واتفق الحال على أن يدفع لها خمسين دينارا وتجيء إليه، فجَهَّزَ الخمسين دينارا وسَلَّمَهَا للعجوز. فلما أخذت الخمسين دينارا قالت له: هيئْ لها موضعا في بيتك وهي تجيء إليك في هذه الليلة. ثم قال: فمضيتُ وجَهَّزْتُ ما قدرتُ عليه من مأكَل ومشرب وشمع وحلوى، وكانت دارِي مُطَلَّةً على البحر، وكان ذلك في زمن الصيف، ففرشتُ على سطح الدار، وجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا، وجَنَّ الليل فنمنا تحت السماء والقمر يضيء علينا، وسرنا ننظر خيالَ النجوم في البحر؛ فقلتُ في نفسي: أَمَا تستحي من الله عز وجل وأنت غريب وتحت السماء وعلى البحر وتعصي الله تعالى مع نصرانية، وتستوجب عذابَ النار؟ اللهم إني أُشْهِدُكَ أَنِّي قد عَفَفْتُ عن هذه النصرانية في هذه الليلة حياءً منك وخوفاً من عقابك.

ثم إني نمتُ إلى الصبح وقامت في السَّحَر وهي غَضْبَى ومَضَتْ إلى مكانها، ومشيتُ أنا إلى حانوتي فجلستُ فيه، وإذا هي قد عبرتْ عليَّ هي والعجوز وهي مُغَضَّبَةٌ وكأنها القمر، فهلكتُ وقلتُ في نفسي: مَنْ هو أنت حتى تترك هذه الجارية؟ هل أنت السَّرِيُّ السَّقَطِي، أو بِشْر الحافي، أو الجُنَيْدُ البغدادِي، أو الفُضَيْلُ بن عياض؟ ثم لحقتُ العجوزَ وقلتُ لها: ارجعي إليَّ بها. فقالت العجوز: وحقَّ المسيح ما ترجع إليك إلا بمائة دينار. فقلتُ: أعطيك مائة دينار. ثم أعطيتها المائة دينار وجاءت إليَّ ثاني مرة، فلما صارت عندي رجعتُ إلى تلك الفكرة، فعففتُ عنها وتركتها لله تعالى، ثم مضيتُ ومشيتُ إلى موضعي. ثم عبرتْ عليَّ العجوزُ وهي غَضْبَى، فقلتُ لها: ارجعي بها إليَّ. فقالت: وحقَّ المسيح، ما

بقيتَ تفرح بها عندك إلا بخمس مائة دينار وتموت كمداً. فارتعدتُ لذلك، وعزمتُ أن أغرم ثمنَ الكتّان جميعه وأفدي نفسي بذلك، فما شعرتُ إلا والمنادي ينادي ويقول: يا معاشر المسلمين، إن الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضتْ، وقد أمهلنا من هنا من المسلمين جمعةً ليقضوا أشغالهم وينصرفوا إلى بلادهم. فانقطعتُ عني وأخذتُ في تحصيل ثمن الكتّان الذي اشتراه مني الناس مؤجلاً والمقايضة على ما بقي منه، وأخذتُ معي بضاعةً حسنةً، وخرجتُ من عكاء وأنا في قلبي من الإفرنجية ما فيه من شدة المحبة والعشق؛ لأنها أخذتُ قلبي ومالي.

ثم خرجتُ وسرتُ حتى وصلتُ دمشق وبعثتُ البضاعة التي أخذتها من عكاء بأقصى ثمنٍ لانقطاع وصولها بسبب انقضاء مدة الهدنة، ومَنَّ الله سبحانه وتعالى عليّ بكسبٍ جيد، وصرتُ أتجر في جواري السَّبْي ليذهب ما بقلبي من الإفرنجية، ولازمتُ التجارة فيهن، فمضتُ عليّ ثلاثُ سنوات وأنا بتلك الحالة، وجرى للملك الناصر مع الإفرنج ما جرى من الوقائع ونصره الله عليهم وأسَرَ جميعَ ملوكهم وفتح بلاد الساحل بإذن الله تعالى، فاتفق أنه جاء رجل وطلب مني جارية للملك الناصر، وكان عندي جارية حسنة فعرضتها عليه، فاشترها له مني بمائة دينار، فأوصلني تسعين ديناراً وبقي لي عشرة دنانير، فلم يجدوها في خزنته ذلك اليوم؛ لأنه أنفق الأموال جميعها في حرب الإفرنج، فأخبروه بذلك، فقال الملك: امضوا به إلى خزنة السَّبْي وخبروه بين بنات الإفرنج ليأخذ واحدةً منهن في العشرة دنانير. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك الناصر لما قال: خيروه في واحدةٍ منهن ليأخذها في العشرة دنانير التي له، أخذوني وتوجَّهوا بي إلى خزنة السَّبي، فنظرتُ ما فيها وتأملتُ في جميع السَّبي فرأيتُ الجاريةَ الإفرنجيةَ التي كنتُ تعلَّقتُ بها وعرفتُها حق المعرفة، وكانت امرأةً فارسيٍّ من فرسان الإفرنج، فقلتُ: أعطوني هذه. فأخذتها ومضيتُ إلى خيمتي وقلتُ لها: أتعرفيني؟ قالت: لا. قلتُ: أنا صاحبك الذي كنتُ أتاخر في الكتَّان، وقد جرى لي معك ما جرى، وأخذتُ مني الذهب وقلتُ: ما بقيتُ تنظرني إلا بخمسمائة دينار، وقد أخذتُك ملكاً بعشرة دنانير. فقالت: هذا سرُّ دينك الصحيح، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فأسلمتُ وحسُنَ إسلامها، فقلتُ في نفسي: والله لا أضي إليها إلا بعد عتقها وإطلاع القاضي. فرُحْتُ إلى ابن شداد وحكيْتُ له ما جرى وعقد لي عليها، ثم بعد ذلك بُتُّ معها فحملتُ، ثم رحل العسكر وأتينا دمشق، فما كان إلا أيام قلائل وأتى رسول الملك يطلب الأسارى والسَّبي باتفاقٍ وقَعَ بين الملوك، فردَّ كلُّ مَنْ كان أسيراً من النساء والرجال، ولم يَبَقْ إلا المرأة التي عندي، فقالوا: إن امرأةً الفارس فلان لم تحضر. وسألوا عنها وألحوا في السؤال والكشف، فأخبروا بأنها عندي، فطلبوها مني، فحضرتُ وأنا في شدَّةِ الولِّه وقد تغيَّرَ لوني. فقالت لي: ما لك، وما الذي أصابك؟ فقلتُ: جاء رسول الملك يأخذ الأسارى جميعهم وطلبوك مني. فقالت: لا بأس عليك، أوصلني إلى الملك وأنا أعرف الذي أقوله بين يديه. قال: أخذتها وأحضرتها قدام السلطان الملك الناصر، ورسول ملك الإفرنج جالسٌ على يمينه. وقلتُ: هذه المرأة التي عندي. فقال لها الملك الناصر والرسول: أتروحين إلى بلادك أم إلى زوجك؟ فقد فكَّ الله أسركِ أنتِ وغيركِ. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمتُ وحملتُ وها بطني كما ترون، وما بقيتُ الإفرنج تنتفع بي. فقال الرسول: أيما

أَحَبُّ إِلَيْكَ، أَهَذَا الْمُسْلِمُ أَمِ زَوْجُكَ الْفَارِسُ فَلَانُ؟ فَقَالَتْ لَهُ كَمَا قَالَتْ لِلسُّلْطَانِ. فَقَالَ الرَّسُولُ لَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْإِفْرَنْجِ: هَلْ سَمِعْتُمْ كَلَامَهَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ لِي الرَّسُولُ: خذِ امْرَأَتَكَ وَامْضِي بِهَا. فَمَضَيْتُ بِهَا، ثُمَّ إِنَّهُ أَرْسَلَ خَلْفِي عَاجِلًا وَقَالَ: إِنَّ أُمَّهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهَا مَعِيَ وَدِيعَةً وَقَالَتْ: إِنَّ بِنْتِي أُسِيرَةٌ وَهِيَ عَرِيَانَةٌ، وَمُرَادِي أَنْ تَوْصَلَ إِلَيْهَا هَذَا الصَّدُوقَ، فَخَذَهُ وَسَلَّمَهُ إِلَيْهَا. فَتَسَلَّمْتُ الصَّدُوقَ وَمَضَيْتُ بِهِ إِلَى الدَّارِ وَأَعْطَيْتُهُ لَهَا، فَفَتَحَتْهُ فَرَأَتْ فِيهِ قِمَاشَهَا بَعِينَهُ وَوَجَدَتْ الصِّرَتَيْنِ الذَّهَبَ وَالْخَمْسِينَ دِينَارًا وَالْمِائَةَ دِينَارَ، فَرَأَيْتُ الْجَمِيعَ بِرِبَاطِي لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ، وَحَمَدْتُ اللَّهَ تَعَالَى، وَهَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ مِنْهَا، وَهِيَ تَعِيشُ إِلَى الْآنَ، وَهِيَ الَّتِي عَمَلْتُ لَكُمْ هَذَا الطَّعَامَ. فَتَعَجَّبْنَا مِنْ حِكَايَتِهِ وَمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْحِظِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

حكاية الفتى البغدادي والجارية

وَمِمَّا يُحْكَى أَنَّهُ كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ رَجُلٌ بَغْدَادِيٌّ مِنْ أَوْلَادِ أَهْلِ النَّعَمِ، وَرَثَ عَنْ أَبِيهِ مَالًا جَزِيلًا، وَكَانَ يَعْشَقُ جَارِيَةً فَاشْتَرَاهَا وَكَانَتْ تَحِبُّهُ كَمَا يَحِبُّهَا، وَلَمْ يَزَلْ يَنْفَقُ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ ذَهَبَ جَمِيعُ مَالِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَطَلَبَ شَيْئًا مِنْ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ يَتَعَيَّشُ فِيهِ فَلَمْ يَقْدِرْ، وَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى فِي أَيَّامِ غِنَاهُ يَحْضُرُ مَجَالِسَ الْعَارِفِينَ بِصِنَاعَةِ الْغِنَاءِ، فَبَلَغَ فِيهَا الْغَايَةَ الْقَصْوَى، فَاسْتَشَارَ أَحَدَ إِخْوَانِهِ فَقَالَ لَهُ: أَنَا لَا أَعْرِفُ لَكَ صِنْعَةً أَحْسَنَ مِنْ أَنْ تَغْنِيَ أَنْتَ وَجَارِيَتُكَ، فَتَأْخُذَ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ الْكَثِيرِ وَتَأْكُلَ وَتَشْرَبَ. فَكَّرَهُ ذَلِكَ هُوَ وَالْجَارِيَةُ، فَقَالَتْ لَهُ جَارِيَتُهُ: قَدْ رَأَيْتُ لَكَ رَأْيًا. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَتْ: تَبِيعْنِي وَنَخْلُصَ مِنْ هَذِهِ الشَّدَةِ أَنَا وَأَنْتَ، وَأَكُونَ فِي نِعْمَةٍ، فَإِنْ مِثْلِي لَا يَشْتَرِيهِ إِلَّا ذُو نِعْمَةٍ، وَبِذَلِكَ أَكُونُ سَبَبًا فِي رَجُوعِي إِلَيْكَ. فَأَطْلَعَهَا إِلَى السُّوقِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ رَأَاهَا رَجُلٌ هَاشِمِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَدِيبًا ظَرِيفًا كَرِيمَ النَّفْسِ، فَاشْتَرَاهَا بِأَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ، قَالَ ذَلِكَ الْفَتَى صَاحِبَ الْجَارِيَةِ: فَلَمَّا قَبِضْتُ الثَّمَنَ نَدِمْتُ وَبَكَيْتُ أَنَا وَالْجَارِيَةُ، وَطَلَبْتُ الْإِقَالَةَ فَلَمْ يَرْضَ، فَوَضَعْتُ الدَّنَانِيرَ فِي الْكِيسِ وَأَنَا لَا أَدْرِي أَيْنَ أَذْهَبُ؛ لِأَنَّ بَيْتِي مَوْحِشٌ مِنْهَا، وَحَصَلَ لِي مِنَ الْبُكَاءِ وَاللُّطْمِ وَالنَّحِيبِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لِي قَطُّ، فَدَخَلْتُ بَعْضَ الْمَسَاجِدِ وَقَعَدْتُ أَبْكِي فِيهِ، وَانْدَهَشْتُ حَتَّى صَرْتُ لَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي، فَنَمْتُ وَتَرَكْتُ الْكِيسَ تَحْتَ رَأْسِي كَالْمَخْدَةِ، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَإِنْسَانٌ قَدْ جَذَبَهُ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي وَمَضَى يَهْرُولُ، فَانْتَبَهْتُ فَرَزَعًا مَرْعُوبًا فَلَمْ أَجِدْ الْكِيسَ، فَقَمْتُ أَجْرِي خَلْفَهُ وَإِذَا بِرَجُلِي مَرْبُوطَةٌ فِي حَبْلٍ، فَوَقَعْتُ عَلَى وَجْهِهِ وَصَرْتُ أَبْكِي وَالطَّمْ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: فَارْقَتُكَ رُوحُكَ وَضَاعَ مَالُكَ. وَأَدْرَكَ شَهْرُزَادُ الصَّبَاحَ، فَسَكَتَتْ عَنِ الْكَلَامِ الْمُبَاحِ.

فلما كانت الليلة ٨٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ذلك الفتى لما ضاع منه الكيس قال: قلتُ في نفسي: فارقتُك رُوحُكَ وضاعَ مالُكَ. وزاد بي الحال فجتُّ إلى الدجلة وحملت ثوبي على وجهي وألقيتُ نفسي في البحر، ففطنَ بي الحاضرون وقالوا: إنَّ ذلك لعظيم همٍّ حصل له. فرموا أرواحهم خلفي وأطلعوني وسألوني عن أمري، فأخبرتهم بما حصل لي فتأسَّفوا لذلك، ثم جاءني شيخ منهم وقال: قد ذهب مالك وكيف تتسبَّب في ذهاب رُوحك فتكون من أهل النار؟ قُمْ معي حتى أرى منزلك. ففعلتُ ذلك، فلما وصلنا إلى منزلي قعد عندي ساعة حتى سكن ما بي، فشكرته على ذلك، ثم انصرف، فلما خرج من عندي كدتُ أن أقتل رُوحِي فتذكَّرتُ الآخرة والنار، فخرجتُ من بيتي هاربًا إلى أحد الأصدقاء، فأخبرته بما جرى لي، فبكى رحمةً لي وأعطاني خمسين دينارًا وقال: اقبلْ رأيي واخرج في هذه الساعة من بغداد، واجعل هذه نفقةً لك، إلى أن يشتغل قلبك عن حبِّها وتسلو عنها، وأنت من أولاد أهل الإنشاء والكتابة، وخطك جيد، وأدبك بارع، فاقصد مَن شئتَ من العمال واطرح نفسك عليه، لعل الله يجمعك بجاريتك. فسمعتُ منه وقد قوي عزمي وزال عني بعض همِّي، وعزمت على أني أقصد أرض واسط؛ لأن لي بها أقارب؛ فخرجتُ إلى ساحل البحر فرأيتُ سفينةً راسيةً والبحرية ينقلون إليها أمتعة وقماشًا فاخرًا، فسألتهم أن يأخذوني معهم، فقالوا: إن هذه السفينة لرجل هاشمي ولا يمكننا أخذك على هذه الصورة. فرغبتُهم في الأجرة، فقالوا: إن كان ولا بد فاقلع هذه الثياب الفاخرة التي عليك، والبس ثياب الملاحين واجلس معنا كأنك واحدٌ منَّا. فرجعتُ واشتريتُ شيئًا من ثياب الملاحين ولبسته وجئتُ إلى السفينة، وكانت متوجَّهةً إلى البصرة، فنزلت معهم، فما كان إلا ساعة حتى رأيتُ جاريتي بعينها ومعها جاريتان يخدمانها، فسكن ما كان عندي من الغيظ وقلتُ في نفسي: ها أنا أراها وأسمع غناها إلى البصرة. فما أسرع أن جاء الهاشمي راكبًا ومعه جماعة، فنزلوا

في تلك السفينة وانحدرت بهم، وأخرج الطعام فأكل هو والجارية، وأكل الباقون في وسط السفينة، ثم قال الهاشمي للجارية: كم هذا التمتع عن الغناء ولزوم الحزن والبكاء؟ ما أنتِ أول مَنْ فارقَ مَنْ يحب! فعلتُ ما كان عندها من أمر حبي، ثم ضرب سائرًا على الجارية في جانب السفينة، واستدعى الذين كانوا في ناحيتي وجلس معهم خارج الستارة، فسألتُ عنهم فإذا هم إخوته، ثم أخرج لهم ما يحتاجون إليه من الخمر والنقل، ولم يزالوا يحتنون الجارية على الغناء إلى أن استدعت العود وأصلحت، وأخذت تغني فأنشدت هذين البيتين:

بَانَ الْخَلِيطُ بِمَنْ أَحَبُّ فَأَدَلَّجُوا وَعَنِ السُّرَى بِمُنَايَ لَمْ يَتَحَرَّجُوا
وَالصَّبُّ بَعْدَ أَنْ اسْتَقَلَّ رِكَابُهُمْ جَمَرُ الْغُصَا فِي قَلْبِهِ يَتَأَجَّجُ

ثم غلبها البكاء ورمت العود وقطعت الغناء، فتنغصص القوم ووقعت أنا مغشيًا عليّ، فظنَّ القوم أنني قد صرعت، فصار بعضهم يقرأ في أذني، ولم يزالوا يلاطفونها ويطلبون منها الغناء إلى أن أصلحت العود وأخذت تغني، فأنشدت هذين البيتين:

فَوَقَفْتُ أَنْدَبُ ظَاعِنِينَ تَحَمَّلُوا هُمْ فِي الْفُؤَادِ وَإِنْ نَأَوْا وَتَرَحَّلُوا
وَوَقَفْتُ بِالْأَطْلَالِ أَسْأَلُ عَنْهُمْ وَالِدَارُ قَفَرٌ وَالْمَنَازِلُ بَلَقَعُ

ثم وقعت مغشيًا عليها وارتفع البكاء من الناس، وصرخت أنا ووقعت مغشيًا عليّ، وضجَّ الملاحون مني، فقال بعض غلمان الهاشمي: كيف حملتم هذا المجنون؟ ثم قال بعضهم لبعض: إذا وصلتم إلى بعض القرى فأخرجوه وأريحونا منه. فحصل لي من ذلك همٌّ عظيمٌ وعذابٌ أليمٌ، فتجلدْتُ غاية التجلُّد وقلتُ في نفسي: لا حيلة لي في الخلاص من أيديهم، إلا إذا أعلمتها بمكاني من السفينة لتمتنع من إخراجي. ثم سرنا حتى وصلنا إلى قرب ضيعة، فقال صاحب السفينة: اصعدوا بنا إلى الشاطئ. فطلع القوم وكان ذلك وقت المساء، فقمْتُ حتى صرت خلف الستارة، وأخذتُ العودَ وَغَيَّرْتُ الطَّرْقَ طَرِيقَةً بَعْدَ طَرِيقَةٍ، وضربتُ على الطريقة التي قد تعلَّمتُها مني، ثم رجعتُ إلى موضعي من السفينة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الفتى قال: ثم رجعتُ إلى موضعي من السفينة، وبعد ذلك نزل القوم من الشاطئ ورجعوا إلى مواضعهم في السفينة، وقد انبسط القمر على البر والبحر، فقال الهاشمي للجارية: بالله عليك لا تنغصي علينا عيشنا. فأخذت العود وجسته بيدها وشهقت، فظنوا أن رُوحها قد خرجت، ثم قالت: والله إن أستاذي معنا في هذه السفينة. فقال الهاشمي: والله لو كان معنا ما ضيَّعته من معاشرتنا؛ لأنه ربما كان يخفّف ما بك فننتفع بغنائك، ولكن كونه في السفينة أمر بعيد. فقالت: لا أقدر على ضرب العود وتقليب الأهوية ومولاي معنا. قال الهاشمي: نسأل الملاحين؟ فقالت: افعل. فسألهم وقال: هل حملتم معكم أحداً؟ فقالوا: لا. فخفتُ أن ينقطع السؤال فضحكتُ وقلتُ: نعم، أنا أستاذها وعلمتُها حين كنتُ سيِّدها. فقالت: والله إن هذا كلام مولاي. فجاءني الغلمان وأخذوني إلى الهاشمي، فلما رأياني عرفني فقال: ويحك، ما هذا الذي أنت فيه؟ وما أصابك حتى صرتَ في هذه الحالة؟ فحكيتُ له ما جرى من أمري وبكيتُ، وعلا نحيب الجارية من خلف الستارة، وبكى الهاشمي هو وإخوته بكاءً شديداً رافّةً بي، ثم قال: والله ما دنوتُ من هذه الجارية ولا وطنتها، ولا سمعتُ لها غناءً إلا اليوم، وأنا رجلٌ قد وسَّع الله عليّ، وإنما وردت بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاقِي من أمير المؤمنين، وقد بلغتُ الأمرين، ولما أردتُ الرجوع إلى وطني قلتُ في نفسي: أسمع شيئاً من غناء بغداد. فاشتريتُ هذه الجارية ولم أعلم أنكما على هذه الحالة، فأنا أشهد الله على أن هذه الجارية إذا وصلتُ إلى البصرة اعتقها وأزوّجك إياها، وأجري لكما ما يكفيكما وزيادة، ولكن على شرط أنني إذا أردتُ السماع يُضرب لها ستارة وتغني من خلف الستارة، وأنت من جملة إخواني وندمائي. ففرحت بذلك، ثم إن الهاشمي أدخلَ رأسه في الستارة وقال لها: أيرضيك ذلك؟ فأخذت

تدعو له وتشكره، ثم استدعى غلاماً له وقال له: خذ بيد هذا الشاب وانزع ثيابه وألبسه ثياباً فاخرة، وبخره وقدمه إلينا. فأخذني الغلام وفعل بي ما أمره سيده، وقدمني إليه، فوضع بين يدي الشراب مثل ما وضعه بين أيديهما، ثم اندفعت الجارية تغني بأحسن النغمات وتنشد هذه الأبيات:

عَيَّرُونِي بِأَنْ سَكَبْتُ دُمُوعِي	حِينَ جَاءَ الْحَبِيبُ لِلتَّوْدِيعِ
لَمْ يَذُوقُوا طَعْمَ الْفِرَاقِ وَلَا مَا	أَحْرَقَتْ لَوْعَةُ الْأَسَى مِنْ ضُلُوعِي
إِنَّمَا يَعْرِفُ الْغَرَامَ كَثِيبٌ	سَاقِطُ الْقَلْبِ بَيْنَ تِلْكَ الرُّبُوعِ

قال: فطرب القوم من ذلك طرباً شديداً، وزاد فرح الفتى بذلك، ثم أخذ العود من الجارية وضرب به على أحسن النغمات، وأنشد هذه الأبيات:

اسْأَلِ الْعُرْفَ إِنْ سَأَلْتَ كَرِيماً	لَمْ يَزَلْ يَعْرِفُ الْغِنَى وَالْيَسَارَا
فَسْأَلِ الْكَرِيمَ يُورِثُ عِزًّا	وَسْأَلِ اللَّئِيمَ يُورِثُ عَارَا
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الذَّلِّ بُدُّ	فَالْقُ بِالذَّلِّ إِنْ سَأَلْتَ الْكِبَارَا
لَيْسَ إِجْلَالُكَ الْكَرِيمَ بِذُلٍّ	إِنَّمَا الذَّلُّ أَنْ تُجِلَّ الصَّغَارَا

ففرح القوم بي وزاد فرحهم، ولم يزالوا في فرح سرور، وأنا أغني ساعةً والجارية ساعةً إلى أن جئنا إلى بعض السواحل، فرست السفينة هناك وصعد كل من فيها وصعدت أنا أيضاً، وكنت سكران، فقعدت أبول فغلبنني النوم فنمت، ورجعت الركاب إلى السفينة وانحدرت بهم، ولم يعلموا بي؛ لأنهم كانوا سكارى وكنت دفعت النفقة إلى الجارية، ولم يبقَ معي شيء، ووصلوا إلى البصرة ولم أنتبه إلا من حر الشمس، فقمْتُ في ذلك والتفتُ فما رأيت أحداً، ونسيت أن أسأل الهاشمي عن اسمه، وأين داره بالبصرة، وبأي شيء يُعرف، وبقيت حيراناً وكأنَّ ما كنتُ فيه من الفرح بقاء الجارية منام، ولم أزل متحيراً حتى اجتاز بي مركبٌ عظيم، ونزلت فيه ودخلت البصرة، وما كنتُ أعرف بها أحداً ولا أعرف بيت الهاشمي، فجئتُ إلى بقالٍ وأخذت منه دواةً وورقة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٩٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن البغدادي صاحب الجارية لما دخل البصرة وصار حيرانَ وهو لا يعرف أحدًا ولا يعرف دار الهاشمي، قال: فجئتُ إلى بَقَالٍ وأخذتُ منه دواةً وورقةً، وقعدتُ أكتب، فاستحسنَ خطي ورأى ثوبي دينسًا، فسألني عن أمري، فأخبرته أنني غريبٌ فقير. فقال: أَتُقيمُ عندي ولك في كل يومٍ نصفُ درهم، وأكلك وكسوتك، وتضبط لي حساب دكاني؟ فقلتُ له: نعم. وأقمتُ عنده وضبطتُ أمره، ودبرتُ له دَخْلَهُ وخَرْجَهُ، فلما كان بعد شهر رأى الرجل دَخْلَهُ زائدًا وخَرْجَهُ ناقصًا، فشكرني على ذلك، ثم إنه جعل لي في كلِّ يوم درهمًا إلى أن حَالَ الحَوْلُ، فدعاني أن أَتَزَوَّجَ بابنته ويشاركني في الدكان، فأجبتَه إلى ذلك ودخلتُ بزوجتي ولزمتُ الدكان، إلا أنني منكسر الخاطر والقلب ظاهر الحزن، وكان البقال يشرب ويدعوني إلى ذلك، فأمتنع حزنًا، فاستمررتُ على تلك الحالة مدة سنتين، فبينما أنا في الدكان وإذا بجماعةٍ معهم طعامٌ وشرابٌ، فسألت البقال عن القضية فقال: هذا يوم المتنعمين، يخرج فيه أهل الطرب واللعب والفتيان من ذوي النعمة إلى شاطئ البحر، يأكلون ويشربون بين الأشجار على نهر الأيلة. فدعَنتي نفسي إلى الفرجة على هذا الأمر، وقلت في نفسي: لعلني إذا شاهدتُ هؤلاء الناس أَجْتَمِعُ بَمَنْ أَحِب. فقلت للبقال: إني أريد ذلك. فقال: شأنك والخروج معهم. ثم جَهَّزَ لي طعامًا وشرابًا وسرتُ حتى وصلتُ إلى نهر الأيلة، فإذا الناس منصرفون، فأردتُ الانصراف معهم، وإذا بريس السفينة التي كان فيها الهاشمي والجارية بعينه وهو سائر في نهر الأيلة، فصحتُ عليهم فعرفني هو ومَنْ معه، وأخذوني عندهم وقالوا لي: هل أنت حيٌّ؟ وعانقوني وسألوني عن قصتي فأخبرتهم بها، فقالوا لي: إِنَّا ظَنَنَّا أَنَّهُ قَوي عليك السُّكْرُ، وغرقتَ في الماء. فسألتهم عن حال الجارية فقالوا: إنها لمَّا علمتُ بفقدك، مَزَقَتْ ثيابها وأحرقَت العود وأقبلت على

اللطم والنحيب، فلما رجعنا مع الهاشمي إلى البصرة قلنا لها: اتركي هذا البكاء والحزن. فقالت: أنا ألبس السواد وأجعل لي قبرًا في جانب هذه الدار، فأقيم عند ذلك القبر وأتوب عن الغناء. فمكّناها من ذلك وهي في تلك الحالة إلى الآن.

ثم أخذوني معهم، فلما وصلتُ إلى الدار رأيتها على تلك الحالة، فلما رأته شهِقْتُ شهقةً عظيمةً حتى ظننتُ أنها ماتت، فاعتنقْتُها عناقًا طويلًا، ثم قال لي الهاشمي: خذها. فقلت: نعم، ولكن أعتقها كما وعدتني وزوّجني بها. ففعل ذلك ودفع إلينا أمتعةً نفيسةً وثيابًا كثيرةً وفرشًا وخمسائة دينار، وقال: هذا مقدار ما أردتُ إجراءه لكما في كل شهر، ولكن بشرط المندامة وسماع الجارية. ثم أدخلنا دارًا وأمر بأن يُنقل إليها جميع ما نحتاج إليه، فلما توجهتُ إلى تلك الدار وجدتُها قد غُمرت بالفرش والقماش، وحُمِلت إليها الجارية. ثم إنني جئتُ إلى البقال وأخبرته بجميع ما حصل لي وسألته أن يجعلني في حلٍّ من طلاق ابنته من غير ذنبٍ، ودفعتُ إليها مهرها وما يلزمي، وأقمتُ مع الهاشمي على ذلك سنتين، وصرتُ صاحبَ نعمةٍ عظيمة، وعادت لي حالتي التي كنتُ فيها أنا والجارية في بغداد، وقد فرّجَ الله الكريم عنا، وأسبَغَ جزيلَ النعم علينا، وجعل مآلَ صبرنا إلى الظفر بالمراد؛ فله الحمد في المبدأ والمعاد، والله أعلم.

حكاية الملك جليعاد والشماس

ومما يُحكى أيضًا أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ملكٌ من بلاد الهند، وكان ملكًا عظيمًا طويل القامة، حسنَ الصورة، حسنَ الخلق، كريم الطباع، مُحسنًا للفقراء، مُحِبًّا للرعية ولجميع أهل دولته، وكان اسمه جليعاد، وكان تحت يده في مملكته اثنان وسبعون ملكًا، ولبلاده ثلاثمائة وخمسون قاضيًا، وكان له سبعون وزيرًا، وقد جعل على كلِّ عشرة من عسكره رئيسًا، وكان أكبرَ وزرائه شخصٌ يقال له شماس، وكان عمره اثنتين وعشرين سنة، وكان حسنَ الخلق والطباع، لطيفًا في كلامه، لبيبًا في جوابه، حاذقًا في جميع أمورهِ، حكيماً مدبرًا رئيسًا مع صغر سنه، عارفًا بكل حكمة وأدب، وكان الملك يحبه محبةً عظيمةً، ويميل إليه لمعرفة بالفصاحة والبلاغة وأحوال السياسة، ولما أعطاه الله من الرحمة وخفض الجناح للرعية.

وكان ذلك الملك عادلاً في مملكته، حافظًا لرعيته، مواصلاً كبيرهم وصغيرهم بالإحسان وما يليق بهم من الرعاية والعطايا والأمان والطمأنينة، ومُخفِّفًا للخراج عن كامل الرعية، وكان مُحِبًّا لهم كبيرًا وصغيرًا، ومعاملاً لهم بالإحسان إليهم والشفقة عليهم، وأتى في

حُسِّنَ سيرته بينهم بما لم يأت به أحدٌ قبله، ومع هذا كله لم يرزقه الله تعالى بولدٍ، فشَقَّ ذلك عليه وعلى أهل مملكته، فاتفق أن الملك كان مضطجعا في ليلةٍ من الليالي وهو مشغول الفكر في عاقبة أمر مملكته، ثم غلب عليه النوم، فرأى في منامه كأنه يصبُّ ماءً في أصل شجرة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك رأى في منامه كأنه يصب ماءً في أصل شجرة، وحول تلك الشجرة أشجار كثيرة، وإذا بنارٍ قد خرجت من تلك الشجرة، وأحرقت جميع ما كان حولها من الأشجار، فعند ذلك انتبه الملك من منامه فزعاً مرعوباً، واستدعى أحد غلمانه وقال له: اذهب بسرعة واتنني بشماس الوزير عاجلاً. فذهب الغلام إلى شماس وقال له: إن الملك يدعوك في هذه الساعة؛ لأنه انتبه من نومه مرعوباً، فأرسلني إليك لتحضر عنده عاجلاً. فلما سمع شماس كلام الغلام قام من وقته وساعته، وتوجه إلى الملك ودخل عليه، فرآه قاعداً على فراشه، فسجد بين يديه داعياً له بدوام العز والنعم، وقال له: لا أحرزك الله أيها الملك، ما الذي أقلقك في هذه الليلة؟ وما سبب طلبك إياي بسرعة؟ فأذن له الملك بالجلوس فجلس، وصار الملك يقص عليه ما رأى قائلاً: إني رأيت في ليلتي هذه مناماً هالني، وهو كأنني أصب ماءً في أصل شجرة، وحول تلك الشجرة أشجار كثيرة، فبينما أنا في هذه الحالة وإذا بنارٍ خرجت من أصل تلك الشجرة، وأحرقت جميع ما حولها من الأشجار، ففزعته من ذلك وأخذني الرعب، فانتبهت عند ذلك وأرسلت دعوتك لكثرة معرفتك، ولما أعلمه من اتساع علمك وغزارة فهمك.

فأطرق شماس رأسه ساعة، ثم تبسم، فقال له الملك: ماذا رأيت يا شماس؟ أصدقني الخبر ولا تخف عني شيئاً. فأجابه شماس وقال له: أيها الملك، إن الله تعالى خولك وأقر عينك، وأمر هذه الرؤيا يتحول إلى كل خير، وهو أن الله تعالى يرزقك ولداً ذكراً يكون وارثاً للملك عنك من بعد طويل عمرك، غير أنه يكون فيه شيء لا أحب تفسيره في هذا الوقت؛ لأنه غير موافق لتفسيره. ففرح الملك بذلك فرحاً عظيماً، وزاد سروره وذهب عنه فزعه وطابت نفسه وقال: إن كان الأمر كذلك من حسن تأويل المنام، فكم لي تأويله إذا جاء الوقت الموافق لكمال تأويله، فالذي لا ينبغي تأويله الآن ينبغي أن تؤوله لي إذا آن أوانه

لأجل أن يكمل فرحي؛ لأنني لا أبتغي بذلك غير رضا الله سبحانه وتعالى. فلما رأى شماس من الملك أنه مصمم على تمام تفسيره، احتجَّ له بحجةٍ دافعَ بها عن نفسه، فعند ذلك دعا الملك بالمنجمين وجميع المعبرين للأحلام الذين في مملكته، فحضرُوا جميعاً بين يديه وقصَّ عليهم ذلك المنام وقال لهم: أريد منكم أن تخبروني بصحة تفسيره. فتقدَّم واحد منهم وأخذ إذناً من الملك بالكلام، فلما أذن له قال: اعلم أيها الملك أن وزيرك شماساً ليس بعاجز عن تفسير ذلك، وإنما هو احتشمَ منك وسكَّن روعك، ولم يُظهر لك جميعَ التأويل بالكلية، ولكن إذا أذنت لي بالكلام تكلمتُ. فقال له الملك: تكلم أيها المفسر بلا احتشام، واصدق في كلامك. فقال المفسر: اعلم أيها الملك أنه يظهر منك غلام يكون وارثاً للملك عنك بعد طول حياتك، ولكنه لا يسير في الرعية بسيرك، بل يخالف رسومك ويجور على رعيتك، ويصيبه ما أصاب الفأر مع السنور، فاستعاز بالله تعالى. فقال الملك: وما حكاية السنور والفأر؟

حكاية السنور والفأر

فقال المفسر: أطلَّ الله عُمرَ الملك، إن السنور — وهو القط — سرح ليلةً من الليالي إلى شيءٍ يفترسه في بعض الغيطان، فما وجد شيئاً وضعفَ من شدة البرد والمطر اللذين صارا في تلك الليلة، فأخذ يحتال لنفسه بشيءٍ، فبينما هو دائر على تلك الحالة، إذ رأى وكرًا في أسفل شجرة، فدنا منه وصار يشمشم ويدندن حتى أحسَّ أن داخل الوكر فأرًا، فحاوله وهمَّ بالدخول عليه لكي يأخذه، فلما أحسَّ به الفأر أعطاه قفاه، وصار يزحف على يديه ورجليه لكي يسدَّ باب الوكر عليه، فعند ذلك صار السنور يصوت صوتاً ضعيفاً ويقول له: لمَ تفعل ذلك يا أخي، وأنا ملتجئ إليك لتفعل معي رحمة، بأن تقرني في وكرك هذه الليلة؟ لأنني ضعيف الحال من كِبَر سني وذهاب قوتي، ولست أقدر على الحركة، وقد توغَّلتُ في هذا الغيط هذه الليلة، وكم دعوت بالموت على نفسي لكي أستريح، وها أنا على بابك طريح من البرد والمطر، وأسألك بالله من صدقتك أن تأخذ بيدي وتدخلني عندك وتأويني في دهليز وكرك؛ لأنني غريبٌ ومسكينٌ، وقد قيل: مَنْ أوى بمنزله غريباً مسكيناً، كان مأواه الجنة يوم الدين. فأنت يا أخي حقيق بأن تكسب أجري وتأذن لي في أن أبيت عندك هذه الليلة إلى الصباح، ثم أروح إلى حال سبيلي. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السَّنُور قال للفأر: ائذن لي أن أبيت عندك هذه الليلة، ثم أروح إلى حال سبيلي. فلما سمع الفأر كلام السَّنُور قال له: كيف تدخل وكري وأنت لي عدوُّ بالطبع، ومعاشك من لحمي؟ وأخاف أن تغدر بي لأن ذلك من شيمتك؛ لأنه لا عهد لك، وقد قيل: لا ينبغي الأمان للرجل الزاني على المرأة الحسنة، ولا للفقير العائل على المال، ولا للنار على الحطب، وليس بواجب عليَّ أن استأمنك على نفسي، وقد قيل: عداوة الطبع كلما ضَعُف صاحبها كانت أقوى. فأجاب السَّنُور قائلاً بأخمد صوت وأسوأ حال: إن الذي قلته من المواعظ حقُّ ولستُ أنكر عليك، ولكن أسألك الصَّفَحَ عمَّا مضى من العداوة الطبيعية التي بيني وبينك؛ لأنه قد قيل: مَنْ صفح عن مخلوق مثله، صفح خالقه عنه. وقد كنتُ قبل ذلك عدوًّا لك، وها أنا اليومَ طالِبُ صداقتك، وقد قيل: إذا أردتَ أن يكون عدوُّكَ لك صديقًا، فافعل معه خيرًا. وأنا يا أخي أعطيك عهد الله وميثاقه أنني لا أضرك أبدًا، ومع هذا ليس لي قدرةٌ على ذلك، فثِقْ بالله وافعل خيرًا واقبل عهدي وميثاقي. فقال الفأر: كيف أقبل عهدَ مَنْ تأسَّستِ العداوة بيني وبينه، وعادتهُ أن يغدر بي؟ ولو كانت العداوة بيننا على شيءٍ من الأشياء غير الدم، لَهانَ عليَّ ذلك، ولكنها عداوة طبيعية بين الأرواح، وقد قيل: مَنْ استأمن عدوَّه على نفسه، كان كَمَنْ أدخَلَ يده في فم الأفعى. فقال السَّنُور وهو ممتلئ غيظًا: قد ضاق صدري وضعتُ نفسي، وها أنا في النزع، وعن قليل أموت على بابك، ويبقى إثمي عليك؛ لأنك قادرٌ على نجاتي ممَّا أنا فيه، وهذا آخر كلامي معك. فحصل للفأر خوفٌ من الله تعالى، ونزلت في قلبه الرحمة، وقال في نفسه: مَنْ أَرَادَ المعونةَ من الله تعالى على عدوِّه، فَلْيَصْنَعْ معه رحمةً وخيرًا، وأنا متوكِّل على الله في هذا الأمر، وأنقِذْ هذا السَّنُورَ من الهلاك لأَكْسِبَ أجره.

فعند ذلك خرج الفأر إلى السَّنُور وأدخله في وكْرِهِ سَحْبًا، فأقام عنده إلى أن اشتدَّ واستراح وتعافى قليلًا، فصار يتأسَّفُ على ضَعْفِهِ وذهاب قوته وقلة أصدقائه، فصار الفأر يترَفَّقُ به ويأخذ بخاطره، ويتقرَّبُ منه ويسعى حوله، وأما السَّنُور فإنه زحف إلى الوكر حتى ملك المخرج خوفًا أن يخرج منه الفأر، فلما أراد الخروج قرب من السَّنُور على عادته، فلما صار قريبًا منه قبض عليه وأخذه بين أظافره، وصار يعضُّه وينثره ويأخذه في فمه، ويرفعه عن الأرض ويرميه ويجري وراءه، وينهشه ويعذِّبه، فعند ذلك استغاث الفأر وطلب الخلاص من الله، وجعل يعاتب السَّنُور ويقول: أين العهد الذي عاهدتني به؟ وأين أقسامك التي أقسمتَ بها؟ أهذا جزائي منك وقد أدخلتكَ وكري واستأمنتكَ على نفسي؟ ولكنَّ صدقَ مَنْ قال: مَنْ أخذ عهدًا من عدوه، فلا يبتغ لنفسه نَجاةً. وَمَنْ قال: مَنْ أسْلَمَ نَفْسَهُ لعدوِّه، كان مستوجبًا لنفسه الهلاك. ولكن توكلْتُ على خالقي، فهو الذي يخلِّصني منك.

فبينما هو على تلك الحالة مع السَّنُور وهو يريد أن يهجم عليه ويفترسه، وإذا برجلٍ صيادٍ معه كلاب جارحة معودة بالصيد، فمرَّ منهم كلب على باب الوكر، فسمع فيه معركةً كبيرةً، فظنَّ أن فيه ثعلبًا يفترس شيئًا، فاندفع الكلب منحدرًا ليصطاده، فصادف السَّنُور فجذبه إليه، فلما وقع السَّنُور بين يدي الكلب، انتهى بنفسه وأطلق الفأر حيًّا ليس فيه جرح، وأما هو فإنه خرج به الكلب الجارح بعد أن قطع عصبه ورماه ميتًا، وصدق في حقهما قول مَنْ قال: مَنْ رَجِمَ رُجْمَ آجِلًا، وَمَنْ ظَلَمَ ظُلْمَ عاجِلًا.

هذا ما جرى لهما أيها الملك، فلذلك لا ينبغي لأحد أن ينقض عهدًا من استأمنه، ومَنْ غدر وخان يحصل له مثل ما حصل للسَّنُور؛ لأنه كما يدين الفتى يُدان، ومَنْ يرجع إلى الخير يَنَلِ الثَّوابَ، ولكن لا تحزن أيها الملك ولا يشق عليك ذلك؛ لأن ولدك بعد ظلمه وعسفه، ربما يعود إلى حُسْنِ سيرتك، وإن هذا العالم الذي هو وزيرك شماس أحبُّ أَلَّا يكتم عليك شيئًا فيما رمزه إليك، وذلك رشْدٌ منه؛ لأنه قد قيل: أكثر الناس خوفًا أوسعهم علمًا وأغبطهم خيرًا.

فأذعنَ الملك عند ذلك، وأمر لهم بإكرامٍ جزيلٍ، ثم صرفهم وقام ودخل مكانه وصار يتفكَّرُ في عاقبة أمره، فلما كان الليل أفضى إلى بعض نساءه، وكانت أكرمهن عنده وأحبَّهن إليه، فراقدها، فلما مضى لها نحو أربعة أشهر تحرَّك الحمل في بطنها، ففرحت بذلك فرحًا شديدًا، وأعلمتِ الملك بذلك فقال: صدقتُ رؤيائي والله المستعان. ثم إنه أنزلها أحسنَ المنازل، وأكرمها غاية الإكرام، وأعطاهما إنعامًا جزيلًا وخولها بشيء كثير، وبعد ذلك دعا

بأحد الغلمان وأرسله ليحضر شماساً، فلما حضر حدثه الملك بما صار من حمل زوجته وهو فرحان قائلاً: قد صدقت رؤياي واتصل رجائي، فلعل ذلك الحمل يكون ولدًا ذكرًا، ويكون وارثًا لمُلُكي، فما تقول يا شماس في ذلك؟ فسكتَ شماس ولم ينطق بجوابٍ، فقال له الملك: ما لي أراك لا تفرح لفرحي، ولا تردُّ لي جوابًا؟ يا تُرى هل كارهٌ لهذا الأمر يا شماس؟ فسجدَ عند ذلك شماس بين يدي الملك وقال: أيها الملك أطالَ الله عمرك، ما الذي ينفع المستظل بشجرةٍ إذا كانتِ النارُ تخرج منها؟ وما لذة شاربِ الخمر الصافي إذا حصل له بها الشَّرَق؟ وما فائدة الناهل من الماء العذب البارد إذا غرق فيه؟ وإنما أنا عبدُ اللهِ ولك أيها الملك، ولكن قد قيل ثلاثة أشياء لا ينبغي للعاقل أن يتكلَّم في شأنها إلا إذا تمَّت: المسافر حتى يرجع من سفره، والذي في الحرب حتى يقهر عدوّه، والمرأة الحامل حتى تضع حملها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٢

حكاية الناسك المدفوق على رأسه السمن

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير شماسًا لما قال للملك: ثلاثة أشياء لا ينبغي للعاقل أن يتكلّم في شأنها إلا إذا تمّت. قال له بعد ذلك: فاعلم أيها الملك أن المتكلم في شأن شيءٍ لم يتمّ مثل الناسك المدفوق على رأسه السمن. فقال له الملك: وكيف حكاية الناسك؟ وما جرى له؟ فقال له: أيها الملك إنه كان إنسان ناسك عند شريف من أشرف بعض المدن، وكان للناسك حراية في كلّ يوم من رزق ذلك الشريف، وهي ثلاثة أرغفة مع قليل من السمن والعسل، وكان السمن في ذلك البلد غاليًا، وكان الناسك يجمع الذي يجيء إليه في جرّة عنده حتى ملأها وعلّقها فوق رأسه خوفًا واحتراسًا، فبينما هو ذات ليلة من الليالي جالس على فراشه وعصاه في يده؛ إذ عرض له فكر في أمر السمن وغلائه، فقال في نفسه: ينبغي أن أبيع هذا السمن الذي عندي جميعه، وأشتري بثلثه نعجة وأشارك عليها أحدًا من الفلاحين، فإنها في أول عام تلد ذكرًا وأنثى، وثاني عام تلد أنثى وذكرًا، ولا تزال هذه الغنم تتوالد ذكورًا وإناثًا حتى تصير شيئًا كثيرًا، وأقسم حصتي بعد ذلك وأبيع فيها ما شئتُ، وأشتري الأرض الفلانية وأنشئ فيها غيبطًا، وأبني فيها قصرًا عظيمًا، وأقتني ثيابًا وملبوسًا، وأشتري عبيدًا وجواري، وأنزّج بنتَ التاجر الفلاني، وأعمل عرسًا ما صار مثله قطّ، وأذبح الذبائح وأعمل الأطعمة الفاخرة والحلويات والملبسات وغيرها، وأجمع فيها أهل الملاعب والفنون وآلات السماع، وأجهز الأزهار والمشمومات وأصناف الرياحين، وأدعو الأغنياء والفقراء والعلماء والرؤساء وأرباب الدولة، وكلّ من طلب شيئًا أحضرته إليه، وأجهز أنواع المأكّل والمشارب، وأطلق مُناديًا ينادي: من يطلب شيئًا يناله. وبعد ذلك أدخل على عروستي بعد جلانها، وأتممت بحُسنها وجمالها، وأكل وأشرب وأطرب، وأقول

لنفسه: قد بلغت مُنَاكِ. وأستريح من النسك والعبادة، وبعد ذلك تحمل زوجتي وتلد غلاماً ذكراً، أفرح به وأعمل له الولائم وأربيّه في الدلال، وأعلّمه الحكمة والأدب والحساب، وأشهرُ اسمَه بين الناس وأفتخر به عند أرباب المجالس، وأمره بالمعروف فلا يخالفني، وأنهاء عن الفاحشة والمنكر، وأوصيه بالتقوى وفعل الخير، وأعطيه العطايا الحسنة السنية، فإن رأيته لزم الطاعة زدته عطايا صالحة، وإن رأيته مالَ إلى المعصية أنزل عليه بهذه العصا. ورفّعها ليضرب بها ولده، فأصابَتْ جُرَّةَ السمن التي فوق رأسه فكسرتُها، فعند ذلك نزلت بشَقَفاتها عليه، وساح السمن على رأسه وعلى ثيابه وعلى لحيته، وصار عبرةً.

فلأجل ذلك أيها الملك لا ينبغي للإنسان أن يتكلّم على شيءٍ قبل أن يصير. فقال له الملك: لقد صدقتَ فيما قلتَ، ونِعَمَ الوزير أنتَ، لكُونِكَ بالصدق نطقْتُ وبالخير أَشْرْتُ، ولقد صارت ربتك عندي على ما تحب ولم تزل مقبولةً. فسجد شماس لله وللملك، ودعا له بدوام النعم وقال له: أدام الله أيامك وأعلى شأنك، واعلم أنني لستُ أكتُم عنك شيئاً لا في السر ولا في العلانية، ورضاك رضيي وغضبك غضبي، وليس لي فرح إلا بفرحك، ولا يمكنني أن أبيتَ وأنتَ ساخطٌ عليّ؛ لأن الله تعالى رزقني بكلّ خيرٍ بإكرامك إياي، فأسأل الله تعالى أن يحرسك بملأكته، ويحسن ثوابك عند لقاءه. فابتهج الملك عند ذلك، ثم قام شماس وانصرف من عند الملك، ثم بعد مدة وضعتُ زوجة الملك غلاماً ذكراً، فنهض المبشرون إلى الملك وبشّروه بغلامه، ففرح بذلك فرحاً شديداً، وشكر الله شكرًا جزيلاً وقال: الحمد لله الذي رزقني ولدًا بعد اليأس، وهو الشفوق الرؤوف على عباده. ثم إن الملك كتب إلى سائر أهل مملكته ليُعَلِّمهم بالخبر ويدعوهم إلى منزله، فحضر له الأمراء والرؤساء والعلماء وأرباب الدولة الذين تحت أمره.

هذا ما كان من أمر الملك، وأما ما كان من أمر ولده؛ فإنه قد دقّت البشائر والأفراح في سائر المملكة، وأقبلَ أهلُها إلى الحضور من سائر الأقطار، وأقبلَ أهل العلوم والفلسفة والأدباء والحكماء ودخلوا جميعهم إلى الملك، ووصل كلُّ منهم إلى حدِّ مقامه، ثم أشار إلى الوزراء السبعة الكبار الذين رئيسهم شماس أن يتكلّم كلُّ واحد منهم على قدر ما عنده من الحكمة في شأن ما هو بصدده، فابتدأ رئيسهم الوزير شماس واستأذن في الكلام فأذن له، فقال: الحمد لله الذي أنشأنا من العدم إلى الوجود، المنعم على عباده الملوك، أهل العدل والإنصاف، بما أولاهم من الملك والعمل الصالح، وبما أجراه على أيديهم لرعايتهم من الرزق، وخصوصاً ملكنا الذي أحيا به مَوَاتَ بلادنا، بما أسداه الله علينا من النعم، وورزقنا من سلامته برخاء العيش والطمأنينة والعدل، فأَي ملك يصنع بأهل مملكته ما

صنع هذا الملك بنا، من القيام بمصالحنا، وأداء حقوقنا، وإنصاف بعضنا من بعض، وقلة الغفلة عنا، وردّ مظالمنا؟ ومن فضل الله على الناس أن يكون ملكهم متعهّداً لأموالهم، وحافظاً من عدوهم؛ لأن العدو غاية قصده أن يقهر عدوّه، وأن يملكه في يده، وكثير من الناس يقدّمون أولادهم إلى الملوك خدماً، فيصبرون عندهم بمنزلة العبيد لأجل أن يمنعوا عنهم الأعداء، وأما نحن فلم يظأ بلادنا أعداء في زمن ملكنا، لهذه النعمة الكبرى والسعادة العظمى التي لم يقدر الواصفون على وصفها، وإنما هي فوق ذلك؛ وأنت أيها الملك حقيق بأنك أهل لهذه النعمة العظيمة، ونحن تحت كنفك وفي ظل جناحك، أحسن الله ثوابك وأدام بقاءك؛ لأننا كنّا قبل ذلك نجد في الطلب من الله تعالى أن يمنّ علينا بالإجابة، ويبيّيك لنا ويعطيك ولداً صالحاً تقرّ به عينك، والله سبحانه وتعالى قد تقبّل منّا واستجاب دعاءنا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٣

حكاية السمك في غدير الماء

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير شماسًا قال للملك: إن الله تعالى قد تقبَّلَ مِنَّا واستجابَ دعاءنا، وآتانا الفرج القريب مثل ما أتى بعض السمك في غدير الماء. فقال الملك: وما حكاية السمك؟ وكيف ذلك؟ فقال شماس: اعلم أيها الملك أنه كان في بعض الأماكن غدير ماء، وكان فيه بعض سمكات، فعرض لذلك الغدير أنه قلَّ ماؤه وصار ينضمُّ بعضه إلى بعض، ولم يَبْقَ من الماء ما يسعفها، فكادت أن تهلك وقالت: ما عسى أن يكون من أمرنا؟ وكيف نحتمل؟ ومَن نستشير في نجاتنا؟ فقامت سمكة منهن وكانت أكبرهن عقلًا وسنًا، وقالت: ما لنا حيلة في خلاصنا إلا الطلب من الله، ولكن نلتمس الرأي من السرطان، فإنه أكبرنا، فهلُّموا بنا إليه لننظر ما يكون من رأيه؛ لأنه أكثر مِنَّا معرفةً بحقائق الكلام. فاستحسنوا رأيها وجاءوا بأجمعهم إلى السرطان، فوجدوه رابضًا في موضعه وليس عنده علمٌ ولا خبرٌ ممَّا هم فيه، فسَلَّموا عليه وقالوا له: يا سيدنا، أمَّا يعنك أمرنا وأنت حاكمنا ورئيسنا؟ فأجابهم السرطان قائلاً: وعليكم السلام، ما الذي بكم؟ وما تريدون؟ فقصُّوا عليه قصتهم وما دهاهم من أمر نقص الماء، وأنه متى نشف حصل لهم الهلاك، ثم قالوا له: وقد جئناكَ منتظرين رأيكَ وما يكون فيه النجاة؛ لأنك كبيرنا وأعرف مِنَّا. فعند ذلك أطرق رأسه مليًا، ثم قال: لا شكَّ أن عندكم نقص عقلٍ ليأسكم من رحمة الله تعالى وكفالاته بأرزاقه خلائقه جميعًا، ألَمْ تعلموا أن الله سبحانه وتعالى يرزق عباده بغير حساب، وقدَّرَ أرزاقهم قبل أن يخلق شيئًا من الأشياء، وجعل لكلِّ شخص عمرًا محدودًا ورزقًا مقسومًا بقدرته الإلهية، فكيف نحمل هَمَّ شيءٍ هو في الغيب مسطور؟ والرأي عندي أنه لم يكن أحسن من الطلب من الله تعالى، فينبغي أن

كل واحد منّا يصلح سريره مع ربه في سره وعلايته، ويدعو الله أن يخلصنا وينقذنا من الشدائد؛ لأن الله تعالى لا يخيب رجاء من توكل عليه، ولا يرد طلب من توسل إليه، فإذا أصلحنا أحوالنا استقامت أمورنا، وحصل لنا كل خير ونعمة، وإذا جاء الشتاء وغمر أرضنا بدعاء صالحنا، فلا يهدم الخير الذي بناه، فالرأي أن نصبر وننتظر ما يفعله الله بنا، فإن كان يحصل لنا موت على العادة استرحنا، وإن كان يحصل لنا ما يوجب الهروب هربنا ورحلنا من أرضنا إلى حيث يريد الله. فأجاب السمك جميعه من فم واحد: صدقت يا سيدنا، جزاك الله عنا خيرًا. وتوجه كل واحد منهم إلى موضعه، فما مضى إلا أيام قلائل وأتاهم الله بمطر شديد حتى ملأ محل الغدير زيادة عما كان أولًا. وهكذا نحن أيها الملك كنّا يائسين من أن يكون لك ولد، وحيث من الله علينا وعليك بهذا الولد المبارك، فنسأل الله تعالى أن يجعله ولدًا مباركًا، وأن تقر به عينك ويجعله خليفة صالحًا، ويرزقنا منه مثل ما رزقنا منك، فإن الله تعالى لا يخيب من قصده، ولا ينبغي لأحد أن يقطع رجاءه من رحمة الله.

ثم قام الوزير الثاني وسلم على الملك، فأجابه الملك قائلاً: وعليكم السلام. فقال ذلك الوزير: إن الملك لا يسمى ملكًا إلا إذا أعطى وعدل وحكم وأكرم وأحسن سيرته مع رعيته بإقامة الشرائع والسنن المألوفة بين الناس، وأنصف بعضهم من بعض، وحقن دماءهم وكف الأذى عنهم، ويكون موصوفًا بعدم الغفلة عن فقرائهم، وإسعاف أعلامهم وأدنانهم، وإعطائهم الحق الواجب لهم حتى يصيروا جميعًا داعين له ممتثلين لأمره؛ لأنه لا شك أن الملك الذي بهذه الصفة محبوب عند الرعية، مكتسب من الدنيا غلاها، ومن الآخرة شرفها ورضا خالقها، ونحن معاشر العبيد معترفون لك أيها الملك بأن جميع ما وصفناه عندك كما قيل: خير الأمور أن يكون ملك الرعية عادلاً، وحكيماً ماهراً، وعالمها خبيراً عاملاً بعلمه، ونحن الآن متعّمون بهذه السعادة، وكنا قبل ذلك قد وقعنا في اليأس من حصول ولد لك يرث ملكك، ولكن الله جلّ اسمه لم يخيب رجاءك وقيل دعاءك لحسن ظنك به، وتسليم أمرك إليه، فنعم الرجاء رجاءك، وقد صار فيك ما صار للغراب والحية. فقال الملك: وكيف ذلك؟ وما حكاية الغراب والحية؟

حكاية الغراب والحية

فقال الوزير: أعلم أيها الملك أنه كان غراب ساكنًا في شجرة هو وزوجته في أرغد عيش إلى أن بلغا زماناً تفريخهما وكان زمن القيظ، فخرجت حية من وكبرها وقصدت تلك الشجرة

فتعلّقت بفروعها إلى أن صعدت إلى عش الغراب وربضت فيه ومكثت مدة أيام الصيف، وصار الغراب مطرودًا لا يجد له فرصة ولا موضعًا يرقد فيه. فلما انقضت أيام الحر ذهبَت الحَيَّةُ إلى مَوْضِعِهَا، فقال الغراب لزوجته: نشكر الله تعالى الذي نَجَّانا وَخَلَّصَنَا من هذه الآفة، ولو كنا حُرِمْنَا من الزاد في هذه السنة؛ لأن الله تعالى لا يقطع رجاءَنَا، فنشكره على ما مَنَّ علينا من السلامة وصحة أبداننا، وليس لنا اتِّكَالٌ إِلَّا عَلَيْهِ، وإذا أراد الله وَعِشْنَا إلى العام القابل عَوَّضَ اللَّهُ عَلَيْنَا نَتَاجَنَا. فلما كان وقتُ تفريخِهما خَرَجَتِ الحَيَّةُ من موضعها وقصدت الشجرة، فبينما هي متعلِّقة ببعض أغصانها وهي قاصدة عُشَّ الغراب على العادة، وإذا بَحَدَاةٍ قد انْقَضَتْ عليها وضربَتْها في رأسها فخدشَتْها، فعند ذلك سقطت الحية على الأرض مغشيًا عليها وطلع عليها النمل فأكلها، وصار الغراب مع زوجته في سلامة وطمأنينة، وفرَّحَا أولادًا كثيرة وشكرا الله على سلامتهما وعلى حصول الأولاد. ونحن أيها الملك يجب علينا شكر الله على ما أَنْعَمَ به عليك وعلينا بهذا المولود المبارك السعيد بعد اليأس وقطع الرجاء، أَحَسَّنَ اللهُ ثَوَابَكَ وَعَاقِبَةَ أَمْرِكَ. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير الثاني لما فرغ من كلامه ختمه بقوله: أحسنَ الله ثوابك وعاقبة أمرك. ثم قام الوزير الثالث وقال: أبشُرُ أيها الملك العادل بالخير العاجل والثواب الآجل؛ لأنَّ كلَّ مَنْ يحبه أهل الأرض يحبه أهل السماء، والله تعالى قسم لك المحبة وجعلها في قلوب أهل مملكتك، فله الشكر والحمد منَّا ومنك، لكي يزيد نعمته عليك وعلينا بك، واعلم أيها الملك إن الإنسان لا يستطيع شيئاً إلا بأمر الله تعالى، وإنه هو المعطي، وكل خير عند شخص إليه ينتهي، قَسَمَ النُّعم على عبيده كما يحب؛ فمنهم مَنْ أعطاه مواهب كثيرة، ومنهم مَنْ شغله بتحصيل القوت، ومنهم مَنْ جعله رئيساً، ومنهم مَنْ جعله زاهداً في الدنيا راغباً إليه؛ لأنه هو الذي قال: أنا الضار النافع، أشفي وأمرض، وأغني وأفقر، وأُميت وأحيي، وبيدي كلُّ شيءٍ وإليَّ المصير، فواجب على جميع الناس شكره، وأنت أيها الملك من السعداء الأبرار كما قيل: إن أسعد الأبرار مَنْ جمع الله له بين خيري الدنيا والآخرة، ويقنع بما قسم الله له ويشكره على ما أقامه، ومَنْ تعدَّى وطلب غير ما قدَّر الله له وعليه، يشبه حمار الوحش والثعلب. قال الملك: وما حديثهما؟

حكاية حمار الوحش والثعلب

قال الوزير: اعلم أيها الملك أن ثعلباً كان يخرج كل يوم من وطنه ويسعى على رزقه، فبينما هو ذات يوم في بعض الجبال وإذا بالنهار قد انقضى وقصد الرجوع، فاجتمع على ثعلب رآه ماشياً وصار كل منهما يحكي لصاحبه حكايته مع ما افترسه، فقال أحدهما: إنني بالأمس وقعتُ في حمار وحش، وكنتُ جائعاً وكان لي ثلاثة أيام ما أكلت، ففرحت بذلك وشكرت الله تعالى الذي سخره لي، ثم إنني عمدتُ إلى قلبه فأكلته وشبعت، ثم رجعت

إلى وطني ومضى عليّ ثلاثة أيام لم أجد شيئاً آكله، ومع ذلك أنا شعبان إلى الآن. فلما سمع الثعلب الحكاية حسده على شبيهه وقال في نفسه: لا بد لي من أكل قلب حمار الوحش. فترك الأكل أياماً حتى انهزل وأشرف على الموت وقصر سعيه واجتهاده وربض في وطنه، فبينما هو في وطنه ذات يوم من الأيام، وإذا بصيادين ماشيين قاصدين الصيد، فوقع لهما حمار وحش، فأقاما النهار كله في إثره طرداً، ثم إن أحدهما رماه بسهم مشعب فأصابه ودخل جوفه واتصل بقلبه فقتله مقابل وكر الثعلب المذكور، فأدركه الصيادان فوجداه ميتاً، فأخرجوا السهم الذي أصابه في قلبه فلم يخرج إلا العود وبقي السهم مشعباً في بطن حمار الوحش.

فلما كان المساء خرج الثعلب من وطنه وهو يتضجر من الضعف والجوع، فرأى حمار الوحش على بابه طريحاً، ففرح فرحاً شديداً حتى كاد يتضجر من الضعف والجوع فرأى حمار الوحش على بابه طريحاً، ففرح فرحاً شديداً حتى كاد أن يطير من الفرح، فقال: الحمد لله الذي يسّر لي شهوتي من غير تعب؛ لأنني كنت لا أوّل أني أصيب حمار وحش ولا غيره، ولعل الله أوقع هذا وساقه إليّ في موضعي. ثم وثب عليه وشق بطنه وأدخل رأسه وصار يجول بفمه في أمعائه إلى أن وجد القلب فالتقمه بفمه وابتلعه، فلما صار داخل حلّقه اشتبك شعب السهم في عظم رقبته ولم يقدر على إدخاله في بطنه ولا على إخراجة من حلّقه وأيقن بالهلاك. فلهذا أيها الملك ينبغي للإنسان أن يرضى بما قسمه الله له ويشكر نعمه عليه ولا يقطع رجاءه من مولاه، وها أنت أيها الملك بحسن نيتك وإسداء معروفك رزقك الله ولداً بعد اليأس، فنسأل الله تعالى أن يرزقه عمراً طويلاً وسعادة دائمة ويجعله خلفاً مباركاً موفياً بعهدك من بعدك بعد طول عمرك. ثم قام الوزير الرابع وقال: إن الملك إذا كان فهيماً عالماً بأبواب الحكمة ... وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير الرابع لما قام وقال: إن الملك إذا كان فهيماً عالمًا بأبواب الحكمة والأحكام والسياسة، مع صلاح النية والعدل في الرعية، وإكرام مَنْ يجب إكرامه وتوقير مَنْ يجب توقيره، والعفو عند القدرة فيما لا بد منه، ورعاية الرؤساء والمرءوسين، والتخفيف عنهم والإنعام عليهم، وستر عوراتهم والوفاء بعهدهم؛ كان حقيقاً بالسعادة الدنيوية والأخروية، فإن ذلك مما يُعِيْذه منهم ويُعِيْنه على ثبات مُلكه ونُصْرته على أعدائه وبلوغ مأموله، مع زيادة نعمة الله عليه وتوفيقه لشكره والفوز بعنايته؛ وإن الملك إذا كان بخلاف ذلك، فإنه لم يَزَلْ في مصائب وبلايا هو وأهل مملكته، لكَوْنِ جوره على الغريب والقريب، ويصير فيه ما صار لابن الملك السائح. فقال الملك: وكيف كان ذلك؟

حكاية ابن الملك السائح

فقال الوزير: اعلم أيها الملك أنه كان في بلاد الغرب ملكٌ جائرٌ في حكمه، ظالمٌ غاشمٌ عاسفٌ مضيعٌ لرعاية رعيته ومَنْ يدخل في مملكته، فكان لا يدخل في مملكته أحدٌ إلا ويأخذ عمالاً منه أربعة أخماس ماله ويبقون له الخمس لا غير، فقدَّرَ الله أنه كان له ولد سعيد موفقٌ، فلما رأى أحوال الدنيا غير مستقيمة، تركها وخرج سائحاً عابداً لله تعالى من صغره، ورفض الدنيا وما فيها، وخرج في طاعة الله تعالى يسرح في البراري والقفار ويدخل المدن، ففي بعض الأيام دخل تلك المدينة، فلما وقف على المحافظين أخذوه وفتَّشوه، فلم يروا معه شيئاً سوى ثوبَيْن؛ أحدهما جديد والآخَر عتيق، فنزعوا منه الجديد وتركوا له العتيق بعد الإهانة والتحقير، فصار هو يشكو ويقول: ويَحْكُمُ أيها الظالمون، أنا رجل فقير وسائح، وما عسى أن ينفعكم من هذا الثوب؟ وإذا لم تعطوه لي ذهبٌ

للملك وشكوتكم إليه. فأجابوه قائلين: إننا فعلنا ذلك بأمر الملك، فما بدًا لك أن تفعله فافعله. فصار السائح يمشي إلى أن وصلَ بلادَ الملك وأراد الدخول، فمنعه الحجاب، فرجع وقال في نفسه: ما لي إلا أني أُرصده حتى يخرج وأشكو إليه حالي وما أصابني. فبينما هو على تلك الحالة ينتظر خروجَ الملك، إذ سمع أحد الأجناد يخبر عنه، فأخذ يتقدّم قليلاً قليلاً حتى وقف قبال الباب، فما شعر إلا والملك خارج، فعارضه السائح ودعا له بالنصر، وأخبره بما وقع له من المحافظين وشكا إليه حاله، وأخبره أنه رجل من أهل الله، رفض الدنيا وخرج طالباً لرضاء الله تعالى، فصار سائحاً في الأرض، وكلُّ من وفد عليه من الناس أحسنَ إليه بما أمكّنهُ، وصار يدخل كل مدينة وكل قرية وهو على هذه الحالة. ثم قال: فلما دخلتُ هذه المدينة ترجّيتُ أن يفعل بي أهلها مثل ما يفعل بغيري من السائحين، فعارضني أتباعك ونزعوا أحد أثوابي وألهبوني ضرباً، فانظر في شأني وخذ بيدي وخلّص لي ثوبي، وأنا لا أقيم بهذه المدينة ساعة واحدة. فأجابه الملك الظالم قائلاً: مَنْ أشار عليك بدخولك هذه المدينة وأنت غير عالمٍ بما يفعل ملكها؟ فقال: بعد أن أخذ ثوبي افعل بي مرادك. فلما سمع ذلك الملك الظالم من السائح هذا الكلام، حصل عنده تغيّر مزاج، فقال: أيها الجاهل، نزعنا عنك ثوبك لكي تذللّ، وحيث وقع منك مثل هذا الصياح عندي، فأنا أنزع نفسك منك. ثم أمر بسجنه.

فلما دخل السجن جعل يندم على ما وقع منه من الجواب، وعنفَ نفسه حيث لم يترك ذلك ويفوز بروحه. فلما كان نصف الليل قامَ وصلى صلاةً مطولةً وقال: يا الله، إنك أنت الحكم العادل، تعلم بحالي وما انطوى عليه أمري مع هذا الملك الجائر، وأنا عبدك المظلوم أسألك من فيض رحمتك أن تنقذني من يد هذا الملك الظالم وتحل به نقمتك؛ لأنك لا تغفل عن ظلم كل ظالم، فإن كنت تعلم أنه ظلمني فاحللْ نقمتك عليه في هذه الليلة، وأنزل به عذابك؛ لأن حُكْمك عدل وأنت غيَّاث كل ملهوف، يا مَنْ له القدرة والعظمة إلى آخر الدهر. فلما سمع السجّان دعاء هذا المسكين، صار جميع ما فيه من الأعضاء مرعوباً، فبينما هو كذلك وإذا بنارٍ اتقدت في القصر الذي فيه الملك، فأحرقَتْ جميع ما فيه حتى باب السجن، ولم يخلص سوى السجّان والسائح، فانطلق السائح وسار هو والسجّان ولم يزلّا سائرين حتى وصلّا إلى غير تلك المدينة، وأما مدينة الملك الظالم فإنها احترقت عن آخرها بسبب جور ملكها. وأما نحن أيها الملك السعيد فما نمسي ونصبح إلا ونحن داعون لك، وشاكرون الله تعالى على فضله بوجودك، مطمئنين بعدك وحسن سيرتك، وكان عندنا غمٌ كثير لعدم وجود ولد لك يرث ملكك؛ خوفاً أن يصير علينا ملك غيرك من

بعدك، والآن قد أنعمَ الله تعالى بكرمه علينا وأزالَ عَنَّا الغَمَّ وأتانا بالسرور بوجود هذا الغلام المبارك، فنسألُ الله تعالى أن يجعله خليفةً صالحًا، ويرزقه العزَّ والسعادة الباقية والخير الدائم. ثم قام الوزير الخامس وقال: تبارَكَ الله العظيم ... وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير الخامس قال: تبارك الله العظيم، مانح العطايا الصالحة والمواهب السنية؛ وبعد، فإننا تحققنا أن الله يُنعم على من يشكره ويحافظ على دينه، وأنت أيها الملك السعيد الموصوف بهذه المناقب الجليلة والعدل والإنصاف بين رعيته بما يُرضي الله تعالى، فلأجل ذلك أعلّى الله شأنك وأسعد أيامك، ووهبك هذه العطية الصالحة التي هي هذا الولد السعيد بعد اليأس، وصار لنا بذلك الفرح الدائم والسرور الذي لا ينقطع؛ لأننا قبل ذلك كنّا في همٍّ شديدٍ وغمٍّ زائدٍ بسبب عدم وجود ولد لك، وفي أفكار فيما أنت منطوٍ عليه من عدلك ورأفتك بنا، وخوفًا أن يقضي الله عليك بالموت ولم يكن لك من يخلفك ويرث الملك من بعدك، فيختلف رأينا ويقع بيننا الشقاق، ويصير بيننا ما صار للغراب. فقال الملك: وما حكاية الغراب؟

حكاية الغراب

فأجابه الوزير قائلاً: اعلم أيها الملك السعيد، أنه كان في بعض البراري وادٍ متسع، وكان به أنهار وأشجار وأثمار، وبه أطيار تسبح الله الواحد القهار، خالق الليل والنهار، وكان من جملة الطيور غربان، وكانوا في أطيب عيش، وكان المقدم عليهم والحاكم بينهم غرابٌ رءوف بهم شفووقٌ عليهم، وكانوا معه في أمانٍ وطمأنينة، ومن حُسن تصرفهم فيما بينهم لم يكن أحدٌ من الطيور يقدر عليهم، فاتفق أن مُقدمهم تُوفي وجاءه الأمر المحتوم على سائر الخلق، فحزنوا عليه حزناً شديداً، ومن زيادة حزنهم أنه لم يكن فيهم أحدٌ مثله يقوم مقامه، فاجتمعوا جميعاً وأتمروا فيما بينهم على من يقوم عليهم بحيث يكون صالحاً؛ فطائفةٌ منهم اختارت غراباً وقالوا: إن هذا يصلح أن يكون ملكاً علينا، وآخرون

اختلفوا فيه ولم يريدوه، فوقع بينهم الشقاق والجدال، وعظمت الفتنة بينهم، وبعد ذلك حصل بينهم توافق وتعاهدوا على أن يناموا تلك الليلة ولا يبكر أحدٌ إلى السروح في طلب المعيشة غداً، بل يصبرون جميعاً إلى الصباح، وعند الفجر يكونون مجتمعين في موضع واحد، ثم ينظرون إلى كل طير يسبق في الطيران، وقالوا: إنه هو الذي يكون مختاراً عندنا للملك، فنجعله ملكاً علينا ونوليّه أمرنا. فرضوا كلهم بذلك وعاهد بعضهم بعضاً، واتفقوا على هذا العهد. فبينما هم على ذلك الحال إذ طلع باز، فقالوا له: يا أبا الخير، نحن اخترناك والياً علينا لتنظر في أمرنا، فرضي الباز بما قالوه، وقال لهم: إن شاء الله تعالى سيكون لكم مني خير عظيم. ثم إنهم بعدما وُلّوه عليهم صار كل يوم إذا سرح وسرح الغربان يستفرد بأحدهم ويضربه، ويأكل دماغه وعيّنّه ويترك الباقي، ولم يزل يفعل معهم هكذا حتى فطنوا به، فرأوا غالبهم قد هلك، فأيقنوا بالهلاك وقال بعضهم لبعض: كيف نصنع وقد هلك أكثرنا، وما انتبهنا حتى هلك أكابرنا؟ فينبغي لنا أن نتحفظ لأنفسنا. فلما أصبحوا نفروا منه وتفرّقوا من حوله. ونحن الآن نخشى أن يقع لنا مثل هذا، ويصير علينا ملك غيرك، ولكن قد منّ الله علينا بهذه النعمة ووجهك إلينا، ونحن واثقون الآن بالصلاح، وجمع الشمل والأمن والأمانة والسلامة في الوطن، فتبارك الله العظيم، وله الحمد والشكر والثناء الجميل، وبارك الله للملك ولنا معشر الرعية، ورزقنا وإياه السعادة العظمى، وجعله سعيد الوقت قائم الجد.

ثم قام الوزير السادس وقال: هنّاك الله أيها الملك بأحسن الهناء في الدنيا والآخرة، فقد تقدّم من قول المتقدمين أن من صلى وصام وقام بحقوق الوالدين وعدل في حكمه، لقي ربه وهو راض عنه، وقد وُلّيّت علينا فعدلت، فكنتَ بذلك سعيد الحركات، فنسأل الله تعالى أن يجزل ثوابك ويأجرك على إحسانك، وقد سمعت ما قال هذا العالم فيما نتخوف من حرمان حظنا بعدم الملك، وبوجود ملك آخر لا يكون نظيره، فيعظم اختلافنا بعده ويقع البلاء في الاختلاف، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا، فالواجب علينا أن نبتهل إلى الله تعالى بالدعاء لعله يهب للملك ولداً سعيداً ويجعله وارثاً للملك بعده. ثم بعد ذلك ربما كان الذي يحبه الإنسان من الدنيا ويشتهي مجهول العاقبة له، وحينئذ لا ينبغي للإنسان أن يسأل ربه أمراً لا يدري عاقبته؛ لأنه ربما كان ضرراً ذلك أقرب إليه من نفعه، فيكون هلاكه في مطلوبه، ويصيبه مثل ما أصاب الحاوي وزوجته وأولاده وأهل بيته. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير السادس لما قال للملك: إن الإنسان لا ينبغي له أن يسأل ربه شيئاً لا يدري عاقبته؛ لأنه ربما كان ضرراً ذلك أقرب إليه من نفعه، فيكون هلاكه في مطلوبه، ويصيبه ما أصاب الحاوي وأولاده وزوجته وأهل بيته. فقال الملك: وما حكاية الحاوي وأولاده وزوجته وأهل بيته؟

حكاية الحاوي وأولاده وزوجته وأهل بيته

فقال الوزير: اعلم أيها الملك أنه كان إنسان حاوياً، وكان يرَبِّي الحَيَّات، وهذه كانت صنعته، وكان عنده سلة كبيرة فيها ثلاث حَيَّات لم يعلم بها أهل بيته، وكان كل يوم يخرج يدور بها في المدينة، ويتسبَّب بها لتحصيل رزقه ورزق عياله، ويرجع عند المساء إلى بيته ويضع الأحناش في السلة سرّاً، وعند الصباح يأخذها ويدور بها في المدينة، فكان هذا دأبه على الدوام، ولم يعرف أهل بيته بما في السلة، فاتفق أنه لما عاد الحاوي إلى بيته على جري عادته، سألته زوجته وقالت له: ما في هذه السلة؟ فقال لها الحاوي: وما مرادك منها؟ أليس الزاد عندكم كثيراً زائداً؟ فاقنعي بما قسم الله لك ولا تسألي عن غيره. فسكتت عنه تلك المرأة وصارت تقول في نفسها: لا بد لي أن أفَتَشَّ هذه السلة وأعرف ما فيها. وصممت على ذلك وأعلمت أولادها، وأكّدت عليهم أن يسألوا والدهم عن تلك السلة ويلجأوا عليه في السؤال لأجل أن يخبرهم، فعند ذلك تعلَّق خاطر الأولاد بأن فيها شيئاً يُؤكَّل، فصار الأولاد كلَّ يوم يطلبون من أبيهم أن يُريهم ما في السلة، وكان أبوهم يُدافعهم ويراضيههم وينهاهم عن هذا السؤال، فمضت لهم مدة وهم على ذلك الحال، وأهمهم تحنُّهم

على ذلك، ثم اتفقوا معها على أنهم لا يذوقون طعاماً ولا يشربون شراباً لوالدهم حتى يبلغهم طلبتهم ويفتح لهم السلة.

فبينما هم كذلك ذات ليلة، إذ حضر الحاوي ومعه شيء كثير من الأكل والشرب، فقعد ودعاهم ليأكلوا معه، فأبوا الحضور إليه وبيئوا له الغيظ، فجعل يلاطفهم بالكلام الحسن ويقول لهم: انظروا ماذا تريدون حتى أجيء به إليكم أكلاً أو شرباً أو ملبوساً. فقالوا له: يا والدنا، ما نريد منك إلا فتح هذه السلة لننظر ما فيها، وإلا قتلنا أنفسنا. فقال لهم: يا أولادي، ليس لكم فيها خير، وإنما فتحها ضرر لكم. فعند ذلك ازدادوا غيظاً، فلما رآهم على هذه الحالة أخذ يهددهم ويشير لهم بالضرب إن لم يرجعوا عن تلك الحالة، فلم يزدادوا إلا غيظاً ورغبة في السؤال، فعند ذلك غضب عليهم وأخذ عصاً ليضربهم بها، فهربوا قدامه في الدار، وكانت السلة حاضرة لم يخفها الحاوي في مكان، فخلت المرأة الرجل مشغولاً بالأولاد وفتحت السلة بسرعة لكي تنظر ما فيها، وإذا بالحيات قد خرجت من السلة ولدعت المرأة أولاً فقتلتها، ثم دارت في الدار وأهلكت الكبار والصغار، ما عدا الحاوي، فترك الحاوي الدار وخرج. فلما تحققت ذلك أيها الملك السعيد، علمت أن الإنسان ليس له أن يتمنى شيئاً لم يرده الله تعالى، بل يطيب نفساً بما قدره الله له وأراد، وها أنت أيها الملك مع غزارة علمك وجودة فهمك، أقر الله عينك بحضور ولدك بعد اليأس وطيب قلبك، ونحن نسأل الله تعالى أن يجعله من الخلفاء العادلين المرضين لله تعالى والرعية.

ثم قام الوزير السابع وقال: أيها الملك، إني قد علمت وتحققت ما ذكره لك إخوتي هؤلاء الوزراء العلماء الحكماء، وما تكلموا به في حضرتك أيها الملك، وما وصفوه من عدلك وحسن سيرتك، وما تميّزت به عمّن سواك من الملوك، حيث فضّلوك عنهم، وذلك من بعض الواجب علينا أيها الملك، وأما أنا فأقول: الحمد لله الذي تولاك لنعمته، وأعطاك صلاح الملك برحمته، وأعانك وإياناً على أن نزيده شكراً وما ذاك إلا بوجودك، وما دمت فينا لم نتخوّف جوراً ولا نبغي ظملاً، ولا يستطيع أحد أن يستطيل علينا مع ضّعفنا، وقد قيل: إن أحسن الرعايا من كان ملكهم عادلاً، وشهم من كان ملكهم جائراً. وقيل أيضاً: السكنى مع الأسود الكواسر ولا السكنى مع السلطان الجائر. فالحمد لله تعالى على ذلك حمداً دائماً؛ حيث أنعم علينا بوجودك، ورزقك هذا الولد المبارك بعد اليأس والطعن في السن؛ لأن أجمل العطايا في الدنيا الولد الصالح، وقد قيل: من لا ولد له، لا عاقبة له

ولا زِكرُ. وأنت بقويم عدك وحسن ظنك بالله تعالى أُعْطِيت هذا الولد السعيد، فجاءك هذا الولد المبارك مَنَّةً من الله تعالى علينا وعليك، بحسن سيرتك وجميل صبرك، وصار فيك ذلك مثل ما صار في العنكبوت والريح. فقال الملك: وما حكاية العنكبوت والريح؟ وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَّتَ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٨

حكاية العنكبوت والريح

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك قال للوزير: وما حكاية العنكبوت والريح؟ فقال الوزير: اعلم أيها الملك أن عنكبوتة تعلقت في بابٍ متنحٍ عالٍ وعملت لها بيتاً وسكنت فيه بأمان، وكانت تشكر الله تعالى الذي يسر لها هذا المكان وأمن خوفها من الهوام، فمكنت على هذا الحال مدة من الزمان، وهي شاكرة لله على راحتها واتصال رزقها، فامتحنها خالقها بأن أخرجها لينظر شكرها وصبرها، فأرسل إليها ريحاً عاصفاً شرقية فحملتها بيتها ورمتها في البحر، فجرّتها الأمواج إلى البر، فعند ذلك شكرت الله تعالى على سلامتها وجعلت تعاتب الريح قائلةً لها: أيتها الريح، لم فعلت بي ذلك؟ وما الذي حصل لك من الخير في نقلي من مكاني إلى هنا؟ وقد كنت أمنة مطمئنة في بيتي بأعلى ذلك الباب؟ فقالت لها الريح: انتهي عن العتاب، فإني سأرجع بك وأوصلك إلى مكانك كما كنت أولاً. فلبثت العنكبوتة صابرةً على ذلك راجيةً أن ترجع إلى مكانها حتى ذهب ريح الشمال ولم ترجع بها، وهبت ريح الجنوب فمرت بها واختطفتها وطارت بها إلى جهة ذلك البيت، فلما مرت به عرفته فتعلقت به. ونحن نسأل الله الذي أثاب الملك على وحدته وصبره ورزقه هذا الغلام بعد يأسه وكبر سنّه، ولم يُخرجه من هذه الدنيا حتى رزقه قرّة عين، ووهب له ما وهب من الملك والسلطان، فرحم رعيته وأولاهم نعمته. فقال الملك: الحمد لله فوق كلّ حمدٍ، والشكر له فوق كلّ شكرٍ، لا إله إلا هو خالق كل شيءٍ، الذي عرفنا بنور آثاره وجلال عظمته، يُؤتي الملك والسلطان من يشاء من عباده في بلاده؛ لأنه ينتخب منهم من يشاء ليجعله خليفةً ووكيلاً على خلقه، ويأمره فيهم بالعدل والإنصاف وإقامة الشرائع والسنن، والعمل بالحق والاستقامة في أمورهم على ما أحبّ وأحبّوا، فمن عمل منهم بما

أمر الله كان لَحَظَهُ مصيبًا ولأمرِ رَبِّهِ مُطِيعًا، فيكفيه هَوْلَ دنياه ويُحَسِّنَ جزاءه في أُخْرَاهُ، إنه لا يضيع أجر المحسنين؛ وَمَنْ عمل منهم بغير ما أمر الله أخطأ خطأً بليغًا، وعصى ربه وآثَرَ دنياه على أُخْرَاهُ، فليس له في الدنيا مآثر ولا في الآخرة نصيب؛ لأن الله لا يمهل أهل الجور والفساد ولا يهمل أحدًا من العباد، وقد ذكر وزراؤنا هؤلاء أَنَّ مِنْ عدلنا بينهم وَحُسْنَ تصرُّفنا معهم، أنعم علينا وعليهم بالتوفيق لشكره المستوجب لمزيد إنعامه، وكل واحد منهم قال ما أَلْهَمَهُ الله في ذلك، وبالعوا في الشكر لله تعالى والثناء عليه بسبب نعمته وفضله، وأنا أشكر الله لأنني إنما أنا عبدٌ مأمورٌ، وقلبي بيده ولساني تابع له، راضٍ بما حكم الله عليّ وعليهم بأي شيء صار؛ وقد قال كلُّ واحدٍ منهم ما خطر بباله من أمر هذا الغلام، وذكروا ما كان من متجدد النعمة علينا حين بلغت من السن حدًا يغلب معه اليأس وَضَعُفُ اليقين، والحمد لله الذي نَجَّانا من الحرمان واختلاف الحُكَّام كاختلاف الليل والنهار، وقد كان ذلك إنعامًا عظيمًا عليهم وعلينا، فنحمد الله تعالى الذي رزقنا هذا الغلام سميعًا مطيعًا، وجعله وارثًا من الخلافة محلًّا رفيعًا، نسأله من كرمه وحلمه أن يجعله سعيِّد الحركات موفِّقًا للخيرات، حتى يصير ملكًا وسلطانًا على رعيته بالعدل والإنصاف، حافظًا لهم من هلكات الاعتساف، بِمَنَّةٍ وكرمه وجوده.

فلما فرغ الملك من كلامه، قام الحكماء والعلماء وسجدوا لله وشكروا الملك وقبَّلوا يَدَيْهِ، وانصرف كلُّ واحدٍ منهم إلى بيته، فعند ذلك دخل الملك بيته وأبصرَ الغلام، ودعا له وسمَّاه وردخان، فلما مضى له من العمر اثنتا عشرة سنة، أراد الملك أن يعلمه العلوم، فبنى له قصرًا في وسط المدينة وبنى فيه ثلاثمائة وستين مقصورةً، وجعل الغلام فيه، ورتَّبَ له ثلاثة من الحكماء والعلماء وأمرهم ألا يغفلوا عن تعليمه ليلاً ولا نهارًا، وأن يجلسوا معه في كل مقصورة يومًا، ويحرصوا على ألا يكونَ علمٌ إلا ويعلمونه إياه، حتى يصير بجميع العلوم عارفًا، ويكتبون على باب كل مقصورة ما يعلمونه له فيها من أصناف العلوم، يرفعون إليه في كلِّ سبعة أيام ما عرفه من العلوم.

ثم إن العلماء أقبلوا على الغلام وصاروا لا يفترون عن تعليمه ليلاً ولا نهارًا، ولا يؤخِّرون عنه شيئًا ممَّا عندهم من العلوم، فظهر للغلام من ذكاء العقل وجودة الفهم وقبول العلم ما لم يظهر لأحدٍ قبله، وجعلوا يرفعون للملك في كل أسبوع مقدار ما تعلَّمه ولده وأتقنه، فكان الملك يستظهر من ذلك علمًا حسنًا وأدبًا جميلًا، وقال العلماء: إننا ما رأينا قطُّ مَنْ أُعْطِيَ فهمًا مثل هذا الغلام، فبارك الله لك فيه ومتَّعَكَ بحياته. فلما أتمَّ الغلام مدة اثنتي عشرة سنة حفظَ من كلِّ علمٍ أحسنه، وفاق جميعَ العلماء والحكماء

الذين في زمانه، فأتى به العلماء إلى الملك والده وقالوا له: أقرَّ الله عينيك أيها الملك بهذا الولد السعيد، وقد أتيناك به بعد أن تعلَّم كلَّ علمٍ، حتى لم يكن أحدٌ من علماء الوقت وحكمائه بلغ ما بلغه. ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً، وزاد في شكر الله تعالى وحرَّ ساجداً له عز وجل، وقال: الحمد لله على نِعَمِهِ التي لا تُحصَى. ثم دعا بشماس الوزير وقال له: اعلم يا شماس أن العلماء قد أتوني وأخبروني أن ابني هذا قد تعلَّم كلَّ علمٍ، ولم يَبْقَ من العلوم علماً إلا وقد علَّموه له حتى فاق مَنْ تقدَّمه في ذلك، فما تقول يا شماس؟ فسجدَ عند ذلك لله عز وجل وقبَّلَ يَدَيَّ الملك وقال: أَبَتِ الياقوتَةُ ولو كانت في الجبل الأصم، إلا أن تكون مضيئة كالسراج، وابنك هذا جوهرة، فما تمنعه حادثته من أن يكون حكيماً والحمد لله على ما أولاه، وأنا إن شاء الله تعالى في غدٍ أسأله وأستنطقه بما عنده في مجمعٍ أجمعه له من خواص العلماء والأمراء. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٠٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك جليعاد لما سمع كلام شماس أمرَ جهايزة العلماء وأذكىاء الفضلاء ومَهرة الحكماء أن يحضروا إلى قصر الملك في غدٍ، فحضروا جميعًا، فلما اجتمعوا على باب الملك أذنَ لهم بالدخول، ثم حضر شماس الوزير وقبَّلَ يَدَيِ ابن الملك، فقام ابن الملك وسجد للشماس، فقال له الشماس: ليس يجب على شبل الأسد أن يسجد لأحدٍ من الوحوش، ولا ينبغي أن يقرنَ النورُ بالظلام. قال الغلام: إن شبل الأسد لما رأى وزير الملك سجدَ له. فعند ذلك قال شماس: أخبرني ما الدائم المطلق وما كونه؟ وما الدائم من كونه؟ قال الغلام: أما الدائم المطلق فهو الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه أولُ بلا ابتداء، وآخرُ بلا انتهاء، وأما كونه فالدنيا والآخرة، وأما الدائم من كونه فهو نعيم الآخرة. قال شماس: صدقتَ فيما قلتَ وقبلته منك، غير أنني أحبُّ أن تخبرني من أين علمتَ أن أحد الكونين هو الدنيا وثانيهما هو الآخرة؟ قال الغلام: لأن الدنيا خُلقت ولم يكن من شيءٍ كائنٍ، فآلَ أمرها إلى الكون الأول، غير أنها عَرَضَ سريع الزوال متوجِّبُ الجزاء على الأعمال، وذلك يستدعي إعادةَ الفاني، فالآخرة هي الكون الثاني. قال شماس: صدقتَ فيما قلتَ وقبلته منك، غير أنني أحبُّ أن تخبرني من أين علمتَ أن نعيم الآخرة هو الدائم من الكونين؟ قال الغلام: علمتُ ذلك من أنها دارُ الجزاء على الأعمال التي أَعَدَّها الباقي بلا زوال. قال شماس: أخبرني أي أهل الدنيا أحمدُ عملًا؟ قال الغلام: مَنْ يُؤثِّرُ آخرته على دنياه. قال شماس: وَمَنْ الذي يُؤثِّرُ آخرته على دنياه؟ فقال الغلام: مَنْ كان يعلم أنه في دارٍ منقطعةٍ، وأنه ما خُلِقَ إلا للفناء، وأنه بعد الفناء يُحاسبُ، وأنه لو كان في هذه الدنيا أحدٌ مخلَّدٌ أبدًا، لا يُؤثِّرُ الدنيا على الآخرة. قال شماس: أخبرني هل تستقيم آخرة بغير دنيا؟ قال الغلام: مَنْ لم يكن له دنيا فلا آخرة له، ولكن رأيتُ الدنيا وأهلها والمعادَ

الذي هم صائرون إليه كمثل أهل هؤلاء الضياع الذين ابتنى لهم أميرٌ بيتاً ضيقاً وأدخلهم فيه، وأمرهم بعملٍ يعملونه، وضرب لكل واحدٍ منهم أجلاً ووكل به شخصاً، فمن عمل منهم ما أمر به أخرجه الشخص الموكل به من ذلك الضيق، ومن لم يعمل ما أمر به وقد انقضى الأجل المضروب له عُوقِب؛ فبينما هم كذلك إذ رشح لهم من شقوق البيت عسل، فلما أكلوا من العسل وذاقوا طعمه وحلاوته، تَوَانَوْا في العمل الذي أمروا به ونبذوه وراء ظهورهم، وصبروا على ما هم فيه من الضيق والغَمِّ، مع ما علموا من تلك العقوبة التي هم صائرون إليها، وقنعوا بتلك الحلاوة اليسيرة، وصار الموكل بهم لا يدع أحداً منهم إذا جاء أجله إلا ويُخْرِجه من ذلك البيت، فعرفنا أن الدنيا دارٌ تتحيرُ فيها الأبصارُ، وتسرب لأهلها فيها الآجال، فمن وجد الحلاوة القليلة التي تكون في الدنيا وأشغَلَ نفسه بها، كان من الهالكين؛ حيث آثَرَ أمرَ دنياه على آخرته، ومن يُؤثِّرَ آخرته على دنياه ولم يلتفت إلى تلك الحلاوة القليلة، كان من الفائزين.

قال شماس: قد سمعتُ ما ذكرتُ من أمر الدنيا والآخرة وقبلتُ ذلك منك، ولكنني قد رأيتُهما مسلَّطَتَيْنِ على الإنسان، فلا بد له من إرضائهما معاً وهما مختلفتان، فإنَّ أَقْبَلَ العبد على طلب المعيشة، فذلك إضرار بروحه في المعاد، وإنَّ أَقْبَلَ على الآخرة، كان ذلك إضراراً بجسده، وليس له سبيل إلى إرضاء المتخالفَيْنِ معاً.

حكاية الملكين

قال الغلام: إنه مَنْ حصل المعيشة في الدنيا تقوَّيه على الآخرة، فإني رأيتُ أمرَ الدنيا والآخرة مثل ملكين: عادلٍ وجائرٍ، وكانت أرض الملك الجائر ذات أشجار وأثمار ونبات، وكان ذلك الملك لا يدعُ أحداً من التجار إلا أخذ ماله وتجارته، وهم صابرون على ذلك لما يصيبون من خصب تلك الأرض في المعيشة؛ وأما الملك العادل فإنه بعث رجلاً من أهل أرضه وأعطاه مالاً وافراً، وأمره أن ينطلق إلى أرض الملك الجائر ليبتاع به جواهر منها، فانطلق ذلك الرجل بالمال حتى دخل تلك الأرض، فقبل للملك: إنه جاء إلى أرضك رجلٌ تاجرٌ ومعه مالٌ كثيرٌ يريد أن يبتاع به جواهر منها. فأرسلَ إليه وأحضره وقال له: مَنْ أنت؟ ومن أين أتيت؟ ومن جاء بك إلى أرضي؟ وما حاجتك؟ فقال له: إني من أرض كذا وكذا، وإن ملك تلك الأرض أعطاني مالاً وأمرني أن أبتاع له به جواهر من هذه الأرض، فامتثلتُ أمره وجئتُ. فقال له الملك: ويحك! أَمَا علمتَ صنعِي بأهل أرضي من أني أخذ

مالهم في كل يوم؟ فكيف تأتيني بمالكَ وها أنت مقيمٌ في أرضي منذ كذا وكذا؟ فقال له التاجر: إن المال ليس لي منه شيء، وإنما هو أمانة تحت يدي حتى أوصله إلى صاحبه. فقال له: إني لستُ بتاركك تأخذ معيشتك من أرضي حتى تفدي نفسك بهذا المال جميعه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك الجائر قال للتاجر الذي يريد أن يشتري الجواهر من أرضه: لا يمكن أن تأخذ معاشاً من أرضي حتى تفدي نفسك بهذا المال أو تهلك. فقال الرجل في نفسه: قد وقعتُ بين ملكَيْن، وقد علمتُ أن جورَ هذا الملك عامٌّ على كلِّ مَنْ أقام بأرضه، فإن لم أرضه كان هلاكِي وذهب المال لا بد منهما ولم أُصِبْ حاجتي، وإن أعطيتُه جميعَ المال كان هلاكِي عند الملك صاحب المال لا بد منه، وليس لي حيلةٌ سوى أني أعطيه من هذا المال جزءاً يسيراً، وأرضيه به وأدفع عن نفسي وعن هذا المال الهلاك، وأُصِيب من خصب هذه الأرض قوتَ نفسي حتى أبتاع ما أريد من الجواهر، وأكون قد أرضيتُه بما أعطيتُه، وأخذ نصيبي من أرضه هذه وتوجَّهْتُ إلى صاحب المال بحاجته، فإني أرجو من عدله وتجاوزه ما لا أخاف معه عقوبة فيما أخذَه هذا الملك من المال، خصوصاً إذا كان يسيراً. ثم إن التاجر دعا الملك وقال له: أيها الملك، أنا أفندي نفسي وهذا المال بجزء صغير من منذ دخلتُ أرضك حتى أخرج منها. فقبل الملك منه ذلك وخلى سبيله سنةً، فاشتري الرجل بماله جميعه جواهرَ وانطلق إلى صاحبه. فالملك العادل مثال للأخرة، والجواهر التي بأرض الملك الجائر مثال للحسنات والعمل الصالح، والرجل صاحب المال مثال لمن طلب الدنيا، والمال الذي معه مثال لحياة الإنسان، فلما رأيتُ ذلك علمتُ أنه ينبغي لمن يطلب المعيشة في الدنيا ألا يخلي يوماً عن طلب الآخرة، فيكون قد أرضى الدنيا بما ناله من خصب الأرض، وأرضى الآخرة بما يصرف من حياته في طلبها.

قال شماس: فأخبرني هل الجسد والروح سواء في الثواب والعقاب، أم إنما يختصُّ بالعقاب صاحب الشهوات وفاعل الخطيئات؟ قال الغلام: قد يكون الميل إلى الشهوات والخطيئات موجباً للثواب بحبس النفس عنها والتوبة منها، والأمر بيد مَنْ يفعل ما

يشاء، وبضدها تتميز الأشياء، على أن المعاش لا بد منه للجسد، ولا جسد إلا بالروح، وطهارة الروح بإخلاص النية في الدنيا والالتفات إلى ما ينفع في الآخرة، فهما فرساً رهان ورضيعاً لبان، ومشاركان في الأعمال، وباعتبار النية تفصيل الإجمال، وكذلك الجسد والروح مشاركان في الأعمال، وفي الثواب والعقاب.

حكاية الأعمى والمُقعد

وذلك مثل الأعمى والمُقعد اللذين أخذهما رجلٌ صاحب بستان، وأدخلهما بستانه وأمرهما ألا يفسداً فيه ولا يصنعا فيه أمراً يضرُّ به، فلما طابَتْ أثمار البستان قال المُقعد للأعمى: وَيْحك! إني أرى أثماراً طيبة وقد اشتيتها، ولستُ أقدر على القيام إليها لأكل منها، فقم أنت لأنك صحيح الرجلين وأتينا منها بما نأكل. فقال الأعمى: وَيْحك! قد ذكرتُها لي، وقد كنتُ عنها غافلاً، ولستُ أقدر على ذلك لأنني لستُ أبصرها، فما الحيلة في تحصيل ذلك؟ فبينما هما كذلك إذ أتاهما الناظر على البستان، وكان رجلاً عالماً، فقال له المُقعد: وَيْحك يا ناظر! إننا قد اشتينا شيئاً من هذه الثمار ونحن كما ترى؛ أنا مُقعد وصاحبي هذا أعمى لا يبصر شيئاً، فما حيلتنا؟ فقال لهما الناظر: وَيْحكما! أَلَسْتُمَا تعلمان ما قد عاهدكما عليه صاحبُ البستان من أنكما لا تتعرضا لشيء مما يؤثر فيه الفساد؟ فانتهيا ولا تفعلًا. فقالا له: لا بد لنا من أن نصيب من هذه الثمار ما نأكله، فأخبرنا بما عندك من الحيلة. فلما لم ينتهيا عن رأيهما، قال لهما: الحيلة في ذلك أن يقوم الأعمى ويحكم أيها المُقعد على ظهره ويُدِينك من الشجرة التي تعجبك أثمارها، حتى إذا أدناك منها تجني أنت ما أصبت من الثمار. فقام الأعمى وحمل المُقعد، وجعل المُقعد يهديه إلى السبيل حتى أدناه إلى شجرة، فصار المُقعد يأخذ منها ما أحب، ولم يزل ذلك دأبهما حتى أفسدا ما في البستان من الشجر، وإذا بصاحب البستان قد جاء وقال لهما: وَيْحكما! ما هذه الفِعال؟ أَلَمْ أعاهدكما على ألا تفسدا في هذا البستان؟ فقالا له: قد علمت أننا لا نقدر أن نصل إلى شيء من الأشياء لأن أحداً مُقعد لا يقوم، والآخر أعمى لا يبصر ما بين يديه، فما ذنبنا؟ فقال لهما صاحب البستان: لعلكما تظنان أنني لستُ أدري كيف صنعتما وكيف أفسدتما في بستانِي؟ كأنني بك أيها الأعمى قد قمت وحملت المُقعد على ظهرِك، وصار يهديك السبيل حتى أوصلته إلى الشجرة. ثم إنه أخذهما وعاقبهما عقوبةً شديدةً وأخرجهما من البستان؛ فالأعمى مثال للجسد لأنه لا يبصر إلا بالنفس، والمُقعد مثال للنفس التي لا حركة لها إلا بالجسد، وأما البستان فإنه مثال للعمل الذي يجازى به

العبد، والناظر مثال للعقل الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر، فالجسد والروح مشتركان في الثواب والعقاب. قال له شماس: صدقتَ وقد قبلتُ قولك هذا، فأخبرني أي العلماء عندك أحمد؟ قال الغلام: مَنْ كان بالله عالمًا وينفعه علمه. قال شماس: وَمَنْ ذلك؟ قال الغلام: مَنْ يلتمس رضا ربه ويتجنبُّ سخطه. قال: فأيهم أفضل؟ قال الغلام: مَنْ كان بالله أعلم. قال شماس: فَمَنْ أشدهم اختبارًا؟ قال: مَنْ كان على العمل بالعلم صَبْرًا. قال شماس: أخبرني مَنْ أرقُّهم قلبًا؟ قال: أكثرهم استعدادًا للموت وذكرًا، وأقلهم أملًا؛ لأنَّ مَنْ أدخل على نفسه طوارق الموت كان مثل الذي ينظر في المرآة الصافية، فإنه يعرف الحقيقة، ولا تزداد المرآة إلا صفاءً وبريقًا. قال شماس: أي الكنوز أحسن؟ قال: كنوز السماء. قال: فأَي كنوز السماء أحسن؟ قال: تعظيم الله وتحميده. قال: فأَي كنوز الأرض أفضل؟ قال: اصطناع المعروف. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير شماس لما قال لابن الملك: أي كنوز الأرض أفضل؟ قال له: اصطناع المعروف. قال: صدقت وقد قبلتُ قولك هذا، فأخبرني عن الثلاثة المختلفة: العلم والرأي والذهن، وعن الذي يجمع بينها؟ قال الغلام: إنما العلم من التعلُّم، وأما الرأي فإنه من التجارب، وأما الذهن فإنه من التفكُّر، وثباتها واجتماعها في العقل، فمن اجتمعت فيه هذه الثلاث خصال كان كاملاً، ومن جمع إليهن تقوى الله كان مصيباً. قال شماس: صدقت وقد قبلتُ منك ذلك، فأخبرني عن العالم العليم ذي الرأي السديد والفتنة الوقادة والذهن الفائق الرائق، هل يغيِّره الهوى والشهوة عن هذه الحالات التي ذكرت؟ قال الغلام: إن هاتين الخصلتين إذا دخلتا على الرجل غيَّرتا علمه وفهمه ورأيه وذهنه، وكان مثل العقاب الكاسر الذي عن القنص محاذر، المقيم في السماء لفرط حذقه، فبينما هو كذلك إذ نظر رجلاً صياداً قد نصب شركه، فلما فرغ الرجل من نصب الشَّرك وضع فيه قطعة لحم، فعند ذلك أبصر العقاب قطعة اللحم، فغلب عليه الهوى والشهوة حتى نسي ما شاهد من الشَّرك ومن سوء الحال لكل من وقع من الطير، فانقضَّ من جو السماء حتى وقع على قطعة اللحم، فاشتبك في الشَّرك، فلما جاء الصياد رأى العقاب في شركه فتعجَّب عجباً شديداً وقال: أنا نصبتُ شركي ليقع فيه حمامٌ أو نحوه من الطيور الضعيفة، فكيف وقع فيه هذا العقاب؟ وقد قيل: إن الرجل العاقل إذا حمله الهوى والشهوة على أمر، يتدبَّر عاقبة ذلك الأمر بعقله فيمتنع ممَّا حسَّاه، ويقهر بعقله شهوته وهواه، فإذا حمله الهوى والشهوة على أمر، ينبغي أن يجعل عقله مثل الفارس الماهر في فروسيته، إذا ركب الفرس الأرعن فإنه يجذبه باللجام الشديد حتى يستقيم ويمضي معه على ما يريد، وأما من كان سفيهاً لا علم له ولا رأي عنده، والأمور مشتبهة عليه والهوى والشهوة مسلطان عليه، فإنه يعمل بشهوته وهواه فيكون من الهالكين، ولا يكون في الناس أسوأ حالاً منه.

قال شماس: صدقتَ فيما قلتَ وقد قبلتُ ذلك منك، فأخبرني متى يكون العلم نافعا، والعقل لوبال الهوى والشهوة دافعا؟ قال الغلام: إذا صرَفَهما صاحبهما في طلب الآخرة؛ لأنَّ العقل والعلم كليهما نافعا، ولكن ليس ينبغي لصاحبهما أن يصرفهما في طلب الدنيا إلا بمقدار ما يصيب به قوته منها، ويدفع عن نفسه شرَّها ويصرفهما في عمل الآخرة. قال: فأخبرني ما أحقُّ أن يلزم الإنسان ويشغل به قلبه؟ قال: العمل الصالح. قال: فإذا فعل الرجل ذلك شغله عن معاشه، فكيف يفعل في المعيشة التي لا بد له منها؟ قال الغلام: إن نهاره أربع وعشرون ساعة، فينبغي له أن يجعل منها جزءا واحدا في طلب المعيشة، وجزءا واحدا للدعة والراحة، ويصرف الباقي في طلب العلم؛ لأنَّ الإنسان إذا كان عاقلا وليس عنده علم، فإنما هو كالأرض المجربة التي ليس فيها موضع للعمل والغرس والنبات؛ فإذا لم تُهَيَّأ للعمل وتُغرس، لا ينفع فيها ثمر، وإذا هُيئت للعمل وغُرست أنبتت ثمرًا حسنًا؛ كذلك الإنسان بغير علم لا نفع به حتى يُغرس فيه العلم، فإذا غُرِس فيه العلم أثمر. قال شماس: فأخبرني عن العلم بغير عقل ما شأنه؟ قال: كعلم البهيمة التي تعلَّمت أوانَ مطعمها ومشربها وأوانَ يقظتها ولا عقل لها. قال شماس: قد أوجزت في الإجابة عن ذلك، ولكن قد قبلتُ منك هذا الكلام، فأخبرني كيف ينبغي أن أتوقى السلطان؟ قال الغلام: لا تجعل له عليك سبيلا. قال: وكيف أستطيع ألا أجعل له عليَّ سبيلا وهو مسلط عليَّ وزمام أمري بيده؟ قال الغلام: إنما سلطانه عليك بحقوقه التي قبلك، فإذا أعطيتَه حقه فلا سلطان له عليك. قال شماس: ما حق الملك على الوزير؟ قال: النصيحة والاجتهاد في السرِّ والعلانية، والرأي السديد، وكنتم سره، وألا يخفي عنه شيئا مما هو حقيق بالاطلاع عليه، وقلة الغفلة عما قلَّده إياه من قضاء حوائجه، وطلب رضاه بكلِّ وجه، واجتناب سخطه عليه. قال شماس: فأخبرني ما الذي يفعله الوزير مع الملك؟ قال الغلام: إذا كنتَ وزيرًا للملك وأحببتَ أن تسلم منه، فليكن سمعك وكلامك له فوق ما يؤمله منك، وليكن طلبك منه الحاجة على قدر منزلتك عنده، واحذر أن تنزلَ نفسك منزلة لم يرك لها أهلا، فيكون ذلك منك مثل الجرأة عليه.

حكاية الأسد والصيد

فإذا اغتررت بحلمه ونزلت نفسك منزلة لم يرك لها أهلا، تكون مثل الصيد الذي يصطاد الوحوش فيسلخ جلودها لحاجته إليها وي طرح لحومها، فجعل الأسد يأتي إلى ذلك المكان فيأكل من تلك الجيفة، فلما كثر تردُّده إلى ذلك المحل، استأنس بالصيد وألفه، وأقبلَ

الصيدُ يرمي إليه ويمسح يده على ظهره وهو يلعب بذيله، فعندما رأى الصيدُ سكونَ الأسدِ له واستئناسَه به وتذللَه إليه، قال في نفسه: إِنَّ هذا الأسدَ قد خضع إليَّ وملكته، وما أرى إلا أني أركبه وأسلخ جلده مثل غيره من الوحوش، فتجاسرَ الصيدُ ووثبَ على ظهر الأسد وطمع فيه، فلما رأى الأسد ما صنع الصيد، غضب غضباً شديداً، ثم رفع يده وضرب الصيد فدخلت مخالبه في أمعائه، ثم طرحه تحت قوائمه ومزقه تمزيقاً؛ فمن ذلك علمتُ أنه ينبغي للوزير أن يكون عند الملك على حسب ما يرى من حاله، ولا يتجاسر عليه لفضل رأيه فيتغير الملك عليه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام ابن الملك جليعاد قال لشماس الوزير: ينبغي للوزير أن يكون عند الملك على حسب ما يرى من حاله، ولا يتجاسر عليه لفضل رأيه، فيتغير الملك عليه. قال شماس: فأخبرني ما الذي يتزَيَّنُّ به الوزير عند الملك؟ قال الغلام: أداء الأمانة التي فُوِّضَ إليه أمرُها من النصيحة وسداد الرأي وتنفيذه لأوامره. قال له شماس: أمَّا ما ذكرت من أن حقَّ الملك على الوزير أن يجتنبَ سخطه ويفعل ما يقتضي رضاه ويهتم بما قلَّده إياه، فإنه أمرٌ واجبٌ، ولكن أخبرني ما الحيلة إذا كان الملك إنما رضاه بالجور وارتكاب الظلم والعسف؟ فما حيلة الوزير إذا هو ابتليَ بعُشرة ذلك الملك الجائر؟ فإنه إن أراد أن يصرفه عن هواه وشهوته ورأيه، فلا يقدر على ذلك، وإن هو تابَّعه على هواه وحسَّنَ له رأيه، حملَ وزَرَ ذلك وصار للرعية عدوًّا، فما تقول في هذا؟ فأجابه الغلام قائلاً: إنَّ ما ذكرت أيها الوزير من الوزرِ والإثم، إنما هو إذا تابَّعه على ما ارتكبه من الخطأ، ولكن يجب على الوزير إذا شاورَه الملك في مثل هذا أن يبيِّنَ له طريقَ العدل والإنصاف، ويحذِّره من الجور والاعتساف، ويعرِّفه حُسْنَ السيرة في الرعية، ويرغبه فيما في ذلك من الثواب، ويحذِّره ممَّا يلزمه من العقاب، فإنَّ مالَ وعطفَ إلى كلامه حصل المراد، وإلا فلا حيلةَ له إلا بمفارقة إياه بطريقة لطيفة؛ لأنَّ في المفارقة لكلِّ واحدٍ منهما الراحة. قال الوزير: فأخبرني ما حق الملك على الرعية؟ وما حق الرعية على الملك؟ قال: الذي يأمرهم به يعملونه بنية خالصة، ويطيعونه فيما يرضيه ويرضي الله ورسوله، وحقَّ الرعية على الملك حفظُ أموالهم وصونُ حريمهم، كما أن للملك على الرعية السمع والطاعة، وبذلَ الأنفس دونه، وإعطاءه واجبَ حقه، وحُسْنَ الثناء عليه بما أولاهم من عدله وإحسانه. قال شماس: قد بيَّنتُ لي ما سألتُكَ عنه من حقِّ الملك والرعية، فأخبرني هل بقي للرعية شيءٌ على الملك غير ما قلتُ؟ قال الغلام: نعم، حق الرعية على الملك أوجبُّ

من حق الملك على الرعية، وهو أن ضياع حقهم عليه أضُرَّ من ضياع حقه عليهم؛ لأنه لا يكون هلاك الملك وزوال مُلكه ونعمته إلا من ضياع حق الرعية، فَمَنْ تَوَلَّى مُلْكًا يجب عليه أن يلازم ثلاثة أشياء، وهي: إصلاح الدِّين، وإصلاح الرعية، وإصلاح السياسة، فبملازمة هذه الثلاثة يدوم ملكه. قال: فأخبرني كيف ينبغي أن يستقيم في إصلاح الرعية؟ قال: بأداء حقِّهم وإقامة سنتهم، واستعمال العلماء والحكماء لتعليمهم وإنصاف بعضهم من بعض، وحَقْن دمائهم، والكف عن أموالهم، وتخفيف الثقل عنهم، وتقوية جيوشهم. قال: فأخبرني ما حق الوزير على الملك؟ قال الغلام: ليس على الملك حقٌّ لأحدٍ من الناس أوجب من الحق الواجب عليه للوزير لثلاث خصال؛ الأولى: لِذِي يصيبه معه عند خطأ الرأي والانتفاع العام للملك والرعية عند سداد الرأي. والثانية: ليعلم الناس حُسْنَ منزلة الوزير عند الملك، فتنظر إليه الرعية بعين الإجلال والتوقير وخفض الجناح. والثالثة: أن الوزير إذا شاهدَ ذلك من الملك والرعية، دفع عنهم ما يكرهونه ووفى لهم بما يحبونه. قال شماس: قد سمعتُ جميعَ ما قلته لي من صفات الملك والوزير والرعية وقبلته منك، فأخبرني ما ينبغي لحَفْظ اللسان عن الكذب والسفاهة وسبِّ العِرض والإفراط في الكلام؟ قال الغلام: ينبغي للإنسان ألا يتكلم إلا بالخير والحسنات، ولا ينطق في شأن ما لا يعنيه، ويترك النميمة ولا ينقل عن أحدٍ حديثاً سمعه منه لعدوه، ولا يطلب لصديقه ولا لعدوه ضرورة عند سلطانه، ولا يَغْبَأَ بِمَنْ يرجي خيره ويتقي شره إلا الله تعالى؛ لأنه هو الضار النافع على الحقيقة، ولا يذكر لأحدٍ عيباً ولا يتكلم بجهلٍ لئلا يلزمه الوزر والإثم من الله والبغض بين الناس، واعلم أن الكلام مثل السهم إذا نَفَذَ لا يقدر أحدٌ على رُدِّه، وليحذر أن يودع سرّه عند مَنْ يفشيه، فربما يقع في ضرر إفشائه بعد أن يكون على ثقةٍ من الكتمان، وأن يكون مُخَفِّياً لسرّه عن صديقه أكثر من إخفائه عن عدوه، فإن كتمان السر عن جميع الناس من أداء الأمانة. قال شماس: فأخبرني عن حُسْن الخُلُق مع الأهل والأقارب؟ قال الغلام: إنه لا راحة لبني آدم إلا بحُسْن الخُلُق، ولكن ينبغي أن يصرف إلى الأهل ما يستحقونه، وإلى إخوانه ما يجب لهم. قال: فأخبرني ما الذي يجب أن يصرفه إلى الأهل؟ قال: أمّا الذي يصرفه للوالدين، فخفض الجناح، وحلاوة اللسان، ولين الجانب، والإكرام والوقار، وأمّا الذي يصرفه للإخوان فالنصيحة، وبَذْل المال، ومساعدتهم على أسبابهم، والفرح لفرحهم، والإغضاء عمّا يقع منهم من الهفوات، فإذا عرفوا منه ذلك قابَلُوهُ بأعزّ ما عندهم من النصيحة، وبذلوا الأنفُسَ دونه، فإذا كنتَ من أخيك على ثقة، فابذلْ له ودَّك وكُنْ مساعداً له على جميع أموره. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام ابن الملك جليعاد لما سأله الوزير شماس عن المسائل المتقدمة وردَّ له أجوبتها، قال له الوزير شماس: إني أرى الإخوان صنفَيْن: إخوان ثقة، وإخوان معاشرة، أما إخوان الثقة فإنه يجب لهم ما وصفت، فأسألك عن غيرهم من إخوان المعاشرة. قال الغلام: أمَّا إخوان المعاشرة فإنك تصيب منهم لذةً وحُسْنَ خلقٍ وحلاوةً لفظٍ وحُسْنَ معاشرة، فلا تقطع منهم لذاتك، بل ابدُلْ مثلَ ما يبذلونه لك، وعاملهم بمثل ما يعاملونك به من طلاقة الوجه وعذوبة اللسان، فيطيب عيشك ويكون كلامك مقبولاً عندهم.

قال شماس: قد عرفنا هذه الأمور كلها، فأخبرني عن الأرزاق المقدَّرة للخلق من الخالق، هل هي مقسومة بين الناس والحيوان، لكلٍّ واحدٍ رزقٌ إلى تمام أجله؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يحمل طالبَ المعيشة على ارتكاب المشقَّة في طلب ما عرف أنه إن كان مقدَّرًا له فلا بد من حصوله، وإن لم يرتكب مشقَّة السعي، وإن لم يكن مقدَّرًا له فلا يتحصَّل له ولو سعى إليه غاية السعي؟ فهل يترك السعي ويكون على ربه متوكِّلاً ولجسده ونفسه مُريحاً؟ قال الغلام: إنَّا قد رأينا لكلٍّ واحدٍ رزقاً مقسوماً وأجلاً محتوماً، ولكن لكلٍّ رزقٍ طريق وأسباب، فصاحبُ الطلب يصيب في طلبه الراحة بترك الطلب، ومع ذلك لا بد من طلب الرزق، غير أن الطالب على ضربَيْن: إما أن يصيب، وإما أن يُحرَم. فراحة المُصيب في الحالتين إصابته رزقه، وكونُ عاقبة طلبه حميدة. وراحة المحروم في ثلاث خصال: الاستعداد لطلب رزقه، والتنزُّه عن أن يكون كلاً على الناس، والخروج عن عهدة الملامة. قال شماس: أخبرني عن باب طلب المعيشة؟ قال الغلام: يستحلُّ الإنسان ما أحلَّ الله، ويحرِّم ما حرَّمه الله عزَّ وجلَّ.

وانقطعَ بينهما الكلامَ لما وصلَا إلى هذا الحد، ثم قام شماس هو ومَن حضر من العلماء وسجدوا للغلام وعظَّموه وبجَّلوه، وضَمَّه أبوه إلى صدره، ثم بعد ذلك أَجْلَسَه على سرير الملك وقال: الحمد لله الذي رزقني ولدًا تقرُّ به عينا في حياتي. ثم قال الغلام لشماس ومَن حضر من العلماء: أيها العالم صاحب المسائل الروحانية، إن لم يكن فَتَحَ الله عليَّ من العلم إلا بشيء قليل، فإنني قد فهمتُ قصدك في قبورك مني ما أتيتُ به جوابًا عمَّا سألتني، سواء كنتُ فيه مصيبًا أو مخطئًا، ولعلك صفحتَ عن خطئي، وأنا أريد أن أسألك عن شيء عَجَزَ عنه رأيي، وضاق منه ذُرْعِي، وكَلَّ عن وصفه لساني؛ لأنه أَشْكَلَ عليَّ إشْكَالَ الماء الصافي في الإناء الأسود، فأحبُّ منك أن تشرحه لي حتى لا يكون شيء منه مبهمًا على مثلي فيما يستقبل، مثل إبهامه عليَّ فيما مضى؛ لأن الله كما جعل الحياة بالماء، والقوة بالطعام، وشفاء المريض بـمداواة الطبيب؛ جعل شفاءَ الجاهل بعلم العالم، فأنصتُ إلى كلامي. قال شماس: أيها المضيء العقل، صاحب المسائل الصالحة، ومَن شهد له العلماء كلهم بالفضل لحسن تفضيلك للأشياء وتقسيمك إياها، وحسن إصابتك في إجابتك عمَّا سألتك عنه، قد علمت أنك لستَ تسألني عن شيءٍ إلا وأنت في تأويله أصوب رأيًا وأصدق مقالًا؛ لأن الله قد آتاك من العلم ما لم يُؤتِ أحدًا من الناس، فأخبرني عن هذه الأشياء التي تريد أن تسألني عنها؟ قال الغلام: أخبرني عن الخالق جلَّتْ قدرته، من أي الأشياء خُلِقَ الخَلْقُ؟ ولم يكن قبل ذلك شيء، وليس يُرى في هذه الدنيا شيءٌ إلا مخلوق من شيء، والبارئ تبارك وتعالى قادرٌ على أن يخلق الأشياء من لا شيء، ولكن اقتضتْ إرادته مع كمال القدرة والعظمة، أنه لم يخلق شيئًا إلا من شيء. قال الوزير شماس: أمَّا صنَّاع الآلات من الفخار وغيره من الصنائع، فلا يقدرُونَ على ابتداع شيءٍ إلا من شيء؛ إذ هم مخلوقون، وأمَّا الخالق الذي صنَّع العالمَ بهذه الصنعة العجيبة، فإن شئتَ أن تعرف قدرته تبارك وتعالى على إيجاد الأشياء، فأطلِ الفِكرَ في أصناف الخلق، فإنك ستجد آياتٍ وعلاماتٍ دالةً على كمال قدرته، وأنه قادر على أن يخلق الأشياء من لا شيء، بل أوجدها بعد العدم المحض؛ لأن العناصر التي هي مادة الأشياء كانت عديمًا محضًا، وقد أوضحتُ لك ذلك حتى لا تكون في شكٍّ منه، ويبين ذلك آية الليل والنهار، فإنهما يتعاقبان حتى إذا ذهب النهار وجاء الليل، خفي علينا النهار ولم نعرف له مقرًّا، وإذا ذهب الليل بظلمته ووحشته جاء النهار ولم نعرف الليل مقرًّا، وإذا أشرقت علينا الشمس لا نعرف أين يُطوى نورها، وإذا غربت لم نعرف مستقرَّ غروبها، وأمثال ذلك من أفعال الخالق — عزَّ اسمه وجلَّتْ قدرته — كثيرةٌ مما يحيرُ أفكارَ الأذكى من المخلوقات.

قال الغلام: أيها العالم، إنك عرّفتني من قدرة الخالق ما لا يستطيع إنكاره، ولكن أخبرني كيف إيجاده لخلقه؟ قال شماس: إنما الخلق مخلوقٌ بكلمته التي هي موجودة قبل الدهر، وبها خلق جميع الأشياء. قال الغلام: إن الله تعاظَمَ اسمه وارتفعتْ قدرته، إنما أرادَ إيجادَ الخلق قبل وجودهم. قال شماس: وبإرادته خَلَقَهُم بكلمته، فلولا أنَّ له نطقًا وأظهر كلمة، لم تكن الخليقة موجودة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام لما سأل شماسًا عن المسائل المتقدمة، أجابه عنها، ثم قال له: يا بني، إنه لا يخبرك أحدٌ من الناس بغير ما قلته إلا بتحريف الكلام الوارد في الشرائع عن موضعه، وصرف الحقائق عن وجوها، ومن ذلك قولك: إن الكلمة لها استطاعة، أعوذ بالله من هذه العقيدة، بل قولنا في الله عز وجل: إنه خلق الخلق بكلمته، معناه أنه تعالى واحدٌ في ذاته وصفاته، وليس معناه أن كلمة الله لها قدرة، بل القدرة صفة لله، كما أن الكلام وغيره من صفات الكمال صفات لله تعالى شأنه وعز سلطانه، فلا يُوصف هو دون كلمته، ولا تُوصف كلمته دونه، فالله جل ثناؤه خلق بكلمته جميع خلقه، وبغير كلمته لم يخلق شيئاً، وإنما خلق الأشياء بكلمته الحق، فبالحق نحن مخلوقون. قال الغلام: قد فهمتُ من أمر الخالق وعِزَّة كلمته ما ذكرت، وقبلتُ ذلك منك بفهم، ولكني سمعتُك تقول: إنما خلق الخلق بكلمته الحق، والحق ضد الباطل، فمن أين عرض الباطل؟ وكيف يمكن عروضه للحق حتى يشتبه به ويلتبس على المخلوقين، فيحتاجون إلى الفصل بينهما؟ وهل الخالق عز وجل محبٌ لهذا الباطل أم باغض له؟ فإن قلت إنه محبٌ للحق وبه خلق خلقه، وباغض للباطل، فمن أين دخل هذا الذي يبغضه الخالق على ما يحبه وهو الحق؟ قال شماس: إن الله لما خلق الإنسان بالحق، ولم يكن الإنسان محتاجاً إلى توبة، حتى دخل الباطل على الحق الذي هو مخلوق به، بسبب الاستطاعة التي جعلها الله في الإنسان وهي الإرادة والميل المسمى بالكسب، فلما دخل الباطل على الحق بهذا الاعتبار التبس الباطل بالحق بسبب إرادة الإنسان واستطاعته والكسب الذي هو الجزء الاختياري مع نصف طبيعة الإنسان، فخلق الله له التوبة لتصرف عنه ذلك الباطل وتثبت على الحق، وخلق له العقوبة إن هو أقام على ملبسة الباطل.

قال الغلام: فأخبرني ما سبب عروض هذا الباطل للحق حتى التَبَسَ به؟ وكيف وجبت العقوبة على الإنسان حتى احتاج إلى التوبة؟ قال شماس: إن الله لما خلق الإنسان بالحق جعله مُحِبًّا له، ولم يكن له عقوبة ولا توبة، واستمرَّ كذلك حتى رَكِبَ الله فيه النفس التي هي من كمال الإنسانية مع ما هي مطبوعة عليه من الميل إلى الشهوات، فنشأ من ذلك عروض الباطل والتباسه بالحق الذي خُلِقَ الإنسان به وطُبع على حَبِّه، فلما صار الإنسان إلى هذه الغاية زاعَّ عن الحق بالمعصية، ومَن زاعَّ عن الحق إنما يقع في الباطل. قال الغلام: إن الحق إنما دخل عليه الباطل بالمعصية والمخالفة. قال شماس: وهو كذلك؛ لأن الله يحب الإنسان، ومن زيادة محبته له خُلِقَ الإنسان محتاجًا إليه، وذلك هو الحق بعينه، ولكن ربما استرخى الإنسان عن ذلك بسبب ميل النفس إلى الشهوات، ومال إلى الخلاف، فصار إلى ذلك الباطل بالمعصية التي بها عصى ربه فاستوجب العقوبة، وبإزاحة الباطل عنه بتوبته ورجوعه إلى محبة الحق، استوجبَ الثواب.

قال الغلام: أخبرني عن مبدأ المخالفة مع أن الخلق مرجعهم جميعًا إلى أن وجد بني آدم، وقد خَلَقَهُ الله بالحق، فكيف جلب المعصية لنفسه؟ ثم قُرِنتَ معصيته بالتوبة بعد تركيب النفس فيه لتكون عاقبته الثواب أو العقاب، ونحن نرى بعض الخلق مقيمًا على المخالفة، مائلًا إلى ما لا يحبه، مخالفًا لمقتضى أصل خلقته من حبِّ الحق، مستوجبًا لسخط ربه عليه، ونرى بعضهم مقيمًا على رضا خالقه وطاعته مستوجبًا للرحمة والثواب؛ فما سبب الاختلاف الحاصل بينهم؟ قال شماس: إنَّ أول نزول هذه المعصية بالخلق إنما كان بسبب إبليس الذي كان أشرف ما خلق الله جلَّ اسمه من الملائكة والإنس والجن، وكان مطبوعًا على المحبة لا يعرف غيرها، فلما انفردَ بهذا الأمر داخلَه العُجْبُ والعظمة والتجبر والتكبر عن الإيمان والطاعة لأمر خالقه، فردَّه الله دون الخلائق جميعهم، وأخرجَه من المحبة وصيَّرَ مَنَواه إلى نفسه في المعصية، فحين علم أن الله جلَّ اسمه لا يحبُّ المعصية، ورأى آدم وما هو فيه من ذلك الحق والمحبة والطاعة لخالقه، داخلَه الحسد فاستعمل الحيلة في صرفه لآدم عن الحق، ليكون مشتركًا معه في الباطل، فلزم آدم العقوبة لميله إلى المعصية التي زَيَّنَهَا له عدوُّه وانقياده إلى هواه؛ حيث خَالَفَ وصيةَ ربه بسبب عروض الباطل، ولما علم الخالق — جلَّ ثناؤه وتقدَّست أسماؤه — ضَعْفَ الإنسان وسرعة ميله إلى عدوِّه وتركه الحق، جعل له الخالق برحمته التوبة لينهض بها من ورطة الميل إلى المعصية، ويحمل سلاح التوبة فيقهر به عدوه إبليس وجنوده، ويرجع إلى الحق الذي هو مطبوع عليه، فلما نظر إبليس أن الله جلَّ ثناؤه وتقدَّست أسماؤه قد جعل له أمدًا ممتدًّا،

بَادَرَ إِلَى الْإِنْسَانِ بِالْمَحَارَبَةِ، وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ الْحَيْلَ لِيُخْرِجَهُ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّهِ وَيَجْعَلَهُ شَرِيكًا لَهُ فِي السَّخَطِ الَّذِي اسْتَوْجِبَهُ هُوَ وَجُنُودُهُ، فَجَعَلَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِلْإِنْسَانِ اسْتَطَاعَةً لِلتَّوْبَةِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُلْزَمَ الْحَقُّ وَيَدَاوِمَ عَلَيْهِ، وَنَهَاهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَالْخِلَافِ، وَأَلْهَمَهُ أَنَّ لَهُ عَلَى الْأَرْضِ عَدُوًّا مُحَارِبًا لَا يَفْتَرُّ عَنْهُ لَيْلُهُ وَلَا نَهَارُهُ؛ فَبِذَلِكَ اسْتَحَقَّ الْإِنْسَانُ ثَوَابًا إِنْ لَزِمَ الْحَقَّ الَّذِي جُبِلَتْ طَبِيعَتُهُ عَلَى حُبِّهِ، وَعِقَابًا إِنْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ وَمَالَتْ بِهِ إِلَى الشَّهَوَاتِ. وَأَدْرَكَ شَهْرُ زَادِ الصَّبَاحِ، فَسَكَتَتْ عَنِ الْكَلَامِ الْمُبَاحِ.

فلما كانت الليلة ٩١٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنَّ الغلام لما سأل شماس عن المسائل المتقدمة وأجابه عنها، قال له بعد ذلك: أخبرني بأي قوة استطاع الخلق أن يخالفوا خالقهم وهو في غاية العظمة كما وصفت، مع أنه لا يقهره شيء ولا يخرج عن إرادته، ألا ترى أنه قادرٌ على صرف خلقه عن هذه المعصية وإلزامهم المحبة دائماً؟ قال شماس: إن الله تعالى جلَّ اسمه عادلٌ مُنصفٌ رءوفٌ بأهل محبته، قد بيَّن لهم طريق الخير ومنحهم الاستطاعة والقدرة على فعل ما أرادوا من الخير، فإن عملوا بخلاف ذلك صاروا إلى الهلاك والمعصية. قال الغلام: إذا كان الخالق هو الذي منحهم الاستطاعة وهم بسببها قادرون على فعل ما أرادوا، فلأي شيء لم يحل بينهم وبين ما يريدون من الباطل حتى يردَّهم إلى الحق؟ قال شماس: ذلك لعظيم رحمته وباهر حكيمته؛ لأنه كما سبق منه لإبليس السخط ولم يرحمه كذلك، سبقت منه لآدم الرحمة بالتوبة فرضي عنه بعد سخطه عليه. قال الغلام: هذا هو الحق بعينه؛ لأنه هو المجازي لكلِّ أحد على عمله، وليس خالقٌ غير الله له القدرة على كل شيء. ثم قال الغلام: هل خلق الله ما يحبُّ وما لا يحبُّ، أم إنما خلق ما يحب لا غيره؟ قال شماس: قد خلق كلَّ شيء ولم يرَضْ إلا ما يحبُّ. قال الغلام: ما بال هذين الشيئين، أحدهما يُرضي الله ويوجب الثواب لصاحبه، والآخر يُغضب الله فيحلُّ العذاب بصاحبه؟ قال شماس: بيَّن لي هذين الأمرين وفهمني إياهما حتى أتكلَّم في شأنهما. قال الغلام: هما الخير والشر المركبان في الجسم والروح. قال شماس: أيها العاقل، أراك قد علمت أن الخير والشر من الأعمال التي يعملها الجسد والروح، فسُمِّي الخير منهما خيراً لكونه فيه رضا الله، وسُمِّي الشرُّ شراً لكونه فيه سخط الله، وقد وجب عليك أن تعرف الله وترضيه بفعل الخير؛ لأنه أمرنا بذلك ونهانا عن فعل الشر.

قال الغلام: إني أرى هذين الشيئين، أعني الخير والشر، إنما يعملهما الحواس الخمس المعروفة في جسد الإنسان، وهي محل الذوق الناشئ عنه الكلام والسمع والبصر والشم واللمس، فأجبت أن تعرّفني هل هذه الحواس الخمس خلقت للخير جميعاً أم للشر؟ قال شماس: افهم أيها الإنسان بياناً ما سألت عنه، وهو الحجة الواضحة، وضّعها في ذهنك وأشرّبها قلبك، وهو أن الخالق تبارك وتعالى خلق الإنسان بالحق، وطبعه على حبه ولم يصدر منه مخلوق إلا بالقدرة العلية المؤثرة في كل حادث، ولا ينسب تبارك وتعالى إلا إلى الحكم بالعدل والإنصاف والإحسان، وقد خلق الإنسان لمحبة وركّب فيه النفس المطبوعة على الميل إلى الشهوات، وجعل له الاستطاعة، وجعل هذه الحواس الخمس سبباً للنعيم أو الجحيم. قال الغلام: وكيف ذلك؟ قال شماس: لأنه خلق اللسان للنطق، واليدين للعمل، والرّجلين للمشي، والبصر للنظر، والأذنين للسمع، وقد أعطى كلّ واحدة من هذه الحواس استطاعةً وهيّجها على العمل والحركة، وأمر كلّ واحدة منها ألا تعمل إلا برضائه، والذي يرضيه من النطق الصدق وترك ما هو ضده الذي هو الكذب؛ ومما يرضيه من البصر صرف النظر إلى ما يحبه الله، وترك ضده وهو صرف النظر إلى ما يكرهه الله، كالنظر إلى الشهوات؛ ومما يرضيه من السمع ألا يستمع إلا إلى الحق كالموعظة وما في كُتب الله، وترك ضده وهو أن يسمع ما يُوجب سخط الله؛ ومما يرضيه من اليدين ألا يقبضاً ما خولّهما الله، بل يصرفاه على وجه يرضيه، وترك ضده وهو الإمساك أو صرف ما خولّهما الله في معصية؛ ومما يرضيه من الرّجلين أن يكون سعيهما في الخير كقصد التعليم، وترك ضده وهو أن يمشياً في غير سبيل الله، وما سوى ذلك من الشهوات التي يعملها الإنسان، فإنه يصدر من الجسد بأمر الروح؛ ثم الشهوة التي تصدر من الجسد نوعان: شهوة التناسل وشهوة البطن، فالذي يرضي الله من شهوة التناسل أنها لا تكون إلا حلالاً، وسخطه أن تكون حراماً، وأما شهوة البطن فالأكل والشرب، والذي يرضي الله من ذلك ألا يتعاطى منه كلّ أحد إلا ما أحلّه له، قليلاً كان أو كثيراً، ويحمد الله ويشكره، والذي يغضب الله منه أن يتناول ما ليس له بحق، وما سوى ذلك من هذه الأحكام باطل. وقد عملت أن الله خلق كلّ شيء ولا يرضى إلا بالخير، وأمر كلّ عضو من أعضاء الجسد أن يفعل ما أوجبه عليه؛ لأنه هو العليم الحكيم.

قال الغلام: فأخبرني هل سبق في علم الله جلّت قدرته أن آدم سبب للأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها حتى كان من أمره ما كان، وبذلك خرج من الطاعة إلى المعصية؟ قال شماس: نعم أيها العالم، قد سبق ذلك في علم الله تعالى قبل أن يخلق آدم، وبيان ذلك

ودليله ما تقدّم له من التحذير عن الأكل وإعلامه بأنه إذا أكلَ منها يكون عاصياً، وذلك من طريق العدل والإنصاف لئلا يكون لآدم حجةٌ يحتجُّ بها على ربه، فلما أن سقط في الورطة والهفوة وعظمت عليه المعيرة والمعتبة، جرى ذلك في نسله من بعده، فبعث الله تعالى الأنبياء والرسل وأعطاهم كُتُبًا، فأعلمونا بالشرائع وبيّنوا لنا ما فيها من المواعظ والأحكام، وفصّلوه لنا وأوضحوا لنا السبيلَ الموصل، وبيّنوا لنا ما يجب أن نفعله وما يجب أن نتركه، فنحن مسلّطون بالاستطاعة؛ فمَن عمل بهذه الحدود فقد أصاب ورجح، ومَن تعدّى هذه الحدود وعمل بغير هذه الوصايا فقد خالف وخسر في الدارين، وهذه سبيل الخير والشر، فقد علمت أن الله قادر على جميع الأشياء، وما خلق الشهوات لنا إلا برضائه وإرادته، وأمرنا أن نأخذها على وجه الحلال لتكون لنا خيراً، وإذا استعملناها على وجه الحرام فإنها تكون لنا شراً، فما أصابنا من حسنةٍ فمن الله تعالى، وما أصابنا من سيئةٍ فمن أنفسنا معاشر المخلوقين لا من الخالق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام ابن الملك جليعاد لما سأل الوزير شماسًا عن هذه المسائل وردَّ له أجوبتها، قال له: ما وصفته لي ممَّا يُنسب إلى الله تعالى وممَّا يُنسب إلى خلقه فقد فهمته، فأخبرني عن هذا الأمر الذي حَيَّرَ عقلي فرط التعجب منه، فأني عجبْتُ من ولد بني آدم وغفلتهم عن الآخرة وتركهم الذكرى لها ومحبتهم للدنيا، وقد علموا أنهم يتركونها ويخرجون منها وهم صاغرون. قال شماس: نعم، فإن الذي تراه من تغيُّرها وغدْرِها بأهلها دليلٌ أنه لا يدوم لصاحب النعيم نعيمه، ولا لصاحب البلاء بلاؤه، فليس يأمن صاحبها تغيُّرها وإن كان قادرًا عليها ومغتبطًا بها، فلا بد أن يتغيَّر حاله ويسرع إليه الانتقال، وليس الإنسان منها على ثقة، ولا ينتفع بما هو فيه من زخرفها؛ وحيث عرفنا ذلك عرفنا أن أسوأ الناس حالًا مَنْ اغتَرَّ بها وسَهَا عن الآخرة، وأن ذلك النعيم الذي قد أصابه لا يعادل ذلك الخوف والمشقة والأهوال التي تحصل له بعد الانتقال منها، وعلمنا أنه لو كان العبد يعلم ما يصيبه عند حضور الموت وفراقه ما هو فيه من اللذات والنعيم، لكان رَفَضَ الدنيا وما فيها وتيقَّنًا أن الآخرة خير لنا وأنفع. قال الغلام: أيها العالم، قد زالت هذه الظلمة التي كانت على قلبي بمصباحك المضيء، وأرشدتني إلى السبيل التي سلكتها من اتِّباع الحق، وأعطيتني سراجًا أنظر به.

فعند ذلك قام أحد الحكماء الذين كانوا بالحضرة وقال: إنه إذا كان زمان الربيع، فلا بد أن يطلب الأرنب مع الفيل مرعى، وقد سمعتُ منكما أشياء من المسائل والتفاسير ما لم أرَ أني أسمعُه أبدًا، فدعاني ذلك إلى أن أسألكما عن شيء، فأخبراني ما خير مواهب الدنيا؟ قال الغلام: صحة الجسم، ورزق حلال، وولد صالح. قال: فأخبراني ما الكبير وما الصغير؟ قال الغلام: أمَّا الكبير فهو ما صبر له أصغر منه، وأمَّا الصغير فهو ما صبر لأكبر منه. قال: فأخبراني ما الأربعة أشياء التي تجتمع الخلائق فيها؟ قال الغلام: تجتمع

الخلائق في الطعام والشراب، ولذة النوم، وشهوة النساء، وفي سكرات الموت. قال: فما الثلاثة أشياء لا يقدر أحدٌ على تحية القباحة عنها؟ قال الغلام: الحماسة، وخسة الطبع، والكذب. قال: فأَيُّ الكذب أحسن مع أنه كله قبيح؟ قال الغلام: الكذب الذي يضع عن صاحبه الضررَ ويجزُّ نفعًا. قال: وأيُّ الصدق قبيح، وإن كان كله حسنًا؟ قال الغلام: كبر الإنسان بما عنده وإعجابه به. قال: وما أقبح القبيح؟ قال الغلام: إذا أُعجب الإنسان بما ليس عنده. قال: فأَيُّ الرجال أحمق؟ قال الغلام: مَنْ كان ليس له همة إلا في شيء يضعه في بطنه.

قال شماس: أيها الملك، أنت ملكنا، ولكنْ نحبُّ أن تعهد لولدك بالملك من بعدك، ونحن الخول والرعية. فعند ذلك حثَّ الملك مَنْ حضرَ من العلماء والناس على أن ما سمعوه منه يحفظونه ويعملون به، وأمرهم أن يمثلوا أمرَ ابنه، فإنه جعله ولي عهده من بعده ليكون خليفةً على ملك والده، وأخذ العهد على جميع أهل مملكته من العلماء والشجعان والشيوخ والصبيان وبقية الناس ألا يتخلَّفوا عليه ولا ينكثوا عليه أمره.

فلما أتى على ابن الملك سبع عشرة سنة، مرض الملك مرضاً شديداً حتى أشرفَ على الموت، فلما أيقنَّ الملك أن الموت قد نزل به، قال لأهله: هذا داءُ الموت قد نزل بي، فادعوا لي أقاربي وولدي، واجمعوا لي أهلَ مملكتي، حتى لا يبقى منهم أحدٌ إلا ويحضر. فخرجوا ونادوا الناس القريبين، وأجهروا بالدعاء للناس البعيدين حتى حضروا بأجمعهم ودخلوا على الملك، ثم قالوا له: كيف أنت أيها الملك؟ وكيف ترى لنفسك من مرضك هذا؟ قال لهم الملك: إنَّ مرضي هذا هو الذي فيه القاضية، وقد نفذ السهم بما قدَّره الله تعالى عليّ، وأنا الآن في آخر يومٍ من أيام الدنيا، وأول يومٍ من أيام الآخرة. ثم قال لابنه: اذُنْ مني. فدنا منه الغلام وهو يبكي بكاءً شديداً حتى كاد أن يبلَّ فراشه، والملك قد دمعت عيناه، وبكى كلُّ مَنْ حضر، ثم قال الملك لولده: لا تبك يا ابني، فإنني لستُ بأول مَنْ جرى له هذا المحتوم؛ لأنه سائر على جميع ما خلقه الله، فاتَّقِ الله واعمل خيراً يسبقك إلى الموضع الذي تقصده جميع الخلائق، ولا تُطعِ الهوى واشغل نفسك بذكر الله في قيامك وقعودك ويقتظك ونومك، واجعل الحقَّ نصبَ عينك، وهذا آخر كلامي معك والسلام. وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك جليعاد لما أوصى ولده بهذه الوصية، وعهد له الملك من بعده، قال الغلام لأبيه: قد علمت يا أبتى أنني لم أزل لك مطيعاً، ولوصيتك حافظاً، ولأمرك منفذاً، ولرضاك طالباً، وأنت لي نعم الأب؛ فكيف أخرج بعد موتك عما ترضى به، وأنت بعد حسن تربيته مفارق لي، ولا أقدر على ودك علي؟ فإذا حفظت وصيتك صرت بها سعيداً، وصار لي النصيب الأكبر. فقال له الملك وهو في غاية الاستغراق من سكرات الموت: يا بني، الزم عشر خصال ينفعك الله بها في الدنيا والآخرة، وهن: إذا اغتظت فاكظم غيظك، وإذا بليت فاصبر، وإذا نطقت فاصدق، وإذا وعدت فأوف، وإذا حكمت فاعدل، وإذا قدرت فاعف، وأكرم قوادك، واصفح عن أعدائك، وابذل معروفك لعدوك، وكف أذاك عنه. والزم أيضاً عشر خصال أخرى ينفعك الله بها في أهل مملكتك، وهي: إذا قسمت فاعدل، وإذا عاقبت بحق فلا تجر، وإذا عاهدت فأوف بعهدك، واقبل النصح، واترك اللجاجة، والزم الرعية بالاستقامة على الشرائع والسنن الحميدة، وكُن حاكماً عادلاً بين الناس حتى يحببك كبيرهم وصغيرهم ويخافك عاتيقهم ومفسدهم. ثم قال للحاضرين من العلماء والأمراء الذين كانوا حاضرين عهده لولده بالملك من بعده: إياكم ومخالفة أمر ملككم، وترك الاستماع لكبيركم؛ فإن في ذلك هلاكاً لأرضكم، وتفريقاً لجمعكم، وضرراً لأبدانكم، وتلفاً لأموالكم، فتشمت بكم أعداؤكم، وما أنتم علمتهم ما عاهدتموني عليه، فهكذا يكون عهدكم مع هذا الغلام، والميثاق الذي بيني وبينكم يكون أيضاً بينكم وبينه، وعليكم بالسمع والطاعة لأمره؛ لأن في ذلك صلاح أحوالكم، واثبتوا معه على ما كنتم معي فتستقيم أموركم ويحسن حالكم، وما هو ذا ملككم وولي نعمتكم والسلام.

ثم بعد هذا اشتدت به سكرات الموت والتجم لسانه، فضم ابنه إليه وقبله وشكر الله، ثم قضى نحبه وطلعت روحه، فراح عليه جميع رعيته وأهل مملكته، ثم إنهم كفنوه

ودفنوه بإكرامٍ وتبجيلٍ وإعظامٍ، ثم رجعوا والغلام معهم فألبسوه حلّة الملك وتوجّوه بتاج والده، وألبسوه الخاتم في أصبعه وأجلسوه على سرير الملك، فسار الغلام فيهم بسيرة أبيه من الحلم والعدل والإحسان مدة يسيرة، ثم تعرّضت له الدنيا وجذبته بشهواتها، فاستغنم لذاتها، وأقبل على زخارف أمورها، وترك ما كان قلّده به أبوه من المواثيق، ونبذ الطاعة لوالده وأهمل مملكته، ومشى فيما فيه هلاكه، واشتدّ به حبّ النساء، فصار لا يسمع بامرأة حسناء إلا ويرسل إليها ويتزوّج بها، فجمع من النساء عددًا أكثر ممّا جمع سليمان بن داود ملك بني إسرائيل، وصار يختلي كلّ يوم بطائفة منهن، ويستمر مع من يختلي بهنّ شهرًا كاملًا، لا يخرج من عندهن ولا يسأل عن مُلكه ولا عن حكمه، ولا ينظر في مظلمة من يشكو إليه من رعيته، وإذا كاتبوه فلا يردّ لهم جوابًا، فلما رأوا منه ذلك وعاینوا ما هو منطوي عليه من ترك النظر في أمورهم، وإهماله لأمر دولته وأمور رعيته، تحقّقوا أنهم عن قليل يحلّ بهم البلاء، فشقّ ذلك عليهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، فقال بعضهم لبعض: امشوا بنا إلى شماس كبير وزرائه، نقصّ عليه أمرنا ونعرّفه ما يكون من أمر هذا الملك لينصحه، وإلا فعن قليل يحلّ بنا البلاء، فإن هذا الملك قد أدهشته الدنيا بلذاتها، وختنته بأشطانها. فقاموا وأتوا شماسًا وقالوا له: أيها العالم الحكيم، إن هذا الملك قد أدهشته الدنيا بلذاتها، وختنته بأشطانها، فأقبل على الباطل وسعى في فساد مملكته، وبفساد المملكة تفسد العامة ويصير أمرنا إلى الهلاك، وسببه أننا نمكث شهرًا وأيامًا ما نراه، ولا يبرز إلينا من عنده أمرٌ لا للوزير ولا لغيره، ولا يمكن أن تُرفع إليه حاجة، ولا ينظر في حكومة، ولا يتعهّد حال أحد من رعيته لغفلته عنهم، وإننا قد أتينا إليك لنخبرك بحقيقة الأمور لأنك أكبرنا وأكمل منّا، وليس ينبغي أن يكون بلاء في أرض أنت مقيم بها؛ لأنك أقدر أحد على إصلاح هذا الملك؛ فانطلق وكلمه لعله يقبل كلامك ويرجع إلى الله.

فقام شماس ومضى إلى حيث اجتمع بمن يمكنه الوصول إليه وقال له: أيها الولد الجيد، أسألك أن تستأذن لي في الدخول على الملك؛ لأن عندي أمرًا أريد أنظر وجهه وأخبره به، وأسمع ما يجيبني به عنه. فأجاب الغلام قائلًا: والله يا سيدي، من منذ شهر لم يأذن لأحد في الدخول عليه ولا أنا، فطول هذه المدة ما رأيت له وجهًا، ولكن أدلك على من يستأذنه لك، وهو أنك تتعلّق بالوصيف الفلاني الذي يقوم على رأسه ويأخذ له الطعام من المطبخ، فإذا خرج إلى المطبخ ليأخذ الطعام أسأله عمّا بدا لك، فإنه يفعل لك ما تريد. فانطلق شماس إلى باب المطبخ وجلس قليلًا، وإذا بالوصيف قد أقبل وأراد الدخول في

المطبخ، فكلمه شماس قائلاً له: يا بني أحبُّ أن أجمعَ بالملك لأخبره بكلامٍ يخصُّه، فمن فضلك إذا فرغ من غدائه وطابت نفسه أن تكلمه لي وتأخذ لي منه إذناً بالدخول عليه، لكي أكلّمه بما يليق به. فقال الوصيف: سمعاً وطاعة. فلما أخذ الوصيف الطعام وتوجّه به إلى الملك وأكل منه، فلما طابت نفسه قال له الوصيف: إن شماساً واقف بالباب يريد منك الإذن في الدخول عليك ليُعلمك بأمورٍ تختصُّ بك. ففزع الملك وارتاب من ذلك، وأمر الوصيف بإدخاله عليه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما أَمَرَ الوصيفَ بإدخال شماس عليه، خرج الوصيف إلى شماس ودعاه إلى الدخول، فلما دخل على الملك خرَّ لله ساجدًا وقبَّلَ يدي الملك ودعا له، فقال الملك: ما أصابَكَ يا شماس حتى طلبْتَ الدخول عليَّ؟ فقال له: إِنَّ لي مدَّةَ لم أرَ وجهَ سيدي الملك، وقد اشتقتُ إليك كثيرًا، فها أنا شاهدتُ طلعتك وجئتُ إليك بكلامٍ أذكره لك أيها الملك المؤيَّد بكلِّ نعمة. فقال له: قُلْ ما بَدَا لك. فقال شماس: اعلم أيها الملك أن الله تعالى رزقك من العلم والحكمة على حداثة سنِّك ما لم يرزقه أحدًا من الملوك قبلك، وأن الله تَمَّمَ لك ذلك بالملك، وأن الله يحبُّ أنكَ لا تخرجَ عمَّا خَوَّلَكَ إياه إلى غيره بسبب عصيانه له، فلا تحاربه بذخائرك، بل ينبغي أن تكونَ لوصاياه حافظًا ولأُمُوره طائعًا؛ لأنِّي قد رأيتُكَ منذ أيام قلائل نسيتَ أباك ووصيتَه، ورفضتَ عهده وأضعتَ نُصْحَه وكلامه، وزهدتَ عدله وأحكامه، ولم تذكرَ نعمةَ الله عليك ولم تقيدَها بشكره. قال الملك: وكيف ذلك؟ وما سببه؟ قال شماس: سببه أنكَ تركتَ تعهُدَ أُمُورِ مملكتك، وما قلَّدَكَ الله إياه من أُمُورِ رعيته، وأقبلتَ على النَّفْسِ فيما حسَّنته لك من قليل شهوات الدنيا، وقد قيل: إن إصلاح الملك والدين والرعية ممَّا ينبغي للملك أن يحافظ عليه. والرأي عندي أيها الملك أن تُحسِّنَ النظرَ في عاقبتك، فإنَّك تجد السبيل الواضح الذي فيه النجاة، ولا تُقبِلْ على اللذة القليلة الفانية الموصلة إلى ورطة الهلاك، فيصيبك ما أصاب صيَّاد السمك. فقال له الملك: وكيف كان ذلك؟

قال شماس: قد بلغني أن صيَّادًا قد أتى إلى نهرٍ ليصطاد منه على عادته، فلما وصل إلى النهر ومشى على الجسر أبصرَ سمكةً عظيمةً، فقال في نفسه: ليس لي حاجة بالمقام ها هنا، فأنا أمشي وأتبع هذه السمكة إلى حيث تذهب حتى آخذها، وهي تُغنييني عن الصيد مدَّةَ أيام، فتعرَّى من ثيابه ونزل خلف السمكة فأخذه جريانُ الماء إلى أن

ظفر بالسمة وقبض عليها، ثم التفت فوجد نفسه بعيداً عن الشاطئ، فلما رأى ما قد صنع به جريان الماء لم يترك السمة ويرجع، بل خاطر بنفسه وقبض عليها بيده، وترك جسده سابحاً مع جريان الماء، فما زال يسحبه الماء إلى أن رماه في وسط دوامة لا يدخلها أحدٌ ويخلص منها، فصار يصيح ويقول: أنقذوا الغريق! فأتاه ناس من المحافظين على البحر وقالوا له: ما شأنك؟ وما دهاك حتى ألقى نفسك في هذا الخطر العظيم؟ فقال لهم: أنا الذي تركت السبيل الواضح الذي فيه النجاة وأقبلت على الهوى والهلكة. فقالوا: يا هذا، كيف تركت سبيل النجاة وأدخلت نفسك في هذه الهلكة؟ وأنت تعرف من قديم أنه ما دخلها هنا أحدٌ وسلم، فما الذي منعك عن رمي ما في يدك ونجاة نفسك، فكنت تنقذ روحك ولا تقع في هذا الهلاك الذي لا نجاة منه. والآن ليس أحدٌ منا ينقذك من هذه الهلكة. فقطع الرجل الرجاء من حياته وفقد ما كان بيده ممّا حملته نفسه عليه، وهلك هلاكاً عظيماً. وما ضربت لك أيها الملك هذا المثل إلا لأجل أن تدع هذا الأمر الحقيق الذي فيه اللهو عن مصالحك، وتنظر فيما أنت متقلد من سياسة رعيّتك والقيام بنظام ملكك، حتى لا يرى أحدٌ فيك عيباً. قال الملك: فما الذي تأمرني به؟ قال شماس: إذا كان في غدٍ وأنت بخيرٍ وعافية، فأئذن للناس بالدخول عليك وانظر في أحوالهم واعتذر إليهم، ثم عدّهم من نفسك بالخير وحسن السيرة. فقال الملك: يا شماس، إنك تكلمت بالصواب، وإنني فاعل ما نصحتني به في غدٍ إن شاء الله تعالى.

فخرج شماس من عنده وأعلم الناس بكلّ ما ذكره، فلما أصبح الصباح خرج الملك من حجابه وأذن للناس في الدخول عليه، وصار يعتذر إليهم ووعدهم أن يصنع لهم ما يحبون، فرضوا بذلك وانصرفوا وصار كلّ واحد إلى منزله. ثم إن إحدى نساء الملك وكانت أحبهن إليه وأكرمهن عنده قد دخلت عليه، فرأته متغيّر اللون متفكّرًا في أموره بسبب ما سمعه من كبير وزرائه، فقالت له: ما لي أراك أيها الملك قلق النفس؟ هل تشتكي شيئاً؟ فقال لها: لا، وإنما استغرقتني الذات عن شئوني، فما لي ولهذه الغفلة عن أحوالي وعن أحوال رعيّتي؟ وإن استمررت على ذلك فعن قليل يخرج ملكي من يدي. فأجابته قائلة: إني أراك أيها الملك مع عمالك ووزرائك مغشوشاً، فإنهم إنما يريدون نكايتك وكيدك، حتى لا تحصل لك من ملكك هذه اللذة، ولا تغنم نعيمًا ولا راحة، بل يريدون أن تقضي عمرك في أن تدفع المشقة عنهم، حتى إن عمرك يفنى بالنصب والتعب، وتكون مثل الذي قتل نفسه لإصلاح غيره، أو تكون مثل الفتى واللصوص. فقال الملك: وكيف كان ذلك؟ فقالت: ذكروا أن سبعة من اللصوص خرجوا ذات يوم يسرقون على عاداتهم، فمروا على

بستانٍ فيه جوز رطب، فدخلوا ذلك البستان، وإذا هم بولدٍ صغيرٍ واقفٍ بينهم، فقالوا له: يا فتى، هل لك أن تدخل معنا هذا البستان وتطلع هذه الشجرة وتأكل من جوزها كفايتك، وترمي لنا منها جوزًا؟ فأجابهم الفتى إلى ذلك ودخل معهم. وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩١٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الفتى لما أجاب اللصوص ودخل معهم، قال بعضهم لبعض: انظروا إلى أخفنا وأصغرنا فأصعدوه. فقالوا: ما نرى فينا ألطف من هذا الفتى. فلما أصعدوه قالوا: يا فتى، لا تلمس من الشجرة شيئاً لئلا يراك أحد فيؤذيك. فقال الفتى: وكيف أفعل؟ فقالوا له: اقعد في وسطها وحرّك كل غصن منها تحريكاً قوياً حتى يتناثر ما فيه فنلتقطه، وإذا فرغ ما فيها ونزلت إلينا فخذ نصيبك مما التقطناه. فلما صعد الفتى على الشجرة صار يحرك كل غصن وحده والجوز يتناثر منه واللصوص يجمعونه، فبينما هم كذلك وإذا بصاحب الشجرة واقف عندهم وهم على ذلك الحال، فقال لهم: ما لكم ولهذه الشجرة؟ فقالوا له: لم نأخذ منها شيئاً، غير أننا مررنا بها فرأينا هذا الولد فوقها، فاعتقدنا أنه صاحبها فطلبنا منه أن يُطعمنا منها، فهزّ بعض الأغصان حتى انتثر منها الجوز، ونحن ما لنا ذنب. فقال صاحب الشجرة للغلام: فما تقول أنت؟ فقال: كذب هؤلاء، ولكن أنا أقول لك الحقّ، وهو أننا أتينا جميعاً إلى هنا، فأمروني بالصعود على هذه الشجرة لأهزّ الأغصان كي ينتثر عليهم الجوز، فامتثلت أمرهم. فقال صاحب الشجرة: لقد ألقى نفسك في بلاء عظيم، وهل انتفعت بأكل شيء منها؟ فقال الغلام: ما أكلت منها شيئاً. فقال له صاحب الشجرة: لقد علمت الآن حماقتك وجهلك، وهو أنك سعت في تلف نفسك لإصلاح غيرك. ثم قال للصوص: ما لي عليكم سبيل، امضوا إلى حال سبيلكم. وقبض على الولد وعاقبه. وهكذا وزراؤك وأهل دولتك، يريدون أن يهلكوك لإصلاح أمرهم، ويفعلوا بك مثل ما فعل اللصوص بالفتى. فقال الملك: حقاً ما قلت، ولقد صدقت في خبرك، فأنا لا أخرج إليهم ولا أترك لذاتي. ثم بات مع زوجته في أرغد عيش إلى أن أصبح الصباح.

فلما أصبح الصباح قام الوزير وجمع أرباب الدولة مع مَنْ حضر معهم من الرعية، ثم جاءوا إلى باب الملك مستبشرين فرحين، فلم يفتح لهم الباب ولم يخرج إليهم ولم يأذن لهم بالدخول عليه، فلمَّا يئسوا من ذلك قالوا لشماس: أيها الوزير الفاضل والحكيم، أَمَا ترى حالَ هذا الصبي الصغير السن القليل العقل الذي قد جمع إلى ذنوبه الكذب؟ فانظرْ وعدَه لك كيف أخلفَه ولم يوفِ بما وعد، وهذا ذنب يجب أن تضيفه إلى ذنوبه، ولكن نرجو أن تدخل إليه ثانياً وتنظر ما السبب في تأخيره ومنعه عن الخروج، فإنَّا غير مُنكرين على طباعه الذميمة مثل هذا الأمر، فإنه بلغ غايةَ القساوة. ثم إن شماساً توجَّهَ إليه ودخل عليه وقال: السلام عليك أيها الملك، ما لي أراك قد أقبلتَ على شيءٍ يسيرٍ من اللذة، وتركتَ الأمرَ الكبيرَ الذي ينبغي الاعتناء به؟ وكنتَ مثل الذي له ناقة وهو منطوٍ على لبنها، فألهاه حُسْنُ لبنها عن ضبط زمامها، فأقبلَ يوماً على حلبها ولم يعتنِ بزمامها، فلما أَحَسَّتِ الناقةُ بترك الزمام، جذبتْ نفسها وطلبتِ الفضاء، فصار الرجل فاقِدَ اللبَن والناقة، مع أن ضرراً ما لقيه أكثر من نفعه؛ فانظر أيها الملك فيما فيه صلاح نفسك ورعيتك، فإنه ليس ينبغي للرجل أن يديم الجلوسَ على باب المطبخ من أجل حاجته إلى الطعام، ولا ينبغي له أن يُكثر الجلوس مع النساء من أجل ميله إليهن، وكما أن الرجل يبتغي من الطعام ما يدفع أَلَمَ الجوع، ومن الشراب ما يدفع أَلَمَ العطش، كذلك ينبغي للرجل العاقل أن يكتفي من هذه الأربع والعشرين ساعة بساعتين مع النساء في كل نهار، ويصرف الباقي في مصالح نفسه وفي مصالح رعيته، ولا يطيل المكثَ مع النساء ولا الخلوة بهن أكثر من ساعتين، فإن ذلك فيه مضرَّةٌ لعقله وبدنه؛ لأنهن لا يأمرنَ بخيرٍ ولا يرشدنَ إليه، ولا ينبغي أن يقبل منهن قولاً ولا فعلاً، وقد بلغني أن ناساً كثيرة هلكوا بسبب نسائهم، فمنهم رجل هلك من اجتماعه بزوجه لكونه أطاعها فيما أمرته. فقال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال شماس: زعموا أن رجلاً كان له زوجة وكان يحبها وكانت مكرمةً عنده، فكان يسمع قولها ويعمل برأيها، وكان له بستان غرسه بيده جديداً، فكان يأتي إليه في كلِّ يوم ليُصلِّحه ويسقيه، فقالت له زوجته يوماً من الأيام: أي شيء غرستَ في بستانك؟ فقال لها: كل ما تحببُه وتريدُه، وها أنا مجتهد في إصلاحه وسقيه. فقالت له: هل لك أن تأخذني وتفرِّجني فيه حتى أراه وأدعو لك دعوةً صالحة، فإن دعائي مستجاب. فقال: نعم، أمهليني حتى آتي إليك في غدٍ وأخذك. فلما أصبح الرجل أخذ زوجته معه وتوجَّهَ بها إلى البستان ودخلا فيه، وفي حال دخولهما نظر إليهما اثنان من الشباب على بُعْدٍ،

فقال أحدهما للآخر: إن هذا الرجل زان وإن هذه المرأة زانية، وما دخلا هذا البستان إلا ليزنيا فيه. فتبعاهما لينظرا ما يكون من أمرهما، فأما الشابان فإنهما وقفا على جانب البستان، وأما الرجل وزوجته فإنهما لما دخلا البستان واستقرا فيه، قال الرجل لزوجته: ادعي لي الدعوة التي وعدتني بها. فقالت: لا أدعو لك حتى تقوم بحاجتي التي تبتغيها النساء من الرجال. فقال لها: ويحك أيتها المرأة! أما كان مني في البيت كفاية؟ وها هنا أخاف على نفسي من الفضيحة، وربما أشغلتني عن مصالحتي، أما تخافين أن يرانا أحد؟ قالت: فلا نبالي من ذلك؛ لأننا لم نرتكب فاحشة ولا حراما، وأما سقي هذا البستان ففيه مهلة، وأنت قادر على سقيه في أي وقت أردت. ولم تقبل منه عذرا ولا حجة، وألححت عليه في طلب النكاح، فعند ذلك قام ونام معها، فعندما أبصرهما الشابان المذكوران وثبا عليهما وأمسكاهما وقالا لهما: لا نطلقكما؛ لأنكما من الزناة، وإن لم نواقع المرأة نرفع أمركما إلى الحاكم. فقال لهما الرجل: ويحكمنا! إن هذه زوجتي وأنا صاحب البستان. فما سمعا له كلاما بل نهضا على المرأة، فعند ذلك صاحت واستغاثت بزوجها قائلة له: لا تدع الرجال يفضحونني. فأقبل نحوهما وهو يستغيث، فرجع إليه واحد منهما وضربه بخنجره فقتله، وأتيا المرأة وفضحاها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب لما قتل زوج المرأة رجع الشابان إلى المرأة وفضحاها، وإنما قلنا لك هذا أيها الملك لتعلم أنه ليس ينبغي للرجل أن يسمع من امرأة كلامًا، ولا يطيعها في أمرٍ ولا يقبل لها رأيًا في مشورةٍ، فإياك أن تلبس ثوبَ الجهل بعد ثوب الحكمة والعلم، أو تتبع الرأي الفاسد بعد معرفتك للرأي الرشيد النافع، فلا تتبع لذة يسيرة مصيرها إلى الفساد ومآلها إلى الخسران الزائد الشديد. فلما سمع الملك ذلك من شماس قال له: أنا في غِدٍ أخرج إليهم إن شاء الله تعالى. فخرج شماس إلى الحاضرين من كبراء المملكة وأعلمهم بما قال الملك، فبلغ المرأة ما قاله شماس فدخلت على الملك وقالت له: إنما الرعية عبيد للملك، والآن رأيت أنك أيها الملك عبدٌ لرعيتك، بحيث تهابهم وتخاف شرهم، وهم إنما يريدون أن يختبروا باطنك، فإن وجدوك ضعيفًا تهاونوا بك، وإن وجدوك شجاعًا هابوك، وكذلك يفعل وزراء السوء بملِكهم؛ لأن حيلهم كثيرة، وقد أوضحت لك حقيقة كيدهم، فإن وافقتهم على ما يريدون أخرجوك من أمرك إلى مرادهم، ولم يزالوا ينقلونك من أمرٍ إلى أمرٍ حتى يوقعوك في الهلكة، ويكون مثلك مثل التاجر واللصوص. فقال الملك: وكيف كان ذلك؟

قالت: بلغني أنه كان تاجر له مال كثير، فانطلق بتجارة لبييعها في بعض المدن، فلما انتهى إلى المدينة اكرت له بها منزلًا ونزل فيه، فنظره لصوص كانوا يراقبون التجار لسرقة متاعهم، فانطلقوا إلى منزل ذلك التاجر واحتالوا في الدخول عليه، فلم يجدوا لهم سبيلًا إلى ذلك، فقال لهم رئيسهم: أنا أكفيكم أمره. ثم إنه انطلق فلبس ثياب الأطباء، وجعل على عاتقه جرابًا فيه شيء من الدواء، وأقبل ينادي: مَنْ يحتاج إلى طبيب؟ حتى وصل إلى منزل ذلك التاجر، فرآه جالسًا على غدائه، فقال له: أتريد لك طبيبًا؟ فقال: لست محتاجًا إلى طبيب، ولكن اقعد وكُلْ معي. فقعد اللص مقابلَه وجعل يأكل معه، وكان

ذلك التاجر جيد الأكل، فقال اللص في نفسه: لقد وجدتُ فرصتي. ثم التفتَ إلى التاجر وقال له: لقد وجب عليَّ نصيحتك لما حصل لي من إحسانك، وليس يمكن أن أخفي عليك نصيحة، وهو أنني أراك رجلاً كثيرَ الأكل، وهذا سببه مرض في معدتك، فإن لم تبادِرْ بالسعي على دوائك وإلا آلَ أمركَ إلى الهلاك. فقال التاجر: إن جسمي صحيح، ومعدتي سريعة الهضم، وإن كنتُ جيدَ الأكل فليس ببديني مرضٌ والله الحمد والشكر. فقال له اللص: إنما ذلك بحسب ما يظهر لك، وإلا فقد عرفتُ أن في بطنك مرضاً خفياً، فإن أنت أطعنتني فداؤِ نفسك. فقال التاجر: وأين أجد من يعرف دوائي؟ فقال له اللص: إنما المداوي هو الله، ولكن الطبيب مثلي يعالج المريض على قدر إمكانه. فقال له التاجر: أرني الآن دوائي وأعطني منه شيئاً. فأعطاه سفوفاً فيه صبرٌ كثير وقال له: استعملْ هذا في هذه الليلة. فأخذه منه، ولما كان الليل تعاطى منه شيئاً، فرآه صبراً كريه الطعم، فلم ينكر منه شيئاً، فلما تعاطاه وجد منه خفةً في تلك الليلة. فلما كانت الليلة الثانية جاء اللص ومعه دواء فيه صبرٌ أكثر من الأول، فأعطاه منه شيئاً، فلما تعاطاه أسهله تلك الليلة، ولكنه صبر على ذلك ولم ينكره. فلما رأى اللص أن التاجر اعتنى بقوله واستأمنه على نفسه وتحقق أنه لا يخالفه، انطلق وجاءه بدواءٍ قاتلٍ وأعطاه له، فأخذه منه التاجر وشربه، فعندما شرب ذلك الدواء نزل ما كان في بطنه، وتقطعت أمعائُه وأصبح ميتاً، فقام اللصوص وأخذوا جميع ما كان للتاجر. وإني أيها الملك ما قلتُ لك هذا إلا لأجل أنك لا تقبل من هذا المخادع كلاماً، فيلحقك أموراً تهلك بها نفسك. فقال الملك: صدقتِ فأنا لا أخرج إليهم.

فلما أصبح الصباح اجتمعَ الناس وجاءوا إلى باب الملك وقعدوا أكثر النهار حتى يئسوا من خروجه، ثم رجعوا إلى شماس وقالوا له: أيها الفيلسوف الحكيم والماهر العليم، أما ترى هذا الولد الجاهل لا يزداد إلا كذباً علينا؟ وأن إخراج الملك من يده واستبدال غيره به فيه الصواب، فتنتظم بذلك أحوالنا وتستقيم أمورنا؟ ولكن ادخل إليه ثالثاً وأعلمه أنه لا يمنعنا من القيام عليه ونزع الملك منه إلا إحسانٌ والده إلينا، وما أخذه علينا من العهود والمواثيق، ونحن مجتمعون في غدٍ عن آخرنا بسلحنا ونهدم باب هذا الحصن، فإن خرج إلينا وصنع لنا ما نحبُّ، فلا بأس وإلا دخلنا عليه وقتلناه، وجعلنا الملك في يد غيره. فانطلق الوزير شماس ودخل على الملك وقال له: أيها الملك المنهمك في شهواته ولهوه، ما هذا الذي تصنعه بنفسك؟ فيا هل ترى من يُغريك على هذا؟ فإن كنتِ أنتَ الجاني على نفسك، فقد زال ما نعهد لك من الصلاحية والحكمة والفصاحة، فليت شعري من الذي

حوَّلَكَ ونَقَلَكَ من العلم إلى الجهل، ومن الوفاء إلى الجفاء، ومن اللين إلى القسوة، ومن قبولك مني إلى إعراضك عني، فكيف أنصحك ثلاثَ مراتٍ ولا تقبل نصيحتي؟! وأشير عليك بالصواب وتخالف مشورتي؟! فأخبرني ما هذه الغفلة؟ وما هذا اللهو؟ ومَن أغراك عليه؟ اعلَمْ أن أهل مملكتك قد تواعدُوا على أنهم يدخلون عليك ويقتلونك ويعطون مُلكك لغيرك، فهل لك قوَّةٌ على جميعهم والنجاة من أيديهم؟ أو تقدر على حياة نفسك بعد قتلها؟ فإن كنتَ أعطيتَ هذا كله، أمنت من قبله فلا حاجة لك بكلامي، وإن كانت حاجتك إلى الدنيا والملك فأفُقْ لنفسك واضبط ملكك، وأظهرْ للناس قوَّةَ بأسك وأعلمهم بأعدارك، فإنهم يريدون انتزاعَ ما في يدك وتسليمه إلى غيرك، وقد عزموا على العصيان والمخالفة، وصار دليل ذلك ما يعلمونه من صِغَر سنك، ومن انكبابك على اللهو والشهوات، فإن الحجارة إذا طال مكثها في الماء متى أُخرجت منه وضرب بعضها بعضًا انقدحت منها النار، والآن رعيَّتُك خلق كثير، وهم يتوازرون عليك ويريدون نقل المُلْك منك إلى غيرك، ويبلغون فيك ما يريدون من هلاكك، ويكون مثلك مثل الثعلب والذئب. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢١

حكاية الثعلب والذئب

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير شماسًا قال للملك: ويبلغون فيك ما يريدون من هلاكك، ويكون مثلك مثل الثعلب والذئب. فقال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أن جماعةً من الثعالب خرجوا ذات يوم يطلبون ما يأكلون، فبينما هم يجولون في طلب ذلك، وإذا هم بجملٍ ميت، فقالوا في أنفسهم: قد وجدنا ما نعيش به زمانًا طويلاً، ولكن نخاف أن يَبْغِي بعضنا على بعض، ويميل القوي بقوته على الضعيف فيهلك الضعيف منّا، فينبغي لنا أن نطلب حَكَمًا يحكم بيننا ونجعل له نصيبًا، فلا يكون للقوي سُلْطَة على الضعيف، فبينما هم يتشاورون في شأن ذلك، وإذا بذئبٍ أَقْبَلَ عليهم، فقال بعضهم لبعض: إِنَّ أَسَافَ رأيكم فاجعلوا هذا الذئبَ حَكَمًا بيننا؛ لأنه أقوى الناس وأبوه سابقًا كان سلطانًا علينا، ونحن نرجو من الله أن يَعْدِلَ بيننا. ثم إنهم توجَّهوا إليه وأخبروه بما صار إليه رأيهم وقالوا: لقد حَكَمْنَاك بيننا لأجل أن تعطي كُلَّ واحدٍ منّا ما يقوته في كل يوم على قدر حاجته، لئلا يَبْغِي قوينا على ضعيفنا فيُهِلِكَ بعضنا بعضًا. فأجابهم الذئب إلى قولهم وتعاطى أمورهم، وقَسَمَ عليهم في ذلك اليوم ما كفاهم.

فلما كان من الغد قال الذئب في نفسه: إن قسمة هذا الجمل بين هؤلاء العاجزين لا يعود عليّ منها شيء إلا الجزء الذي جعلوه لي، وإن أكلته وحدي فهم لا يستطيعون لي ضررًا، مع أنهم غنم لي ولأهل بيتي، فَمَنْ الذي يمنعني عن أخذ هذا لنفسِي؟ ولعل الله مسبِّه لي بغير جميلة منهم! فالأحسن لي أن أحتصَّ به دونهم، ومن هذا الوقت لا أعطيهم شيئًا. فلما أَصْبَحَ الثعلبُ جاءوا إليه على العادة يطلبون منه قوتهم، فقالوا له: يا أبا سرحان، أَعْطِنَا مئونة يومنا. فأجابهم قائلاً: ما بقي عندي شيء أعطيهِ لكم. فذهبوا

من عنده على أسوأ حال، ثم قالوا: إِنَّ الله أوقعنا في همٍّ عظيمٍ مع هذا الخائن الخبيث الذي لا يَتَّقِي الله ولا يخافه، وليس لنا حول ولا قوة. ثم قال بعضهم لبعض: إنما حملة على هذا الأمر ضرورة الجوع، فدعوه اليوم يأكل حتى يشبع وفي غدٍ نذهب إليه. فلما أصبحوا توجَّهوا إليه وقالوا له: يا أبا سرحان، إنما وليناك علينا لأجل أن تدفع لكل واحد منَّا قوته وتنصف الضعيف من القوي، وإذا فرغ تجتهد لنا في تحصيل غيره، ونصير دائمًا تحت كنفك ورعايتك، وقد مسَّنا الجوع ولنا يومان ما أكلنا، فأعطنا مئونةً وأنت في حلٍّ من جميع ما تتصرَّف فيه من دون ذلك. فلم يردَّ عليهم جوابًا، بل ازداد قسوةً، فراجعوه فلم يرجع، فقال بعضهم لبعض: ليس لنا حيلة إلا أننا ننطلق إلى الأسد ونرمي أنفسنا عليه، ونجعل له الجمل، فإنَّ أحسنَّ لنا بشيء منه كان من فضله، وإلا فهو أحقُّ به من هذا الخبيث. ثم انطلقوا إلى الأسد وأخبروه بما حصل لهم مع الذئب، ثم قالوا له: نحن عبيدك، وقد جنَّناك مستجيرين بك لتخلَّصنا من هذا الذئب ونصير لك عبيدًا. فلما سمع الأسد كلامَ الثعالب أخذته الحمية وغار لله تعالى، ومضى معهم إلى الذئب، فلما رأى الذئب الأسد مُقبلاً طلب الفرار من قدامه، فجرى الأسد خلفه وقبض عليه ومزقه قطعاً، ومكَّن الثعالب من فريستهم؛ فمن هذا عرفنا أنه لا ينبغي لأحدٍ من الملوك أن يتهاوَّن في أمر رعيته، فاقبل نصيحتي وصدِّق القول الذي قلته لك، واعلم أن أباك قبل وفاته قد أوصاك بقبول النصيحة، وهذا آخر كلامي معك والسلام. فقال الملك: إني سامع منك، وفي غدٍ إن شاء الله تعالى أطلع إليهم. فخرج شماس من عنده وأخبرهم بأن الملك قبل نصيحته ووعد أنه في غدٍ يخرج إليهم.

فلما سمعت زوجة الملك ذلك الكلام منقولاً عن شماس وتحقَّقت أنه لا بد من خروج الملك إلى الرعية، أقبلت على الملك مُسرعةً وقالت له: ما أكثر تعجُّبي من إزعانك وطاعتك لعبيدك؟ أما تعلم أن وزراءك هؤلاء عبيدك؟ فلأي شيء رفعتهم هذه الرفعة العظيمة حتى أوهمتهم أنهم هم الذين أعطوك هذا الملك ورفعوك هذه الرفعة، وأنهم أعطوك العطايا مع أنهم لم يقدروا أن يفعلوا معك أدنى مكروه، فكان من حَقك عدم الخضوع لهم، بل من حقهم الخضوع لك وتنفيذ أمورك، فكيف تكون مرعوباً منهم هذا الرعب العظيم؟ وقد قيل إذا لم يكن قلبك مثل الحديد، لا تصلح أن تكون ملكاً، وهؤلاء غرَّهم جُلْمك حتى تجاسروا عليك ونبذوا طاعتك، مع أنه ينبغي أن يكونوا مقهورين على طاعتك، مجبورين على الانقياد إليك؛ فإنَّ أنت سارعت لقبول كلامهم وأهملتهم على ما هم فيه، وقضيت لهم أدنى حاجة على غير مرادك، ثقلوا عليك وطمعوا فيك، وتصير لهم هذه عادة، فإن

أَطْعَمْتَنِي لَا تَرْفَعْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ شَأْنًا، وَلَا تَقْبَلْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ كَلَامًا، وَلَا تَطْمَعُهُمْ فِي التَّجَاسُرِ عَلَيْكَ، فَتَصِيرَ مِثْلَ الرَّاعِي وَاللِّصِّ. فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

حكاية الراعي واللص

قالت: زعموا أنه كان رجل راعي غنم، وكان محافظًا على رعايتها، فأتاه لص ذات ليلة يريد أن يسرق من غنمه شيئًا، فرآه محافظًا عليها لا ينام ليلاً ولا يغفل نهارًا، فصار يحاوله طول ليله فلم يظفر منه بشيء، فلما أَعْيَتْهُ الحيلة انطَلَقَ إلى البرية واصطاد أسدًا وسلخ جلده وحشاه تَبْنًا، ثم أتى به ونصبه على محلٍّ عالٍ في البرية، بحيث يراه الراعي ويتحقَّقه، ثم أَقْبَلَ اللص على الراعي وقال له: إن هذا الأسد قد أرسلني إليك يطلب عشاءً من هذا الغنم. فقال له الراعي: وأين الأسد؟ فقال له اللص: ارفعُ بصرَكَ ها هو واقف. فرفع الراعي رأسه فرأى صورة الأسد، فلما رآها ظنَّ أنها أسد حقيقة، ففزع منها فزعًا شديدًا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الراعي لما رأى صورة الأسد ظنَّ أنها أسد حقيقة، ففزع منها فزعاً شديداً، وأخذَه الرعب وقال للص: يا أخي، خذْ ما شئتَ ليس عندي مخالفة، فأخذ اللص من الغنم حاجته وازداد طمعه في الراعي بسبب شدة خوفه، فصار كلَّ قليلٍ يأتي إليه ويرعبه ويقول له: إن الأسد يحتاج إلى كذا وقصده أن يفعل كذا. ثم يأخذ من الغنم كفايته، ولم يزل اللص مع الراعي على هذه الحالة حتى أفنى غالب الغنم. وإنما قلتُ لك هذا الكلام أيها الملك لئلا يغترَّ كبراءُ دولتك هؤلاء بحُلمك ولين جانبك، فيطمعوا فيك، والرأي السديد أن يكون موتهم أقرب ممَّا يفعلونه بك. فقبل الملك قولها وقال: إنني قبلتُ منك هذه النصيحة، ولستُ مطيعاً لمشورتهم ولا خارجاً إليهم.

فلما أصبح الصباح اجتمعَ الوزراء وأكابر الدولة ووجهاء الناس، وحمل كلُّ واحدٍ منهم سلاحه معه وتوجَّهوا إلى بيت الملك ليهجموا عليه ويقتلوه ويولُّوا غيره، فلما وصلوا إلى بيت الملك سألوا البواب أن يفتح لهم الباب، فلم يفتح لهم، فأرسلوا ليحضروا ناراً فيحرقوا بها الأبواب ثم يدخلوا، فسمع البواب منهم هذا الكلام، فانطلق بسرعة وأعلم الملك أن الخلق مجتمعون على الباب، وقال له: إنهم سألوني أن أفتح لهم فأبيتُ، فأرسلوا ليحضروا ناراً فيحرقوا بها الأبواب، ثم يدخلوا عليك ويقتلوك، فماذا تأمرني؟ فقال الملك في نفسه: إنني وقعتُ في الهلكة العظيمة. ثم أرسلَ خلف المرأة فحضرتُ، فقال: إن شماساً لم يخبرني بشيء إلا وقد وجدته صحيحاً، وقد حضر الخاص والعام من الناس يريدون قتلي وقتلكم، ولما لم يفتح لهم البوابُ أرسلوا ليحضروا النار يحرقون الأبواب فيحترق البيت ونحن داخله، فماذا تُشيرين علينا؟ فقالت له المرأة: لا بأس عليك ولا يهولنك أمرهم، فإن هذا الزمان يقوم فيه السفهاء على ملوكهم. فقال لها الملك: فما تُشيرين به عليَّ لأفعله؟ وما الحيلة في هذا الأمر؟ فقالت: الرأي عندي أنك تعصب رأسك بعصاة وتظهر

أنك مريض، ثم ترسل إلى الوزير شماس فيحضر إليك ويرى حالك الذي أنت فيه، فإذا حضر فقلْ له: قد أردتُ الخروجَ إلى الناس في هذا اليوم، فمنعني هذا المرض، فاخرجْ إلى الناس وأخبرهم بما أنا فيه، وأخبرهم أنني في غِدٍ أخرج إليهم وأقضي حوائجهم وأنظر في أحوالهم ليطمئنوا ويسكن غيظهم، وإذا أصبحتُ فاستدعِ بعشرة من عبيد أبيك، يكونون من أهل البأس والقوة، وتكون أمانةً على نفسك منهم، ويكونون سامعين لقولك طائعين لأمرِكَ كاتمين لسرك حافظين لودِّكَ، ثم أوقفهم على رأسك وأمرهم ألاَّ يَمْكُنُوا أَحَدًا من الدخول عليك إلاَّ واحدًا بعد واحدٍ، فإذا دخل واحد فقلْ لهم: خذوه واقتلوه. وإذا اتفقوا معك على ذلك، فأصبحْ ناصبًا كرسيك في ديوانك وافتح بابك، فإنهم إذا رأوك فتحت الباب طابتْ نفوسهم، وأتوا لك بقلبٍ سليمٍ واستأذنوا في الدخول عليك، فأذن لهم في الدخول واحدًا بعد واحد كما قلتُ لك، وافعل بهم مرادك، ولكن ينبغي أن تبدأ بقتل شماس الكبير أولهم، فإنه هو الوزير الأعظم، وهو صاحب الأمر، فاقتله أولاً، ثم بعد ذلك اقتل الجميع واحدًا بعد واحد، ولا تُبْقِ منهم مَنْ تعرف أنه ينكت لك عهدًا، وكذلك كل مَنْ تخاف صولته؛ فإنك إذا فعلتَ بهم ذلك، فإنهم لا يبقى لهم قوة عليك، وتستريح منهم الراحة الكلية، ويصفو لك الملكُ وتعمل ما تحب، واعلم أنه لا حيلةَ لك أنفع من هذه الحيلة. فقال لها الملك: إن رأيك هذا سديد، وأمرك فيه رشيد، فلا بد أن أعمل ما ذكرت.

ثم أمر بعصاة فشَدَّ بها رأسه وتضاعفَ وأرسل إلى شماس، فلما حضر بين يديه قال له: يا شماس، قد علمتُ أنني لك مُجِبٌّ ولرأيك مطيع، وأنت لي كالأخ والوالد دون كلِّ أحد، وتعرف أنني أقبل منك جميع ما أمرتني به، وقد كنتُ أمرتني بالخروج إلى الرعية والجلوس لأحكامهم، وتحققت أنها نصيحة منك لنا، وقد أردتُ الخروجَ إليهم بالأمس فعرض لي هذا المرض، ولستُ أستطيع الجلوس، وقد بلغني أن أهل المملكة متنغصون من عدم خروجي إليهم، وهموا أن يفعلوا بي ما لا يليق من شرِّهم، فإنهم غير عالمين بما أنا فيه من المرض، فاخرج إليهم وأعلمهم بحالي وما أنا فيه، واعتذر إليهم عني، فأني تابع لما يقولون وفاعل ما يحبون، فأصلحْ هذا الأمر واطمن لهم عني ذلك، فإنك نصيح لي ولوالدي من قبلي، وعادتكَ الإصلاح بين الناس، وإن شاء الله تعالى في غِدٍ أخرج إليهم، ولعلَّ مريض أن يزول عني في هذه الليلة ببركة صالح نيتي، وما أضمرتهُ لهم من الخير في سريرتي. فسجد شماس لله ودعا للملك وقبَّلَ يديه وفرح بذلك، وخرج إلى الناس وأخبرهم بما سمعه من الملك ونهاهم عما أرادوه، وأعلمهم بالعذر وسبب امتناع الملك عن الخروج، وأخبرهم أنه وعده في غِدٍ بالخروج إليهم، وأنه يصنع لهم ما يحبون، فانصرفوا عند ذلك إلى منازلهم. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شماسًا خرج إلى الدولة وقال لهم: إن الملك في غدٍ يخرج إليكم ويصنع لكم ما تحبون. فانصرفوا إلى منازلهم. هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر الملك، فإنه بعث إلى العشرة عبيد الجبابرة الذين اختارهم من جبابرة أبيه، وكانوا ذوي عزمٍ جليد وبأسٍ شديد، وقال لهم: قد علمتم ما كان لكم عند والدي من الحظوة ورفع الشان والإحسان إليكم، مع لطفه بكم وإكرامه إياكم، فأنا أنزلكم بعده عندي في درجةٍ أرفع من تلك الدرجة، وسأعرفكم سبب ذلك وأنتم في أمان الله مني، ولكن أسألكم عن مسألة، هل تكونون معي فيها طائعين لأمرٍ فيما أقوله لكم، كاتمين لسري عن جميع الناس، ولكم مني الإحسان فوق ما تريدون حيث امتثلتم أمري؟ فأجابه العشرة من فمٍ واحدٍ وكلامٍ متوارد قائلين: جميع ما تأمرنا به يا سيدنا نحن به عاملون، ولا نخرج عمّا تشير به علينا مطلقًا، وأنت وليُّ أمرنا. فقال لهم: أحسنَ الله لكم، فأنا الآن أعرفكم سبب اختصاصكم بمزيد الإكرام عندي؛ هو أنكم قد علمتم ما كان يفعله أبي بأهل مملكته من الإكرام، وما عاهدَهم عليه من أمري وإقرارهم له بأنهم لا ينكثون لي عهدًا ولا يخالفون أمري، وقد نظرت ما كان منهم بالأمس حيث اجتمعوا جميعًا حولي يريدون قتلي، وأنا أريد أن أصنع بهم أمرًا؛ وذلك أنني نظرت ما كان منهم بالأمس، فرأيت أنه لا يزرهم عن مثله إلا نكالهم، فلا بد أن أوكلكم بقتل مَنْ أشير لكم بقتله سرًّا حتى أدفع الشر والبلاء عن بلادي بقتل أكابرهم ورؤسائهم، وطريقة ذلك أنني أقعد في هذا المقعد في هذه المقصورة في غدٍ، وأذن لهم بالدخول عليّ واحدًا بعد واحد، وأن يدخلوا من بابٍ ويخرجوا من آخر، فقفوا أنتم العشرة بين يدي فاهمين لإشارتي، وكلما يدخل واحد فخذوه وادخلوا به هذا البيت واقتلوه وأخفوا جثته. فقالوا: سمعًا لقولك وطاعة لأمرك. فعند ذلك أحسن إليهم وصرفهم وبات.

فلما أصبح طلبهم، وأمر بنصب السرير، ثم لبس ثياب الملك وأخذ في يده كتاب القضاء وأمر بفتح الباب ففتح، وأوقف العشرة عبيد بين يديه، ونادى المنادي: مَنْ كان له حكومة فليحضر إلى بساط الملك. فأتى الوزراء والقوَّاد والحجَّاب ووقف كلُّ واحدٍ في مرتبته، ثم أمر بالدخول واحدًا بعد واحدٍ، فدخل شماس الوزير أولاً كما هي عادة الوزير الأكبر، فلما دخل واستقرَّ قدام الملك لم يشعر إلا والعشرة عبيد محتاطون به وأخذوه وأدخلوه البيت وقتلوه، وأقبلوا على باقي الوزراء، ثم العلماء، ثم الصلحاء، فصاروا يقتلونهم واحدًا بعد واحد حتى فرغوا من الجميع، ثم دعا بالجلادين وأمرهم بحطَّ السيف فيمن بقي منهم من أهل الشجاعة وقوة البأس، فلم يتركوا أحدًا ممَّن يعرفون أن له شهامةً إلا قتلوه، ولم يتركوا إلا سَفَلَةَ الناس ورعاعهم، ثم طردوهم ولحق كلُّ واحد منهم بأهله، ثم بعد ذلك اختلى الملك بلذاته وأعطى نفسه شهواتها، واتَّبَعَ البَغْيَ والجَوْرَ والظلم حتى سبق ممَّن تقدَّمه من أهل الشر، وكانت بلاد هذا الملك معدن الذهب والفضة والياقوت والجواهر، وجميع ممَّن حوله من الملوك يحسدونه على هذه المملكة ويتوقعون له البلاء، فقال في نفسه بعضُ الملوك المجاورين له: إني ظفرتُ بما كنتُ أريد من أخذ هذه المملكة من يد هذا الولد الجاهل، بسبب ما حصل من قتله لأكابر دولته وأهل الشجاعة والنجدة الذين كانوا في أرضه، فهذا هو وقت الفرصة وانتزاع ما في يده لكونه صغيراً، ولا دراية له بالحرب ولا رأي له، ولم يَبْقَ عنده ممَّن يرشده ولا يُعْصِده، فأنا اليوم أفتح معه باب الشرِّ، وهو أني أكتب له كتاباً وأعبث به فيه، وأبكِّته على ما حصل منه، وأنظر ما يكون من جوابه.

فكتب له مكتوباً مضمونه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد بلغني ما فعلتَ بوزرائك وعلمائك وجبابرتك، وما أوقعْتَ نفسك فيه من البلاء حتى لم يَبْقَ لك طاقة ولا قوة على دَفْعِ ممَّن يصول عليك حين طغيَتِ وأفسدت، وإن الله قد أعطاني النصرَ عليك وظفرتني بك، فاسمع كلامي وامتثلْ أُمري وابنِ لي قصرًا منيعًا في وسط البحر، وإن لم تقدر على ذلك فاخرجْ من بلادك وفِرْ بنفسك، فإنني باعث إليك من أقصى الهند اثني عشر كردوسًا، كل كردوس اثنا عشر ألف مقاتل، فيدخلون بلادك، وينهبون أموالك، ويقتلون رجالك، ويسببون حريمك، وأجعل قائدهم بديعًا وزيري وأمره أن يرسخ عليها محاصرًا إلى أن يملكها، وقد أمرتُ هذا الغلام المرسل إليك أنه لا يقيم عندك غير ثلاثة أيام، فإن امتثلت أُمري نجوت، وإلا أرسلتُ إليك ما ذكرته لك.» ثم ختم الكتاب وأعطاه للرسول، فسار به حتى وصل إلى تلك المدينة ودخل على الملك وأعطاه الكتاب، فلما قرأه الملك

ضَعُفَتْ قوته وضاق صدره، والتبس عليه أمره وتحقق الهلاك، ولم يجد مَنْ يستشيرَه ولا مَنْ يستعين به ولا مَنْ ينجده، فقام ودخل على زوجته وهو متغيّر اللون، فقالت له: ما شأنك أيها الملك؟ فقال لها: لستُ اليومَ بِمَلِكٍ ولكني عبدٌ للملك. ثم فَتَحَ الكتابَ وقرأه عليها، فلما سمعته أخذتُ في البكاء والنحيب وشَقَّتْ ثيابها، فقال لها الملك: هل عندك شيء من الرأي والحيلة في هذا الأمر العسير؟ فقالت له: وما عند النساء من الحيلة في الحروب؟ والنساء لا قوّة لهن ولا رأيَ لهن، وإنما القوة والحيلة للرجال في مثل هذا الأمر. فلما سمع الملك منها ذلك الكلام حصل له غاية الندم والتأسّف والكآبة على ما فرط منه في حقّ جماعته ورؤساء دولته. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما سمع من زوجته ذلك الكلام حصل له غاية الندم والتأسف على ما فرط منه من قتل وزرائه وأشراف رعيته، وتمنى الموت لنفسه قبل أن يرد عليه مثل هذا الخبر الفظيع، ثم قال لنسائه: لقد وقع لي منكن ما وقع للدراج مع السلاحف. فقلن له: وكيف كان ذلك؟ فقال الملك: زعموا أن سلاحف كانت في جزيرة من الجزائر، وكانت تلك الجزيرة ذات أشجار وأثمار وأنهار، فاتفق أن دراجا اجتاز بها يوما، وقد أصابه الحر والتعب، فلما أضرب به ذلك حط من طيرانه في تلك الجزيرة التي بها تلك السلاحف، فلما رأى السلاحف التجأ إليها ونزل عندها، وكانت السلاحف ترعى في جهات الجزيرة، ثم ترجع إلى مكانها، فلما رجعت من مسارحها إلى مكانها رأت الدراج فيه، فلما رآته أعجبها وزينه الله لها، فسبحت خالقها وأحبت هذا الدراج حبا شديدا وفرحت به، ثم قال بعضها لبعض: لا شك أن هذا أحسن الطيور. فصارت كلها تلاففه وتجنح إليه، فلما رأى منها عين المحبة مال إليها واستأنس بها، وصار يطير إلى أي جهة أراد وعند المساء يرجع إلى المبيت عندها، فإذا أصبح الصباح يطير إلى حيث أراد، وصارت هذه عادته واستمر على هذا الحال مدة من الزمان، فلما رأت السلاحف أن غيابه عنها يوحشها وتحقق أنها لا تراه إلا في الليل، وإذا أصبح طار مبادرا ولا تشعر به مع زيادة حباها له، قال بعضها لبعض: إن هذا الدراج قد أحببناه وصار لنا صديقا، وما بقي لنا قدرة على فراقه، فما يكون من الحيلة الموصلة إلى إقامته عندنا دائما؛ لأنه إذا طار يغيب عنا النهار كله ولا نراه إلا في الليل؟ فأشارت عليها واحدة قائلة: استريحوا يا أخواتي وأنا أجعله لا يفارقنا طرفة عين. فقال لها الجميع: إن فعلت ذلك صرنا لك كلنا عبيدا.

فلما حضر الدُّرَّاج من مسرحه وجلس بينهم، تقرَّبَتْ منه السلحفاة المحتالة ودَعَتْ له وهنَّاتٍ بالسلامة، وقالت له: يا سيدي، اعلم أن الله قد رزقك منَّا المحبةَ، وكذلك أودع قلبك محبتنا، وصرتَ لنا في هذا القفر أنيسًا، وأحسن أوقات المحبين إذا كانوا مجتمعين، والبلاء العظيم في البُعد والفراق، ولكنك تتركنا عند طلوع الفجر ولا تعود إلينا إلا عند الغروب، فيصير عندنا وحشة زائدة، وقد شقَّ علينا ذلك كثيرًا ونحن في وَجْدٍ عظيم لهذا السبب. فقال لها الدُّرَّاج: نعم، أنا عندي محبة لكنَّ، واشتياق عظيم إليكن، زيادة على ما عندكن، وفراقكن ليس سهلاً عندي، ولكنَّ ما بيدي حيلة في ذلك لكوني طيرًا بأجنحة، فلا يمكنني المقام معكن دائماً؛ لأن هذا ليس من طبعي، فإن الطير ذا الأجنحة ليس له مستقرُّ إلا في الليل لأجل النوم، وإذا أصبح طار وسرح في أي موضع أعجبه. فقالت له السلحفاة: صدقت، ولكنَّ ذو الأجنحة في غالب الأوقات لا راحة له، لكونه لا يناله من الخير ربع ما يحصل له من المشقة، وغاية المقصود للشخص الرفاهية والراحة، ونحن قد جعل الله بيننا وبينك المحبةَ والألفة، ونخشى عليك ممَّن يصطادك من أعدائك فتهلك ونُحرَم من رؤية وجهك. فأجابها الدُّرَّاج قائلاً: صدقت، ولكن ما عندك من الرأي والحيلة في أمري؟ فقالت له: الرأي عندي أن تنتف سواعدك التي تسرع بطيرانك، وتقعّد عندنا مستريحًا، وتأكل من أكلنا وتشرب من شربنا في هذه السرحة الكثيرة الأشجار الياقة الأثمار، ونقيم نحن وأنت في هذا الموضع المُخَصَّب، ويتمتع كلُّ منَّا بصاحبه. فمال الدُّرَّاج إلى قولها وقصد الراحة، ثم نتف ريشه واحدة بعد واحدة حكم ما استحسّنه من رأي السلحفاة، واستقر عندهن عائشًا معهن، ورضي باللذة اليسيرة والطرب الزائل.

فبينما هم على تلك الحالة، وإذا بابن عرس قد مرَّ عليه، فرمقه بعينه وتأملَه، فرآه مقصوص الجناح لا يستطيع النهوض، فلما رآه على تلك الحالة فَرِحَ به فرحًا شديدًا وقال في نفسه: إن هذا الدُّرَّاج سمين اللحم قليل الريش. ثم دنا منه ابن عرس وافترسه، فصاح الدُّرَّاج وطلب النجدة من السلاحف، فلم يَنجِدْهُ بل تباعدنَّ عنه وانكمشنَّ في بعضهن لما رأينَّ ابن عرس قابضًا عليه، وحيث رأينَّ ابن عرس يعذِّبه خنقهنَّ البكاء عليه، فقال لهن الدُّرَّاج: هل عندكن شيء غير البكاء؟ فقلن له: يا أخانا، ليس لنا قوة ولا طاقة ولا حيلة في أمر ابن عرس. فحزن الدُّرَّاج عند ذلك وقطع الرجاء من حياة نفسه، وقال لهن: ليس لكنَّ ذنب، إنما الذنب لي حيث أطعتكنَّ ونتفتُّ أجنحتي التي أطيُرُ بها، فأنا أستحق الهلاك لمطاوعتي لكنَّ، ولا ألومكنَّ في شيء. وأنا الآن لا ألومكنَّ أيتها النساء بل ألوم نفسي وأؤدِّبها؛ حيث لم أتذكَّر أنكن سبب الهفوة التي حصلت من أبينا آدم، ولأجلها خرج من

الجنة، ونسيت أنكنَّ أصلُ كل شرٍّ، فأطعكنَّ بجهلي وخطأ رأيي وسوء تدبيري، وقتلتُ وزرائي وحكَّام مملكتي الذين كانوا إليَّ نصحاء في كلِّ الأمور، وكانوا عزَّتي وقوَّتي على كلِّ أمرٍ أهتمني، فأنا الآن لم أجد عوضاً عنهم، ولا أرى أحداً يقوم مقامهم، وقد وقعتُ في الهلاك العظيم. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لأم نفسه وقال: أنا الذي أطعك بجهلي، وقتلتُ وزرائي ولم أجد عوضاً عنهم يقوم مقامهم، وإن لم يفتح الله عليّ بمن له رأي سديد يرشدني إلى ما فيه خلاصي وقعت في الهلكة العظيمة. ثم إنه قام ودخل مرقده بعد أن نعى الوزراء والحكماء قائلاً: يا ليت هؤلاء الأسود عندي في هذا الوقت ولو ساعة واحدة، حتى أعتذر إليهم وأنظرهم وأشكو إليهم أمري وما حصل بي بعدهم. ولم يزل غريقاً في بحر الهم طولَ نهاره ولا يأكل ولا يشرب، فلما جنَّ الليل قام وغَيَّرَ لباسه ولبس ثياباً رديئةً، وتنكَّرَ وخرج يسوح في المدينة لعله يسمع من أحد كلمة يرتاح بها، فبينما هو يطوف في الشوارع، وإذا هو بغلامين مختليين بأنفسهما، جالسين بجانب حائطٍ وهما مستويان في السن، عمر كل واحد منهما اثنتا عشرة سنة، فسمعهما يتحدثان مع بعضهما، فدنا منهما الملك بحيث يسمع كلامهما ويفهمه، فسمع واحد منهما يقول للآخر: اسمع يا أخي ما حكاه لي والدي ليلة أمس من أجل ما وقع له في زرعه ويبسه قبل أوانه بسبب عدم المطر وكثرة البلاء الحاصل في هذه المدينة. فقال له الآخر: أتعرف ما سبب هذا البلاء؟ قال له: لا، فإن كنتَ تعرفه أنت فاذكره لي. فأجابه قائلاً: نعم، أعرفه وأخبرك به؛ اعلم أنَّ أحد أصحاب والدي قال لي: إن ملكنا قد قتلَ وزراء وعظماء دولته من غير ذنب جنَّوه، بل من أجل حُبِّه للنساء وميله إليهن، وإن الوزراء نهَّوه عن ذلك فلم ينته وأمر بقتلهم طاعةً لنسائه، حتى إنه قتل شماساً والدي وزيره ووزير والده من قبله، وكان صاحب مشورته، ولكن سوف تنظر ما يفعل الله به بسبب ذنوبه فسينتقم لهم منه. فقال الغلام: وما عسى أن يفعل الله به بعد هلاكهم؟ قال له: اعلم أن ملك الهند الأقصى قد استخفَّ بملكنا وبعث إليه كتاباً يوبِّخه فيه ويقول له: ابن لي قصرًا في وسط البحر، وإن لم تفعل ذلك فأنا أُرسلُ إليك اثني عشر كردوسًا، كل كردوس فيه مائة ألف مقاتل، وأجعل قائد

هذه العساكر بديعاً وزيري فيأخذ مُلكك ويقتل رجالك ويسببك مع حريمك. فلما جاء رسول ملك الهند الأقصى بهذا الكتاب أمهله ثلاثة أيام، واعلم يا أخي أن ذلك الملك جبّار عنيد ذو قوة وبأس شديد، وفي مملكته خلق كثير، وإن لم يحتلّ ملكنا فيما يمنعه منه وقع في الهلكة، وبعد هلاك ملكنا يأخذ هذا الملك أرزاقنا ويقتل رجالنا ويسبي حريمنا.

فلما سمع الملك منهما هذا الكلام زاد اضطراباً ومال إليهما وقال في نفسه: إن هذا الغلام لحكيم لكونه أخبر عن شيء لم يبلغه مني، فإن الكتاب الذي جاء من ملك أقصى الهند عندي، والسّر معي ولم يطّلع أحدٌ على هذا الخبر غيري، فكيف علّم هذا الغلام به؟ ولكن أنا ألتجئ إليه وأكلمه وأسأل الله أن يكون خلاصنا لديه. ثم إن الملك دنا من الغلام بلطفٍ وقال له: أيها الولد الحبيب، ما هذا الذي ذكرته من أجل ملكنا؟ فإنه قد أساء كلّ الإساءة في قتل وزرائه وكبراء دولته، لكنه في الحقيقة قد أساء إلى نفسه ورعيته، وأنت صدقت فيما قلتّه، ولكن عرّفني أيها الولد من أين عرفت أن ملك الهند الأقصى كتب إلى ملكنا كتاباً ووبّخه فيه، وقال له هذا الكلام الصعب الذي قلتّه؟ قال له الغلام: قد علمت هذا من قول القدماء: إنه ليس يخفى على الله خافية، والخلق من بني آدم فيهم روحانية تُظهر لهم الأسرار الخفية. فقال له: صدقت يا ولدي، لكن هل لملكنا حيلةٌ أو تدبير يدفع به عن نفسه وعن مملكته هذا البلاء العظيم؟ فأجاب الغلام قائلاً: نعم، إذا أرسل الملك إليّ وسألني ماذا يصنعه ليدفع به عدوّه وينجو من كيده، أخبرته بما فيه نجاته بقوة الله تعالى. قال له الملك: ومن يُعلم الملك بذلك حتى يُرسل إليك ويدعوك؟ فأجابه قائلاً: إنني سمعتُ عنه أنه يفتش على أهل الخبرة والرأي الرشيد، وإذا أرسل إليّ سرّت معهم إليه وعرّفته بما فيه صلاحه ودفع البلاء عنه، وإن أهمل هذا الأمر العسير واشتغل بلهوه مع نسائه، وأردتُ أني أعلمه بما فيه نجاته وتوجّهت إليه من تلقاء نفسي، فإنه يأمر بقتلي مثل أولئك الوزراء، وتكون معرفتي به سبباً لهلاكه، وتستقل الناس بي ويستنقصون عقلي، وأكون من مضمون قول من قال: من كان علمه أكثر من عقله هلك ذلك العالم بجعله.

فلما سمع الملك كلام الغلام تحقّق حكمته وتبيّن فضيلته وتيقّن أن النجاة تحصل له ولرعيته على يديّه، فعند ذلك أعاد الملك الكلام على الغلام وقال له: من أين أنت؟ وأين بيتك؟ فقال له الغلام: إن هذه الحائط توصل إلى بيتنا. فتعهّد الملك ذلك المكان، ثم إنه ودّع الغلام ورجع إلى مملكته مسروراً، فلما استقرّ في بيته لبس ثيابه ودعا بالطعام والشراب، ومنع عنه النساء وأكل وشرب وشكر الله تعالى وطلب منه النجاة والمعونة والمغفرة والعفو

عمّا فعل بعلماء دولته ورؤسائهم، ثم تاب إلى الله توبةً خالصةً، وافترض على نفسه الصوم والصلاة الكثيرة بالنذر، ودعا بأحد غلمان الخواص ووصف له مكان الغلام، وأمره أن ينطلق إليه ويحضّره بين يديه برفقٍ، فمضى ذلك العبد إلى الغلام وقال له: الملك يدعوك لخيرٍ يصل إليك من قبّله، ويسألك سؤالاً ثم تعود في خيرٍ إلى منزلك. فأجاب الغلام قائلاً: وما حاجة الملك التي دعاني من أجلها؟ قال له الخادم: إن حاجة مولاي التي دعاك من أجلها هي سؤال وجواب. فقال له الغلام: ألف سمع وألف طاعة لأمر الملك. ثم سار معه حتى وصل إلى الملك، فلما صار بين يديه سجد لله ودعا للملك بعد أن سلّم عليه، فردّ الملك عليه السلام وأمره بالجلوس فجلس. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام لما جاء إلى الملك وسلّم عليه أمره بالجلوس فجلس، فقال له: هل تعرف من تكلم معك بالأمس؟ قال الغلام: نعم. قال له: فأين هو؟ فأجابه بقوله: هو الذي يكلمني في هذا الوقت. فقال له الملك: لقد صدقتَ أيها الحبيب. ثم أمر الملك بوضع كرسي بجانب كرسيه وأجلسه عليه وأمر بإحضار أكل وشرب، ثم امتزجاً في الحديث إلى أن قال الملك للغلام: إنك أيها الوزير حدّثتني بالأمس حديثاً وذكرت فيه أن معك حيلة تدفع بها عنّا كيدَ ملك الهند، فما هي الحيلة؟ وكيف التدبير في دفع شرّه عنّا؟ فأخبرني لكي أجعلك أولَ من يتكلّم معي في الملْك وأصطفيك وزيراً لي، وأكون تابِعاً لرأيك في كلِّ ما أشرتَ به عليّ، وأجيزك جائزة سنّية. فقال له الغلام: جائزتك لك أيها الملك، والمشورة والتدبير عند نساءك اللاتي أشرنَ عليك بقتل والدي شماس مع بقية الوزراء. فلما سمع الملك منه ذلك خجل وتنهّد وقال: أيها الولد الحبيب، وهل شماس والدك كما ذكرت؟ فأجابه الغلام قائلاً: إن شماساً والدي حقاً، وأنا ولده صدقاً. فعند ذلك خشع الملك ودمعت عيناه واستغفر الله وقال: أيها الغلام، إني فعلتُ ذلك بجهلي وسوء تدبير النساء وكيدهن عظيم، ولكن أسألك أن تكون مسامحاً لي، وإني جاعلك في موضع أبيك وأعلى مقاماً من مقامه، وإذا زالت هذه النعمة النازلة بنا طوّقتك بطوق الذهب، وأركبتك أعزّ مركوب، وأمرتُ المنادي أن ينادي قدامك قائلاً: هذا الولد العزيز صاحب الكرسي الثاني بعد الملك. وأما ما ذكرتَ من أمر النساء، فإني أضمرتُ الانتقامَ منهن وجعلته في الوقت الذي يريده الله تعالى، فأخبرني بما عندك من التدبير ليطمئن قلبي. فأجابه الغلام قائلاً: أعطني عهداً أنك لا تخالف رأيي فيما أذكره لك، وأن أكون ممّا أخشاه في أمان. فقال له الملك: هذا عهد الله بيني وبينك، إني لا أخرج عن كلامك وإنك عندي صاحب المشورة، ومهما أمرتني به فعلته، والشاهد بيني وبينك على ما أقول هو الله تعالى.

فعند ذلك انشَرَحَ صدر الغلام واتسع عنده مجال الكلام فقال: أيها الملك، إن التدبير والحيَلة عندي أنك تنظر الوقت الذي يحضر لك فيه الساعي طالب الجواب بعد المهلة التي أمهلته إياها، فإذا حضر بين يديك وطلب الجواب، فادفعه عنك وأمهله إلى يوم آخر، فعند ذلك يعتذر إليك أن ملكه حدّد عليه أيامًا معلومة ويراجعك في كلامك، فاطرحه وأمهلْه إلى يومٍ آخر ولا تعيّن له ذلك اليوم؛ فيخرج من عندك غضبانًا ويتوجّه إلى وسط المدينة ويتكلّم جهراً بين الناس ويقول: يا أهل المدينة، إني ساعي ملك الهند الأقصى، وهو صاحب بأسٍ شديدٍ وعزمٍ يلين الحديد، قد أرسلني بكتابٍ إلى ملك هذه المدينة وحدّد لي أيامًا وقال: إن لم تحضر عقبَ الأيام التي حدّدتها لك حلّت بك نعمتي، وها أنا جئتُ إلى ملك هذه المدينة وأعطيتُه الكتابَ، فلما قرأه أمهلني ثلاثة أيام، ثم يعطيني جوابَ ذلك الكتاب، فأجبتُه إلى ذلك لطفًا به ورعايةً لخطره، وقد مضتِ الثلاثة أيام وأتيتُ أطلب منه الجواب، فأمهلني إلى يومٍ آخر، وأنا ليس عندي صبر، فها أنا منطلق إلى سيدي ملك الهند الأقصى وأخبره بما وقع لي، وأنتم أيها القوم شاهدون بيني وبينه. فعند ذلك يبلغك كلامه فأرسل إليه وأحضره بين يديك وكلّمه بلطفٍ وقُلْ له: أيها الساعي لإتلاف نفسه، ما الذي حملك على ملامتنا بين رعيّتنا؟ لقد استحققتُ منّا التلفَ عاجلاً، ولكن قالت القدماء: العفو من شيم الكرام. واعلم أن تأخير الجواب عنك ليس عجزاً منّا، وإنما هو لزيادة أشغالنا وقلة تفرُّغنا لكتابة جواب ملككم. ثم اطلب الكتابَ وقرأه ثانيًا، وبعد أن تفرغ من قراءته أكثُر من الضحك وقُلْ له: هل معك كتاب غير هذا الكتاب فنكتب جوابًا له أيضًا؟ فيقول لك: ليس معي كتاب غير هذا الكتاب. فأعِدْ عليه القولَ ثانيًا، فيقول لك: ليس معي غيره أصلاً. فقلْ له: إن ملككم هذا معدوم العقل حيث ذكر في هذا الكتاب كلامًا ما يريد به تقويم نفوسنا لأجل أن نتوجّه بعسكرنا إليه فنغزو بلاده ونأخذ مملكته، ولكن لا نؤاخذه في هذه المرة على إساءة أدبه بهذا المكتوب؛ لأنه قاصر العقل ضعيف الحزم، فالمناسب لمقدرتنا أننا ننذره أولاً ونحذّره من أن يعود لمثل هذه الهذيان، فإن خاطَرَ بنفسه وعاد إلى مثله استحقَّ البلاءَ عاجلاً، وأظنُّ أن الملك الذي أرسلَكَ جاهلٌ أحمق غير مفكّر في العواقب، وليس له وزير عاقل سديد الرأي يستشيرُه، ولو كان عاقلًا لاستشارَ وزيرًا قبل أن يرسل إلينا مثل هذا الكلام السخرية، ولكن له عندي جواب مثل كتابه وأزيد، وأنا أدفع كتابه لبعض صبيان المكتب ليُجيبه. ثم أرسل إليّ وأطلبني، فإذا حضرتُ بين يديك فأذُن لي بقراءة الكتاب وردّ جوابه.

فعند ذلك انشَرَحَ صدر الملك واستحسن رأي الغلام، وأعجبته حيلته، فأَنَعَمَ عليه وخَوَّلَهُ رتبة والده وصرفه مسرورًا، فلما انقَضَتِ الثلاثة أيام التي جعلها مهلةً للساعي، جاء الساعي ودخل على الملك وطلب الجواب، فأَمَهله الملك إلى يوم آخر، فخرج الساعي إلى آخر البساط وتكَلَّمَ بكلامٍ غير لائق مثلما قال الغلام، ثم خرج إلى السوق وقال: يا أهل هذه المدينة، إني رسول ملك الهند الأقصى إلى مَلِكِكُمْ، جئتُ برسالةٍ وهو يماطلني في جوابها، وقد انقَضَتِ المدة التي حَدَّدَها لي مَلِكُنَا، ولم يَبْقَ لِلْمَلِكِ عذرٌ، فأَنتُمْ تكونون شهداء على ذلك. فلما بلغ الملك هذا الكلام أَرْسَلَ إلى ذلك الساعي وأَحْضَرَهُ بين يَدَيْهِ وقال له: أيها الساعي في إتلاف نفسه، أَلَسْتَ ناقلًا كتابًا من ملك إلى ملك وبينهما أسرار، فكيف تخرج بين الناس وتُظهِر أسرارَ الملوك على العامة؟! لقد استحققتَ مِنَّا القصاص، ولكن نحن نتحمَّلُ ذلك لأجل عود جوابك لهذا الملك الأحمق، والأُنسب أَلَّا يردَّ له جوابًا عنَّا إلا أقل صبيان المكتب. ودعا بحضور ذلك الغلام فحضر، ولما دخل على الملك والساعي حاضِر، سَجَدَ لله ودعا للملك بدوام العز والبقاء، فعند ذلك رمى الملك الكتابَ للغلام وقال له: اقرأ هذا الكتاب واكتب جوابه بسرعة. فأخذ الغلام الكتابَ وقرأه وتبَسَّمَ بالضحك وقال للملك: هل إرسالك خلفي لأجل جواب هذا الكتاب؟ فقال له: نعم. فأجاب: بمزيد السمع والطاعة. وأخرج الدواةَ والقرطاسَ وكتب ... وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام لما أخذَ الكتابَ وقرأه، أخرجَ في الوقتِ دواءً وقرطاسًا، وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من فاز بالأمان ورحمة الرحمن. أما بعدُ، فإني أُعَلِّمُكُ أيها المدعوُّ مَلِكًا كبيرًا اسمًا لا رسمًا، أنه قد وصل إلينا كتابُك وقرأناه وفهمنا ما فيه من الخرافات وغريب الهذيان، فتحققنا جهلك وبغيك علينا، وقد مددت يدُك إلى ما لا تقدر عليه، ولولا أن الرأفة أخذتنا على خلق الله والرعية لما تأخَّرنا عنكَ، وأمَّا رسولك فإنه خرج إلى السوق ونشر أخبار كتابك على الخاص والعام فاستحقَّ منَّا القصاص، ولكن أبقيناه رحمةً منَّا له لكونه معذورًا معك، ولم نترك قصاصه وقارًا لك، فأما ما ذكرته في كتابك من قتلي لوزرائي وعلمائي وكبراء مملكتي فإن ذلك حقٌّ، ولكن لسببٍ قام عندي، وما قتلْتُ من العلماء واحدًا إلا وعندي من جنسه ألفُ أعلم منه وأفهم وأعقل، وليس عندي طفل إلا وهو ممتلئ من العلوم، وعندي عوضًا عن كلِّ واحد من المقتولين من فضلاء نوعه ما لا أقدر أن أحصيه، وكل واحد من عسكري يقاوم كردوسًا من عسكري؛ وأما من جهة المال، فإن عندي معمل الذهب والفضة، وأما المعادن فإنها عندي كقطع الحجارة، وأما أهل مملكتي فإني لا أقدر أن أصف لك حسنهم وجمالهم وغناهم، فكيف تجاسرت علينا وقلت لنا: ابن لي قصرًا في وسط البحر؟ فإن هذا أمر عجيب، ولعله ناشئ عن سخافة عقلك؛ لأنه لو كان لك عقل لكنتَ فحَصْتَ عن دفعات الأمواج وحركات الرياح وأنا أبني لك القصر؛ وأمَّا زعمك أنك تظفر بي، فحاشا لله من ذلك، كيف يبغي علينا مثلك ويظفر بملكننا؟ بل إن الله تعالى أظفرنِي بك لكونك متعديًا وباغيًا عليَّ بغير حقٍّ، فاعلم أنك قد استوجبْتَ العذاب من الله ومني، ولكن أنا أخاف الله فيك وفي رعيته، ولا أركب عليك إلا بعد النذارة، فإن كنتَ تخشى الله فعجلْ لي بإرسال

خراج هذه السنة، وإلا لأرجع عن الركوب عليك ومعني ألف ألف ومائة ألف مقاتل كلهم جبابرة بأفئالٍ فأسردهم حول وزيرنا وأمره أن يقيم على محاصرته ثلاث سنوات نظير الثلاثة أيام التي أمهلته لقاصدك، وأتملك مملكتك بحيث لا أقتل منها أحداً غير نفسك، ولا أسبي منها غير حريمك.» ثم صَوَّرَ الغلامُ في المکتوب صورته وكتب بجانبها: «إن هذا الجواب كتبه أصغر أولاد الكتاب.» ثم ختمه وسلّمه إلى الملك، فأعطاه الملك للساعي، فأخذه الساعي وقبّل يديّ الملك ومضى من عنده شاكرًا لله تعالى وللملك على حلمه عليه، وانطلق وهو يتعجّب مما رأى من حنق الغلام.

فلما وصل إلى ملكه وكان دخوله عليه في اليوم الثالث بعد الثلاثة أيام المحدودة له، وكان الملك في ذلك الوقت ناصب الديوان بسبب تأخير الساعي عن المدة المحدودة له، فلما دخل عليه سجّد بين يديه، ثم أعطاه الكتاب، فأخذه وسأل الساعي عن سبب إبطائه، وعن أحوال الملك وردخان، فقصّ عليه القصة وحكى له جميع ما نظره بعينه وسمعه بأذنه، فاندھش عقل الملك وقال للساعي: ويحك! ما هذه الأخبار التي تخبرني بها عن مثل هذا الملك؟ فأجابه الساعي قائلاً: أيها الملك العزيز، ها أنا بين يديك فافتح الكتاب واقراء يظهر لك الصدق من الكذب. فعند ذلك فتح الملك الكتاب وقرأه ونظر فيه صورة الغلام الذي كتبه، فأيقن بزوال ملكه وتحير فيما يكون من أمره، ثم التفت إلى وزرائه وعظماء دولته وأخبرهم بما جرى وقرأ عليهم الكتاب، فارتاعوا لذلك وارتعبوا رعباً عظيماً، وصاروا يسكنون روع الملك بكلام من ظاهر اللسان وقلوبهم تتمزق من الخفقان، ثم إن بديعاً الوزير الكبير قال: اعلم أيها الملك أن الذي يقوله إخوتي من الوزراء لا فائدة فيه، والرأي عندي أنك تكتب لهذا الملك كتاباً وتعتذر إليه فيه، وتقول له: «أنا محبّ لك ولوالدك من قبلك، وما أرسلنا إليك الساعي بهذا الكتاب إلا على طريق الامتحان لك لننظر عزائمك وما عندك من الشجاعة والأمور العلمية والرموز الخفية، وما أنت منطو عليه من الكمالات الكلية، ونسأل الله تعالى أن يبارك لك في مملكتك، ويشيد حصون مدينتك، ويزيد في سلطانتك حيثما كنت حافظاً لنفسك، فتتم أمور رعيتك.» وأرسله له مع ساع آخر. فقال الملك: والله العظيم إن في هذا لعجباً عظيماً، كيف يكون هذا ملكاً عظيماً معتداً للحرب بعد قتله لعلماء مملكته وأصحاب رأيه ورؤساء جنده، وتكون مملكته عامرة بعد ذلك، ويخرج منها هذه القوة العظيمة؟! وأعجب من هذا أن صغار مكاتبتها يردون عن ملكها مثل هذا الجواب! لكن أنا بسوء طمعي أشعلت هذه النار علي وعلى أهل مملكتي، ولا أدري ما يُطْفئها إلا رأي وزيرني هذا.

ثم إنه جهَّزَ هديةً ثمينةً وخدمًا وحشمًا كثيرة، وكتب كتابًا مضمونه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، أيها الملك العزيز وردخان ولد الأخ العزيز جليعاد رحمه الله وأبقاك، لقد حضر لنا جوابُ كتابنا، فقرأناه وفهمنا ما فيه، فرأينا فيه ما يسرنا وهذا غاية طلبنا لك من الله، ونسأله أن يُعلي شأنك ويشيد أركان مملكتك، وينصرك على أعدائك الذين يريدون بك السوء، واعلم أيها الملك أن أباك كان لي أخًا، وبينني وبينه عهود ومواثيق مدة حياته، وما كان يرى منَّا إلا خيرًا، وكنا نحن كذلك لا نرى منه إلا خيرًا، ولما توفِّي وجلست أنت على كرسي مملكته، حصل عندنا غاية الفرح والسرور، ولما بلغنا ما فعلت بوزرائك وأكابر دولتك، خشينا أن يصل خبر ذلك إلى ملكٍ غيرنا فيطمع فيك، وكنا نظن أنك في غفلةٍ عن مصالحك وحفظ حصونك، مُهملاً لأُمور مملكتك، فكاتبناك بما ننبيئك به، فلما رأيناك قد رددت لنا مثل هذا الجواب، اطمأن قلبنا عليك، متعك الله بمملكته، وجعلك معانًا على شأنك والسلام.» ثم جهَّزَ له الهدية وأرسلها إليه مع مائة فارس. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ملك الهند الأقصى لما جهَّز الهديةَ إلى الملك وردخان أرسلها له مع مائة فارس، فساروا إلى أن أقبلوا على الملك وردخان وسلَّموا عليه، ثم أعطوه الكتابَ فقرأه وفهم معناه، ثم أنزل رئيسَ المائة فارس في محلٍّ يصلح له وأكرمه، وقبِلَ الهديةَ منه وشاع خبرها عند الناس، وفرح الملك بذلك فرحاً شديداً، ثم أرسلَ إلى الغلام ابن شماس وأحضره بين يديه وأكرمه، وأرسل إلى رئيس المائة فارس، ثم طلب الكتاب الذي أحضره من ملكه وأعطاه للغلام، ففتحه وقرأه فسُرَّ الملك بذلك سروراً كبيراً، وصار يعاتبُ رئيسَ المائة فارس وهو يقبُلُ يديه ويعتذر إليه ويدعو له بدوام البقاء وخلود النعم عليه، فشكره الملك على ذلك وأكرمه إكراماً زائداً، وأعطاه وأعطى جميعَ مَنْ معه ما يليق بهم، وجهَّزَ معهم هدايا، وأمر الغلام أن يكتب ردَّ الجواب، فعند ذلك كتب الغلام الجوابَ وأحسنَ الخطابَ وأوجَزَ في باب الصلح، وذكر أدبَ الرسولِ ومَنْ معه من الفرسان، فلما تَمَّ الكتابَ عرضه على الملك، فقال له الملك: اقرأه أيها الولد العزيز لكي نعرف ما كُتِبَ فيه. فعند ذلك قرأ الغلام بحضرةِ المائة فارس، فأعجب الملكُ هو وكل مَنْ حضرَ نظامه ومعناه، ثم ختمه الملك وسلَّمه إلى رئيس المائة فارس وصرفه، وأرسلَ معه من عسكره طائفةً توصلهم إلى أطراف بلادهم.

هذا ما كان من أمر الملك والغلام، وأما ما كان من أمر رئيس المائة فارس، فإنه اندهشَ عقله ممَّا رآه من أمر الغلام ومعرفته، وشكر الله تعالى على قضاء مصلحته بسرعةٍ وعلى قبول الصلح، ثم إنه سار إلى أن وصل إلى ملك أقصى الهند وقَدَّمَ إليه الهدايا والتحف، وأوصل إليه العطايا وناولَه الكتابَ وأخبره بما نظر، وفرح الملك بذلك فرحاً شديداً، وشكر الله تعالى وأكرَمَ رئيسَ المائة فارس، وشكَّرَ همَّته على فعله، ورفع درجته، وصار من ذلك الوقت في أَمْنٍ وأمانٍ وطمأنينةٍ وزيادة انشراح.

هذا ما كان من أمر ملك أقصى الهند، وأما ما كان من أمر الملك وردخان، فإنه استقام مع الله ورجع عن طريقته الرديئة، وتاب إلى الله توبةً خالصةً عما كان فيه، وترك النساء جملةً ومالً بكليته إلى صلاح مملكته والنظر بخوف الله إلى رعيته، وجعل ولد شماس وزيراً عوضاً عن والده، وصاحب الرأي المقدم عنده في المملكة، وكاتماً لسره، وأمر بزيئة مدينته سبعة أيام وكذلك بقية المدائن، ففرحت الرعية بذلك وزال الخوف والرعب عنهم، واستبشروا بالعدل والإنصاف، وابتهلوا بالدعاء للملك والوزير الذي أزال عنه وعنهم هذا الغم، وبعد ذلك قال الملك للوزير: ما الرأي عندك في إتقان المملكة وإصلاح الرعية ورجوعها إلى ما كانت عليه أولاً من وجود الرؤساء والمديرين؟ فعند ذلك أجابه الوزير قائلاً: أيها الملك العزيز الشأن، الرأي عندي أنك قبل كل شيء تبتدئ بقطع أمر المعاصي من قلبك، وتترك ما كنت فيه من اللهو والعسف والاشتغال بالنساء؛ لأنك إن رجعت إلى أصل المعاصي تكون الضلالة الثانية أشد من الأولى. فقال الملك: وما هي أصل المعاصي التي ينبغي أن أقطع عنها؟ فأجابه ذلك الوزير الصغير السن الكبير العقل قائلاً: أيها الملك الكبير، اعلم أن أصل المعصية اتباع هوى النساء، والميل إليهن وقبول رأيهن وتدبيرهن؛ لأن محبتهم تغير العقول الصافية وتفسد الطباع السليمة، والشاهد على قولي من دلائل واضحة لو تفكرت فيها وتتبع وقائعها بإمعان النظر، لوجدت لك ناصحاً من نفسك واستغنيت عن قولي جملةً، فلا تشغل قلبك بذكرهن واقطع من ذهنك رسمهن؛ لأن الله تعالى أمر بعدم الإكثار منهن على يد نبيه موسى، حتى قال أحد الملوك الحكماء لولده: يا ولدي، إذا استقمت في الملك من بعدي، فلا تستكثر من النساء لئلا يضل قلبك ويفسد رأيك بالجملة، فالاستكثار منهن يفضي إلى حُبهن، وحُبهن يفضي إلى فساد الرأي، والبرهان على ذلك ما جرى لسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، الذي خصه الله بالعلم والحكمة والمُلْك العظيم، ولم يُعط أحداً من الملوك التي تقدّمت مثل ما أعطاه، فكانت النساء سبباً لهفوة والده، ومثل هذا كثير أيها الملك، وإنما ذكرت لك سليمان لتعرف أنه ليس لأحد أن يملك مثل ما ملك حتى أطاعه جميع ملوك الأرض. واعلم أيها الملك أن محبة النساء أصل كل شر، وليس لإحداهن رأي، فينبغي للإنسان أن يقتصر منهن على قدر الضرورة، ولا يميل إليهن كل الميل، فإن ذلك يوقعه في الفساد والهلكة، فإن أطعت قولي أيها الملك استقامت لك جميع أمورك، وإن تركته ندمت حيث لا ينفك الندم. فأجابه الملك قائلاً: لقد تركت ما كنت فيه من فرط الميل إليهن. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٢٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك وردخان لما قال لوزيره: إنني قد تركتُ ما كنتُ فيه من الميل إليهن، وأعرضتُ عن الاشتغال بالنساء جميعاً، ولكن ماذا أصنع فيهن جزاءً على ما فعلن؟ لأن قتلَ شماس والدك كان من كيدهن، ولم يكن ذلك مرادي، ولا عرفت كيف جرى لي في عقلي حتى وافقتهن على قتله. ثم تأوَّه وصاح قائلاً: وا أسفاه على فقْدِ وزيرِي وسداد رأيه وحسن تدبيره، وعلى فقد نظرائه من الوزراء ورؤساء المملكة وحُسن آرائهم الرشيدة. فأجابه الوزير قائلاً: اعلم أيها الملك أن الذنبَ ليس للنساء وحدهن؛ لأنهن مثل بضاعة مستحسنة تميل إليها شهوات الناظرين، فمَنْ اشتهى واشترى باعوه، ومَنْ لم يشتر لم يجبره أحدٌ على الشراء، ولكنَّ الذنبَ لِمَنْ اشترى، وخصوصاً إذا كان عرفاً بمضرة تلك البضاعة، وقد حذرتك ووالدي من قبلي كان يحذرك ولم تقبل منه نصيحة. فأجابه الملك: إنني أوجبتُ على نفسي الذنبَ كما قلت أيها الوزير، ولا عذر لي إلا التقادير الإلهية. فقال الوزير: اعلم أيها الملك أن الله تعالى خلقنا وخلق لنا استطاعةً، وجعل لنا إرادةً واختياراً، فإن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل، ولم يأمرنا الله بفعل ضررٍ لئلا يلزمنا ذنبٌ، فيجب علينا حساب فيما يكون فعله صواباً؛ لأنه تعالى لا يأمرنا إلا بالخير على سائر الأحوال، وإنما ينهانا عن الشر، ولكن نحن بإرادتنا نفعل ما نفعله، صواباً كان أو خطأً. فقال له الملك: صدقتَ، وإنما كان خطئي مني لميلي إلى الشهوات، وقد حذرتُ نفسي من ذلك مراراً، وحذرتني والدك شماس مراراً، فغلبتُ نفسي على عقلي، فهل عندك شيء يمنعني عن ارتكابِ هذا الخطأ حتى يكون عقلي غالباً على شهوات نفسي؟ فأجاب الوزير: نعم، إنني أرى شيئاً يمنعك من ارتكاب هذا الخطأ، وهو أنك تنزع عنك ثوبَ الجهل وتلبس ثوبَ العدل، وتعصي هواك وتطيع مولاك، وترجع إلى سيرة الملك العادل أبيك، وتعمل ما يجب عليك من حقوق الله تعالى وحقوق رعيته، وتحافظ على دينك وعلى رعيته وعلى

سياسة نفسك وعلى عدم قتل رعيتك، وتنظر في عواقب الأمور، وتنزل عن الظلم والجور والبغي والفساد، وتستعمل العدل والإنصاف والخضوع، وتمتثل أوامر الله تعالى وتلازم الشفقة على خليفته الذين استخلفك عليهم، وتواظب على ما يُوجب دعاءهم لك؛ لأنك إذا دام لك ذلك صفًا وقتك وعفا الله برحمته عنك، وجعلك مُهابًا عند كلِّ مَنْ يراك، وتتلاشى أعداؤك ويهزم الله تعالى جيوشهم، وتصير عند الله مقبولًا، وعند خلقه مُهابًا محبوبًا.

فقال له الملك: لقد أحييت فؤادي ونورَّت قلبي بكلامك الحلو، وجليت عين بصيرتي بعد العمى، وأنا عازم على أن أفعل جميع ما ذكرته لي بمعونة الله تعالى، وأترك ما كنت عليه من البغي والشهوات، وأُخرج نفسي من الضيق إلى السعة، ومن الخوف إلى الأمن، وينبغي أن تكون بذلك فرحًا مسرورًا؛ لأنني صرتُ لك ابنًا مع كبر سني، وصرتُ أنت لي والدًا حبيبًا على صغر سنِّك، وصار من الواجب عليّ بذلُ المجهود فيما تأمرني به، وأنا أشكر فضلَ الله تعالى وفضلك، فإن الله تعالى أولاني بك من النعم وحسن الهداية وسداد الرأي ما يدفع همي وغمي، وقد حصلتُ سلامة رعيتي على يدك بشرف معرفتك وحسن تدبيرك، فأنت الآن مدبِّر للمكي، لا أتشرف عليك بسوى الجلوس على الكرسي، وكل ما تفعله جائزٌ عليّ ولا رادَّ لكلمتك وإن كنتَ صغير السن؛ لأنك كبير العقل كثير المعرفة، فأشكر الله الذي يسرَّكَ لي حتى هديتني إلى سبيل الاستقامة بعد الاعوجاج المهلك.

قال الوزير: أيها الملك السعيد، أعلم أنه لا فضلَ لي عليك في بذل النصيحة لك؛ لأن قولي من بعض ما يلزمني حيث كنتُ غريسَ نعمتك، وليس هكذا أنا وحدي، بل والذي من قبلي مغمورٌ بجزيل نعمتك، فنحن الجميع مُقرُّون بجميلك وفضلك، فكيف لا نقر بذلك وأنت أيها الملك راعينا وحاكمنا ومحاربٌ عنَّا أعداءنا، ومتولٍ حَفْظنا وحارسنا وبازل جهدك في سلامتنا؟ وإننا لو بذلنا أرواحنا في طاعتك لم نقم بواجب شكرك، ولكن نتضرَّع إلى الله تعالى الذي ولَّك علينا وحكَّمك فينا، ونسأله أن يهبَ لك العمر الطويل، ويمنحك النجاح في جميع أعمالك، ولا يمتحنك بمحنةٍ في زمانك، ويبلغك مرادك ويجعلك مُهابًا إلى حين مماتك، ويبسط بالكرم سواعدك حتى تقود كل عالم وتقهر كل معاند، ويوجد بك في مملكتك كل عالم وشجاع، وينزع منها كلَّ جاهل وجبان، ويرفع عن رعيتك الغلاء والبلاء، ويزرع بينهم الألفة والمحبة، ويمتّع من الدنيا بقلَّاحها، ومن الآخرة بصلاحها، بمنَّه وكرمه وخفيِّ لطفه، آمين؛ إنه على كل شيء قدير، وليس عليه أمر عسير، وإليه المرجع والمصير. فلما سمع الملك منه هذا الدعاء، حصل عنده غاية الفرح ومال إليه كلَّ الميل، وقال له: أعلم أيها الوزير أنك صرتَ عندي في مقام الأخ والولد، وليس يفصلني عنك

إلا الموت، وجميع ما تملكه يدي لك التصرف فيه، وإن لم يكن لي حلفٌ تجلس على تختي عوضاً عني، فأنت أولى من جميع أهل مملكتي، فأولئك مُلكي بحضرة أكابر مملكتي، وأجعلك وليَ عهدي من بعدي إن شاء الله تعالى. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك وردخان قال لابن شماس الوزير: سوف أستخلفك عني وأجعلك ولي عهدي من بعدي، وأشهد على ذلك أكابر مملكتي بعون الله تعالى. ثم بعد ذلك دعا بكاتبه فحضر بين يديه، فأمره أن يكتب إلى سائر كبراء دولته بالحضور إليه، وأجهر بالنداء في مدينته للحاضرين الخاص والعام، وأمر أن يجتمع الأمراء والقواد والحجّاب وسائر أرباب الخدم إلى حضرة الملك، وكذلك العلماء والحكماء، وعمل الملك ديواناً عظيماً وسماطاً لم يُعمل مثله قطُّ، وعزم جميع الناس من الخاص والعام، فاجتمع الجميع على حظٍّ وأكلٍ وشرِبٍ مدة شهر، وبعد ذلك كَسَا جميع حاشيته وفقراء مملكته، وأعطى العلماء عطايا وافرة، فاختر جملَةً من العلماء والحكماء بمعرفة ابن شماس وأدخلهم عليه، وأمره أن ينتخب منهم سبعة ليجعلهم وزراء من تحت كلمته، ويكون هو الرئيس عليهم؛ فعند ذلك اختار الغلام ابن شماس منهم أكبرهم سنّاً وأكملهم عقلاً وأكثرهم درايةً وأسرعهم حفظاً، ورأى من بهذه الصفات ستة أشخاص، فقدّمهم إلى الملك وألبسهم ثياب الوزراء وكلّمهم قائلاً: أنتم تكونون وزرائي تحت طاعة ابن شماس، وجميع ما يقوله لكم أو يأمركم به وزيرى هذا ابن شماس لا تخرجوا عنه أبداً، ولو كان هو أصغركم سنّاً لأنه أكبركم عقلاً. ثم إن الملك أجلسهم على كراسي مزركشة على عادة الوزراء، وأجرى إليهم الأرزاق والنفقات، ثم أمرهم أن ينتخبوا من أكابر الدولة الذين اجتمعوا عنده في الوليمة من يصلح لخدمة المملكة من الأجناد، ليجعل منهم رؤساء ألوف ورؤساء مئين ورؤساء عشرات، ورَتَّبَ لهم المرتبات وأجرى إليهم الأرزاق على عادة الكبراء، ففعلوا ذلك في أسرع وقت، وأمرهم أيضاً أن يُنعموا على بقية من حضر بالإنعامات الجزيلة، وأن يصرفوا كلَّ واحد إلى أرضه بعزٍّ وإكرام، وأمر عمّاله بالعدل في الرعية

وأوصاهم بالشفقة على الفقراء والأغنياء، وأمر بإسعافهم من الخزنة على قدر درجاتهم، فدعا له الوزراء بدوام العز والبقاء، ثم إنه أمر بزيينة المدينة ثلاثة أيام شكراً لله تعالى على ما حصل له من التوفيق.

هذا ما كان من أمر الملك ووزيره ابن شماس في ترتيب المملكة وأمرائها وعمّالها، وأما ما كان من أمر النساء المحظيات من السراري وغيرهن، اللاتي كنّ سبباً لقتل الوزراء وفساد المملكة بجيّلهن وخداعهن، فإنه لما انصرف جميع من كان في الديوان من المدينة والقرى إلى محله واستقامت أمورهم، أمر الملك الوزير الصغير السن الكبير العقل الذي هو ابن شماس أن يحضر بقية الوزراء، فلما حضروا جميعاً بين يدي الملك اختلى بهم وقال لهم: اعلّموا أيها الوزراء أنني كنتُ حائداً عن الطريق المستقيم، مستغرّقا في الجهل، مُعرّضاً عن النصيحة، ناقضاً للعهود والمواثيق، مخالفاً لأهل النصيح، وسبب ذلك كله ملاعبة هؤلاء النساء وخداعهن إياي، وزخرفة كلامهن وباطلهن لي وقبولي لذلك؛ لأنني كنتُ أظن أن كلامهن نصيح بسبب عذوبته ولينه، فإذا هو سمٌّ قاتل، والآن قد تقرّر عندي أنهم لم يُردن لي إلا الهلاك والتلف، فقد استحقّقن العقوبة والجزاء مني على جهة العدل، حتى أجعلنّ عبرة لمن اعتدّى، لكن فما الرأي السديد في إهلاكهن؟ فأجابه الوزير ابن شماس قائلاً: أيها الملك العظيم الشأن، إنني قلتُ لك أولاً أن الذنب ليس مختصاً بالنساء وحدهن، بل هو مشترك بينهن وبين الرجال الذين يطيعونهن، لكن النساء يستوجبن الجزاء على كلّ حالٍ لأمرين: الأول تنفيذ قولك لكونك الملك الأعظم، والثاني لتجاسرهنّ عليك وخداعهنّ لك، ودخولهنّ فيما لا يعنيهنّ وما لا يصلحنّ للتكلّم فيه، فهنّ أحقّ بالهلاك، ولكن كفاهنّ ما هو نازل بهنّ، ومن الآن اجعلنّ بمنزلة الخدم، والأمر إليك في ذلك وغيره.

ثم إن أحد الوزراء أشار على الملك بما قاله ابن شماس، وأحد الوزراء تقدّم إلى الملك وسجد له وقال: أدام الله أيام الملك، إن كان لا بد أن تفعل بهنّ فعلةً لهلاكهنّ، فافعل ما أقوله لك. فقال الملك: ما الذي تقوله لي؟ فقال له: أن تأمر إحدى محاضيك بأن تأخذ النساء اللاتي خدعنك وتدخلهنّ البيت الذي حصل فيه قتل الوزراء والحكماء، وتسجنهنّ هناك، وتأمر أن يُعطى لهنّ قليلٌ من الطعام والشراب قدر ما يمكّن أبدانهنّ، ولا يؤدّن إليهنّ في الخروج من ذلك الموضع أصلاً، وكلُّ من ماتت بنفسها تبقى بينهنّ على حالها إلى أن يمُتنَ عن آخرهنّ، وهذا أقلّ جزائهنّ؛ لأنهنّ كنّ سبباً لهذه الفتنة العظيمة، بل وأصل جميع البلايا والفتن التي وقعت في الزمان، وصدق عليهنّ قول القائل: إنَّ من حفر بئراً لأخيه وقع فيها، ولو طالّت سلامته. فقَبِلَ الملك رأيه وفعل كما قال له، وأرسل خلف

أربع محظيات جبّارات وسلّم إليهن النساء، وأمرهن أن يُدخلنهن محلّ القتل ويسجنهن فيه، وأجرى لهن طعاماً دينياً قليلاً وشراباً رديئاً، فكان من أمرهن أنهن حزنّ حزناً عظيماً، وندمن على ما فرط منهن، وتأسفنّ تأسفاً كثيراً، وأعطاهن الله جزاءهن في الدنيا من الخزي، وأعدّ لهن العذاب في الآخرة، ولم يزلن في ذلك الموضع المظلم المنتن الرائحة، وفي كل يوم تموت ناس منهن حتى هلكن عن آخرهن، وشاع خبر هذه الواقعة في جميع البلاد والأقطار، وهذا ما انتهى إليه أمر الملك ووزرائه ورعيته، والحمد لله مُفني الأمم ومحبي الرمم، المستحق للتجليل والإعظام والتقدّيس على الدوام.

حكاية أبي قير وأبي صير

ومما يُحكى أيضاً أن رجلين كانا في مدينة الإسكندرية، وكان أحدهما صباغاً واسمه أبو قير، وكان الثاني مزيناً واسمه أبو صير، وكانا جارين لبعضهما في السوق، وكان دكان المزين في جانب دكان الصباغ، وكان الصباغ نصّاباً كذاباً صاحب شرّ قوي، كأنما صدغه منحوت من الجلود أو مشتق من عتبة كنيسة اليهود، لا يستحي من عيبة يفعلها بين الناس، وكان من عادته أنه إذا أعطاه أحد قماشاً ليصبغه يطلب منه الكراء أولاً، ويوهمه أنه يشتري به أجزاء ليصبغ بها، فيعطيه الكراء مقدّماً، فإذا أخذه منه يصرفه على أكل وشرب، ثم يبيع القماش الذي أخذه بعد ذهاب صاحبه ويصرف ثمنه في الأكل والشرب وغير ذلك، ولا يأكل إلا طيباً من أوفر المأكول، ولا يشرب إلا من أجود ما يُذهب العقول، فإذا أتاه صاحب القماش يقول له: في غدٍ تجيء لي من قبل الشمس فتلقني حاجتك مصبوغة. فيروح صاحب الحاجة ويقول في نفسه: يوم من يوم قريب. ثم يأتيه في ثاني يوم على الميعاد فيقول له: تعال في غدٍ، فإنني أمس ما كنتُ فاضياً؛ لأنه كان عندي ضيوف فقمْتُ بواجبهم حتى راحوا، وفي غدٍ قبل الشمس تعال خذ قماشك مصبوغاً. فيروح ويأتيه في ثالث يوم فيقول له: إنني كنتُ أمس معذوراً؛ لأن زوجتي ولدت بالليل، وطول النهار وأنا أقضي مصالح، ولكن في غدٍ من كلِّ بد تعال خذ حاجتك مصبوغة. فيأتي له على الميعاد فيطلع له بحيلة أخرى من حيث كان ويحلف له. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصبَّاغ صار كلما أتى له صاحب الشيء يطلع له بحيلة من حيث كان ويحلف له، ولم يزل يَعِدُّه ويخلف إذا جاءه، حتى يقلق الزبون ويقول له: كَمْ تقول لي في غدٍ! أَعْطِني حاجتي فإنني لا أريد صباغًا. فيقول: والله يا أخي أنا مستح منكَ، ولكن أخبرك بالصحيح والله يؤذي كلَّ مَنْ يؤذي الناس في أمتعتهم. فيقول له: أخبرني ماذا حصل؟ فيقول: أمَّا حاجتك فإنني صبغْتُها صبغًا ليس له نظيرٌ، ونشرْتُها على الحبل فسُرقت ولا أدري مَنْ سرقها. فإن كان صاحب الحاجة من أهل الخير، يقل له: يعوِّض الله عليَّ. وإن كان من أهل الشر يستمرُّ معه في هتيكة وجرسه، ولا يحصل منه على شيء ولو اشتكاه إلى الحاكم، ولم يزل يفعل هذه الفِعال حتى شاع ذِكره بين الناس، وصار الناس يحذِر بعضهم بعضًا من أبي قير، ويضربون به الأمثال، وامتنعوا عنه جميعًا، وصار لا يقع معه إلا الجاهل بحاله، ومع ذلك لا بد له كلَّ يوم من جرسه وهتيكة من خلق الله، فحصل له كساد بهذا السبب، فصار يأتي إلى دكان جاره المزيّن أبي صير ويقعد في داخلها قصاد المصبغة، فإن رأى أحدًا جاهلًا بحاله واقفًا على باب المصبغة ومعه شيء يريد صبغه، يقيم من دكان المزيّن ويقول: ما لك يا هذا؟ فيقول له: خذ اصبغ لي هذا الشيء. فيقول له: أي لون تطلبه؟ لأنه مع هذه الخصال الذميمة كان يخرج من يده أن يصبغ سائر الألوان، ولكنه لم يصدق مع أحدٍ قطُّ، والشقاوة غالبه عليه، ثم يأخذ الحاجة منه ويقول له: هاتِ الكِراء لقدام وفي غدٍ تعالَ خذها. فيعطيه الأجرة ويروح، وبعد أن يتوجّه صاحب الشيء إلى حال سبيله، يأخذ هو ذلك الشيء ويذهب إلى السوق فيبيعه ويشترى بثمره اللحم والخضار والدخان والفاكهة وما يحتاج إليه، وإذا رأى أحدًا واقفًا على الدكان من الذين أعطوه حاجةً ليصبغها، فلا يظهر إليه ولا يُريه نفسه، ودام على هذه الحالة سنين.

فاتفق له في يومٍ من الأيام أنه أخذ حاجةً من رجل جبَّار، ثم باعها وصرف ثمنها، وصار صاحبها يجيء إليه في كلِّ يوم فلم يَره في الدكان؛ لأنه متى رأى أحدًا له عنده شيء يهرب منه في دكان المزين أبي صير، فلما لم يجده ذلك الجبَّار في دكانه وأعياء ذلك، ذهب إلى القاضي وأتاه برسولٍ من طرفه وسَمَّرَ باب الدكان بحضرة جماعة من المسلمين وختمه؛ لأنه لم يَر فيها غيرَ بعض مواجير مكسَّرة، ولم يجد فيها شيئًا يقوم مقام حاجته، ثم أخذ الرسول المفتاح وقال للجيران: قولوا له يجيء بحاجة هذا الرجل ويأتي ليأخذ مفتاح دكانه. ثم ذهب الرجل والرسول إلى حالهما، فقال أبو صير لأبي قير: ما داهيتك؟ فإنَّ كلَّ مَنْ جاء لك بحاجة تعدمه إياها، أين راحت حاجة هذا الرجل الجبَّار؟ قال: يا جاري، إنها سُرقت مني. قال أبو صير: عجائب، كلُّ مَنْ أعطاك حاجة يسرقها منك لصٍّ، هل أنت مُعَادٍ لجميع اللصوص؟ ولكن أظن أنك تكذب، فأخبرني بقصتك. قال: يا جاري، ما أحد سرق مني شيئًا. فقال أبو صير: وما تفعل في متاع الناس؟ فقال له: كلُّ مَنْ أعطاني حاجة أبيعها وأصرف ثمنها. فقال له: أبو صير أَيْحُلُ لك هذا من الله؟ قال له أبو قير: إنما أفعَل هذا من الفقر؛ لأنَّ صنعتي كاسدة، وأنا فقير وليس عندي شيء. ثم صار يذكر له الكسادَ وقلة السبب، وصار أبو صير يذكر له كسادَ صنعتِه أيضًا ويقول: أنا أسطى ليس لي نظير في هذه المدينة، ولكن لا يحلق عندي أحدٌ لكوني رجلًا فقيرًا، وكرهت هذه الصنعة يا أخي. فقال له أبو قير الصبَّاغ: وأنا أيضًا كرهت صنعتي من الكساد، ولكن يا أخي ما الداعي لإقامتنا في هذه البلدة؟ فأنا وأنت نساfer منها نتفرج في بلاد الناس، وصنعتنا في أيدينا رائجة في جميع البلاد، فإذا سافرنا نشم الهواء ونرتاح من هذا الهمِّ العظيم. وما زال أبو قير يحسِّن السفرَ لأبي صير حتى رغب في الارتحال، ثم إنهما اتفقا على السفر. وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا قير ما زال يحسّن السفر لأبي صير حتى رغب في الارتحال، ثم إنهما اتفقا على السفر، وفرح أبو قير بأن أبا صير رغب في أن يسافر، وأنشد قول الشاعر:

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعَلَا	وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجٌ هُمْ وَاكْتِسَابٌ مَعِيشَةٍ	وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ وَضُحْبَةٌ مَاجِدِ
وَأِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ عَمٌّ وَكُرْبَةٌ	وَتَشْتِيَتْ شَمْلٌ وَارْتِكَابٌ شَدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ	بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

وحين عزمًا على السفر قال أبو قير لأبي صير: يا جاري نحن صرنا أخوين، ولا فرق بيننا، فينبغي أن نقرأ الفاتحة على أن عاملنا يكتسب ويطعم بطّالنا، ومهما فضل نضعه في صندوق، فإذا رجعنا إلى الإسكندرية نقسمه بيننا بالحق والإنصاف. قال أبو صير: وهو كذلك. وقرأ الفاتحة على أن العامل يكتسب ويطعم البطّال، ثم إن أبا صير قفل الدكان وأعطى المفاتيح لصاحبها، وأبو قير ترك المفتاح عند رسول القاضي وترك الدكان مقفولةً مختومةً، وأخذًا مصالِحها وأصبحًا مسافرين، ونزلًا في غليون في البحر المالح وسافرًا في ذلك النهار، وحصل لهما إسعاف، ومن تمام سعدِ المزيّن أن جميع مَنْ كان في الغليون لم يكن معهم أحدٌ من المزيّنين، وكان فيه مائة وعشرون رجلًا غير الرئيس والبحرية، ولما حلّوا قلوغ الغليون قام المزيّن وقال للصباغ: يا أخي، هذا بحر نحتاج فيه إلى الأكل والشرب، وليس معنا إلا قليل من الزاد، وربما يقول لي أحدٌ: تعال يا مزيّن اطلق لي. فأحلق له برغيفٍ وب نصف فضة أو بشربة ماء، فأنتفع بذلك أنا وأنت. فقال له الصباغ: لا بأس.



فنزل «أبو قير» و«أبو صير» في غليون في البحر، وسافرا في ذلك النهار.

ثم حطَّ رأسه ونام، وقام المزيّن وأخذ عدّته والطاسة ووضع على كتفه خرقةً تغني عن الفوطة؛ لأنه فقير وشقَّ بين الركاب، فقال له واحد: تعالَ يا أسطى احلق لي. فحلق له، فلما حلق لذلك الرجل أعطاه نصف فضة، فقال له المزيّن: يا أخي، ليس لي حاجة بهذا النصف الفضة، ولو كنتَ أعطيتني رغيماً كان أبرك في هذا البحر؛ لأن لي رفيقاً وزادنا شيء قليل. فأعطاه رغيماً وقطعة جبن، وملأ له الطاسة ماءً حلواً، فأخذ ذلك وأتى إلى

أبي قير وقال له: خذ هذا الرغيف وكله بالجبن، واشرب ما في الطاسة. فأخذ ذلك منه وأكل وشرب.

ثم إن أبا صير المزيّن بعد ذلك حمل عدّته وأخذ الخرقة على كتفه والطاسة في يده، وشقّ في الغليون بين الركاب، فحلق لإنسانٍ برغيفين، ولآخر بقطعة جبن، ووقع عليه الطلب، وصار كلّ من يقول له: احلق لي يا أسطى. يشترط عليه رغيفين ونصف فضة، وليس في الغليون مزيّن غيره، فما جاء المغرب حتى جمع ثلاثين رغيفاً وثلاثين نصف فضة، وصار عنده جبن وزيتون وبطارخ، وصار كلما يطلب حاجة يعطونه إياها، حتى صار عنده شيء كثير، وحلق للقبطان وشكّا له قلّة الزاد في السفر، فقال له القبطان: مرحباً بك، هات رفيقك في كلّ ليلة وتعيشياً عندي، ولا تحملاً همّاً ما دمتما مسافرين معنا. ثم رجع إلى الصبّاغ فرآه لم يزل نائماً فأيقظه، فلما أفاق أبو قير رأى عند رأسه شيئاً كثيراً من عيش وجبن وزيتون وبطارخ، فقال له: من أين لك ذلك؟ فقال: من فيض الله تعالى. فأراد أن يأكل، فقال له أبو صير: لا تأكل يا أخي من هذا واتركه ينفعنا في وقتٍ آخر، واعلم أنني حلقتُ للقبطان وشكوتُ إليه قلّة الزوادة، فقال لي: مرحباً بك، هات رفيقك كلّ ليلة وتعيشياً عندي. فأول عشائنا عند القبطان في هذه الليلة. فقال له أبو قير: أنا دائخ من البحر ولا أقدر أن أقوم من مكاني، فدعني أتعشى من هذا الشيء، ورُحْ أنت وحدك عند القبطان. فقال له: لا بأس بذلك. ثم جلس يتفرّج عليه وهو يأكل، فرآه يقطع اللقمة كما يقطع الحجار من الجبل، وبيتلعها ابتلاع الفيل الذي له أيام ما أكل، ويلتهم اللقمة قبل ازدراد التي قبلها، ويحملك عينيه فيما بين يديه حملقة الغول، وينفخ نفخ الثور الجائع على التبن والفول، وإذا بنوتي جاء وقال: يا أسطى، يقول لك القبطان: هات رفيقك وتعال للعشاء. فقال أبو صير لأبي قير: أتقوم بنا؟ فقال له: أنا لا أقدر على المشي. فراح المزيّن وحده، فرأى القبطان جالساً وقدامه سفرة فيها عشرون لوناً أو أكثر، وهو وجماعته ينتظرون المزيّن ورفيقه، فلما رآه القبطان قال له: أين رفيقك؟ فقال له: يا سيدي، إنه دائخ من البحر. فقال له القبطان: لا بأس عليه، ستزول عنه الدوخة، تعال أنت تعش معنا، فإنني كنتُ في انتظارك. ثم إن القبطان عزل صحن كباب وخطّ فيه من كل لون، فصار يكفي عشرة، وبعد أن تعشى المزيّن قال له القبطان: خذ هذا الصحن معك إلى رفيقك. فأخذه أبو صير وأتى إلى أبي قير، فرآه يطحن بأنياه فيما عنده من الأكل مثل الجمل، ويلحق اللقمة باللقمة على عجلٍ، فقال له أبو صير: أمّا قلتُ لك لا تأكل، فإن القبطان خيره كثير؟ فانظر أي شيء بعث إليك لما أخبرته بأنك دائخ. فقال له: هات.

فناوَلَه الصحنَ فأخذه منه وهو ملهوف عليه وعلى غيره من الأكل مثل الكلب الكاشر أو السبع الكاسر، أو الرخَّ إذا انقَضَّ على الحمام، أو الذي كاد أن يموت من الجوع ورأى شيئاً من الطعام، وصار يأكل، فتركه أبو صير وراح إلى القبطان وشرب القهوة هناك، ثم رجع إلى أبي قير، فراه قد أكل جميع ما في الصحن ورماه فارغاً. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا صير لما رجع إلى أبي قير رآه قد أكل كل ما في الصحن ورماه فارغاً، فأخذه وأوصله إلى بعض أتباع القبطان ورجع إلى أبي قير ونام إلى الصباح، فلما كان ثاني الأيام صار أبو صير يحلق، وكلما جاء له شيء يعطيه لأبي قير، وأبو قير يأكل ويشرب، وهو قاعد لا يقوم إلا لإزالة الضرورة، وكل ليلة يأتي له بصحن ملآن من عند القبطان، واستمرَّ على هذه الحالة عشرين يوماً، حتى رسا الغليون على ميناء مدينة، فطلعَا من الغليون ودخلا تلك المدينة، وأخذَا لهما حجرة في خان وفرشها أبو صير، واشترى جميع ما يحتاجان إليه وجاء بلحم وطبخه، وأبو قير نائم من حين دخل الحجرة، ولم يستيقظ حتى أيقظَه أبو صير ووضع السفرة بين يده، فلما أفلق أكل وبعد ذلك قال له: لا تؤاخذني فإني دائخ. ثم نام، واستمرَّ على هذه الحالة أربعين يوماً، وكل يوم يحمل المزيّن العدة ويدور في المدينة، فيعمل بالذي فيه النصيب، ويرجع فيجد أبا قير نائماً، فينبّهه وحين ينتبه يُقبل على الأكل بلهفة، فيأكل أكل من لا يشبع ولا يقنع، ثم ينام، ولم يزل كذلك مدة أربعين يوماً أخرى، وكلما يقول له أبو صير: أجلس أرتاح، واخرج تفسّخ في المدينة، فإنها فرجة وبهجة وليس لها نظير في المدائن. يقول له أبو قير الصبّاغ: لا تؤاخذني فإني دائخ. فلا يرضى أبو صير المزيّن أن يكدّر خاطره ولا يسمعه كلمة تؤذيه، وفي اليوم الحادي والأربعين مرض المزيّن ولم يقدر أن يسرح، فسخر بواب الخان، فقضى لهما حاجتهما وأتى لهما بما يأكلان وما يشربان، كل ذلك وأبو قير يأكل وينام، وما زال المزيّن يسخر بواب الخان في قضاء حاجته مدة أربعة أيام، وبعد ذلك اشتدَّ المرض على المزيّن حتى غاب عن الوجود من شدة مرضه، وأما أبو قير فإنه أحرّقه الجوع، فقام وفتش في ثياب أبي صير، فرأى معه مقداراً من الدراهم، فأخذه وقفل باب الحجرة على أبي صير ومضى ولم يعلم أحداً، وكان البواب في السوق فلم يره حين خروجه.

ثم إن أبا قير عمد إلى السوق وكسا نفسه ثياباً نفيسة، وصار يدور في المدينة ويتفرج، فرآها مدينةً ما وجد مثلها في المدائن، وجميع ملبوسها أبيض وأزرق من غير زيادة، فأتى إلى صباغ فرأى جميع ما في دكانه أزرق، فأخرج له محرمة وقال له: يا معلم، خذ هذه المحرمة وأصبغها، وخذ أجرتك. فقال له: إن أجرة صبغ هذه عشرون درهماً. فقال له: نحن نصبغ هذه في بلادنا بدرهمين. فقال: رُحِ اصبغها في بلادكم، وأما أنا فلا أصبغها إلا بعشرين درهماً لا تنقص عن هذا القدر شيئاً. فقال له أبو قير: أي لون تريد صبغها؟ قال له الصباغ: أصبغها زرقاء. قال له أبو قير: أنا مرادي أن تصبغها لي حمراء. قال له: لا أدري صباغ الأحمر. قال: خضراء. قال: لا أدري صباغ الأخضر. قال: صفراء. قال له: لا أدري صباغ الأصفر. وصار أبو قير يُعَدُّ له الألوانَ لوناً بعد لون، فقال له الصباغ: نحن في بلادنا أربعون معلماً لا يزيدون واحداً ولا ينقصون واحداً، وإذا مات منّا واحد نعلم ولده، وإن لم يخلف ولداً نبقى ناقصين واحداً، والذي له ولدان نعلم واحداً منهما، فإن مات علماً أخاه، وصنعنا هذه مضبوطة ولا نعرف أن نصبغ غير الأزرق من غير زيادة. فقال له أبو قير الصباغ: اعلم أنني أنا صباغ، وأعرف أن أصبغ سائر الألوان، ومرادي أن تخدمني عندك بالأجرة، وأنا أعلمك جميع الألوان لأجل أن تفتخر بها على كل طائفة الصباغين. فقال له: نحن لا نقبل غريباً يدخل في صنعنا أبداً. فقال له: وإذا فتحت لي مصبغةً وحدي؟ فقال له: لا يمكنك ذلك أبداً. فتركه وتوجّه إلى الثاني، فقال له كما قال له الأول، ولم يَزَلْ ينتقل من صباغ إلى صباغ حتى طاف على الأربعين معلماً، فلم يقبلوه لا أجيراً ولا معلماً، فتوجّه إلى شيخ الصباغين وأخبره، فقال له: إننا لا نقبل غريباً يدخل في صنعنا. فحصل عند أبي قير غيظٌ عظيمٌ، وطلع يشكو إلى ملك تلك المدينة وقال له: يا ملك الزمان، أنا غريب وصنعتي الصباغة، وجرى لي مع الصباغين ما هو كذا وكذا، وأنا أصبغ الأحمر ألواناً مختلفة كوردِيّ وعنّابِيّ، والأخضر ألواناً مختلفة كزرعي وفستقي وجناح الدرة، والأسود ألواناً مختلفة كفحمي وكحلي، والأصفر ألواناً مختلفة كنارنجي ... وصار يذكر له سائر الألوان، ثم قال: يا ملك الزمان، كلُّ الصباغين الذين في مدينتك لا يخرج من أيديهم أن يصبغوا شيئاً من هذه الألوان، ولا يعرفون إلا صبغ الأزرق، ولم يقبلوني أن أكون عندهم معلماً ولا أجيراً. فقال له الملك: قد صدقت في ذلك، ولكن أنا أفتح لك مصبغةً وأعطيك رأس مال وما عليك منهم، وكلُّ من تعرّض لك شنقته على باب دكانه. ثم أمر البنّائين وقال لهم: امضوا مع هذا المعلم وشقُّوا أنتم وإياه في المدينة، وأي مكان أعجبه فأخرجوا صاحبه منه، سواء كان دكاناً أو خاناً أو غير ذلك، وابنوا له

مصبغة على مراده، ومهما أَمَرَكم به فافعلوه ولا تخالفوه فيما يقول. ثم إن الملك أَلْبَسَه بدلةً مليحةً، وأعطاه أَلْفَ دينار وقال له: اصرفها على نفسك حتى تتمَّ البناية. وأعطاه مملوكَيْن من أجل الخدمة، وحصاناً بعدةٍ مزركشة، فلبس البدلة وركب الحصانَ وصار كأنه أمير، وأخلى له الملك بيتاً وأمر بفرشه، وفرشوه له. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك أخلى بيتاً لأبي قير وأمرَ بفرشه، وفرشوه له وسكن فيه وركب في ثاني يومٍ وشقَّ في المدينة والمهندسون قدامه، ولم يزل يتأمل حتى أعجبه مكان فقال: هذا المكان طيبٌ. فأخرجوا صاحبه منه وأحضروه إلى الملك، فأعطاه ثمن مكانه زيادةً على ما يرضيه، ودارت فيه البناية وصار أبو قير يقول للبنائين: ابنوا كذا وكذا، وافعلوا كذا وكذا. حتى بنوا له مصبغةً ليس لها نظيرٌ، ثم حضر إلى الملك وأخبره بأن المصبغة تم بناؤها، وإنما يحتاج لثمنٍ من أجل إدارتها، فقال له الملك: خذ هذه الأربعة آلاف دينار واجعلها رأس مالٍ، وأرني ثمرةً مصبغتكَ. فأخذها ومضى إلى السوق، فرأى النيلة كثيرة، وليس لها ثمن، فاشتري جميع ما يحتاج إليه من حوائج الصباغة، ثم إن الملك أرسلَ إليه خمسمائة شقة من القماش، فدورَ الصبغ فيها وصبغها من سائر الألوان، ثم نشرها قدام باب المصبغة، فلما مرَّ الناس عليها رأوا شيئاً عجيباً عمرهم ما رأوا مثله، فازدحمت الخلائق على باب المصبغة، وصاروا يتفرجون ويسألونه ويقولون له: يا معلم، ما اسم هذه الألوان؟ فيقول لهم: هذا أحمر، وهذا أصفر، وهذا أخضر ... ويذكر لهم أسامي الألوان، فصاروا يأتونه بشيءٍ من القماش ويقولون له: اصبغ لنا مثل هذا وهذا، وخذ ما تطلب. ولما فرغ من صبغ قماش الملك، أخذه وطلع به إلى الديوان، فلما رأى الملك ذلك الصبغ فرح به وأنعم عليه إنعاماً زائداً، وصار جميعُ العسكر يأتون إليه بالقماش ويقولون له: اصبغ لنا هكذا. فيصبغ لهم على أغراضهم ويرمون عليه بالذهب والفضة، ثم إنه شاع ذكره وسُميت مصبغته مصبغة السلطان، ودخل عليه الخيرُ من كل باب، وجميع الصبّاغين لم يقدر أحدٌ منهم أن يتكلمَ معه، وإنما كانوا يأتونه ويقولون يدَّيه

ويعتذرون إليه مما سبق منهم في حقّه، ويعرضون أنفسهم عليه ويقولون له: اجعلنا خَدَمًا عندك. فلم يَرْضَ أن يقبل واحدًا منهم، وصار عنده عبيدٌ وجوارٍ، وجمع مالا كثيرا.



فقبضوا عليه، وقام أبو قير وأخذ عصا وضربه على ظهره، ثم على بطنه.

هذا ما كان من أمر أبي قير، وأما ما كان من أمر أبي صير، فإنه لما قفل عليه أبو قير باب الحجرة بعد أن أخذ دراهمه، وراح وخلاه وهو مريض غائب عن الوجود،

فصار مرمياً في تلك الحجرة والباب مقفول عليه، واستمرَّ كذلك ثلاثة أيام، فانتَبَه بَوَّاب الخان إلى باب الحجرة، فرآه مقفولاً ولم يَرَ أحداً من هذين الاثنين إلى المغرب، ولم يعلم لهما خبراً، فقال في نفسه: لعلهما سافراً ولم يدفعا أجرَ الحجرة، أو ماتا أو ما خبرهما؟ ثم إنه أتى إلى باب الحجرة فرآه مقفولاً، وسمع أنينَ المزيّن في داخلها، ورأى المفتاح في الضبة، ففتح الباب ودخل، فرأى المزيّن يئنُّ، فقال له: لا بأس عليك، أين رفيقك؟ فقال له: والله إنني ما أفقتُ من مرضي إلا في هذا اليوم، وصرتُ أنادي وما أحد يردُّ عليَّ جواباً، بالله عليك يا أخي أن تنظر الكيس تحت رأسي، وتأخذ منه خمسة أنصاف وتشترى لي بها شيئاً أقتاتُ به، فإنني في غاية الجوع. فمدَّ يده وأخذ الكيس فرآه فارغاً، فقال للمزيّن: إن الكيس فارغ ما فيه شيء. فعرف أبو صير المزيّن أن أبا قير أخذ ما فيه وهرب، فقال له: أمّا رأيتَ رفيقي؟ فقال له: من مدة ثلاثة أيام ما رأيته، وما كنتُ أظن إلا أنك سافرت أنت وإياه. فقال له المزيّن: ما سافرنا، وإنما طمع في فلسي فأخذها وهرب حين رأني مريضاً. ثم إنه بكى وانتحب، فقال له بواب الخان: لا بأس عليك، وهو يَلْقَى فعله من الله.

ثم إن بَوَّاب الخان راح وطبخ له شوربةً، وغرف له صحناً وأعطاه إياه، ولم يزل يتعهّده مدة شهرين وهو يكلفه من كيسه حتى عرق وشفاه الله من المرض الذي كان به، ثم قام على أقدامه وقال لبواب الخان: إن أقدرني الله تعالى جازيتُك على ما فعلتُ من الخير، ولكن لا يجازي إلا الله من فضله. فقال له بواب الخان: الحمد لله على العافية، أنا ما فعلتُ معك ذلك إلا ابتغاء وجه الله الكريم. ثم إن المزيّن خرج من الخان وشقَّ في الأسواق، فأتت به المقادير إلى السوق الذي فيه مصبغةُ أبي قير، فرأى الأقمشة ملونةً بالصبغ منشورة في باب المصبغة، والخلائق مزدحمة يتفرجون عليها، فسأل رجلاً من أهل المدينة وقال له: ما هذا المكان؟ وما لي أرى الناس مزدحمين؟ فقال له المسئول: إن هذه مصبغة السلطان التي أنشأها لرجلٍ غريب اسمه أبو قير، وكلما صبغ ثوباً نجتمع عليه ونتفرّج على صبغه؛ لأن بلادنا ما فيها صبّاغون يعرفون صبغ هذه الألوان، وجرى له مع الصبّاغين الذين في البلد ما جرى، وأخبره بما جرى بين أبي قير وبين الصبّاغين، وأنه شكاهم إلى السلطان، فأخذ بيده وبنى له هذه المصبغة وأعطاه كذا وكذا، وأخبره بكل ما جرى، ففرح أبو صير وقال في نفسه: الحمد لله الذي فتح عليه وصار معلماً، والرجل معذور لعله انتهى عنك بالصنعة ونسيك، ولكن أنت عملت معه معروفًا وأكرمته وهو بطال، فمتى رآكَ فَرَحَ بك وأكرمك في نظري ما أكرمته. ثم إنه تقدّم إلى جهة باب المصبغة، فرأى أبا قير جالساً على مرتبة عالية فوق مصطبة في باب المصبغة، وعليه بدلة من ملابس الملوك، وقدامه أربعة عبيد وأربعة مماليك بيض لابسين أفخر الملابس، ورأى

الصنائعية عشرة عبيد واقفين يشتغلون؛ لأنه حين اشتراهم علّمهم صنعة الصباغة، وهو قاعد بين المخدات كأنه وزير أعظم أو ملك أفخم، لا يعمل شيئاً بيده، وإنما يقول لهم افعلوا كذا وكذا، فوقف أبو صير قدامه وهو يظن أنه إذا رآه يفرح به ويسلم عليه ويكرمه ويأخذ بخاطره، فلما وقعت العين في العين، قال له أبو قير: يا خبيث، كم مرة وأنا أقول لك لا تقف في باب هذا الدولاب؟ هل مرادك أن تفضحني مع الناس يا حرامي؟ أمسكوه. فجرت خلفه العبيد وقبضوا عليه، وقام أبو قير على حيله وأخذ عصاً وقال: ارموه. فرموه فضربه على ظهره مائة، ثم قلبوه فضربه على بطنه مائة وقال له: يا خبيث يا خائن، إن نظرتك بعد هذا اليوم واقفاً على باب هذه المصبغة، أرسلتك إلى الملك في الحال فيسلّمك إلى الوالي ليرمي عنقك، امش لا بارك الله لك. فذهب من عنده مكسور الخاطر بسبب ما حصل له من الضرب والترذيل، فقال الحاضرون لأبي قير الصبّاغ: أي شيء عمل هذا الرجل؟ فقال لهم: إنه حرامي يسرق أقمشة الناس. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا قير ضرب أبا صير وطرده وقال للناس: إن هذا حرامي يسرق أقمشة الناس، فإنه سرق مني كم مرة من القماش، وأنا أقول في نفسي سَامَحَ الله فإنه رجل فقير، ولم أَرْضَ أن أَشَوِّشَ عليه، وأعطي الناس ثمنَ أقمشتهم وأنهاه بلطف فلم ينته، فإن رجع مرةً غير هذه المرة أرسلتهُ إلى الملك، فيقتله ويريح الناس من أذاه، فصار الناس يشتمونه بعد ذهابه. هذا ما كان من أمر أبي قير، وأما ما كان من أمر أبي صير، فإنه رجع إلى الخان وجلس يتفكَّر فيما فعل به أبو قير، ولم يزل جالسًا حتى برد عليه الضرب، ثم خرج وشقَّ في أسواق المدينة، فخطر بباله أن يدخل الحمَّام، فسأل رجلًا من أهل المدينة وقال له: يا أخي، من أين طريق الحمَّام؟ فقال: وما يكون الحمَّام؟ فقال له: موضع تغتسل فيه الناس ويزيلون ما عليهم من الأوساخ، وهو من أطيب طبيبات الدنيا. فقال له: عليك بالبحر. قال: أنا مرادي الحمَّام. قال له: نحن لم نعرف الحمَّام، كيف يكون؟ فإننا كلنا نروح إلى البحر حتى الملك إذا أراد أن يغتسل فإنه يروح إلى البحر. فلما علم أبو صير أن المدينة ليس فيها حمَّامًا وأهلها لا يعرفون الحمام ولا كيفيته، مضى إلى ديوان الملك ودخل عليه وقبَّل الأرض بين يديه ودعا له وقال له: أنا رجل غريب البلاد وصنعتي حمَّامي، فدخلتُ مدينتك وأردتُ الذهاب إلى الحمَّام، فما رأيتُ فيها ولا حمَّامًا واحدًا، والمدينة التي تكون بهذه الصفة الجميلة كيف تكون من غير حمَّام؟ مع أنه من أحسن نعيم الدنيا. فقال له الملك: أي شيء يكون الحمَّام؟ فصار يحكي له أوصاف الحمَّام وقال له: لا تكون مدينتك كاملةً إلا إذا كان بها حمَّام. فقال له الملك: مرحبًا بك. وألبسه بدلًا ليس لها نظير، وأعطاه حصانًا وعبدین، ثم أنعم عليه بأربع جوارٍ ومملوكين، وهبًا له دارًا مفروشة وأكرمه أكثر من الصَّبَاغ، وأرسل معه البَنَّائين وقال لهم: الموضع الذي يعجبه ابنوا له فيه حمَّامًا. فأخذهم وشقَّ بهم في وسط

المدينة حتى أعجبه مكان، فأشار لهم عليه فدوروا فيه البناية، وصار يرشدهم إلى كيفية حتى بنوا له حمامًا ليس له نظير، ثم أمرهم بنقشه فنقشوه نقشًا عجيبًا حتى صار بهجة للناظرين، ثم طلع إلى الملك وأخبره بفراغ بناء الحمام ونقشه، وقال له: إنه ليس ناقصًا غير الفرش. فأعطاه الملك عشرة آلاف دينار، فأخذها وفرش الحمام وصف فيه القوط على الحبال، وصار كل من مر على باب الحمام يشخص له ويحتار فكره في نقشه، وازدحمت الخلائق على ذلك الشيء الذي ما رأوا مثله في عمرهم، وصاروا يتفرجون عليه ويقولون: أي شيء هذا؟ فيقول لهم أبو صير: هذا حمام. فيتعجبون منه، ثم إنه سخن الماء ودور الحمام وعمل سلسبيلًا في الفسقية يأخذ عقل كل من رآه من أهل المدينة، وطلب من الملك عشرة ممالك دون البلوغ، فأعطاه عشرة ممالك مثل الأقمار، فصار يكيسههم ويقول لهم: افعلوا مع الزبائن هكذا. ثم أطلق البخور وأرسل مناديا ينادي في المدينة ويقول: يا خلق الله، عليكم بالحمام، فإنه يسمى حمام السلطان. فأقبلت عليه الخلائق وجعل يأمر الممالك أن يغسلوا أجساد الناس، وصار الناس ينزلون المغطس ويطلعون، وبعد طلوعهم يجلسون في الليوان والممالك تكبسههم مثل ما علمهم أبو صير، واستمر الناس يدخلون الحمام ويقضون حاجتهم منه، ثم يخرجون بلا أجر مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع عزم الملك على الذهاب إلى الحمام، فركب هو وأكابر دولته وتوجهوا إلى الحمام، فقلع ودخل، فدخل أبو صير وكبس الملك، وأخرج من جسده الوسخ مثل الفتائل، وصار يُريه له، ففرح الملك وصار لوضع يده على بدنه صوت من النعومة والنظافة، وبعد أن غسل جسده مزج له ماء الورد بماء المغطس، فنزل الملك في المغطس، ثم خرج وجسده قد ترطب فحصل له نشاط عمره ما رآه، ثم بعد ذلك أجلسه في الليوان وصار الممالك يكبسهونه والمباخر تفوح بالعود الند، فقال الملك: يا معلم، أهذا هو الحمام؟ قال: نعم. فقال له: وحياء رأسي إن مدينتي ما صارت مدينة إلا بهذا الحمام. ثم قال له: أنت تأخذ على كل رأس أي شيء أجره؟ قال أبو صير: الذي تأمر لي به أخذه. فأمر له بألف دينار، وقال له: كل من اغتسل عندك خذ منه ألف دينار. فقال: العفو يا ملك الزمان، إن الناس ليسوا سواء، بل فيهم الغني وفيهم الفقير، وإذا أخذت من كل واحد ألف دينار يبطل الحمام، فإن الفقير لا يقدر على الألف دينار. قال الملك: وكيف تفعل في الأجره؟ قال: اجعل الأجره بالمروءة؛ فكل من يقدر على شيء وسمحت به نفسه يعطيه، فنأخذ من كل إنسان على قدر حاله، فإن الأمر إذا كان كذلك تأتي إلينا الخلائق، والذي يكون غنيًا يعطي على قدر مقامه، والذي يكون فقيرًا يعطي على قدر ما تسمح به نفسه، فإذا كان الأمر

كذلك يدور الحمّام ويبقى له شأن عظيم، وأما الألف دينار فإنها عطية الملك، ولا يقدر عليها كل أحدٍ. فصَدَّقَ عليه أكابر الدولة وقالوا: هذا هو الحق يا ملك الزمان، أتحسب أن الناس كلهم مثلك أيها الملك العزيز؟ قال الملك: إن كلامكم صحيح، ولكن هذا رجل غريب فقير، وإكرامه واجب علينا، فإنه عمل في مدينتنا هذا الحمّام الذي عمرنا ما رأينا مثله، ولا تزيّنت مدينتنا وصار لها شأن إلا به، فإذا أكرمناه بزيادة الأجرة ما هو كثير. فقالوا: إذا كنتَ تكرمه فأكرمه من مالك، وإكرام الفقير من الملك بقلة أجرة الحمّام لأجل أن تدعو لك الرعية، وأما الألف دينار فنحن أكابر دولتك ولا تسمح أنفسنا بإعطائها، فكيف تسمح بذلك نفوس الفقراء؟ فقال الملك: يا أكابر دولتي، كلُّ منكم يعطيه في هذه المرة مائة دينار ومملوكًا وجارية وعبداً. فقالوا: نعم نعطيه ذلك، ولكن بعد هذا اليوم كلُّ من دخل لا يعطيه إلا ما تسمح به نفسه. فقال: لا بأس بذلك. فجعل الأكابر يعطيه كلُّ واحدٍ منهم مائة دينار وجارية ومملوكًا وعبداً، وكان عدد الأكابر الذين اغتسلوا مع الملك في هذا اليوم أربعمائة نفس. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكّنتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان عدد الأكابر الذين اغتسلوا مع الملك في ذلك اليوم أربعمئة نفس، فصار جملة ما أعطوه من الدنانير أربعين ألف دينار، ومن الممالك أربعمئة مملوك، ومن العبيد أربعمئة عبد، ومن الجواري أربعمئة جارية، وناهيك بهذه العطية، وأعطاه الملك عشرة آلاف دينار، وعشرة ممالك، وعشر جواري، وعشرة عبيد، فتقدّم أبو صير وقبّل الأرض بين أيادي الملك، وقال له: أيها الملك السعيد صاحب الرأي الرشيد، أي مكان يسعني بهذه الممالك والجواري والعبيد؟ فقال له الملك: أنا ما أمرت دولتي بذلك إلا لأجل أن تجمع لك مقدارًا عظيمًا من المال؛ لأنك ربما تفكّرت بلادك وعيالك، واشتقت إليهم وأردت السفر إلى أوطانك، فتكون أخذت من بلادنا مقدارًا جسيمًا من المال تستعين به على وقتك في بلادك. قال: يا ملك الزمان أعزّك الله، إن هذه الممالك والجواري والعبيد الكثيرة شأن الملوّك، ولو كنت أمرت لي بمال نقد لكان خيرًا لي من هذا الجيش، فإنهم يأكلون ويشربون ويلبسون، ومهما حصّلت من المال لا يكفيهم في الإنفاق عليهم. فضحك الملك وقال: والله إنك قد صدقت، فإنهم صاروا عسكريًا جرّارًا، وأنت ليس لك مقدرة على الإنفاق عليهم، ولكن أتبيعهم لي كلّ واحد بمائة دينار؟ فقال: بعتك إياهم بهذا الثمن. فأرسل الملك إلى الخازن دار ليحضر له المال، فأحضره وأعطاه ثمن الجميع بالتمام والكمال، ثم بعد ذلك أنعم بهم على أصحابهم، وقال: كلّ من يعرف عبده أو جاريته أو مملوكه، فليأخذه فإنهم هدية إليكم. فامتثلوا أمر الملك وأخذ كلّ واحد منهم ما يخصّه، فقال له أبو صير: أراحك الله يا ملك الزمان كما أرحتني من هؤلاء الغيلان، الذين لا يقدر أن يُشبعهم إلا الله. فضحك الملك من كلامه وصدّق عليه، ثم أخذ أكابر دولته وذهب من الحمام إلى سرايته، وبات تلك الليلة أبو صير وهو يصرد الذهب ويضعه في الأكياس ويختم عليه، وكان عنده عشرون عبدًا وعشرون مملوكًا وأربع جوارٍ برسم

الخدمة، فلما أصبح الصباح فتح الحمام وأرسل منادياً ينادي ويقول: كلُّ مَنْ دخل الحمام واغتسل، فإنه يعطي ما تسمح به نفسه وما تقتضيه مروءته. وقعد أبو صير عند الصندوق وهجمت عليه الزبائن، وصار كلُّ مَنْ طلع يحطُّ الذي يهون عليه، فما أمسى المساء حتى امتلأ الصندوق من خير الله تعالى.

ثم إن الملكة طلبت دخول الحمام، فلما بلغ أبا صير ذلك، قسم النهار من أجلها قسمين، وجعل من الفجر إلى الظهر قسم الرجال، ومن الظهر إلى المغرب قسم النساء، ولما أتت الملكة أوقف جارية خلف الصندوق، وكان علم أربع جوارٍ البلانة حتى صرن بلانات ماهرات، فلما دخلت الملكة أعجبها ذلك وانشرح صدرها، وحطت ألف دينار، وشاع ذكره في المدينة، وصار كلُّ مَنْ دخل يُكرمه سواء كان غنياً أو فقيراً، فدخل عليه الخير من كل باب، وتعرّف بأعوان الملك، وصار له أصحاب وأحباب، وصار الملك يأتي إليه في الجمعة يوماً ويعطيه ألف دينار، وبقية أيام الجمعة للأكابر والفقراء، وصار يأخذ بخاطر الناس ويلطفهم غاية الملاطفة، فاتفق أن قبطان الملك دخل عليه في الحمام يوماً من الأيام، فقلع أبو صير ودخل معه وصار يكبسه ولاطفه ملاطفة زائدة، ولما خرج من الحمام عمل له الشربات والقهوة، فلما أراد أن يعطيه شيئاً حلف أنه لا يأخذ منه شيئاً، فحمل القبطان جميله لما رأى من مزيد لطفه به وإحسانه إليه، وصار متحيراً فيما يهديه إلى ذلك الحمامي في نظير إكرامه له.

هذا ما كان من أمر أبي صير، وأما ما كان من أمر أبي قير، فإنه سمع جميع الخلائق يلهجون بذكر الحمام، وكلُّ منهم يقول: إن هذا الحمام نعيم الدنيا بلا شك، إن شاء الله يا فلان تدخل بنا غداً هذا الحمام النفيس. فقال أبو قير في نفسه: لا بد أن أروح مثل الناس، وأنظر هذا الحمام الذي أخذ عقول الناس. ثم إنه لبس أفخر ما كان عنده من الملابس، وركب بغلة وأخذ معه أربعة عبيد وأربعة مماليك يمشون خلفه وقدامه، وتوجّه إلى الحمام، ثم إنه نزل في باب الحمام، فلما صار عند الباب شم رائحة العود والند، ورأى ناساً داخلين وناساً خارجين، ورأى المساطب ملانة من الأكابر والأصاغر، فدخل الدهليز فرآه أبو صير، فقام إليه وفرح به، فقال له أبو قير: هل هذا شرط أولاد الحلال؟ وأنا فتحت لي مصبغة وبقيت معلّم البلد، وتعرّفت بالملك وصرّت في سعادة وسيادة، وأنت لا تأتي عندي ولا تسأل عني، ولا تقول أين رفيقي؟ وأنا عجزت وأنا أفتش عليك وأبعث عبيدي ومماليك يفتشون عليك في الخانات وفي سائر الأماكن، فلا يعرفون طريقك، ولا أحد يخبرهم بخبرك. فقال له أبو صير: أماً جئت إليك وجعلتني لصاً وضربتني وهتكتني

بين الناس؟ فاغتمَّ أبو قير وقال: أي شيء هذا الكلام؟ هل هو أنت الذي ضربتك؟ فقال أبو صير: نعم هو أنا. فحلف له أبو قير ألف يمين أنه ما عرفه، وقال: إنما كان واحد شبّيهك يأتي في كلِّ يوم ويسرق قماشَ الناس، فظننتُ أنك هو. وصار يتنَدَّم ويضرب كفًّا على كفٍّ ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قد أسأناك، ولكن يا ليتك عرّفتني بنفسك وقلتَ أنا فلان، فالعيب عندك لكونك لم تعرّفني بنفسك، خصوصًا وأنا مدهوش من كثرة الأشغال. فقال له أبو صير: سامحك الله يا رفيقي، وهذا الشيء كان مقدّرًا في الغيب والجبر على الله، ادخل اقلع ثيابك واغتسل وانبسط. فقال له: بالله عليك أن تسامحني يا أخي. فقال له: أبرأ الله ذمتك وسامحك، فإنه كان أمرًا مقدّرًا عليّ في الأزل. ثم قال له أبو قير: ومن أين لك هذه السيادة؟ فقال له: الذي فتح عليك فتح عليّ، فإنني طلعتُ إلى الملك وأخبرته بشأن الحمّام، فأمر لي ببنائه. فقال له أبو قير: وكما أنك معرفة الملك فأنا الآخر معرفته. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا قير لما تعاتب هو وأبو صير قال له: كما أنت معرفة الملك أنا الآخر معرفته، وإن شاء الله تعالى أنا أخليه يحبك ويكرمك زيادةً على هذا الإكرام من أجلي، فإنه لم يعرف أنك رفيقي، فأنا أعرفه بأنك رفيقي وأوصيه عليك. فقال له: ما أحتاج إلى وصية، فإن المحن موجود، وقد أحببني الملك هو وجميع دولته، وأعطاني كذا وكذا وأخبره بالخبر. ثم قال له: اقلع ثيابك خلف الصندوق وادخل الحمام، وأنا أدخل معك لأجل أن أكبّسك. فخلع ما عليه ودخل الحمام ودخل معه أبو صير وكبّسه وصبّنه وألبسه واشتغل به حتى خرج، فلما خرج أحضر له الغداء والشربات، وصار جميع الناس يتعجبون من كثرة إكرامه له، ثم بعد ذلك أراد أبو قير أن يعطيه شيئاً، فحلف أنه لا يأخذ منه شيئاً وقال له: استح من هذا الأمر وأنت رفيقي وليس بيننا فرق. ثم إن أبا قير قال لأبي صير: يا رفيقي، والله إن هذا الحمام عظيم، ولكن صنعتك فيه ناقصة. فقال له: وما نقصها؟ فقال له: الدواء الذي هو عقد الزرنخ والجير الذي يزيل الشعر بسهولة، فاعمل هذا الدواء، فإذا أتى الملك فقدّمه إليه وعلمه كيف يسقط به الشعر، فيحبك حباً شديداً ويكرمك. فقال له: صدقت، إن شاء الله أصنع ذلك. ثم إن أبا قير خرج وركب بغلته وذهب إلى الملك ودخل عليه وقال له: أنا ناصح لك يا ملك الزمان. فقال له: وما نصيحتك؟ فقال: بلغني خبر وهو أنك بنيت حماماً. قال: نعم، قد أتاني رجل غريب فأنشأته له كما أنشأت لك هذه المصبغة، وهو حمام عظيم، وقد تزيّنت مدينتي به. وصار يذكر له محاسن ذلك الحمام، فقال له أبو قير: وهل دخلته؟ قال: نعم. قال: الحمد لله الذي نجّك من شرّ هذا الخبيث عدو الدين وهو الحمامي. فقال له الملك: وما شأنه؟ قال أبو قير: اعلم يا ملك الزمان أنك إن دخلته بعد هذا اليوم فإنك تهلك. فقال له: لأي شيء؟ فقال له: إن الحمامي عدوك وعدو الدين، فإنه ما حملك على إنشاء هذا الحمام إلا لأن

مراده أن يُدخِل عليك فيه السمَّ، فإنه صنع لك شيئاً، وإذا دخلته يأتيك به ويقول لك: هذا دواءٌ، كلُّ مَنْ دهن به تحته يرمي الشعر منه بسهولة، وليس هو بدواء بل هو داء عظيم وسمٌّ قاتل، وإن هذا الخبيث قد وعده سلطان النصارى أنه إن قَتَلَ يَفُكُّ له زوجته وأولاده من الأسر، فإن زوجته وأولاده مأسورون عند سلطان النصارى، وكنتُ مأسوراً معه في بلادهم، ولكن أنا فتحتُ مصبغةً وصبغت لهم ألواناً فاستعطفوا عليَّ قلبَ الملك، فقال لي الملك: أي شيء تطلب؟ فطلبتُ منه العتق، فأعتقني وجئتُ إلى هذه المدينة ورأيتُهُ في الحَمَّام، فسألته وقلتُ له: كيف كان خلاصك وخلاص زوجتك وأولادك؟ فقال: لم أَزَلْ أنا وزوجتي وأولادي مأسورين، حتى إنَّ ملك النصارى عمل ديواناً، فحضرتُ في جملة مَنْ حضر وكنتُ واقفاً من جملة الناس، فسمعتهم فتحوا مذاكرة الملوك إلى أن ذكروا ملك هذه المدينة، فتأوَّه ملك النصارى وقال: ما قهرني في الدنيا إلا ملك المدينة الفلانية، فكلُّ مَنْ تحيَّل لي على قتله، فإنني أعطيه كلَّ ما يتمنى. فتقدَّمتُ أنا إليه وقلتُ له: إذا تحيَّلتُ لك على قتله هل تعتقني أنا وزوجتي وأولادي؟ فقال لي: نعم، أعتقكم وأعطيك كلَّ ما تتمنى. ثم إنني اتفقتُ أنا وإياه على ذلك، وأرسلني في غليون إلى هذه المدينة، وطلعت إلى هذا الملك فبنى لي هذا الحَمَّامَ، وما بقي عليَّ إلا أن أَقتله وأروح إلى ملك النصارى وأفدي أولادي وزوجتي وأتمنى عليه. فقلتُ: وما الحيلة التي دبَّرتها في قتله حتى تقتله؟ قال لي: هي حيلة سهلة أسهل ما يكون، فإنه يأتي إليَّ في هذا الحمام، وقد اصطنعتُ له شيئاً فيه سمٌّ، فإذا جاء أقول له: خذ هذا الدواء وادهن به تحتك، فإنه يُسقط الشعر. فيأخذه ويدهن به تحته فيلعب السمُّ فيه يوماً وليلة، حتى يسري إلى قلبه فيهلكه والسلام. فلما سمعتُ منه هذا الكلام خفتُ عليك؛ لأن خيرك عليَّ، وقد أخبرتكُ بذلك.

فلما سمع الملك هذا الكلام غضب غضباً شديداً وقال للصباغ: اكنم هذا السر. ثم طلب الرواح إلى الحَمَّام حتى يقطع الشك باليقين، فلما دخل الملك الحَمَّام تعرَّى أبو صير على جري عاداته، وتقيَّد بالملك وكبَّسه، وبعد ذلك قال له: يا ملك الزمان، إنني عملتُ دواءً لتنظيف الشعر التحتاني. فقال له: أحضره لي. فأحضره بين يديه فرأى رائحته كريهة، فصَحَّ عنده أنه سمٌّ، فغضب وصاح على الأعوان وقال: أمسكوه. فقبض عليه الأعوان وخرج الملك وهو ممتزج بالغضب، ولا أحد يعرف سبب غضبه، ومن شدة غضب الملك لم يخبر أحداً ولم يتجاسر أحدٌ على أن يسأله. ثم إنه لبس وطلع الديوان، ثم أحضرَ أبا صير بين يديه وهو مكتفٌ، ثم طلب القبطان فحضر، فلما حضر القبطان قال له الملك: خذ هذا الخبيث وحطّه في زكبية، وحط في الزكبية قنطارين جيّراً من غير طفي، واربط فمها عليه

هو والجير، ثم وضعها في الزورق وتعال تحت قصري، فتراني جالسًا في شبّاكه، وقُل لي: هل أرميه؟ فأقول لك: ارمه. فإذا قلتُ لك ذلك فازمِه حتى ينطفئ الجير عليه لأجل أن يموت غريقًا حريقًا. فقال: سمعًا وطاعة. ثم أخذَه من قدام الملك إلى جزيرة قُبَالَ قصر الملك، وقال لأبي صير: يا هذا، أنا جئتُ عندك مرة واحدة في الحَمَام فأكرمتني، وقمت بواجبي وانبسطت منك كثيرًا، وحلفتُ أنك لم تأخذ مني أجرة، وأنا قد أحببتُك محبةً شديدةً، فأخبرني ما قضيتك مع الملك؟ وأي شيء صنعتَ معه من المكاره حتى غضب عليك وأمرني أن تموت هذه الموتة الرديئة؟ فقال له: والله ما عملتُ شيئًا، وليس عندي علم بذنبٍ فعلتهُ معه يستوجب هذا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القبطان لما سأل أبا صير عن سبب غضب الملك عليه، قال له: والله يا أخي ما عملتُ معه شيئاً قبيحاً يستوجب هذا. فقال له القبطان: إنَّ لك عند الملك مقامًا عظيمًا ما ناله أحدٌ قبلك، وكل ذي نعمة محسود، فلعل أحدًا حسدك على هذه النعمة ورمى في حقِّك بعضَ كلامٍ عند الملك، حتى إن الملك غضب عليك هذا الغضب، ولكن مرحبًا بك وما عليك من بأس، فكما أنك أكرمتني من غير معرفةٍ بيني وبينك، فأنا أخلصك، ولكن إذا خلصتُك تقيم عندي في هذه الجزيرة حتى يسافر من هذه المدينة غليون إلى ناحية بلادك، فأرسلك معه. فقبلَ أبو صير يدَ القبطان وشكره على ذلك، ثم إنه أحضر الجيرَ ووضع في زكية ووضع فيها حجرًا كبيرًا قدر الرجل، وقال: توكلتُ على الله. ثم إن القبطان أعطى أبا صير شبكةً وقال له: ارمِ هذه الشبكةَ في البحر لعلك تصطاد شيئًا من السمك؛ لأن سمك مطبخ الملك مرتَّب عليَّ في كل يوم، وقد اشتغلتُ عن الصيد بهذه المصيبة التي أصابتك، فأخاف أن تأتي غلمان الطباخ ليطلبوا السمك فلا يجدوه، فإن كنتَ تصطاد شيئًا فإنهم يجدونه حتى أروح أعمل الحيلة تحت القصر، وأجعل أنني رميتك. فقال له أبو صير: أنا أصطاد ورُخ أنت والله يعينك. فوضع الزكية في الزورق، وسار إلى أن وصل تحت القصر، فرأى الملك جالسًا في الشباك، فقال: يا ملك الزمان هل أرميه؟ فقال له: ارمه. وأشار بيده، وإذا بشيء برق، ثم سقط في البحر، وإذا بالذي سقط في البحر خاتم الملك، وكان مرصودًا بحيث إذا غضب الملك على أحدٍ وأراد قتله يشير عليه باليد اليمنى التي فيها الخاتم، فيخرج من الخاتم بارقة فتصيب الذي يشير عليه، فيقع رأسه من بين كتفيه، وما أطاعته العساكر ولا قهر الجبابرة إلا بسبب هذا الخاتم، فلما وقع الخاتم من إصبعه كتم أمره ولم يقدر أن يقول خاتمي وقع في البحر؛ خوفًا من العسكر أن يقوموا عليه فيقتلوه، فسكتَ.

هذا ما كان من أمر الملك، وأما ما كان من أمر أبي صير، فإنه بعد ذهاب القبطان أخذ الشبكة وطرحها في البحر وسحبها، فطلعت ملآنة سمكاً، ثم طرحها ثانية فطلعت ملآنة سمكاً أيضاً، ولم يزل يطرحها وهي تطلع ملآنة سمكاً حتى صار قدامه كوم كبير من السمك. فقال في نفسه: والله إن لي مدة طويلة ما أكلت السمك. ثم إنه نَقَى له سمكة كبيرة سمينّة وقال: لما يأتي القبطان أقول له يقلي لي هذه السمكة لأتغذّى بها. ثم إنه ذبحها بسكين كانت معه، فعلقت السكين في نخشوشها، فرأى خاتم الملك فيه؛ لأنها كانت ابتلعته، ثم ساقته القدرة إلى تلك الجزيرة، ووقعت في الشبكة، فأخذ الخاتم ولبسه في خنصره وهو لا يعلم ما فيه من الخواص، وإذا بغلامين من خدام الطباخ أتيا لطلب السمك، فلما صارا عند أبي صير قالاً: يا رجل، أين راح القبطان؟ فقال: لا أدري. وأشار بيده اليمنى، وإذا برأسي الغلامين وقعا من بين أكتافهما حين أشار إليهما وقال: لا أدري. فتعجب أبو صير من ذلك وجعل يقول: يا ترى من قتلتهما؟ وصعباً عليه وصار يتفكر في ذلك، وإذا بالقبطان أقبل فرأى كوماً كبيراً من السمك، ورأى الاثنين مقتولين، ورأى الخاتم في إصبع أبي صير، فقال له: يا أخي، لا تحرك يدك التي فيها الخاتم، فإنك إن حرّكتها قتلتني. فتعجب من قوله لا تحرك يدك التي فيها الخاتم، لأنك إن حرّكتها قتلتني، فلما وصل له القبطان قال: من قتل هذين الغلامين؟ قال له أبو صير: والله يا أخي لا أدري. قال: صدقت، ولكن أخبرني عن هذا الخاتم من أين وصل إليك؟ قال: رأيته في نخشوش هذه السمكة. قال: صدقت، فإني رأيته نازلاً يبرق من قصر الملك حتى سقط في البحر وقت أن أشار إليك وقال لي: ارمه. فإنه لما أشار رميت الزكية، وكان سقط من إصبعه ووقع في البحر فابتلعته هذه السمكة، وساقها الله إليك حتى اصطدتها فهذا نصيبك، ولكن هل تعرف خواص هذا الخاتم؟ قال أبو صير: لا أدري له خواص. فقال القبطان: اعلم أن عسكر ملكنا ما أطاعوه إلا خوفاً من هذا الخاتم؛ لأنه مرصود، فإذا غضب الملك على أحد وأراد قتله، يشير به عليه فيقع رأسه من بين كتفيه، فإن بارقة تخرج من هذا الخاتم ويتصل شعاعها بالمغضوب عليه فيموت لوقته. فلما سمع أبو صير هذا الكلام فرح فرحاً شديداً، وقال للقبطان: ردني إلى المدينة. فقال له القبطان: أردك؛ فإني ما بقيت أخاف عليك من الملك، فإنك متى أشرت بيدك وأضمرت على قتله، فإن رأسه تقع بين يديك، ولو كنت تطلب قتل الملك وجميع العسكر فإنك تقتلهم من غير عاقبة. ثم أنزله في الزورق وتوجه به إلى المدينة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القبطان لما أنزل أبا صير في الزورق توجه به إلى المدينة، فلما وصل إليها طلع إلى قصر الملك، ثم دخل الديوان، فرأى الملك جالساً والعسكر بين يديه وهو في غمٍ عظيمٍ من شأن الخاتم، ولم يقدر أن يخبر أحداً من العسكر بضيايع الخاتم، فلما رآه الملك قال له: أمّا رميناك في البحر؟ كيف فعلت حتى خرجت منه؟ فقال له: يا ملك الزمان، لما أمرت برميي في البحر، أخذني قبطانك وسار بي إلى جزيرة، وسألني عن سبب غضبك عليّ وقال لي: أيّ شيء صنعت مع الملك حتى أمر بموتك؟ فقلت له: والله ما أعلم أنني عملت معه شيئاً قبيحاً. فقال لي: إنّ لك مقاماً عظيماً عند الملك، فلعل أحداً حسدك ورمى فيك كلاماً عند الملك حتى غضب عليك، ولكن أنا جئتُك في حمّامك فأكرمتني، ففي نظير إكرامك إياي في حمّامك أنا أخلصك وأرسلك إلى بلادك. ثم حطّ في الزورق حجراً عوضاً عني ورماه في البحر، ولكن حين أشرت له عليّ وقع الخاتم من يدك في البحر، فابتلغته سمكة وكنت أنا في الجزيرة أصطاد سمكاً، فطلعت تلك السمكة في جملة السمك، فأخذتها وأردت أن أشويها، فلما فتحت جوفها رأيت الخاتم فيه، فأخذته وجعلته في إصبعي، فأتاني اثنان من خدام المطبخ وطلباً السمك، فأشرت إليهما وأنا لا أدري خاصية الخاتم، فوقع رأسهما، ثم أتى القبطان فعرف الخاتم وهو في إصبعي، وأخبرني برصده، فأنيت به إليك؛ لأنك عملت معي معروفاً وأكرمتني غاية الإكرام، وما عملته معي من الجميل لم يضع عندي، وهذا خاتمك فخذّه وإن كنت فعلت معك شيئاً يُوجب القتل، فعرفني بذنبي واقتلني، وأنت في حلٍّ من دمي. ثم خلع الخاتم من إصبعه وناولَه للملك، فلما رأى الملك ما فعل أبو صير من الإحسان، أخذ الخاتم منه وتمتم به، ورُدّت له روحه، وقام على أقدامه واعتنق أبا صير، وقال: يا رجل، أنت من خواص أولاد الحلال، فلا تؤاخذني وسامحني ممّا صدر مني في حقك، ولو كان أحدٌ غيرك ملك هذا

الخاتم ما كان أعطاني إياه. فقال: يا ملك الزمان، إن أردت أن أسامحك فعزفني بذنبي الذي أوجب غضبك عليّ حتى أمرت بقتلي. فقال له: والله إنه ثبت عندي أنك بريء، وليس لك ذنب في شيء، حيث فعلت هذا الجميل، وإنما الصبّاغ قد قال لي كذا وكذا. وأخبره بما قاله الصبّاغ، فقال له أبو صير: والله يا ملك الزمان، أنا لا أعرف ملك النصارى ولا عمري رحت بلاد النصارى، ولا خطر ببالي أنني أقتلك، ولكن هذا الصبّاغ كان رفيقي وجاري في مدينة إسكندرية، وضاق بنا العيش هناك، فخرجنا منها لضيق المعاش وقرأنا مع بعضنا فاتحة على أن العامل يطعم البطال، وجرى لي معه كذا وكذا. وأخبره بجميع ما قد جرى له مع أبي قير الصبّاغ، وكيف أخذ دراهمه وفاته ضعيفاً في الحجرة التي في الخان، وأن ببواب الخان كان ينفق عليه وهو مريض حتى شفاه الله، ثم طلع وسرح في المدينة بعدته على العادة، فبينما هو في الطريق إذا رأى مصبغة عليها ازدحام، فنظر في باب المصبغة فرأى أبا قير جالساً على مصبغة هناك، فدخل ليسلم عليه، فوقع له منه ما وقع من الضرب والإساءة، وادّعى عليه أنه حرامي وضربه ضرباً مؤلماً. وأخبر الملك بجميع ما جرى له من أوله إلى آخره، ثم قال: يا ملك الزمان، هو الذي قال لي اعمل الدواء وقدمه للملك، فإن الحمّام كامل من جميع الأمور إلا أن هذا الدواء مفقود منه، واعلم يا ملك الزمان أن هذا الدواء لا يضر، ونحن نصنعه في بلادنا وهو من لوازم الحمّام، وأنا كنت نسيته، فلما أتاني الصبّاغ وأكرّمته ذكرني به وقال لي اعمل الدواء، وأرسل يا ملك الزمان هات ببواب الخان الفلاني وصنائعية المصبغة، وأسأل الجميع عما أخبرتك به. فأرسل الملك إلى ببواب الخان وإلى صنائعية المصبغة، فلما حضر الجميع سألهم فأخبروه بالواقع، فأرسل إلى الصبّاغ وقال: هاتوه حافياً مكشوف الرأس مكثفاً، وكان الصبّاغ جالساً في بيته مسروراً بقتل أبي صير، فلم يشعر إلا وأعوان الملك هجموا عليه وأوقعوا الضرب في قفاه، ثم كتّفوه وحضروا به قدام الملك، فرأى أبا صير جالساً في جنب الملك وببواب الخان وصنائعية المصبغة واقفين أمامه، فقال له ببواب الخان: أما هذا رفيقك الذي سرقت دراهمه وتركته عندي في الحجرة ضعيفاً، وفعلت معه ما هو كذا وكذا. وقال له صنائعية المصبغة: أما هذا الذي أمرتنا بالقبض عليه وضربناه؟ فتبيّن للملك قباحة أبي قير، وأنه يستحق ما هو أشد من تشديد منكر ونكير، فقال الملك: خذوه وجرّسوه في المدينة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما سمع كلام بواب الخان وصنائعية المصبغة تحقّق عنده خبث أبي قير، فأقام عليه النكير، وقال لأعوانه: خذوه وجرّسوه في المدينة وحطّوه في زكية وارموه في البحر. فقال أبو صير: يا ملك الزمان، شفّعني فيه، فإنني سامحتّه من جميع ما فعل بي. فقال الملك: إن كنت سامحتّه في حقك، فأنا لا يمكن أن أسامحه في حقي. ثم صاح وقال: خذوه وجرّسوه. وبعد ذلك وضعوه في زكية ووضعوا معه الجير ورموه في البحر، فمات غريقاً حريقاً، وقال الملك: يا أبا صير تمنّ عليّ تعط. قال له: تمنّيتُ عليك أن تُرسلني إلى بلادي، فإنني ما بقي لي رغبة في القعود ها هنا. فأعطاه شيئاً كثيراً زيادة على ماله ونواله ومواهبه، ثم أنعم عليه بغليون مشحون بالخيرات، وكان بحريته ممالك، فوهبهم له أيضاً، بعد أن عرض عليه أن يجعله وزيراً فما رضي، ثم ودّع الملك وسافرَ وجميع ما في الغليون ملكه، حتى النواتية ممالكه، وما زال سائراً حتى وصل إلى أرض إسكندرية، ورسوا على جانب إسكندرية وخرجوا إلى البر، فرأى مملوكاً من ممالكه زكية في جانب البر، فقال: يا سيدي، إن في جنب شاطئ البحر زكية كبيرة ثقيلة، وفمها مربوط، ولا أدري ما فيها. فأتى أبو صير وفتّحها، فرأى فيها أبا قير قد دفّعه البحر إلى جهة إسكندرية، فأخرجه ودفنه بالقرب من إسكندرية، وعمل له مزاراً ووقف عليه أوقافاً، وكتب على باب الضريح هذه الأبيات:

وَفَعَائِلُ الْحُرِّ الْكَرِيمِ كَأَصْلِهِ	الْمَرْءُ يُعْرِفُ فِي الْأَنَامِ بِفِعْلِهِ
مَنْ قَالَ شَيْئاً قِيلَ فِيهِ بِمَثْلِهِ	لَا تَسْتَغِبُ فَتَسْتَغَابَ فَرُبَّمَا
مَا دُمْتَ فِي جِدِّ الْكَلَامِ وَهَزْلِهِ	وَتَجَنَّبِ الْفَحْشَاءَ لَا تَنْطِقْ بِهَا

فَالْكَلْبُ إِنْ حَفِظَ الْمَكَارِمَ يُفْتَنَى وَغَدَا الْهَزْبُ مُسْلَسَلًا مِنْ جَهْلِهِ
وَالْبَحْرُ تَعْلُو فَوْقَهُ حَيْفُ الْفَلَا وَالْدُّرُّ مَنْبُودٌ بِأَسْفَلِ رَمْلِهِ
مَا كَانَ عُصْفُورٌ يُزَاجِمُ بِأَشَقًّا إِلَّا لَطِيشَتِهِ وَخَفَّةِ عَقْلِهِ
فِي الْجَوِّ مَكْتُوبٌ عَلَى صُحُفِ الْهُوَى مَنْ يَفْعَلِ الْمَعْرُوفَ فَازَ بِمِثْلِهِ
إِيَّاكَ تَجْنِي سَكْرًا مِنْ حَنْظَلٍ فَالْشَّيْءُ يَرْجِعُ فِي الْمَذَاقِ لِأَصْلِهِ

ثم إن أبا صير أقام مدةً وتوفاه الله، فدفنوه بجوار قبر رفيقه أبي قير، ومن أجل ذلك سُمي هذا المكان بأبي قير وأبي صير، واشتهر الآن بأنه أبو قير، وهذا ما بلغنا من حكايتهما، فسبحان الباقي على الدوام، وبإرادته تصرف الليالي والأيام.

حكاية عبد الله البحري وعبد الله البري

ومما يُحكى أيضًا أنه كان رجلٌ صيَّاد اسمه عبد الله، وكان كثيرَ العيال، وله تسعة أولاد وأمه، وكان فقيرًا جدًّا لا يملك إلا الشبكة، وكان يروح كلَّ يومٍ إلى البحر ليصطاد، فإذا اصطاد قليلًا يبيعه وينفقه على أولاده بقدر ما رزقه الله، وإن اصطاد كثيرًا يطبخ طبخةً طيبةً ويأخذ فاكهةً، ولم يزل يصرفه حتى لا يبقى معه شيءٌ ويقول في نفسه: رزق غدٍ يأتي في غدٍ. فلما وضعت زوجته صاروا عشرة أشخاص، وكان الرجل في ذلك اليوم لا يملك شيئًا أبدًا، فقالت له زوجته: يا سيدي، انظر لي شيئًا أتقوت به. فقال لها: ها أنا سارح على بركة الله تعالى إلى البحر في هذا اليوم على بخت هذا المولود الجديد، حتى ننظر سعه. فقالت له: توكلَّ على الله. فأخذ الشبكة وتوجَّه إلى البحر، ثم إنه رمى الشبكة على بخت ذلك الطفل الصغير وقال: اللهم اجعل رزقه يسيرًا غير عسير، وكثيرًا غير قليل. وصبر عليها مدةً ثم سحبها، فخرجت ممتلئةً عفشًا ورملاً وحصىً وحشيشًا، ولم يَرَ فيها شيئًا من السمك لا كثيرًا ولا قليلًا، فرماها ثاني مرة وصبر عليها، ثم سحبها فلم يَرَ فيها سمكًا، فرمى ثالثًا ورابعًا وخامسًا فلم يطلع فيها سمك، فانتقل إلى مكان آخر وجعل يطلب رزقه من الله تعالى، ولم يزل على هذه الحالة إلى آخر النهار، فلم يصطد ولا صيرة، فعتجَبَ في نفسه وقال: هل هذا المولود خلقه الله تعالى من غير رزقٍ؟ فهذا لا يكون أبدًا؛ لأن الذي شقَّ الأشداق تكفَّلَ لها بالأرزاق، فالله تعالى كريم رزاق. ثم إنه حمل الشبكة ورجع مكسورَ خاطر وقلبه مشغول بعياله، فإنه تركهم بغير أكل ولا سيما زوجته نفسها، وما زال يمشي وهو يقول في نفسه: كيف العمل؟ وماذا أقول للأولاد في هذه الليلة؟

ثم إنه وصل قدام فرن خَبَّاز، فرأى عليه زحمة، وكان الوقت وقت غلاء، وفي تلك الأيام لا يوجد عند الناس من المئونة إلا قليل، والناس يعرضون الفلوس على الخباز وهو لا ينتبه لأحد منهم من كثرة الزحام، فوقف ينظر ويشمُّ رائحة العيش السخن، فصارت نفسه تشتهيهِ من الجوع، فنظر إليه الخبَّاز وصاح عليه وقال: تعال يا صياد. فتقدَّم إليه، فقال له: أتريد عيشًا؟ فسكَّت، فقال له: تكلمْ ولا تستحِ فإِنَّه كريم، إن لم يكن معك دراهم فأنا أعطيك وأصبر عليك حتى يجيئك الخيرُ. فقال له: يا معلم، ما معي دراهم، لكن أعطني عيشًا كفايةً عيالي وارهن عندك هذه الشبكة إلى غدٍ. فقال له: يا مسكين، إن هذه الشبكة دكانك وباب رزقك، فإذا رهنتها بأي شيء تصطاد؟ فأخبرني بالقدر الذي يكفيك. قال: بعشرة أنصاف فضة. فأعطاه خبزًا بعشرة أنصاف، ثم أعطاه عشرة أنصاف فضة وقال له: خذْ هذه العشرة أنصاف واطبخ لك بها طبخة، فيبقى عندك عشرون نصفَ فضة، وفي غدِ هات لي بها سمكًا، وإنْ لم يحصل لك شيء تعالَ خذ عيشك وعشرة أنصاف، وأنا أصبر عليك حتى يأتيك الخير. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخباز قال للصياد: خذ ما تحتاج إليه وأنا أصبر عليك حتى يأتيك الخير، وبعد ذلك هات بما أستحقه عندك سمكًا. فقال له: آجرك الله تعالى وجزاك عني كل خير. ثم أخذ العيشَ والعشرة أنصاف فضة وراح مسرورًا، واشترى له ما تيسَّر ودخل على زوجته، فرأها قاعدة تأخذ بخاطر الأولاد وهم يبكون من الجوع وتقول لهم: في هذا الوقت يأتي أبوكم بما تأكلونه. فلما دخل عليهم حطَّ لهم العيش، فأكلوا وأخبر زوجته بما حصل له، فقالت له: الله كريم. وفي ثاني يوم حمل شبكته وخرج من داره وهو يقول: أسألك يا رب أن ترزقني في هذا اليوم بما يبيِّض وجهي مع الخباز. فلما وصل إلى البحر صار يطرح الشبكة ويجذبها، فلم يخرج فيها سمك، ولم يزل كذلك إلى آخر النهار ولم يحصل شيء، فرجع وهو في غمٍّ عظيم، وكان طريق بيته على فرن الخباز، فقال في نفسه: من أين أروح إلى داري؟ ولكنَّ أُسرِع خطاي حتى لا يراني الخباز. فلما وصل إلى فرن الخباز رأى زحمة، فأسرَعَ في المشي من حيائه من الخباز حتى لا يراه، وإذا بالخباز وقع بصره عليه فصاح وقال: يا صياد، تعال خذ عيشك ومصروفك، فإنك نسيت. قال: لا والله ما نسيت، وإنما استحييتُ منك، فإنني لم أصطد سمكًا في هذا اليوم. فقال له: لا تستح، أما قلتُ لك على مهلك حتى يأتيك الخير؟ ثم أعطاه العيش والعشرة أنصاف وراح إلى زوجته وأخبرها بالخبر، فقالت له: الله كريم، إن شاء الله يأتيك الخير وتوفيه حقَّه. ولم يزل على هذه الحالة مدة أربعين يومًا، وهو في كل يوم يروح إلى البحر من طلوع الشمس إلى غروبها ويرجع بلا سمك، ويأخذ عيشًا ومصروفًا من الخباز، ولم يذكر له السمك يومًا من الأيام ولم يهمله مثل الناس، بل يعطيه العشرة أنصاف والعيش، وكلما يقول له: يا أخي حاسبني. يقول له: رُحْ ما هذا وقت الحساب حتى يأتيك الخير

فأحاسبك. فيدعو له ويذهب من عنده شاكرًا له، وفي اليوم الحادي والأربعين قال لامرأته: مرادي أن أقطع هذه الشبكة وأرتاح من هذه المعيشة. فقالت له: لأي شيء؟ قال لها: كأنَّ رزقي انقطعَ من البحر، فألى متى هذا الحال؟ والله إني ذبت حياءً من الخباز، فأنا ما بقيتُ أروح إلى البحر حتى لا أجوز على فرنه، فإنه ليس لي طريق إلا على فرنه، وكلما جزتُ عليه يناديني ويعطيني العيش والعشرة أنصاف، وإلى متى وأنا أتاين منه؟ قالت له: الحمد لله تعالى الذي عطف قلبه عليك فيعطيك القوت، وأي شيء تكره من هذا؟ قال: بقي له قدر عظيم من الدراهم، ولا بد أنه يطلب حقَّه. قالت له زوجته: هل أذاك بكلامٍ؟ قال: لا، ولم يرضَ أن يحاسبني ويقول لي: حتى يأتيك الخير. قالت: فإذا طالَبَكَ قُلْ له: حتى يأتي الخير الذي نرتجيه أنا وأنت. فقال لها: متى يجيء الخير الذي نرتجيه؟ قالت له: الله كريم. قال: صدقت.

ثم حمل شبكته وتوجَّه إلى البحر وهو يقول: يا رب ارزقني ولو بسمكة واحدة حتى أهديها إلى الخباز. ثم إنه رمى الشبكة في البحر ثم سحبها فوجدها ثقيلة، فما زال يعالج فيها حتى تعب تعبًا شديدًا، فلما أخرَجَها رأى فيها حمارًا ميتًا منفوخًا ورائحته كريهة، فسئمت نفسه، ثم خلَّصه من الشبكة وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قد عجزتُ وأنا أقول لهذه المرأة ما بقي لي رزق في البحر، دعيني أترك هذه الصنعة، وهي تقول لي الله كريم سيأتيك الخير، فهل هذا الحمار الميت هو الخير؟ ثم إنه حصل له غمٌّ شديدٌ، وتوجَّه إلى مكانٍ آخر ليبعد عن رائحة الحمار، وأخذ الشبكة ورمها وصبر عليها ساعة زمانية، ثم جذبها فراها ثقيلة، فلم يزل يعالج فيها حتى خرج الدم من كَفَّيْهِ، فلما أخرج الشبكة رأى فيها آدميًا، فظنَّ أنه عفريت من عفاريت السيد سليمان الذين كان يحبسهم في قماقم النحاس ويرميهم في البحر، فلما انكسر القمقم من طول السنين خرج منه ذلك العفريت وطلع في الشبكة، فهرب منه وصار يقول: الأمان الأمان يا عفريت سليمان. فصاح عليه الآدمي من داخل الشبكة وقال: تعال يا صياد لا تهرب مني، فأني آدمي مثلك، فخلَّصني لتنال أجري. فلما سمع كلامه الصياد اطمأنَّ قلبه وجاءه، وقال له: ما أنت عفريت من الجن؟ قال: لا، إنما أنا إنسيٌّ مؤمن بالله ورسوله. قال له: ومن رماك في البحر؟ قال له: أنا من أولاد البحر، كنت دائرًا فرميتُ عليَّ الشبكة، ونحن أقوام مطيعون لأحكام الله، ونشفق على خلق الله تعالى، ولولا أنني أخاف وأخشى أن أكون من العاصين لقطعتُ شبكتك، ولكن رضيتُ بما قدَّرَ الله عليَّ، وأنت إذا خلَّصتني تصير مالكا لي، وأنا أصير أسيرك، فهل لك أن تعتقني ابتغاء وجه الله تعالى، وتعاهدني وتبقى صاحبي؟

أجيئك كل يوم في هذا المكان وأنت تأتييني وتجيء لي معك بهدية من ثمار البر، فإن عندكم عنباً وتيناً وبطيخاً وخوخاً ورمّاناً وغير ذلك، وكل شيء تجيء به إليّ مقبول منك، ونحن عندنا مرجان ولؤلؤ وزبرجد وزمرد وياقوت وجواهر، فأنا أملأ لك المشنة التي تجيء لي فيها بالفاكهة معادن من جواهر البحر، فما تقول يا أخي في هذا الكلام؟ قال له الصياد: الفاتحة بيني وبينك على هذا الكلام. فقرأ كلُّ منهما الفاتحة وخلصه من الشبكة، ثم قال له الصياد: ما اسمك؟ قال: اسمي عبد الله البحري، فإذا أتيت إلى هذا المكان ولم ترني فنارٍ وقل: أين أنت يا عبد الله يا بحري؟ فأكون عندك في الحال. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله البحري قال له: إذا أتيت إلى هذا المكان ولم تَرَنِي فنادِ وقل: أين أنت يا عبد الله يا بحري؟ فأكون عندك في الحال. وأنت ما اسمك؟ فقال الصياد: اسمي عبد الله. قال: أنت عبد الله البري وأنا عبد الله البحري، فقف هنا حتى أروح وأتيك بهدية. فقال له: سمعاً وطاعة. فراح عبد الله البحري في البحر، فعند ذلك ندم عبد الله البري على كونه خلَّصه من الشبكة، وقال في نفسه: من أين أعرف أنه يرجع إليّ؟ وإنما هو ضحك عليّ حتى خلَّصته، ولو أبقيته كنتُ أفرِّج عليه الناس في المدينة وأخذ عليه الدراهم من جميع الناس وأدخل به بيوت الأكابر! فصار يتندَّم على إطلاقه ويقول لنفسه: راح صيدك من يدك! فبينما هو يتأسَّف على خلاصه من يده، وإذا بعبد الله البحري رجع إليه ويده مملوءتان لؤلؤاً ومرجاناً وزمرداً وياقوتاً وجواهر، وقال له: خُذْ يا أخي، ولا تؤاخذني؛ فإنه ما عندي مشنَّة كنت أملؤها لك. فعند ذلك فرَّح عبد الله البري وأخذ منه الجواهر وقال له: كل يوم تأتي إلى هذا المكان قبل طلوع الشمس. ثم ودَّعه وانصرف ودخل البحر. وأما الصياد فإنه دخل المدينة وهو فرحان، ولم يزل ماشياً حتى وصل إلى فرن الخبز، وقال له: يا أخي، قد أتانَا الخير فحاسبني. قال له: ما يحتاج إلى حساب، إن كان معك شيء فأعطني، وإن لم يكن معك شيء فخذ عيشك ومصروفك ورُحْ إلى أن يأتيك الخير. فقال له: يا صاحبي، قد أتانِي الخير من فيض الله، وقد بقي لك عندي جملة كثيرة، ولكن خذ هذا. وكَبَشَ له كبشة من لؤلؤ ومرجان وياقوت وجواهر، وكانت تلك الكبشة نصف ما معه، فأعطاهَا للخباز وقال له: أعطني شيئاً من المعاملة أصرفه في هذا اليوم حتى أبيع هذه المعادن. فأعطاه كل ما كان تحت يده من الدراهم وجميع ما في المشنَّة التي كانت عنده من الخبز. وفرح الخباز بتلك المعادن وقال للصياد: أنا عبدك وخدَّامك. وحمل جميع العيش الذي عنده على رأسه ومشى خلفه إلى البيت، فأعطى العيش



فلما أخرج الشبكة رأى فيها آدميًا، فظنَّ أنه عَفْرِيٌّ من العفاريت.

لزوجته وأولاده، ثم راح إلى السوق وجاء باللحم والخضار وسائر أصناف الفاكهة، وترك الفرن وأقام طول ذلك اليوم وهو يتعاطى خدمة عبد الله البري ويقضي له مصالحه. فقال له الصياد: يا أخي، أتعبت نفسك! قال له الخباز: هذا واجب عليّ؛ لأنني صرت خدّامك، وإحسانك قد غمرني. فقال له: أنت صاحب الإحسان عليّ في الضيق والغلاء. وبات معه تلك الليلة على أكل طيّب. ثم إن الخباز صار صديقًا للصياد، وأخبر زوجته بوقعته مع

عبد الله البحري، ففرحت وقالت له: اكنُمْ سَرَك لئلا تتسلَّط عليك الحَكَّام. فقال لها: إن كتمتُ سرِّي عن جميع الناس فلا أكنتمه عن الخباز.

ثم إنه أصبح في ثاني يوم وكان قد ملأ مشنة فاكهة من سائر الأصناف في وقت المساء، ثم حملها قبل الشمس وتوجَّه إلى البحر، وحطَّها على جنب الشاطئ، وقال: أين أنت يا عبد الله يا بحري؟ وإذا به يقول له: لبيك! وخرج إليه، فقدَّم له الفاكهة، فحملها ونزل بها وغطس في البحر، وغاب ساعة زمانية، ثم خرج ومعه المشنة ملائكة من جميع أصناف المعادن والجواهر، فحملها عبد الله البري على رأسه وذهب بها، فلما وصل إلى فرن الخباز قال له: يا سيدي، قد خبزتُ لك أربعين كَفَّ شريك وأرسلتها إلى بيتك، وها أنا أخبز العيش الخاص، فمتى خلص أوصله إلى البيت وأروح لأجيبك لك بالخضار واللحم. فكبش له من المشنة ثلاث كبشات، وأعطاه إياها وتوجَّه إلى البيت وحطَّ المشنة، وأخذ من كل صنف من أصناف الجواهر جوهرة نفيسة، ثم ذهب إلى سوق الجواهر ووقف على دكان شيخ السوق وقال: اشترِ مني هذه الجواهر. فقال له: أرني إياها. فأراه إياها، فقال له: هل عندك غير هذا؟ قال: عندي مشنة ممتلئة. قال: أين بيتك؟ قال له: في الحارة الفلانية. فأخذ منه الجواهر وقال لأتباعه: أمسكوه؛ فإنه هو الحرامي الذي سرق مصالح الملكة زوجة السلطان. ثم أمرهم أن يضربوه، فضربوه وكَتَّفُوهُ، وقام الشيخ هو وجميع أهل سوق الجواهر وصاروا يقولون: مسكنا الحرامي. وبعضهم يقول: ما سرق متاع فلان إلا هذا الخبيث. وبعضهم يقول: ما سرق جميع ما في بيت فلان إلا هو. وبعضهم يقول كذا، وبعضهم يقول كذا. كل ذلك وهو ساكت ولم يردَّ على أحد منهم جوابًا، ولم يُبَيِّدْ له خطابًا، حتى أوقفوه قدام الملك، فقال الشيخ: يا ملك الزمان، لما سُرِقَ عقد الملكة أرسلتَ أعلمتنا وطلبت منا وقوع الغريم، فاجتهدت أنا من دون الناس وأوقعت لك الغريم، وها هو بين يديك، وهذه الجواهر خلَّصناها من يده. فقال الملك للطواشي: خذ هذه المعادن وأرها للملكة، وقل لها: هل هذا متاعك الذي ضاع من عندك؟ فأخذها الطواشي ودخل بها قدام الملكة، فلما رأتها تعجَّبت منها وأرسلت تقول للملك: إني رأيت عقدي في مكاني، وهذا ما هو متاعي، ولكن هذه الجواهر أحسن من جواهر عقدي، فلا تظلم الرجل. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة الملك لما أرسلت تقول له: هذا ما هو متاعي، ولكن هذه الجواهر أحسن من جواهر عقدي، فلا تظلم الرجل، وإن كان يبيعها فاشترها منه لبنتك أم السعود؛ لنضعها لها في عقد. فلما رجع الطواشي وأخبر الملك بما قالته الملكة، لعن شيخ الجوهريّة هو وجماعته لعنة عاد وثمود، فقالوا: يا ملك الزمان، إنّنا كنا نعرف أن هذا الرجل صياد فقير، فاستكثرنا ذلك عليه، وقد ظننا أنه سرقها. فقال: يا قباء، أتستكثرون النعمة على مؤمن؟! فلائي شيء لم تسألوه؟ ربما رزقه الله تعالى بها من حيث لا يحاسب! فكيف تجعلونه حرامياً وتفضحونه بين العالم؟ اخرجوا، لا بارك الله فيكم! فخرجوا وهم خائفون.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر الملك، فإنه قال: يا رجل، بارك الله لك فيما أنعم به عليك، وعليك الأمان، ولكن أخبرني بالصحيح، من أين لك هذه الجواهر؟ فإني ملك ولا يوجد عندي مثلها. فقال: يا ملك الزمان، أنا عندي مشنة ممثلة منها، وهو أن الأمر كذا وكذا. وأخبره بصحبته لعبد الله البحري، وقال له: إنه قد صار بيني وبينه عهد على أنني كل يوم أملأ له المشنة فاكهة وهو يملؤها لي من هذه الجواهر. فقال له: يا رجل، هذا نصيبك، ولكن المال يحتاج إلى الجاه، فأنا أدفع عنك تسلط الناس عليك في هذه الأيام، ولكن ربما عزلت أو مت وتولى غيري، فإنه يقتلك من أجل حب الدنيا والطمع، فمرادي أن أزوجه ابنتي وأجعلك وزيري، وأوصي لك بالملك من بعدي حتى لا يطمع فيك أحد بعد موتي. ثم إن الملك قال: خذوا هذا الرجل وأدخلوه الحمام. فأخذوه وغسلوا جسده وألبسوه ثياباً من ثياب الملوك، وأخرجوه قدام الملك فجعله وزيراً له، وأرسل السعاة وأصحاب النوبة وجميع نساء الأكابر إلى بيته، فألبسوا زوجته ملابس نساء الملوك هي وأولادها، وأركبوها في تختروان، ومشيت قدامها جميع نساء الأكابر والعساكر والسعاة

وأصحاب النوبة، وأتوا بها إلى بيت الملك والطفل الصغير في حضنها، وأدخلوا أولادها الكبار على الملك، فأكرمهم وأخذهم على حجره، وأجلسهم في جانبه، وهم تسعة أولاد ذكور. وكان الملك معدوم الذُرِّيَّة، ما رُزق غير تلك البنت التي اسمها أم السعود. أما الملكة فإنها أكرمت زوجة عبد الله البري، وأنعمت عليها وجعلتها وزيرة عندها، وأمر الملك بكتب كتاب عبد الله البري على ابنته، وجعل مهرها جميع ما كان عنده من الجواهر والمعادن. وفتحوا باب الفرح، وأمر الملك أن يُنادى بزيينة المدينة من أجل فرح ابنته. وفي اليوم الثاني بعد أن دخل على بنت الملك وأزال بكارتها، طلَّ الملك من الشباك فرأى عبد الله حاملاً على رأسه مشنَّة ممتلئة فاكهة، فقال له: ما هذا الذي معك يا نسيبي؟ وإلى أين تذهب؟ فقال: إلى صاحبي عبد الله البحري. فقال له: يا نسيبي، ما هذا وقت الرواح إلى صاحبك! فقال: أخاف أن أخلف معه الميعاد فيُعَدَّنِي كَذَابًا ويقول لي: إن الدنيا ألهتكَ عني. قال: صدقت، رُحْ إلى صاحبك، أعانك الله. فمشى في البلد وهو متوجَّه إلى صاحبه، وكانت الناس قد عرفته، فصار يسمع الناس يقولون: هذا نسيب الملك رايح يبذل الأثمار بالجواهر. والذي يكون جاهلاً به ولا يعرفه يقول: يا رجل، بكم الرطل؟ تعالَ بعني. فيقول له: انتظرني حتى أرجع إليك. ولا يغمُّ أحداً. ثم راح واجتمع بعبد الله البحري وأعطاه الفاكهة، وأبدلها له بالجواهر.

ولم يزل على هذه الحالة، وفي كل يوم يمر على فرن الخباز فيراه مقفولاً، ودام على ذلك مدة عشرة أيام، فلما لم يَرَ الخباز ورأى فرنه مقفولاً قال في نفسه: إن هذا شيء عجيب! يا تَرَى أين راح الخباز؟! ثم إنه سأل جاره فقال له: يا أخي، أين جارك الخباز؟ فما فعل الله به؟ قال: يا سيدي، إنه مريض لا يخرج من بيته. قال له: أين بيته؟ قال له: في الحارة الفلانية. فعمد إليه وسأل عنه، فلما طرق الباب طلَّ الخباز من الطاقة فرأى صاحبه الصياد وعلى رأسه مشنَّة ممتلئة، فنزل إليه وفتح له الباب ورمى روحه عليه، وعانقه وقال له: كيف حالك يا صاحبي؟ فإني كلَّ يوم أمُرُّ على الفرن فأراه مقفولاً، ثم سألتُ جارك فأخبرني أنك مريض، فسألت عن البيت لأجل أن أراك. فقال له الخباز: جزاك الله عني كل خير، فليس بي مرض، وإنما بلغني أن الملك أخذك لأن بعض الناس كذب عليه وادَّعى أنك حرامي، فحَفْتُ أنا وقفلتُ الفرن واختفيت. قال: صدقت. ثم إنه أخبره بقصته وما وقع له مع الملك وشيخ سوق الجواهر، وقال: إن الملك قد زوَّجني ابنته وجعلني وزيره. ثم قال له: خذ ما في هذه المشنة نصيبك، ولا تحف. ثم خرج من عنده بعد أن أذهبَ عنه الخوف، وراح إلى الملك بالمشنة فارغة، فقال له الملك: يا نسيبي، كأنك

ما اجتمعت برفيقك عبد الله البحري في هذا اليوم! فقال: رحْتُ، والذي أعطاه لي أعطيته إلى صاحبي الخبَّاز؛ فَإِنَّ له عليَّ جميلًا. قال: مَنْ يكون هذا الخبَّاز؟ قال: إنه رجل صاحب معروف، وجري لي معه في أيام الفقر ما هو كذا وكذا، ولم يهملني يومًا ولا كسر خاطري. قال الملك: ما اسمه؟ قال: اسمه عبد الله الخبَّاز، وأنا اسمي عبد الله البري، وصاحبي اسمه عبد الله البحري. قال الملك: وأنا اسمي عبد الله، وعَبِيد الله كلهم إخوان، فَأَرْسَلُ إلى صاحبك الخبَّاز هاتِه لنجعله وزير مَيَسرة. فَأَرْسَلَ إليه، فلما حضر بين يَدَي الملك ألبسه بدلة وزير وجعله وزير المَيَسرة، وجعل عبد الله البري وزير المَيمنة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك جعل عبد الله البري نسيبه وزير الميمنة وعبد الله الخباز وزير الميسرة، واستمر عبد الله على تلك الحالة سنة كاملة، وهو في كل يوم يأخذ المشنة ممتلئة فاكهة ويرجع بها ممتلئة جواهر ومعادن، ولما فرغت الفواكه من البساتين صار يأخذ زيبياً ولوزاً وبندقاً وجوزاً وتيناً وغير ذلك، وجميع ما يأخذه له يقبله منه ويرد له المشنة ممتلئة جواهر على عادته، فاتفق يوماً من الأيام أنه أخذ المشنة ممتلئة نقلاً على عادته، فأخذها منه وجلس عبد الله البري على الشاطئ وجلس عبد الله البحري في الماء قرب الشاطئ، وصارا يتحدثان مع بعضهما، ويتداولان الكلام بينهما، حتى انجراً إلى ذكر المقابر، فقال البحري: يا أخي، إنهم يقولون إن النبي ﷺ مدفون عندكم في البر، فهل تعرف قبره؟ قال: نعم. قال له: في أي مكان هو؟ قال له: في مدينة يقال لها طيبة. قال: وهل تزوره الناس أهل البر؟ قال: نعم. قال: هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة هذا النبي الكريم الرؤوف الرحيم، الذي من زاره استوجب شفاعته. وهل أنت زرتة يا أخي؟ قال: لا؛ لأنني كنت فقيراً ولا أجد ما أنفقه في الطريق، وما استغنيت إلا من حين عرفتك وتصدقت عليّ بهذا الخير، ولكن قد وجبت عليّ زيارته بعد أن أحج بيت الله الحرام، وما منعني عن ذلك إلا محبتك؛ فإنني لا أقدر أن أفارقك يوماً واحداً. فقال له: وهل تُقدّم محبتي على زيارة قبر محمد ﷺ الذي يشفع فيك يوم العرض على الله، وينجيك من النار وتدخل الجنة بشفاعته؟ وهل من أجل حب الدنيا تترك زيارة قبر نبيك محمد ﷺ؟ فقال: لا والله، إن زيارته مقدّمة عندي على كل شيء، ولكن أريد منك إجازة أن أزوره في هذا العام. قال: أعطيك الإجازة بزيارته، وإذا وقفت على قبره فأقرئه مني السلام، وعندي أمانة، فادخل معي في البحر حتى آخذك إلى مدينتي وأدخلك بيتي وأضيّفك وأعطيك الأمانة لتضعها على قبر النبي ﷺ، وقال له: يا رسول الله، إن عبد الله البحري يُقرئك السلام، وقد أهدى إليك

هذه الهدية، وهو يرجو منك الشفاعة من النار. فقال له البري: يا أخي، أنت خُلِقت في الماء، ومسكنك الماء، وهو لا يضرك، فهل إذا خرجت منه إلى البر يحصل لك ضرر؟ قال: نعم، ينشف بدني، وتهب عليَّ نسمات البر فأموت. قال له: وأنا كذلك، خُلِقت في البر، ومسكني البر، فإذا دخلتُ البحر يدخل الماء في جوفي ويخنقني فأموت. قال له: لا تخَفُ من ذلك؛ فإنني آتيك بدهنٍ تدهن به جسمك، فلا يضرك الماء ولو كنتَ تقضي بقية عمرك وأنت دائر في البحر، وتنام وتقوم في البحر ولا يضرك شيء. قال: إذا كان الأمر كذلك فلا بأس، هاتِ لي الدهان حتى أجربّه. قال: وهو كذلك. ثم أخذ المشنة ونزل في البحر وغاب قليلاً، ثم رجع ومعه شحم مثل شحم البقر، لونه أصفر كلون الذهب، ورائحته زكية، فقال له عبد الله البري: ما هذا يا أخي؟ فقال له: هذا شحمٌ كبدِ صنفٍ من أصناف السمك يُقال له الدندان، وهو أعظم أصناف السمك خِلقة، وهو أشد أعدائنا علينا، وصورته أكبر صورة توجد عندكم من دواب البر، ولو رأى الجَمَل أو الفيل لابتَلَعَه. فقال له: يا أخي، وما يأكل هذا المشنوم؟ فقال له: يأكل من دواب البحر، أما سمعت أنه يقال في المثل: مثل سمك البحر القوي يأكل الضعيف؟! قال: صدقت، ولكن هل عندكم من هذا الدندان في البحر كثير؟ قال: عندنا شيء لا يحصيه إلا الله تعالى. قال عبد الله البري: إني أخاف إذا نزلت معك أن يصادفني هذا النوع فيأكلني. قال له عبد الله البحري: لا تخَفُ؛ فإنه متى رآك عرف أنك ابن آدم فيخاف منك ويهرب، ولا يخاف من أحد في البحر مثل ما يخاف من ابن آدم؛ لأنه متى أكل ابن آدم مات من وقته وساعته؛ فإن شحم ابن آدم سمٌّ قاتل لهذا النوع، ونحن ما نجمع شحم كبده إلا من أجل ابن آدم إذا وقع في البحر غريقاً، فإنه تتغيَّر صورته وربما تمزَّق لحمه فيأكله الدندان لظنّه أنه من حيوان البحر فيموت، فنعتثر به ميتاً فنأخذ شحم كبده وندهن به أجسامنا وندور في البحر، فأَي مكان كان فيه ابن آدم إذا كان فيه مائة أو مائتان أو ألف أو أكثر من ذلك النوع وسمعوا صيحة ابن آدم، فإن الجميع يموتون لوقتهم من صيحته مرةً واحدة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله البحري قال لعبد الله البري: وإذا سمع ألف من هذا النوع أو أكثر من ابن آدم صيحةً واحدة يموتون لوقتهم ولا يقدر أحدٌ منهم أن ينتقل من مكانه. فقال عبد الله البري: توكلت على الله. ثم قلع ما كان عليه من الملبوس، وحفر في شاطئ البحر ودفن ثيابه، وبعد ذلك دهن جسمه من فرقه إلى قدمه بهذا الدهن، ثم نزل في الماء وغطس وفتح عينيه فلم يضره الماء، فمشى يميناً وشمالاً، ثم جعل إن شاء يعلو وإن شاء ينزل إلى القرار، ورأى ماء البحر مخيماً عليه مثل الخيمة ولا يضره، فقال له عبد الله البحري: ماذا ترى يا أخي؟ قال له: أرى خيراً يا أخي، وقد صدقتَ فيما قلت؛ فإن الماء ما ضرني. قال له: اتبعني. فتبعه، وما زالا يمشيان من مكان إلى مكان وهو يرى أمامه وعن يمينه وعن شماله جبلاً من الماء، فصار يتفرج عليها وعلى أصناف السمك وهي تلعب في البحر، البعض كبير والبعض صغير، وفيه شيء يشبه الجاموس، وشيء يشبه البقر، وشيء يشبه الكلاب، وشيء يشبه الأدميين، وكل نوع قرب منه يهرب حين يرى عبد الله البري، فقال للبحري: يا أخي، ما لي أرى كل نوع قربنا منه يهرب منّا؟ فقال له: مخافةً منك؛ لأن جميع ما خلقه الله يخاف من ابن آدم. وما زال يتفرّج على عجائب البحر حتى وصلا إلى جبل عال، فمشى عبد الله البري بجانب ذلك الجبل، فلم يشعر إلا وصيحة عظيمة، فالتفت فرأى شيئاً أسود منحدرًا عليه من ذلك الجبل، وهو قدر الجمل أو أكبر، وصار يصيح، فقال له: ما هذا يا أخي؟ قال له البحري: هذا الدندان؛ فإنه نازل في طلبي، مراده أن يأكلني، فصَحَّ عليه يا أخي قبل أن يصل إلينا فيخطفني ويأكلني. فصاح عليه عبد الله البري وإذا هو وقع ميتاً، فلما رآه ميتاً قال: سبحان الله وبحمده، أنا لا ضربته بسيف ولا بسكين! كيف هذه العظمة التي فيها هذا المخلوق ولم

ألف ليلة وليلة (الجزء السادس)

يحمل صيحتي، بل مات؟ فقال له عبد الله البحري: لا تعجب، فوالله يا أخي، لو كان من هذا النوع ألف أو ألفان لم يحملوا صيحة ابن آدم.



أقبلت عليه ولها وجهٌ مثل القمر، وشعرٌ طويل، وخَصْرٌ نحيل، لكنها عريانة ولها ذَنَبٌ.

ثم مشيا إلى مدينة فرأيا أهلها جميعاً بنات وليس فيهن ذكور، فقال: يا أخي، ما هذه المدينة؟ وما هذه البنات؟ فقال له: هذه مدينة البنات؛ لأن أهلها من بنات البحر.

قال: هل فيهن ذكور؟ قال: لا. قال: وكيف يحبلن ويلدن من غير ذكور؟! قال: إن ملك البحر ينفيهن إلى هذه المدينة، وهن لا يحبلن ولا يلدن، وإنما كل واحدة غضب عليها من بنات البحر يرسلها إلى هذه المدينة ولا تقدر أن تخرج منها، فإن خرجت منها فإن كل ما رآها من دواب البحر يأكلها، وأما غير هذه المدينة ففيه رجال وبنات. قال له: هل في البحر مدن غير هذه المدينة؟ قال له: كثير. قال: وهل عليكم سلطان في البحر؟ قال له: نعم. قال له: يا أخي، إني رأيت في البحر عجائب كثيرة. قال له: وأي شيء رأيت من العجائب؟ أما سمعت صاحب المثل يقول: عجائب البحر أكثر من عجائب البر؟ قال: صدقت. ثم إنه صار يتفرج على هذه البنات، فرأى لهن وجوهاً مثل الأقمار، وشعوراً مثل شعور النساء، ولكن لهن أياد وأرجل في بطونهن، ولهن أذنان مثل أذنان السمك، ثم إنه فرجه على أهل تلك المدينة، وخرج به ومشى قدامه إلى مدينة أخرى، فرأها ممتلئة خلثق؛ إناثاً وذكوراً، صورهم مثل صور البنات ولهم أذنان، ولكن ليس عندهم بيع ولا شراء مثل أهل البر، وليسوا لابسين، بل الكل عرايا مكشوفو العورة، فقال له: يا أخي، إني أرى الإناث والذكور مكشوفو العورة! فقال له: لأن أهل البحر لا قماش عندهم. فقال له: يا أخي، كيف يصنعون إذا تزوجوا؟ فقال له: هم لا يتزوجون، بل كل من أعجبته أنثى يقضي مراده منها. قال له: إن هذا شيء حرام! ولأي شيء لا يخطبها ويمهرها ويقم لها فرحاً ويتزوجها بما يرضي الله ورسوله؟! قال له: ليس كلنا ملّة واحدة، فإنّ فينا مسلمين موحدّين، وفينا نصارى ويهوداً وغير ذلك، والذي يتزوج منا خصوص المسلمين. فقال: أنتم عريانون ولا عندكم بيع ولا شراء، فأأي شيء يكون مهر نسائكم؟ هل تعطونهن جواهر ومعادن؟ قال له: إن الجواهر أحجار ليس لها عندنا قيمة، وإنما الذي يريد أن يتزوج يجعلون عليه شيئاً معلوماً من أصناف السمك يصطاده قدر ألف أو ألفين أو أكثر أو أقل بحسب ما يحصل عليه الاتفاق بينه وبين أبي الزوجة. فلما يحضر المطلوب يجتمع أهل العريس وأهل العروسة ويأكلون الوليمة، ثم يُدخلونه على زوجته، وبعد ذلك يصطاد من السمك ويُطعمها، وإذا عجز تصطاد هي وتطعمه. قال: وإن زنا بعضهم ببعض كيف يكون الحال؟ قال: إن الذي يثبت عليه هذا الأمر، إن كانت أنثى ينفوها إلى مدينة البنات، فإذا كانت حاملاً من الزنا فإنهم يتركونها إلى أن تلد، فإن ولدت بنتاً ينفوها معها وتُسمّى زانية بنت زانية، ولم تزل بنتاً حتى تموت، وإن كان المولود ذكراً فإنهم يأخذونه إلى الملك سلطان البحر فيقتله. فتعجب عبد الله البري من ذلك.

ثم إن عبد الله البحري أخذه إلى مدينة أخرى وبعدها أخرى وهكذا، وما زال يفرجه حتى فرجه على ثمانين مدينة، وكل مدينة يرى أهلها لا يشبهون أهل غيرها من المدن،

فقال له: يا أخي، هل بقي في البحر مدائن؟ قال: وأي شيء رأيت من مدائن البحر وعجائبه؟ وحق النبي الكريم الرؤوف الرحيم لو كنتُ فرَجْتُك ألف عام كل يوم على ألف مدينة، وأريتك في كل مدينة ألف أعجوبة، ما أريتك قيراطاً من أربعة وعشرين قيراطاً من مدائن البحر وعجائبه، وإنما فرَجْتُك على ديارنا وأرضنا لا غير. فقال له: يا أخي، حيث كان الأمر كذلك يكفيني ما تفرَّجت عليه، فأني سئمتُ من أكل السمك، ومضى لي في صحبتك ثمانون يوماً، وأنت لا تُطعمني صباحاً ومساءً إلا سمكاً طرياً، لا مشويّاً ولا مطبوخاً. فقال له: أي شيء يكون المطبوخ والمشوي؟ قال له عبد الله البري: نحن نشوي السمك في النار ونطبخه ونجعله أصنافاً ونصنع منه أنواعاً كثيرة. فقال له البحري: ومن أين تأتي لنا النار؟ فنحن لا نعرف المشوي ولا المطبوخ ولا غير ذلك. فقال له البري: نحن نقلبه بالزيت والشيرج. فقال له البحري: ومن أين لنا الزيت والشيرج ونحن في هذا البحر لا نعرف شيئاً مما ذكرته؟ قال: صدقت، ولكن يا أخي قد فرَجَّجتني على مدائن كثيرة ولم تفرِّجني على مدينتك. قال له: أما مدينتي فإننا فُتَّناها بمسافة، وهي قريبة من البر الذي أتينا منه، وإنما تركتُ مدينتي وجئت بك إلى هنا لأنني قصدتُ أن أفرِّجك على مدائن البحر. قال له: يكفيني ما تفرَّجت عليه، ومرادي أن تفرِّجني على مدينتك. قال له: وهو كذلك. ثم رجع به إلى مدينته، فلما وصل إليها قال له: هذه مدينتي. فرآها مدينة صغيرة عن المدائن التي تفرَّج عليها، ثم دخل المدينة ومعه عبد الله البحري إلى أن وصل إلى مغارة. قال له: هذا بيتي، وكل بيوت هذه المدينة كذلك؛ مغارات كبار وصغار في الجبال، وكذلك جميع مدائن البحر على هذه الصفة، فإن كل من أراد أن يُصنع له بيت يروح إلى الملك ويقول له: مرادي أن أتخذ بيتاً في المكان الفلاني. فيرسل الملك معه طائفة من السمك يُسمَّون النَّقَّارين، ويجعل كراهم شيئاً معلوماً من السمك، ولهم مناقير تفتت الحجر الجلمود، فيأتون إلى الجبل الذي أراداه صاحب البيت وينقرون فيه البيت، وصاحب البيت يصطاد لهم من السمك ويلقِّمهم حتى تتم المغارة، فيذهبون وصاحب البيت يسكنه. وجميع أهل البحر على هذه الحالة، لا يتعاملون مع بعضهم إلا بالسمك، وكلهم سمك. ثم قال له: ادخل. فدخل، فقال عبد الله البحري: يا بنتي. وإذا ببنته أقبلت عليه ولها وجه مدور مثل القمر، ولها شعر طويل ثقيل وطرف كحيل وخصر نحيل، لكنها عريانة ولها دَنَب، فلما رأت عبد الله البري مع أبيها قالت له: يا أبي، ما هذا الأزعر الذي جئت به معك؟ فقال لها: يا بنتي، هذا صاحبي البري الذي كنتُ أجيء لك من عنده بالفاكهة البرية، تعالي سلّمي عليه. فتقدّمتُ وسلّمتُ عليه بلسان فصيح وكلام بليغ،

فقال لها أبوها: هاتي زادًا لضيفنا الذي حلَّ علينا بقدمه البركة. فجاءت له بسمكتين كبيرتين، كل واحدة منهما مثل الخروف، فقال له: كُلْ. فأكل غصبًا عنه من الجوع؛ لأنه سئم من أكل السمك وليس عندهم شيء غير السمك. فما مضى حصة إلا وامرأة عبد الله البحري أقبلت، وهي جميلة الصورة ومعها ولدان، ولد في يده فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان في الخيارة. فلما رأت عبد الله البري مع زوجها قالت: أي شيء هذا الأزعر؟ وتقدَّم الولدان وأختهما وأمهم وصاروا ينظرون إلى دُبُر عبد الله البري ويقولون: إي والله، إنه أزعر! ويضحكون عليه. فقال له عبد الله البري: يا أخي، هل أنت جئتَ بي لتجعلني سخريةً لأولادك وزوجتك؟! وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله البري قال لعبد الله البحري: يا أخي، هل أنت جئت بي لتجعلني سخريةً لأولادك وزوجتك؟! فقال له عبد الله البحري: العفو يا أخي؛ فإن الذي لا ذنبَ له غير موجود عندنا، وإذا وُجد واحد من غير ذنب يأخذه السلطان ليضحك عليه، ولكن يا أخي لا تؤاخذ هؤلاء الأولاد الصغار والمرأة، فإن عقولهم ناقصة. ثم صرخ عبد الله البحري على عياله وقال لهم: اسكتوا. فخافوا وسكتوا، وجعل يأخذ بخاطره. فبينما هو يتحدث معه، وإذا بعشرة أشخاص كبار شداد غلاظ أقبلوا عليه وقالوا: يا عبد الله، إنه بلغ الملك أن عندك أزعر من زعر البر. فقال لهم: نعم، وهو هذا الرجل، فإنه صاحبي أتاني ضيفاً، ومرادي أن أرجعه إلى البر. قالوا له: إننا لا نقدر أن نروح إلا به، فإن كان مرادك كلاماً فقم وخذه واحضر به قدام الملك، والذي تقوله لنا قلّه للملك. فقال عبد الله البحري: يا أخي، العذر واضح، ولا يمكننا مخالفة الملك، ولكن امض معي للملك وأنا أسعى في خلاصك منه إن شاء الله، ولا تخف؛ فإنه متى رآك عرف أنك من أولاد البر، ومتى علم أنك بري فلا بد أنه يكرمك ويردك إلى البر. فقال عبد الله البري: الرأي رأيك، فأنا أتوكل على الله وأمشي معك. ثم أخذه ومضى به إلى أن وصل إلى الملك، فلما رآه الملك ضحك وقال: مرحباً بالأزعر. وصار كل من كان حول الملك يضحك عليه ويقول: إي والله، إنه أزعر! فتقدم عبد الله البحري إلى الملك وأخبره بأحواله، وقال له: هذا من أولاد البر وصاحبي، وهو لا يعيش بيننا؛ لأنه لا يحب أكل السمك إلا مقلباً أو مطبوخاً، والمراد أنك تأذن لي في أن أردّه إلى البر. فقال له الملك: حيث كان الأمر كذلك، لا يعيش عندنا، فقد أذنت لك في أن تردّه إلى مكانه بعد الضيافة. ثم إن الملك قال: هاتوا الضيافة. فأتوا له بسمك أشكلاً وألواناً، فأكل امتثالاً لأمر الملك، ثم قال له الملك: تمنّ عليّ. فقال عبد الله البري: أتمنّى أن تعطيني جواهر. فقال: خذوه إلى دار الجواهر ودعوه ينقّي ما يحتاج

إليه. فأخذه صاحبه إلى دار الجوهر ونقّى على قدر ما أراد، ثم رجع به إلى مدينته وأخرج له صرة وقال له: خذ هذه أمانة أوصلها إلى قبر النبي ﷺ. فأخذها وهو لا يعلم ما فيها، ثم خرج معه ليوصله إلى البر، فرأى في طريقه غناء وفرحاً وسماطاً ممدوداً من السمك، والناس يأكلون ويغنون وهم في فرح عظيم، فقال عبد الله البري لعبد الله البحري: ما لهؤلاء الناس في فرح عظيم؟ هل عندهم عُرس؟ فقال البحري: ليس عندهم عُرس، وإنما مات عندهم ميت. فقال له: أنتم إذا مات عندكم ميت تفرحون له وتغنون وتأكلون؟ قال: نعم. وأنتم يا أهل البر ماذا تفعلون؟ قال البري: إذا مات عندنا ميت نحزن عليه ونبكي، والنساء يلطمن وجوههن ويشققن جيوبهن حزناً على مَنْ مات. فحملك عبد الله البحري عينيه في عبد الله البري وقال له: هات الأمانة! فأعطها له، ثم أخرجه إلى البر وقال: قد قطعتُ صحبتك وودك، فبعد هذا اليوم لا تراني ولا أراك. فقال له: لماذا هذا الكلام؟ فقال له: أمّا أنتم يا أهل البر أمانة الله؟ فقال البري: نعم. قال: لا يهون عليكم أن الله يأخذ أمانته، بل تبكون عليها! وكيف أعطيك أمانة النبي ﷺ؟ وأنتم إذا أتاكم المولود تفرحون به مع أن الله يضع فيه الروح أمانة، فإذا أخذها كيف تصعب عليكم وتبكون وتحزنون؟ فما لنا في رفقتكم حاجة. ثم تركه وراح إلى البحر.

ثم إن عبد الله البري لبس حوائجه وأخذ جواهره وتوجّه إلى الملك، فتلقاه باشتياق وفرح به وقال له: كيف أنت يا نسيبي؟ وما سبب غيابك عني هذه المدة؟ فأخبره بقصته وما رآه من العجائب في البحر، فتعجب الملك من ذلك، ثم أخبره بما قاله عبد الله البحري، فقال له: هل أنت الذي أخطأت في خبرك بهذا الخبر؟ ثم إنه استمر مدة من الزمان وهو يروح إلى جانب البحر ويصيح على عبد الله البحري، فلم يرد عليه، ولم يأت إليه، فقطع عبد الله البري الرجاء منه، وأقام هو والملك نسيبه وأهلها في أسرٍ حال وحسن أعمال حتى أتاهم هادم اللذات ومفرّق الجماعات وماتوا جميعاً. فسبحان الحي الذي لا يموت، ذي الملك والملكوت، وهو على كل شيء قدير، وعباده لطيف خبير.

حكاية هارون الرشيد وأبي الحسن العماني

ومما يُحكى أيضاً أن الخليفة هارون الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً فاستدعى مسروراً فحضر، فقال: ائتني بجعفر بسرعة. فمضى وأحضره، فلما وقف بين يديه قال: يا جعفر، إنه قد اعتراني في هذه الليلة أرقٌ فمنع عني النوم، ولا أعلم ما يزيله عني. قال: يا أمير المؤمنين، قد قالت الحكماء: النظر إلى المرأة ودخول الحمام واستعمال الغناء يُزيل الهمَّ

والفكر. فقال: يا جعفر، إني فعلت هذا كله فلم يُزل عني شيئاً، وأنا أقسم بآبائي الطاهرين إن لم تتسبّب فيما يزيل عني ذلك لأضربنّ عنقك. قال: يا أمير المؤمنين، هل تفعل ما أشير به عليك؟ قال: وما الذي تشير به عليّ؟ قال: أن تنزل بنا في زورق وتنحدر به في بحر الدجلة مع الماء إلى محل يُسمّى قرن الصراط، لعلنا نسمع ما لم نسمع، أو ننظر ما لم ننظر، فإنه قد قيل: تفريج الهم بواحد من ثلاثة أمور: أن يرى الإنسان ما لم يكن رآه، أو يسمع ما لم يكن سمعه، أو يطأ أرضاً لم يكن وطئها. فلعل ذلك يكون سبباً لزوال القلق عنك يا أمير المؤمنين. فعند ذلك قام الرشيد من موضعه وصحبته جعفر وأخوه الفصل وإسحاق النديم وأبو نواس وأبو دلف ومسرور السيف. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة لما قام من موضعه وصُحِبته جعفر وباقي جماعته، دخلوا حجرة الثياب ولبسوا كلهم ملابس التجار، وتوجَّهوا إلى الدجلة ونزلوا في زورق مزركش بالذهب، وانحدروا مع الماء حتى وصلوا إلى الموضع الذي يريدونه، فسمعوا صوت جارية تغني على العود وتنشد هذه الأبيات:

أَقُولُ لَهُ وَقَدْ حَصَرَ الْعُقَارُ	وَقَدْ غَنَى عَلَى الْأَيْكِ الْهَزَارُ
إِلَى كَمْ ذَا التَّائِي عَنْ سُرُورِ	أَفَقَ مَا الْعُمَرُ إِلَّا مُسْتَعَارُ
فَحَذَّهَا مِنْ يَدَيَّ خِلٍّ عَزِيزِ	بِجَفْنَيْهِ فُتُورٌ وَانْكِسَارُ
زَرَعْتُ بِحَدِّهِ وَرْدًا طَرِيًّا	فَأَثْمَرَ فِي السَّوَالِفِ جُلْنَارُ
وَتَحَسَّبُ مَوْضِعَ التَّخْمِيشِ فِيهِ	رَمَادًا خَامِدًا وَالْخَدُّ نَارُ
يَقُولُ لِي الْعَذُولُ تَسَلَّ عَنْهُ	فَمَا عُذْرِي وَقَدْ نَمَّ الْعِذَارُ

فلما سمع الخليفة هذا الصوت قال: يا جعفر، ما أحسنَ هذا الصوت! قال جعفر: يا مولانا، ما طرق سمعي أطيب ولا أحسن من هذا الغناء، ولكن يا سيدي إن السماع من وراء جدارٍ نصفُ سماع، فكيف بالسماع من خلفِ سِتْرٍ؟ فقال: انهضُ بنا يا جعفر حتى نتطفَّل على صاحب هذه الدار؛ لعلنا نرى المغنية عيانًا. قال جعفر: سمعًا وطاعة. فصعدوا من المركب واستأذنوا في الدخول، وإذا بشابٍّ مليح المنظر عَذِبَ الكلام فصيح اللسان قد خرج إليهم وقال: أهلاً وسهلاً يا سادةَ المُنعمين عليّ، ادخلوا بالرَّحْب والسعة. فدخلوا وهو بين أيديهم، فرأوا الدار بأربعة أوجه، وسقفها بالذهب، وحيطانها منقوشة باللزورد، وفيها إيوان به سدلة جميلة وعليها مائة جارية كأنهنَّ أقمار، فصاح عليهن



ونزلوا في الزُّورق حتى وصلوا إلى الموضع، فسمعوا صوتَ جاريةٍ تُغنيّ.

فنزّلنَ عن أسيرتِهِنَّ، ثم التفتَ ربُّ المنزل إلى جعفر وقال: يا سيدي، أنا ما أعرف منكم الجليلَ من الأجلِّ، باسم الله ليتفضّل منكم مَنْ هو أعلى في الصدر، ويجلس إخوانه كلُّ واحد في مرتبته. فجلس كل واحد في منزلته، وقام مسرور في الخدمة بين أيديهم، ثم قال لهم صاحب المنزل: يا أضيافي، عن إنكم، هل أحضر لكم شيئاً من المأكول؟ قالوا له: نعم. فأمر الجوّاري بإحضار الطعام، فأقبلَ أربعُ جوارٍ مشدودات الأوساط بين أيديهن

مائدة وعليها من غرائب الألوان، مما درَج وطار وسبح في البحار، من قطاً وسمَّان وأفراخ وحمّام، ومكتوب على حواشي السفرة من الأشعار ما يناسب المجلس، فأكلوا على قدر كفايتهم، ثم غسلوا أيديهم، فقال الشاب: يا سادتي، إن كان لكم حاجة فأخبرونا بها حتى نتشرّف بقضائها. قالوا: نعم، فإننا ما جئنا منزلك إلا لأجل صوت سمعناه من وراء حائط دارك، فاشتبهنا أن نسمعه ونعرف صاحبه، فإن رأيت أن تُنعم علينا بذلك كان من مكارم أخلاقك، ثم نعود من حيث جئنا. فقال: مرحباً بكم. ثم التفت إلى جارية سوداء وقال: أحضري سيدتك فلانة. فذهبت الجارية ثم جاءت ومعها كرسي فوضعتّه، ثم ذهبت ثانياً وأتت ومعها جارية كأنها البدر في تمامه، فجلست على الكرسي. ثم إن الجارية السوداء ناولتها خرقة من أطلس، فأخرجت منها عوداً مرصّعاً بالجواهر واليواقيت وملويه من الذهب. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما أقبلت جلست على الكرسي وأخرجت العود من الخريطة، وإذا هو مرصع بالجواهر واليواقيت وملاويه من الذهب، فشدت أوتاره لرنات المزاهر، وهي كما قال فيها وفي عودها الشاعر:

حَضَنْتُهُ كَالْأُمِّ الشَّفِيقَةِ بِإِنِّهَا فِي جَجْرِهَا وَجَلَا عَلَيْهِ مُلَاوِيَه
مَا حَرَكْتُ يَدَهَا النِّمِينَ لِجَسِّه إِلَّا وَأَصْلَحَتِ الْيَسَارُ مُلَاوِيَه

ثم ضمت العود إلى صدرها وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها، وجست أوتاره فاستغاث كما يستغيث الصبي بأمه، ثم ضربت عليه وجعلت تنشد هذه الأبيات:

جَادَ الزَّمَانُ بِمَنْ أُحِبُّ فَأَعْتَبَا يَا صَاحِبِي فَأِدِرْ كُؤُوسَكَ وَاشْرَبَا
مَنْ خَمَرَةٍ مَا مَارَجَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَأَصْبَحَ بِالْمَسَرَّةِ مُطْرَبَا
قَامَ النَّسِيمُ بِحَمْلِهَا فِي كَاسِهَا أَرَأَيْتَ بَدَرَ التَّمِّ يَحْمِلُ كَوْكَبَا
كَمْ لَيْلَةٍ سَامَرْتُ فِيهَا بِدْرَهَا مِنْ فَوْقِ بَجْلَةٍ قَدْ أَضَاءَ الْغِيَهَا
وَالْبَدْرُ يَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ كَأَنَّمَا قَدْ مَدَّ فَوْقَ الْمَاءِ سَيْفًا مُذْهَبَا

فلما فرغت من شعرها بكت بكاءً شديداً، وصاح كل من في الدار بالبكاء حتى كادوا أن يهلكوا، وما منهم أحد إلا وغاب عن وجوده ومزق أثوابه ولطم على وجهه لحسن غنائها. فقال الرشيد: إن غناء هذه الجارية يدل على أنها عاشقة مفارقة. فقال سيدها: إنها ثالكة لأمها وأبيها. فقال الرشيد: ما هذا بكاء من فقد أباه وأمّه، وإنما هو شجو من فقد محبوبه. وطرب الرشيد من غنائها، وقال لإسحاق: والله، ما رأيت مثلاً. فقال

إسحاق: يا سيدي، إني لأعجبُ منها غايةَ العجب، ولا أملك نفسي من الطرب. وكان الرشيد مع ذلك كله ينظر إلى صاحب الدار ويتأمل في محاسنه وظرف شمائله، فرأى في وجهه أثرَ اصفرار، فالتفت إليه وقال له: يا فتى. فقال: لبيك يا سيدي. فقال له: هل تعلم من نحن؟ قال: لا. فقال له جعفر: أتحبُّ أن نخبرك عن كل واحد باسمه؟ فقال: نعم. فقال جعفر: هذا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين. وذكر له بقية أسماء الجماعة، وبعد ذلك قال الرشيد: أشتي أن تخبرني عن هذا الاصفرار الذي في وجهك؛ هل هو مكتسب أو أصلي من حين ولادتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن حديثي غريب وأمري عجيب، لو كُتِب بالإبر على آفاق البصر لكانَ عبرةً لمن اعتبر. قال: أعلمني به؛ لعل شفاك يكون على يدي. قال: يا أمير المؤمنين، أرعني سمعك وأخل لي ذرعه. قال: هاتِ فحدّثني، فقد شوقَنتي إلى سماعه. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنني رجل تاجر من تجار البحر، وأصلي من مدينة عمان، وكان أبي تاجرًا كثير المال، وكان له ثلاثون مركبًا تعمل في البحر، أُجرتُها في كل عام ثلاثون ألف دينار، وكان رجلًا كريمًا، وعلمني الخط وجميع ما يحتاج إليه الشخص، فلما حضرته الوفاة دعاني وأوصاني بما جرت به العادة، ثم توفاه الله تعالى إلى رحمته وأبقى الله أمير المؤمنين. وكان لأبي شركاء يتجرون في ماله ويسافرون في البحر، فاتفق في بعض الأيام أنني كنتُ قاعدًا في منزلي مع جماعة من التجار، إذ دخل عليّ غلام من غلماني وقال: يا سيدي، إن بالباب رجلًا يطلب الإذن في الدخول عليك. فأذنتُ له، فدخل وهو حامل على رأسه شيئًا مغطًى، فوضعه بين يدي وكشفه، فإذا فيه فواكه بغير أوان وملح وطرائف ليست في بلادنا، فشكرته على ذلك وأعطيته مائة دينار، وانصرف شاكرًا، ثم فرقت ذلك على كل من كان حاضرًا من الأصحاب، ثم سألت التجار: من أين هذا؟ فقالوا: إنه من البصرة. وأنشؤا عليه وصاروا يصفون حسنَ البصرة، وأجمعوا على أنه ليس في البلاد أحسن من بغداد ومن أهلها، وصاروا يصفون بغداد وحسنَ أخلاق أهلها، وطيب هوائها، وحسن تركيبها، فاشتاقَت نفسي إليها، وتعلقتُ آمالي برؤيتها، فممت وبعثت العقارات والأُملاك، وبعثت المراكب بمائة ألف دينار، وبعثت العبيد والجواري، وجمعتُ مالي فصار ألف ألف دينار غير الجواهر والمعادن، واكتريتُ مركبًا وشحنته بأموالي وسائر متاعي، وسافرتُ به أيامًا وليالي حتى جئتُ إلى البصرة، فأقمتُ بها مدة، ثم استأجرت سفينة ونزلت ما لي فيها، وسرنا منحدرين أيامًا قلائل حتى وصلنا إلى بغداد، فسألت أين تسكن التجار؟ وأي موضع أطيب للسكان؟ فقالوا: في حارة الكرخ. فجئتُ إليها واستأجرت دارًا في دربٍ يُسمَّى الزعفران، ونقلت جميع ما لي إلى تلك الدار، وأقمتُ فيها مدة، ثم توجَّهتُ

في بعض الأيام إلى الفرجة ومعني شيء من المال، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة، فأنتيت إلى جامع يُسمَّى جامع المنصور تُقام فيه الجمعة، وبعد أن خلصنا من الصلاة خرجتُ مع الناس إلى موضع يُسمَّى قرن الصراط، فرأيت في ذلك المكان موضعًا عاليًا جميلًا وله روشن مِطْلٌ على الشاطئ، وهناك شباك، فذهبت في جملة الناس إلى ذلك المكان، فرأيت شيخًا جالسًا وعليه ثياب جميلة وتفوح منه رائحة طيبة، وقد سَرَّحَ لحيته فافترت على صدره فرقتين كأنها قُضِبَ من لُجَيْن، وحوله أربع جوارٍ وخمسة غلمان، فقلت لشخص: ما اسم هذا الشيخ؟ وما صنعته؟ فقال: هذا طاهر بن العلاء وهو صاحب الفتیان، كل مَنْ دخل عنده يأكل ويشرب وينظر إلى الملاح. فقلت له: والله إنَّ لي زمانًا أدور على مثل هذا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٤٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب لما قال: والله إن لي زماناً وأنا أدور على مثل هذا. ثم قال: فتقدّمتُ إليه يا أمير المؤمنين وسلّمت عليه وقلت له: يا سيدي، إن لي عندك حاجة. فقال: ما حاجتك؟ قلت: أشتهي أن أكون ضيفك في هذه الليلة. فقال: حبّاً وكرامة. ثم قال: يا ولدي، عندي جوارٍ كثيرة، منهم من ليلتها بعشرة دنانير، ومنهم من ليلتها بأربعين ديناراً، ومنهم من ليلتها بأكثر، فاختر من تريد. فقلت: فأخذي ذلك الغلام بعشرة دنانير. ثم وزنْتُ له ثلاثمائة دينار عن شهر، فسلمني لغلام، فأخذي ذلك الغلام وذهب بي إلى الحمّام في القصر، وخدمني خدمةً حسنة، فخرجت من الحمّام، وأتى بي إلى مقصورة وطرق الباب، فخرجتُ له جارية، فقال لها: خذي ضيفك. فتلقّيتني بالرحب والسعة، ضاحكة مستبشرة، وأدخلتني داراً عجيبه مزركشة بالذهب، فتأمّلت في تلك الجارية فرأيتها كالبدرة ليلة تمامه، وفي خدمتها جارتان كأنهما كوكبان، ثم أجلسني وجلست بجانبني، ثم أشارت إلى الجوّاري فأتيْن بمائدة فيها من أنواع اللحوم من دجاج وسمان وقطاً وحمّام، فأكلنا حتى اكتفينا، وما رأيت في عمري ألذ من ذلك الطعام، فلما أكلنا رفعتُ تلك المائدة وأحضرت مائدة الشراب والمشوم والحلوى والفواكه، وأقمت عندها شهراً على هذا الحال، فلما فرغ الشهر دخلت الحمّام وجئتُ إلى الشيخ وقلت له: يا سيدي، أريد التي ليلتها بعشرين ديناراً، فقال: زين الذهب. فمضيت وأحضرت الذهب، فوزنْتُ له ستمائة دينار عن شهر، فنادى غلاماً وقال له: خذ سيدك. فأخذي وأدخلني الحمّام، فلما خرجتُ أتى بي إلى باب مقصورة وطرقه، فخرجت منه جارية، فقال لها: خذي ضيفك. فتلقّيتني بأحسن ملتقى، وإذا حولها أربع جوارٍ، ثم أمرت بإحضار الطعام،

فحضرت مائدة عليها من سائر الأطعمة، فأكلت، ولما فرغت من الأكل ورفعت المائدة، أخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

أَيَا نَفَحَاتِ الْمِسْكِ مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ بِحَقِّ غَرَامِي أَنْ تُؤَدِّيَ رَسَائِلِي
عَهْدْتُ بِهَا تَيْكَ الْأَرْضِي مَنَازِلًا لِأَحْبَابِنَا أَكْرَمَ بِهَا مِنْ مَنَازِلِ
وَفِيهَا الَّتِي فِي حُبِّهَا كُلُّ عَاشِقٍ تَغْنَى وَلَمْ يَرْتَدَّ مِنْهَا بِطَائِلِ

فأقمت عندها شهرًا، ثم جئت إلى الشيخ وقلت: أريد صاحبة الأربعين دينارًا. فقال: زين لي الذهب. فوزنت له عن شهر ألفًا ومائتي دينار، ومكثت عندها شهرًا كأنه يوم واحد لما رأيت من حسن المنظر وحسن العشرة، ثم جئت إلى الشيخ وكنا قد أمسينا، فسمعت ضجة عظيمة وأصواتًا عالية، فقلت له: ما الخبر؟ فقال لي الشيخ: إن هذه الليلة عندنا أشهر الليالي، وجميع الخلائق يتفرجون على بعضهم فيها، فهل لك أن تصعد على السطح وتتفرج على الناس؟ فقلت: نعم. وطلعت على السطح فرأيت ستارة حسنة، ووراء الستارة محل عظيم وفيه سدة وعليها فرش مليح، وهناك صبيّة تدهش الناظرين حسنًا وجمالًا وقدًا واعتدالًا، وبجانبها غلام يده على عنقها وهو يقبلها وتقبله، فلما رأيتهما يا أمير المؤمنين لم أملك نفسي ولم أعرف أين أنا لما بهرني من حسن صورتها، فلما نزلت سألت الجارية التي أنا عندها وأخبرتها بصفتها، فقالت: ما لك وما لها؟ فقلت: والله، إنها أخذت عقلي! فتبسّمت وقالت: يا أبا الحسن، ألك فيها غرض؟ فقلت: إني والله، فإنها تملكت قلبي ولبي. فقالت: هذه ابنة طاهر بن العلاء، وهي سيدتنا، وكلنا جواريتها. أتعرف يا أبا الحسن بكم ليلتها ويومها؟ قلت: لا. قالت: بخمسمائة دينار، وهي حسرة في قلوب الملوك. فقلت: والله لأدُهبنَّ مالي كله على هذه الجارية. وبِتُّ أكابد الغرام طولَ ليلي، فلما أصبحت دخلت الحَمَامَ ولبست أفخر ملبوس من ملابس الملوك، وجئت إلى أبيها وقلت: يا سيدي، أريد التي ليلتها بخمسمائة دينار. فقال: زين الذهب. فوزنت له عن كل شهر خمسة عشر ألف دينار، فأخذها، ثم قال للغلام: اعمد به إلى سيدتك فلانة، فأخذني وأتى بي إلى دارٍ لم ترَ عيني أظرف منها على وجه الأرض، فدخلتها فرأيت الصبيّة جالسة، فلما رأيتها أدهشت عقلي بحُسنها يا أمير المؤمنين، وهي كالبدن في ليلة أربعة عشر. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب لما حدث أمير المؤمنين بصفات الجارية قال له: وهي كاليدّر في ليلة أربعة عشر، ذات حُسن وجمال، وقدّ واعتدال، وألفاظ تفضح رنات المظاهر، كأنها المقصودة بقول الشاعر:

قَالَتْ وَقَدْ لَعِبَ الْغَرَامُ بِعِطْفِهَا
يَا لَيْلُ هَلْ لِي فِي دُجَاكَ مُسَامِرٌ
ضَرَبْتَ عَلَيْهِ بِكَفِّهَا وَتَنَهَّدَتْ
وَالْتَعَرُّ بِالْمِسْوَاكِ يَظْهَرُ حُسْنُهُ
يَا مُسْلِمُونَ أَمَا تَقُومُ أُيُورُكُمْ
فَانْقَضَ مِنْ تَحْتِ الْغَلَاظِلِ قَائِمًا
وَحَلَلْتُ عِقْدَ إِزَارِهَا فَتَفَرَّعَتْ
وَعَدَوْتُ أَرْهُسَهَا بِمِثْلِ ذِرَاعِهَا
حَتَّى إِذَا مَا قُمْتُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ

فِي جُنْحِ لَيْلٍ سَابِلِ الْأَحْلَاكِ
أَوْ هَلْ لِهَذَا الْكُفْسِ مِنْ نِيَّاكِ
كَتَنَّهُدُ الْأَسْفِ الْحَزِينِ الْبَاكِ
وَالْأَيُّرُ لِلْأَكْسَاسِ كَالْمِسْوَاكِ
مَا فِيكُمْ أَحَدٌ يَغِيثُ الشَّاكِي
أَيَّرِي وَقَالَ لَهَا: أَتَاكِ أَتَاكِ
مَنْ أَنْتِ؟ قُلْتُ: فَتَى أَجَابَ نِدَاكِ
رَهْسَ اللَّطِيفِ يَضُرُّ بِالْأَوْرَاكِ
قَالَتْ: هَنَّاكَ النَّيْكَ؟ قُلْتُ: هَنَّاكَ

وما أحسن قول الآخر:

وَلَوْ أَنَّهَا لِلْمُشْرِكِينَ تَعَرَّضَتْ
وَلَوْ تَقَلَّتْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرِ مَالِحٌ
وَلَوْ أَنَّهَا فِي الشَّرْقِ لَاحَتْ لِزَاهِبٍ

لَبَاءُوا بِهَا مِنْ دُونِ أَصْنَامِهِمْ رَبًّا
لَأَصْبَحَ مَاءَ الْبَحْرِ مِنْ رِيْقِهَا عَذْبًا
لَخَلَّى سَبِيلَ الشَّرْقِ وَاتَّبَعَ الْغَرْبَا

وما أحسن قول الآخر:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً فَتَحَيَّرْتُ دَقَائِقُ فِكْرِي فِي بَدِيعِ صِفَاتِهَا
فَأَوْحَى إِلَيْهَا الْوَهْمُ أَنِّي أُحِبُّهَا فَأَثَّرَ ذَلِكَ الْوَهْمُ فِي وَجَنَاتِهَا

فسلمت عليها فقالت: أهلاً وسهلاً ومرحباً. وأخذت بيدي يا أمير المؤمنين وأجلستني إلى جانبها. فمن فرط الاشتياق بكيت مخافة الفراق، وأسبلت دمع العين، وأنشدت هذين البيتين:

أُحِبُّ لَيْلِي الْهَجْرَ لَا فِرْحًا بِهَا عَسَى الدَّهْرُ يَأْتِي بَعْدَهَا بِوَصَالٍ
وَأَكْرَهُ أَيَّامَ الْوِصَالِ لِأَنِّي أَرَى كُلَّ شَيْءٍ مُعَقَّبًا بِزَوَالٍ

ثم إنها صارت تؤانسني بلطف الكلام، وأنا غريق في بحر الغرام، خائف في القرب ألم الفراق من فرط الوجد والاشتياق، وتذكّرت لوعة النوى والبين فأنشدت هذين البيتين:

فَكَّرْتُ سَاعَةً وَصَلَّهَا فِي هَجْرِهَا فَجَرْتُ مَدَامُحُ مُقْلَتِي كَالْعَنْدَمِ
فَطَفَقْتُ أَمْسَحُ مُقْلَتِي فِي جِيدِهَا مِنْ عَادَةِ الْكَافُورِ إِمْسَاكِ الدَّمِ

ثم أمرت بإحضار الأطعمة، فأقبلت أربع جوارٍ نُهْدُ أَبْكَارٍ، فوضعت بين أيدينا من الأطعمة والفاكهة والحلوى والمشموم والمدام ما يصلح للملوك، فأكلنا يا أمير المؤمنين وجلسنا على المدام وحولنا الرياحين في مجلس لا يصلح إلا للملك، ثم جاءت يا أمير المؤمنين جارية بخريطة من الإبريسم، فأخذتها وأخرجت منها عوداً فوضعته في حجرها، وجست أوتاره فاستغاث كما يستغيث الصبي بأمه، وأنشدت هذين البيتين:

لَا تَشْرَبِ الرَّاحَ إِلَّا مِنْ يَدِي رَشَاءً تَحْكِيهِ فِي رِقَّةِ الْمَعْنَى وَيَحْكِيهَا
إِنَّ الْمَدَامَةَ لَا يَلْتَذُّ شَارِبُهَا حَتَّى يَكُونَ نَقْيَ الْحَدِّ سَاقِيهَا

فأقمت يا أمير المؤمنين عندها على هذه الحالة مدةً من الزمان حتى نفذ جميع مالي، فتذكّرت وأنا جالس معها مُفَارَقَتِهَا، فنزلت دموعي على خدي كالأنهار، وصرت لا أعرف الليل من النهار، فقالت: لأي شيء تبكي؟ فقلت لها: يا سيدتي، من حين جئت إليك وأبوك

يأخذ مني في كل ليلة خمسمائة دينار، وما بقي عندي شيء من المال، وقد صدق الشاعر حيث قال:

الْفَقْرُ فِي أَوْطَانِنَا غُرْبَةٌ وَالْمَالُ فِي الْغُرْبَةِ أَوْطَانٌ

فقالت: اعلم أن أبي من عادته أنه إذا كان عنده تاجر وافترق فإنه يضيفه ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك يُخْرِجه فلا يعود إلينا أبدًا، ولكن اكنتم سرك وأخف أمرك وأنا أعمل حيلة في اجتماعي بك إلى ما شاء الله، فإن لك في قلبي محبة عظيمة. واعلم أن جميع مال أبي تحت يدي، وهو لا يعرف قدره، فأنا أعطيك في كل يوم كيسًا فيه خمسمائة دينار، وأنت تعطيه لأبي وتقول له: ما بقيت أعطي الدراهم إلا يومًا بيوم. وكلما دفعته إليه فإنه يدفعه إليّ وأنا أعطيه لك، ونستمر هكذا إلى ما شاء الله. فشكرتها على ذلك وقبّلت يدها، ثم أقمت عندها يا أمير المؤمنين على هذه الحالة مدة سنة كاملة، فاتفق في بعض الأيام أنها ضربت جاريتها ضربًا وجيعًا، فقالت لها: والله لأوجعن قلبك كما أوجعتني. ثم مضت تلك الجارية إلى أبيها وأعلمته بأمرنا من أوله إلى آخره، فلما سمع طاهر بن العلاء كلام الجارية قام من ساعته ودخل عليّ وأنا جالس مع ابنته، وقال لي: يا فلان! قلت له: لبيك. قال: عادتنا أنه إذا كان عندنا تاجر وافترق أننا نضيفه عندنا ثلاثة أيام، وأنت لك سنة عندنا تأكل وتشرب وتفعل ما تشاء. ثم التفت إلى غلمانها وقال: اخلعوا ثيابهم. ففعلوا وأعطوني ثيابًا رديئة قيمتها خمسة دراهم، ودفعوا إليّ عشرة دراهم، ثم قال لي: اخرج، فأنا لا أضربك ولا أشتك، واذهب إلى حال سبيلك، وإن أقمت في هذه البلدة كان دمك هدرًا. فخرجتُ يا أمير المؤمنين برغم أنفي، ولا أعلم أين أذهب، وحلّ في قلبي كلُّ همٍّ في الدنيا، وأشغلني الوسواس، وقلت في نفسي: كيف أجيء في البحر بمائة ألف ألف من جملتها ثمن ثلاثين مركبًا ويذهب هذا كله في دار هذا الشيخ النحس، وبعد ذلك أخرج من عنده عريانًا مكسور القلب؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! ثم أقمت في بغداد ثلاثة أيام لم أذُق طعامًا ولا شرابًا، وفي اليوم الرابع رأيت سفينة متوجّهة إلى البصرة، فنزلت فيها واستكرت مع صاحبها إلى أن وصلت البصرة، فدخلت السوق وأنا في شدة الجوع، فرآني رجل بقال، فقام إليّ وعانقني؛ لأنه كان صاحبًا لي ولأبي من قبلي، وسألني عن حالي، فأخبرته بجميع ما جرى لي، فقال: والله ما هذه فعّال عاقل! ومع هذا الذي جرى لك فأني شيء في ضميرك تريد أن تفعله؟ فقلت له: لا أدري ماذا أفعل. فقال: أجلس عندي وتكتب خرجي ودخلي، ولك في كل يوم درهمان زيادة

على أكلك وشربك؟ فأجبتته إلى ذلك وأقمت عنده يا أمير المؤمنين سنة كاملة أبيع وأشتري إلى أن صار معي مائة دينار، فاستأجرت غرفة على شاطئ البحر؛ لعل مركباً يأتي ببضاعة فأشتري بالدنانير بضاعة وأتوجّه بها إلى بغداد. فاتفق في بعض الأيام أن المركب جاء، وتوجّه إليه جميع التجار يشترون، فرحّت معهم، وإذا برجلين قد خرجا من بطن المركب ونصبا لهما كرسيّين وجلسا عليهما، ثم أقبل التجار عليهما لأجل الشراء، فقالا لبعض الغلمان: أحضروا البساط. فأحضروه وجاء واحد بخُرْج فأخرج منه جراباً وفتحه وكبّه على البساط، وإذا به يخطف البصر لما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان والياقوت والعقيق من سائر الألوان. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب لما أخبر الخليفة بقضية التجار، وبالجرباب وما فيه من سائر أنواع الجواهر قال: يا أمير المؤمنين، ثم إن واحدًا من الرجلين الجالسَيْن على الكراسي التفت إلى التجار وقال لهم: يا معاشر التجار، أنا ما أبيع في يومي هذا لأنني تعبان. فتزايدت التجار في الثمن حتى بلغ مقداره أربعمئة دينار، فقال لي صاحب الجرباب وكان بيني وبينه معرفة قديمة: لماذا لم تتكلم ولم تزود مثل التجار؟ فقلت له: والله يا سيدي ما بقي عندي شيء من الدنيا سوى مائة دينار. واستحييت منه ودمعت عيني، فنظر إليّ وقد عسر عليه حالي، ثم قال للتجار: اشهدوا عليّ أنني بعْتُ جميع ما في الجرباب من أنواع الجواهر والمعادن لهذا الرجل بمائة دينار، وأنا أعرف أنه يساوي كذا وكذا ألف دينار، وهو هدية مني إليه. فأعطاني الخرج والجرباب والبساط وجميع ما عليه من الجواهر، فشكرته على ذلك، وجميع مَنْ حضر من التجار أثنوا عليه، ثم أخذتُ ذلك ومضيت به إلى سوق الجواهر، وقعدت أبيع وأشتري، وكان من جملة هذه المعادن قرص تعويذ صنعة المعلمين، زنته نصف رطل، وكان أحمر شديد الحُمْرة، وعليه أسطر مثل ديبب النمل من الجانبَيْن، ولم أعرف منفعته، فبعْتُ واشتريت مدة سنة كاملة، ثم أخذتُ قرص التعويذ وقلت: هذا له عندي مدة لا أعرفه ولا أعرف منفعته. فدفعته إلى الدلال فأخذه ودار به، ثم عاد وقال: ما دفع فيه أحد من التجار سوى عشرة دراهم. فقلت: ما أبيع به هذا القدر! فرماه في وجهي وانصرف، ثم عرضته للبيع يومًا آخر فبلغ ثمنه خمسة عشر درهمًا، فأخذته من الدلال مغضبًا، ورميته عندي.

فبينما أنا جالس يومًا، إذ أقبل عليّ رجل فسلم عليّ وقال لي: عن إذك، هل ألقب ما عندك من البضائع؟ قلت: نعم. وأنا يا أمير المؤمنين مغتاز من كساد قرص التعويذ، فلقب الرجل البضاعة ولم يأخذ منها سوى قرص التعويذ، فلما رآه يا أمير المؤمنين قبل يده

وقال: الحمد لله! ثم قال: يا سيدي، أتبيع هذا؟ فازداد غيظي وقلت له: نعم. فقال لي: كم ثمنه؟ فقلت له: كم تدفع أنت فيه؟ قال: عشرين دينارًا. فتوهَّمْتُ أنه يستهزئ بي، فقلت: اذهب إلى حال سبيلك. فقال لي: هو بخمسين دينار. فلم أخاطبه، فقال: بألف دينار. هذا كله يا أمير المؤمنين وأنا ساكت ولم أجبه، وهو يضحك من سكوتي ويقول: لأي شيء لم تردَّ عليَّ؟ فقلت له: اذهب إلى حال سبيلك. وأردت أن أخاصمه وهو يزيد ألفًا بعد ألف، ولم أرِدْ عليه حتى قال: أتبيعه بعشرين ألف دينار؟ وأنا أظن أنه يستهزئ بي، فاجتمع علينا الناس وكلُّ منهم يقول لي: بعه، وإن لم يشتَرِ فنحن الكل عليه، ونضربه ونُخرجه من البلد. فقلت له: هل أنت تشتري أو تستهزئ؟ فقال: هل أنت تتبع أو تستهزئ؟ قلت له: أبيع. قال: هو بثلاثين ألف دينار، خذها وأمضِ البيع. فقلت للحاضرين: اشهدوا عليه، ولكن بشرط أن تخبرني ما فائدته، وما نفعه. قال: أمضِ البيع وأنا أخبرك بفائدته ونفعه. فقلت: بعتك. فقال: الله على ما أقول وكيل. ثم أخرجَ الذهب وقبَّضني إياه، وأخذ قرص التعويذ ووضعه في جيبه، ثم قال لي: هل رضيت؟ قلت: نعم. فقال: اشهدوا عليه أنه أمضى البيع وقبض الثمن ثلاثين ألف دينار. ثم إنه التفت إليَّ وقال لي: يا مسكين، والله لو أحرَّتَ البيع لزدناك إلى مائة ألف دينار، بل إلى ألف ألف دينار. فلمَّا سمعت يا أمير المؤمنين هذا الكلام نفر الدم من وجهي، وعلا عليه هذا الاصفرار الذي أنت تنظره من ذلك اليوم. ثم قلت له: أخبرني ما سبب ذلك؟ وما نفع هذا القرص؟ فقال: اعلم أن ملك الهند له بنت لم يُرَ أحسن منها، وبها داء الصداغ، فأحضر الملك أرباب الأقلام وأهل العلوم والكهان، فلم يرفعوا عنها ذلك، فقلتُ له — وكنت حاضرًا بالمجلس: أيها الملك، أنا أعرف رجلًا يُسمَّى سعد الله البابلي، ما على وجه الأرض أعرفُ منه بهذه الأمور، فإن رأيت أن ترسلني إليه فافعل. فقال: اذهب إليه. فقلت له: أحضر إليَّ قطعة من العقيق. فأحضر لي قطعة كبيرة من العقيق ومائة ألف دينار وهدية، فأخذت ذلك وتوجَّهت إلى بلاد بابل، فسألت عن الشيخ فدلُّوني عليه، ودفعت له المائة ألف دينار والهدية، فأخذ ذلك مني، ثم أخذ القطعة العقيق وأحضر حكاكا فعملها هذا التعويذ، ومكث الشيخ سبعة أشهر يرصد النجم حتى اختار وقتًا للكتابة وكتب عليه هذه الطلاسم التي تنظرها، ثم جئت به إلى الملك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب قال لأُمير المؤمنين: إن الرجل قال لي: أخذتُ هذا التعويذُ وجئتُ به إلى الملك، فلما وضعه على ابنته برئت من ساعتها، وكانت مربوطة في أربع سلاسل، وكل ليلة تبیت عندها جارية فتصبح مذبوحة، فمن حين وُضع عليها هذا التعويذُ برئت لوقتتها، وفرح الملك بذلك فرحاً شديداً، وخلع عليّ وتصدّق بمال كثير، ثم وضعه في عقدها، فاتفق أنها نزلت يوماً في مركب هي وجواريتها تنتزّه في البحر، فمدّت جارية يدها إليها لتلاعبها، فانقطع العقد وسقط في البحر، فعاد من ذلك الوقت العارضُ لابنة الملك، فحصل للملك ما حصل من الحزن، فأعطاني مالاً كثيراً وقال لي: اذهب إلى الشيخ ليعمل لها تعويذاً عوضاً عنه، فسافرت إليه فوجدته قد مات، فرجعت إلى الملك وأخبرته، فبعثني أنا وعشرة أنفس نطوف في البلاد لعلنا نجد لها دواءً، فأوقعني الله به عندك. فأخذني مني يا أمير المؤمنين وانصرف، فكان ذلك الأمر سبباً للاصفرار الذي في وجهي.

ثم إنني توجّهت إلى بغداد ومعني جميع مالي، وسكنت في الدار التي كنت فيها، فلما أصبح الصباح لبستُ ثيابي وجئتُ إلى بيت طاهر بن العلاء لعلني أرى مَنْ أحبها؛ فإن حبها لم يزل يترّيد في قلبي. فلما وصلتُ إلى داره رأيتُ الشباك قد انهدم، فسألتُ غلاماً وقلت له: ما فعل الله بالشيخ؟ فقال: يا أخي، إنه قدّم عليه في سنة من السنين رجل تاجر يقال له أبو الحسن العماني، فأقام مع ابنته مدة من الزمان، ثم بعدما ذهب ماله أخرجَه الشيخ من عنده مكسورَ خاطر، وكانت الصبيّة تحبه حبّاً شديداً، فلما فارَقَها مرضتُ مرضاً شديداً حتى بلغت الموت، وعرف أبوها بذلك فأرسلَ خلفَه في البلاد، وقد ضمنَ مَنْ يأتي به مائة ألف دينار، فلم يَرَه أحد، ولم يقع له على أثر، وهي إلى الآن مشرفة على الموت. قلت: وكيف حال أبيها؟ قال: باع الجوّاري من عظم ما أصابه. فقلت:

له: هل أدلك على أبي الحسن العماني؟ فقال: بالله عليك يا أخي أن تدلني عليه. فقلت له: اذهب إلى أبيها وقل له: البشارة عندك؛ فإن أبا الحسن العماني واقف على الباب. فذهب الرجل يهرول كأنه بغل انطلق من طاحون، ثم غاب ساعة وجاء وصحبته الشيخ، فلما رأني رجع إلى داره وأعطى الرجل مائة ألف دينار، فأخذها وانصرف وهو يدعو لي، ثم أقبل الشيخ وعانقني وبكى وقال: يا سيدي، أين كنت في هذه الغيبة؟ قد هلكت ابنتي من أجل فراقك، فادخل معي إلى المنزل. فلما دخلتُ سجد شكرًا لله تعالى وقال: الحمد لله الذي جمعنا بك. ثم دخل لابنته وقال لها: قد شفاكِ الله من هذا المرض. فقالت: يا أبت، ما أبرأ من مرضي إلا إذا نظرتُ وجهَ أبي الحسن. فقال: إذا أكلتِ أكلًا ودخلتِ الحمام جمعتُ بينكما. فلما سمعت كلامه قالت: أصحيح ما تقول؟ قال لها: والله العظيم إن الذي قلته صحيح. فقالت: والله إن نظرتُ وجهه فما أحتاج إلى أكل. فقال لغلامه: أحضر سيدك. فدخلت، فلما نظرتُ إليَّ يا أمير المؤمنين وقعت مغشيًا عليها، فلما أفاقت أنشدت هذا البيت:

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَتَيْنِ بَعْدَمَا يَظُنَّانِ كُلُّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

ثم استوت جالسةً وقالت: والله يا سيدي ما كنتُ أظن أني أرى وجهك إلا إن كان منامًا. ثم إنها عانقتني وبكت، وقالت: يا أبا الحسن، الآن أكل وأشرب. فأحضروا الطعام والشراب، ثم صرتُ عندهم يا أمير المؤمنين مدةً من الزمان وعادت لِمَا كانت عليه من الجمال، ثم إن أباهَا استدعى بالقاضي والشهود وكتب كتابها عليَّ، وعمل وليمة عظيمة، وهي زوجتي إلى الآن.

ثم إن ذلك الفتى قام من عند الخليفة ورجع إليه بغلام بديع الجمال، بقدر ذي رشاقة واعتدال، وقال له: قبَّل الأرض بين أيادي أمير المؤمنين. فقَبَّل الأرض بين يدي الخليفة، فتعجَّب الخليفة من حُسْنه وسَبْح خالقه، ثم إن الرشيد انصرف هو وجماعته وقال: يا جعفر، ما هذا إلا شيء عجيب، ما رأيت ولا سمعت بأغرب منه! فلما جلس الرشيد في دار الخلافة قال: يا مسرور. قال: لبيك يا سيدي. قال: اجعل في هذا الإيوان خراج البصرة وخراج بغداد وخراج خراسان. فجمعه فصار مالاً عظيماً لا يُحصى عدده إلا الله. ثم قال الخليفة: يا جعفر. قال: لبيك. قال: أحضر لي أبا الحسن. قال: سمعًا وطاعة. ثم أحضره، فلما حضر قَبَّل الأرض بين يدي الخليفة وهو خائف أن يكون طلبه له بسبب خطأ وقع منه وهو عنده بمنزله، فقال الرشيد: يا عماني. قال له: لبيك يا أمير

المؤمنين، خَلَدَ الله نِعَمَهُ عليك. فقال: اكشف هذه الستارة. وكان الخليفة أمرهم أن يضعوا مال الثلاثة أقاليم ويسبلوا عليه الستارة. فلما كشف العثماني الستارة عن الإيوان اندهش عقله من كثرة المال، فقال الخليفة: يا أبا الحسن، أهذا المال أكثر أم الذي فاتك من قرص التعويذ؟ فقال: بل هذا يا أمير المؤمنين أكثر بأضعاف كثيرة. قال الرشيد: اشهدوا يا مَنْ حضر أنني وهبت هذا المال لهذا الشاب. فقبل الأرض واستحى وبكى من شدة الفرح بين يدي الرشيد، فلما بكى جرى الدمع من عينه على خده، فرجع الدم إلى محله، فصار وجهه كالقدر ليلة تمامه، فقال الخليفة: لا إله إلا الله، سبحان مَنْ يَغَيِّرُ حالاً بعد حال وهو باق لا يتغير! ثم أتى بمرآة وأراه وجهه فيها، فلما رآه سجد شكراً لله تعالى، ثم أمر الخليفة أن يُحْمَلَ إليه المال، وسأله أنه لا ينقطع عنه لأجل المندامة. فصار يتردد إليه إلى أن تَوَفَّى الخليفة إلى رحمة الله تعالى، فسبحان الحي الذي لا يموت ذي الملك والملكوت.

حكاية إبراهيم وجميلة

ومما يُحكى أيضاً أيها الملك السعيد، أن الخصيب صاحب مصر كان له ولد ولم يكن في زمانه أحسن منه، وكان من خوفه عليه لا يمكُّنه من الخروج إلا لصلاة الجمعة، فمرَّ وهو خارج من صلاة الجمعة على رجل كبير وعنده كتب كثيرة، فنزل عن فرسه وجلس عنده، وقلب الكتب وتأملها، فرأى فيها صورة امرأة تكاد أن تنطق، ولم يرَ أحسن منها على وجه الأرض، فسلبت عقله وأدهشت لبَّه، فقال له: يا شيخ، بِعْني هذه الصورة. فقبل الأرض بين يديه، ثم قال: يا سيدي، بغير ثمن. فدفع له مائة دينار، وأخذ الكتاب الذي فيه هذه الصورة وصار ينظر إليها ويبكي ليله ونهاره، وامتنع من الطعام والشراب والنم، وقال في نفسه: لو سألتُ الكُتَّابي عن صانع هذه الصورة مَنْ هو لربما أخبرني، فإن كانت صاحبها في الحياة توصَّلتُ إليها، وإن كانت صورةً مطلقة تركتُ التولُّع بها، ولا أعذب نفسي بشيء لا حقيقة له. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب لما قال في نفسه: لو سألت الكُتبي عن هذه الصورة لربما أخبرني، فإن كانت صورةً مُطلَقَةً تركتُ التولُّع بها، ولا أَعَذِّب نفسي بشيء لا حقيقة له. فلما كان يوم الجمعة مرَّ على الكُتبي، فنهض إليه قائمًا، فقال له: يا عمُّ، أخبرني مَنْ صنع هذه الصورة؟ قال: يا سيدي، صنعها رجل من أهل بغداد يُقال له أبو القاسم الصندلاني، في حارة الكرخ، وما أعلم صورةً مَنْ هي. فقام الغلام من عنده ولم يُعلم بحاله أحدًا من أهل مملكته، ثم صَلَّى الجمعة وعاد إلى البيت، فأخذ جرابًا وملاء من الجواهر والذهب، وقيمة الجواهر ثلاثون ألف دينار، ثم صبر إلى الصباح وخرج ولم يُعلم أحدًا، ولحق قافلة فرأى بدويًا، فقال له: يا عمُّ، كم بيني وبين بغداد؟ فقال له: يا ولدي، أين أنت وأين بغداد؟! بينك وبينها مسيرة شهرين. فقال له: يا عمُّ، إن وصَّلتني إلى بغداد أعطيتك مائة دينار، وهذه الفرس التي تحتي وقيمتها ألف دينار. فقال له البدوي: الله على ما تقول وكيل، ولكن لا تنزل في هذه الليلة إلا عندي. فأجابه إلى قوله وبات عنده، فلما لاح الفجر أخذه البدوي ثم سار به سريعًا في طريق قريب؛ طمعًا في تلك الفرس التي وعده بها، وما زالا سائرَيْن حتى وصلا إلى حيطان بغداد، فقال له البدوي: الحمد لله على السلامة يا سيدي، هذه بغداد. ففرح الغلام فرحًا شديدًا، ونزل عن الفرس وأعطاهما للبدوي هي والمائة دينار، ثم أخذ الجراب وسار يسأل عن حارة الكرخ، وعن محل التجار، فساقه القدر إلى درب فيه عشر حجر، خمس تقابل خمسًا، وفي صدر الدرب باب بمصراعين، له حلقة من فضة، وفي الباب مصطبتان من الرخام مفروشتان بأحسن الفرش، وفي إحداهما رجل جالس وهو مُهابٌ حسن الصورة، وعليه ثياب فاخرة، وبين يديه خمسة مماليك كأنهم أقمار. فلما رأى الغلام ذلك عرف العلامة التي ذكرها له الكُتبي، فسَلَّم على الرجل، فردَّ عليه السلام ورَحَّب به، وأجلسه وسأله عن حاله، فقال له

الغلام: أنا رجل غريب، وأريد من إحسانك أن تنتظر لي في هذا الدرب دارًا لأسكن فيها. فصاح الرجل وقال: يا غزالة. فخرجت إليه جارية وقالت: لبيك يا سيدي. فقال: خذي معك بعض خدم واذهبوا إلى حجرة ونظفوها وافرشوها وحطوا فيها جميع ما يحتاج إليه من آنية وغيرها لأجل هذا الشاب الحسن الصورة. فخرجت الجارية وفعلت ما أمرها به، ثم أخذته الشيخ وأراه الدار، فقال له الغلام: يا سيدي، كم أجرة هذه الدار؟ فقال له: يا صبيح الوجه، أنا ما آخذ منك أجرة ما دمت فيها. فشكره على ذلك.

ثم إن الشيخ نادى جارية أخرى، فخرجت جارية كأنها الشمس، فقال لها: هاتي الشطرنج. فأتت به، ففرش المملوك الرقعة وقال الشيخ للغلام: أتلعب معي؟ قال: نعم. فلعب معه مرات والغلام يغلبه، فقال: أحسنت يا غلام، ولقد كملت صفاتك، والله ما في بغداد من يغلبني، وقد غلبتني أنت. ثم بعد أن هيئوا الدار بالفرش وسائر ما يحتاج إليه، سلّم إليه المفاتيح وقال له: يا سيدي، ألا تدخل منزلي وتأكل عيشي فنتشرف بك؟ فأجابه الغلام إلى ذلك، ومشى معه، فلما وصلا إلى الدار رأى دارًا حسنة جميلة مزركشة بالذهب، وفيها من جميع التصاوير، وفيها من أنواع الفرش والأمتعة ما يعجز عن وصفه اللسان. ثم صار يحييه وأمر بإحضار الطعام، فأتوا بمائدة من شغل صنعاء اليمن، فوضعت، وأتوا بالطعام ألوانًا غريبة لم يوجد أفخر منها ولا ألدُّ، فأكل الغلام حتى اكتفى، ثم غسل يديه، وصار الغلام ينظر إلى الدار والفرش، ثم التفت إلى الجراب الذي كان معه فلم يره، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أكلتُ لقمةً تساوي درهمًا أو درهمن فذهب مني جراب فيه ثلاثون ألف دينار، ولكن استعنتُ بالله. ثم سكت ولم يقدر أن يتكلم. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام لما رأى الجراب مفقودًا حصل له غمٌ كبير، فسكت ولم يقدر أن يتكلم، فقدّم الشيخ الشطرنج وقال للغلام: هل تلعب معي؟ قال: نعم. فلعب فغلبه الشيخ، فقال الغلام: أحسنت. ثم ترك اللعب وقام، فقال له: ما لك يا غلام؟ فقال: أريد الجراب. فقام وأخرجه له وقال: ها هو يا سيدي، هل ترجع إلى اللعب معي؟ قال: نعم. فلعب معه فغلبه الغلام، فقال الرجل: لِمَا اشتغل فكرك بالجراب غلبتُك، فلما جئت به إليك غلبتني. ثم قال له: يا ولدي، أخبرني من أي البلاد أنت؟ فقال: من مصر. فقال له: وما سبب مجيئك إلى بغداد؟ فأخرج له الصورة وقال: اعلم يا عمّ أنني ولد الخصيب صاحب مصر، وقد رأيت هذه الصورة عند رجل كُتبتِ فسلبتُ عقلي، فسألتُ عن صانعها فقبل لي: إن صانعها رجل من بغداد بحارة الكرخ يُقال له أبو القاسم الصندلاني، بدرٍ يُعرف بدرب الزعفران، فأخذت معي شيئًا من المال وجئت وحدي ولم يعلم بحالي أحد، وأريد من تمام إحسانك أن تدلّني عليه حتى أسأله عن سبب تصويره لهذه الصورة، وصورة من هي، ومهما أَرادَه مني فإنني أعطيه إياه. فقال: والله يا ابني إني أنا أبو القاسم الصندلاني، وهذا أمر عجيب! كيف ساقتك المقادير إليّ؟ فلما سمع الغلام كلامه قام إليه وعانقه وقبل رأسه ويديه، وقال له: بالله عليك أن تخبرني بصورة من هي؟ فقال: سمعًا وطاعة. ثم قام وفتح خزانة وأخرج منها عدة كتب كان صوّر فيها هذه الصورة، وقال: اعلم يا ولدي أن صاحبة هذه الصورة ابنة عمي، وهي في البصرة، وأبوها حاكم البصرة يُقال له أبو الليث، وهي يُقال لها جميلة، وما على وجه الأرض أجمل منها، ولكنها زاهدة في الرجال، ولم تقدر أن تسمع ذكْر رجل في مجلسها، وقد ذهبَتْ إلى عمي بقصد أنه يزوّجني بها، وبذلت له الأموال فلم يُجِبني إلى ذلك، فلما علّمت ابنته بذلك اغتاظت وأرسلت إليّ كلامًا من جملة أنها قالت: إن كان لك عقل فلا تُقم بهذه البلدة وإلا

تهلك ويكون ذنبك في عنقك. وهي جبارة من الجبابرة، فخرجت من البصرة وأنا منكسر الخاطر، وعملت هذه الصورة في الكتب وفرقتها في البلاد؛ لعلها تقع في يد غلام حسن الصورة مثلك فيتحيل في الوصول إليها؛ لعلها تعشقه، وأكون قد أخذت عليه العهد أنه إذا تمكّن منها يُريني إياها ولو نظرة من بعيد. فلما سمع إبراهيم بن الخصيب كلامه أطرق رأسه ساعة وهو يتفكّر، فقال له الصندلاني: يا ولدي، إني ما رأيت ببغداد أحسن منك، وأظن أنها إذا نظرتك تحبك، فهل يمكنك إذا اجتمعت بها وظفرت بها أن تريني إياها ولو نظرة من بعيد؟ فقال: نعم. فقال: إذا كان الأمر كذلك فأقم عندي إلى أن تسافر. فقال: لا أقدر على المقام؛ فإنّ في قلبي من عشقها نارًا زائدة. فقال له: اصبر حتى أجهّز لك مركبًا في ثلاثة أيام لتذهب فيه إلى البصرة. فصبر حتى جهّز له مركبًا ووضع فيه كلّ ما يحتاج إليه من مأكول ومشروب وغير ذلك. وبعد الثلاثة أيام قال للغلام: تجهّز للسفر؛ فقد جهّزْتُ لك مركبًا فيه سائر ما تحتاج إليه، والمركب ملكي، والملاحون من أتباعي، وفي المركب ما يكفيك إلى أن تعود، وقد وصّيتُ الملاحين أن يخدموك إلى أن ترجع بالسلامة. فنهض الغلام ونزل في المركب، وودّعه وسار حتى وصل إلى البصرة، فأخرج الغلام مائة دينار للملاحين، فقالوا له: نحن أخذنا الأجرة من سيدنا. فقال لهم: خذوها إنعامًا وأنا لا أخبره بذلك. فأخذوها منه ودعوا له.

ثم دخل الغلام البصرة وسأل: أين مسكن التجار؟ فقالوا له: في خان يُسمّى خان حمدان. فمشى حتى وصل إلى السوق الذي فيه الخان، فامتدت إليه الأعين بالنظر من فرط حسنه وجماله. ثم دخل الخان مع رجل ملاح وسأل عن البواب، فدّلّوه عليه، فرآه شيخًا كبيرًا مُهابًا، فسلم عليه، فردّ عليه السلام، فقال: يا عمّ، هل عندك حجرة ظريفة؟ قال: نعم. ثم أخذه هو والملاح وفتح لهما حجرة ظريفة مزركشة بالذهب، وقال: يا غلام، إن هذه الحجرة تصلح لك. فأخرج الغلام دينارين وقال له: خذ هذين حلوان المفتاح. فأخذهما ودعا له وأمر الغلام الملاح بالذهاب إلى المركب، ثم دخل الحجرة، فاستمرّ عنده بواب الخان وخدمه، وقال له: يا سيد، حصل لنا بك السرور. فأعطاه الغلام دينارًا وقال له: هات لنا به خبرًا ولحمًا وحلوى وشرابًا. فأخذه وذهب إلى السوق ورجع إليه، وقد اشترى ذلك بعشرة دراهم وأعطاه الباقي، فقال له الغلام: اصرفه على نفسك. ففرح بواب الخان بذلك فرحًا عظيمًا. ثم إن الغلام أكل مما طلبه قرصًا واحدًا بقليل من الأثم، وقال لبواب الخان: خذ هذا إلى أهل منزلك. فأخذه وذهب به إلى أهل منزله، وقال لهم: ما أظن أن أحدًا على وجه الأرض أكرم من الغلام الذي سكن عندنا في هذا اليوم ولا أحلى منه،

فإن دام عندنا حصل لنا الغنى. ثم إن بواب الخان دخل على إبراهيم فرآه يبكي، فقعد وصار يكبّس رجلَيْه، ثم قبلهما وقال: يا سيدي، لأي شيء تبكي، لا أبكاك الله؟ فقال: يا عمّ، أريد أن أشرب أنا وأنت في هذه الليلة. فقال له: سمعًا وطاعة. فأخرج له خمسة دنانير وقال له: اشتر لنا بها فاكهة وشرابًا. ثم دفع له خمسة دنانير أخرى وقال له: اشتر لنا بهذه نقلًا ومشموماً وخمس دجاجات سمان، وأحضر لي عودًا. فخرج واشترى له ما أمره به، وقال لزوجته: اصنعي هذا الطعام، وصفي لنا هذا الشراب، وليكن ما تصنعيه جيدًا؛ فإن هذا الغلام قد عمّنّا بإحسانه. فصنعت زوجته ما أمرها به على غاية المراد، ثم أخذه ودخل به على إبراهيم ابن السلطان. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بَوَّاب الخان لما صنعت زوجته الطعام والشراب أخذه ودخل به على ابن السلطان، فأكلَا وشربا وطربا، فبكى الغلام وأنشد هذين البيتين:

يَا صَاحِبِي لَوْ بَدَلْتَ الرُّوحَ مُجْتَهِدًا وَجُمَلَةَ الْمَالِ وَالْدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
وَجَنَّةَ الْخُلْدِ وَالْفِرْدَوْسَ أَجْمَعَهَا بِسَاعَةِ الْوَصْلِ كَانَ الْقَلْبُ شَارِيهَا

ثم شهب شهبقة عظيمة وخر مغشيا عليه، فتنهَّد بَوَّاب الخان، فلما أفاق قال له بواب الخان: يا سيدي، ما يبكيك؟ ومن هي التي تريدها بهذا الشَّعر؟ فإنها لا تكون إلا ترابًا لأقدامك. فقام الغلام وأخرج بقجة من أحسن ملابس النساء، وقال له: خذ هذه إلى حريمك. فأخذها منه ودفعها إلى زوجته، فأنت معه ودخلت على الغلام، فإذا هو يبكي، فقالت له: فتت أكبادنا، فعرفنا بأي مليحة تريدها، وهي لا تكون إلا جارية عندك. فقال: يا عم، اعلم أنني أنا ابن الخصيب صاحب مصر، وأني متعلق بجميلة بنت الليث العميد. فقالت زوجة بواب الخان: الله يا أخي أن تترك هذا الكلام لئلا يسمع بنا أحد فنهلك؛ فإنه ما على وجه الأرض أجبر منها ولا يقدر أحد أن يذكر لها اسم رجل؛ لأنها زاهدة في الرجال. فيا ولدي، اعدل عنها لغيرها. فلما سمع كلامها بكى بكاء شديداً، فقال له بواب الخان: ما لي سوى روحي، فأنا أخاطر بها في هواك، وأدبر لك أمراً فيه بلوغ مرادك. ثم خرجا من عنده، فلما أصبح الصباح دخل الحمَّام ولبس حلة من ملبوس الملوك، وإذا ببَوَّاب الخان هو وزوجته قديما عليه وقالا له: يا سيدي، اعلم أن هنا رجلاً خياطاً أهدب، وهو خياط السيدة جميلة، فاذهب إليه وأخبره بحالك، فعساه يدلك على ما فيه وصولك إلى أغراضك. فقام الغلام وقصد دكان الخياط الأهدب، فدخل عليه فوجد عنده عشرة

ممالك كأنهم الأقمار، فسلم عليهم فردوا عليه السلام، وفرحوا به وأجلسوه وتحيروا في محاسنه وجماله، فلما رآه الأحذب اندهش عقله من حُسن صورته، فقال له الغلام: أريد أن تخطط لي جيبي. فتقدم الخياط وأخذ فتلة من الحرير وخاطه، وكان الغلام قد فتق جيبه عمدًا، فلما خاطه أخرج له خمسة دنانير وأعطاهما له، وانصرف إلى حجرته، فقال الخياط: أي شيء عملته لهذا الغلام حتى أعطاني الخمسة دنانير؟! ثم بات ليلته يفكر في حُسنه وكرمه، فلما أصبح الصباح ذهب إلى دكان الخياط الأحذب، ثم دخل وسلم عليه، فردَّ عليه السلام وأكرمه ورحبَّ به، فلما جلس، قال للأحذب: يا عمُّ، خيط لي جيبي، فإنه فُتقَ ثانيًا. فقال له: يا ولدي، على الرأس والعين. ثم تقدَّم وخاطه، فدفع له عشرة دنانير، فأخذها وصار مبهوثًا من حُسنه وكرمه، ثم قال: والله يا غلام، إن فعلك هذا لا بد له من سبب، وما هذا خبر خياطة جيب، ولكن أخبرني عن حقيقة أمرك، فإن كنتَ عشقتَ واحدًا من هؤلاء الأولاد، فوالله ما فيهم أحسن منك، وكلهم تراب أقدامك، وها هم عبيدك بين يديك، وإن كان غير هذا فأخبرني. فقال: يا عمُّ، ما هذا محل الكلام، فإنَّ حديثي عجيب وأمري غريب. قال: فإذا كان الأمر كذلك فقم بنا في خلوة.

ثم نهض الخياط وأخذ بيده ودخل معه حجرة في داخل الدكان، وقال له: يا غلام، حدثني. فحدثه بأمره من أوله إلى آخره، فبُهِت من كلامه وقال: يا غلام، اتق الله في نفسك، فإن التي ذكرتَها جبارة زاهدة في الرجال، فاحفظ يا أخي لسانك، وإلا فإنك تهلك نفسك. فلما سمع الغلام كلامه بكى بكاءً شديدًا، ولزم ذيل الخياط وقال: أجرنِي يا عم، فأني هالك، وقد تركت مُلكي ومُلك أبي وجَدِّي وصرت في البلاد غريبًا وحيدًا، ولا صبر لي عنها. فلما رأى الخياط ما حلَّ به رَجَمه وقال: يا ولدي، ما عندي إلا نفسي، فأخاطر بها في هواك، فإنك قد جرحْتَ قلبي، ولكن في غدٍ أدبر لك أمرًا يطيب به قلبك. فدعا له وانصرف إلى الخان، فحدث بواب الخان بما قاله الأحذب، فقال له: قد فعل معك جميلًا. فلما أصبح الصباح لبس الغلام أفخر ثيابه، وأخذ معه كيسًا فيه دنانير، وأتى إلى الأحذب فسلم عليه وجلس، ثم قال له: يا عمُّ، أنجز وعدي. فقال له: قُم في هذه الساعة وخذ ثلاث دجاجات سمان وثلاث أواق من السكر النبات، وكوزين لطيفين واملأهما شرابًا، وخذ قدحًا وضعْ ذلك في كارة، وانزل بعد صلاة الصبح في زورق مع ملاح وقل له: أريد أن تذهب بي تحت البصرة. فإن قال لك: ما أقدر أن أعدِّي أكثر من فرسخ، فقل له: الرأي لك. فإذا عدَّى فرغبه بالمال حتى يوصلك، فإذا وصلت فأول بستان تراه فإنه بستان السيدة جميلة، فإذا رأيته فاذهب إلى بابه ترَ درجتين عاليتين عليهما فرش من الديباج، وجالس عليهما رجل

أحذب مثلي، فاشكُ إليه حالك، وتوسَّل به، فعساه أن يرثي لحالك ويوصلك إلى أن تنظرها ولو نظرة من بعيد، وما بيدي حيلة غير هذا. وأما إذا لم يرث لحالك فقد هلكْتُ أنا وأنت، وهذا ما عندي من الرأي، والأمر إلى الله تعالى. فقال الغلام: استعنتُ بالله، ما شاء الله كان ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قام من عند الخياط الأحذب وذهب إلى حجرته، وأخذ ما أمره به في كارة لطيفة، ثم إنه لما أصبح جاء إلى شاطئ الدجلة، وإذا هو برجل ملاح نائم، فأيقظَه وأعطاه عشرة دنانير وقال له: عَدَّني إلى تحت البصرة. فقال له: يا سيدي، بشرط أنني لا أعدِّي أكثر من فرسخ، وإن تجاوزته شبرًا هلكْتُ أنا وأنت. فقال له: الرأي لك. فأخذه وانحدر به، فلما قرب من البستان قال: يا ولدي، من هنا ما أقدر أن أعدِّي، فإن تعديتُ هذا الحد هلكْتُ أنا وأنت. فأخرجَ له عشرة دنانير أخرى وقال له: خذْ هذه النفقة لتستعين بها على حالك. فاستحى منه وقال: سلَّمتُ الأمرَ لله تعالى. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام لما أعطى للملاح العشرة دنانير الأخرى أخذها وقال: سلَّمْتُ الأمرُ الله تعالى. وانحدر به، فلما وصل إلى البستان نهض الغلام من فرحته، ووثب من الزورق وثبَّةً مقدار رمية رمح، ورمى نفسه، فرجع الملاح هاربًا، ثم تقدَّم الغلام فرأى جميع ما وصفه له الأحذب من البستان، ورأى بابه مفتوحًا، وفي الدهليز سرير من العاج جالس عليه رجل أحذب لطيف المنظر، عليه ثياب مذهَّبة، وفي يده دبوس من فضة مطلي بالذهب. فنهض الغلام مسرعًا وانكبَّ على يده وقبلها، فقال له: مَنْ أنت؟ ومن أين أتيت؟ ومن أوصلك إلى ها هنا يا ولدي؟ وكان ذلك الرجل لما رأى إبراهيم بن الخصيب انبهر من جماله، فقال له إبراهيم: يا عمُّ، أنا صبي جاهل غريب. ثم بكى، فرقَّ له وأصعده على السرير، ومسح له دموعه وقال له: لا بأس عليك، إن كنتَ مديونًا قضى الله دينك، وإن كنتَ خائفًا آمن الله خوفك. فقال: يا عمُّ، ما بي خوف ولا عليَّ دين، ومعني مال جزيل بحمد الله وعونه. فقال له: يا ولدي، ما حاجتك حتى خاطرتَ بنفسك وجمالكَ إلى محلٍّ فيه الهلاك؟ فحكى له حكايته، وشرح له أمره، فلما سمع كلامه أطرق رأسه ساعةً إلى الأرض وقال: هل الذي دلَّكَ عليَّ الخياط الأحذب؟ قال له: نعم. قال: هذا أخي، وهو رجل مبارك. ثم قال: يا ولدي، لولا أن محبَّتكَ نزلتْ في قلبي ورحمتك لهلكتَ أنت وأخي وبوَّاب الخان وزوجته. ثم قال: اعلم أن هذا البستان ما على وجه الأرض مثله، وأنه يُقال له بستان اللؤلؤة، وما دخله أحدٌ مدَّةَ عمري إلا السلطان وأنا وصاحبته جميلة، وأقمْتُ فيه عشرين سنة، فما رأيت أحدًا جاء إلى هذا المكان، وكل أربعين يومًا تأتي في المركب إلى ها هنا وتصعد بين جواربها في حلة أطلس، تحمل أطرافها عشرَ جوارٍ بكلايب من الذهب إلى أن تدخل، فلم أرَ منها شيئًا، ولكن أنا ما لي إلا نفسي فأخاطر بها من أجلك.

فعند ذلك قبَّل الغلام يده، فقال له: اجلس عندي حتى أدبِّر لك أمرًا. ثم أخذ بيد الغلام وأدخله البستان.

فلما رأى إبراهيم ذلك البستان ظنَّ أنه الجنة ورأى الأشجار ملتفةً، والنخيل باسقة، والمياه متدفقة، والأطيار تناعي بأصوات مختلفة، ثم ذهب به إلى قبة وقال له: هذه التي تقعد فيها السيدة جميلة. فتأمَّل تلك القبة فوجدها من أعجب المتنزهات، وفيها سائر التصاوير بالذهب واللازورد، وفيها أربعة أبواب يصعد إليها بخمس درج، وفي وسطها بركة ينزل إليها بدرج من الذهب، وتلك الدرج مرصَّعة بالمعدن، وفي وسط البركة سلسبيل من الذهب فيه صور كبار وصغار، والماء يخرج من أفواهها، فإذا صفقت الصور عند خروج الماء بأصوات مختلفة تخيل لسامعها أنه في الجنة. وحول القبة ساقية قواديسها من الفضة، وهي مكسوَّة بالديباج، وعلى يسار الساقية شبك من الفضة مطلٌّ على برج أخضر فيه من سائر الوحوش والغزلان والأرانب، وعلى يمينها شبك مطل على ميدان فيه من سائر الطيور، وكلها تغرَّد بأصوات مختلفة تدهش السامع. فلما رأى الغلام ذلك أخذَه الطرب، وقعد في باب البستان وقعد البستاني بجانبه، فقال له: كيف ترى بستانني؟ فقال له الغلام: هو جنة الدنيا. فضحك البستاني، ثم قام وغاب عنه ساعة وعاد ومعه طبق فيه دجاج وسمان ومأكول مليح وحلوى من السكر، فوضعه بين يدي الغلام وقال له: كُلْ حتى تشبع. قال إبراهيم: فأكلت حتى اكتفيت. فلما رأيته أكلتُ فرح وقال: والله، هكذا شأن الملوك أولاد الملوك. ثم قال: يا إبراهيم، أي شيء معك في هذه الكارة؟ فحللتها بين يديه، فقال: احملها معك، فإنها تنفَعك إذا حضرت السيدة جميلة، فإنها إذا جاءت لا أقدر أن أدخل لك بما تأكل. ثم قام وأخذ بيدي وأتى بي إلى مكان قبالَ قبة جميلة، فعمل عريشة بين الأشجار وقال: اصعد هنا، فإذا جاءت فإنك تنظرها وهي لا تنتظرك، وهذا أكثر ما عندي من الحيلة، وعلى الله الاعتماد، فإذا غنَّت فاشرب على غنائها، فإذا ذهبت فارجع من حيث جئتَ إن شاء الله مع السلامة. فشكره الغلام وأراد أن يقبِّل يده، فمنعه. ثم إن الغلام وضع الكارة في العريشة التي عملها له، ثم قال له البستاني: يا إبراهيم، تفرَّج في البستان، وكُلْ من أثماره، فإن ميعاد حضور صاحبتك في غد. فصار إبراهيم يتنَزَّه في البستان ويأكل من أثماره، وبات ليلته عنده، فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، صلَّى إبراهيم الصبح، وإذا بالبستاني جاءه وهو مُصَفَّر اللون، وقال له: قم يا ولدي واصعد إلى العريشة، فإن الجواري قد أُتِينَ ليفرشنَ المكان، وهي تأتي بعدهن. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخولي لما دخل على إبراهيم بن الخصيب في البستان قال له: قُمْ يا ولدي اصعد إلى العريشة، فإن الجواري قد أُتِّينَ ليفرشن المكان، وهي تأتي بعدهن، واحذر من أن تبصق أو تمخط أو تعطس، فنهلك أنا وأنت. فقام الغلام وصعد إلى العريشة، وذهب الخولي وهو يقول: رزقك الله السلامة يا ولدي. فبينما الغلام قاعد، وإذا بخمسِ جوارٍ أقبلن لم يَرَ مثلهن أحد، فدخلن القبة وقلعن ثيابهن وغسلن القبة ورششنها بماء الورد، وأطلقن العود والعنبر وفرشن الديباج، وأقبل بعدهن خمسون جارية ومعهن آلات الطرب، وجميلة بينهن من داخل خيمة حمراء من الديباج، والجواري رافعات أذيال الخيمة بكلايب من الذهب حتى دخلت القبة، فلم يَرَ الغلام منها ولا من أثوابها شيئاً، فقال في نفسه: والله إنه ضاع جميع تعبي، ولكن لا بد لي من أن أصبر حتى أنظر كيف يكون الأمر. فقدمت الجواري الأكل والشرب، ثم أكلن وغسلن أيديهن، ونصبن لها كرسيّاً فجلست عليه، ثم ضربن بآلات الملاهي جميعهن، وغنن بأصوات مطربة لا مثل لها، ثم خرجت عجوز قهرمانة فصفقت ورقصت، فجذبها الجواري، وإذا بالسّتر قد رُفِعَ وخرجت جميلة وهي تضحك، فرأها إبراهيم وعليها الحلي والحلل، وعلى رأسها تاج مرصّع بالدر والجوهر، وفي جيدها عقد من اللؤلؤ، وفي وسطها منطقة من قبضان الزبرجد وحبالها من الياقوت واللؤلؤ، فقام الجواري وقبّلن الأرض بين يديها وهي تضحك، قال إبراهيم بن الخصيب: فلما رأيتها غبت عن وجودي، واندesh عقلي وتحير فكري بما بهرني من جمال لم يكن على وجه الأرض مثله، ووقعت مغشياً عليّ، ثم أفقت باكي العينين وأنشدت هذين البيتين:

أَرَاكَ فَلَا أَرُدُّ الطَّرْفَ كَيْ لَا تَكُونَ حِجَابَ رُؤْيَيْكَ الْجُفُونُ
وَلَوْ أَنِّي نَظَرْتُ بِكُلِّ لَحْظٍ لَمَّا اسْتَوَفَّتْ مَحَاسِنَكَ الْعُيُونُ

فقال العجوز للجواري: لِيَقُمْ مِنْكُمْ عَشْرٌ يَرْقِصْنَ وَيَغْنَيْنَ. فلما رآهن إبراهيم قال في نفسه: أشتهي أن ترقص السيدة جميلة. فلما انتهى رقص العشر جوارٍ أقبلن حولها وقلن: يا سيدتنا، نشتهي أن ترقصي في هذا المجلس ليتم سرورنا بذلك؛ لأننا ما رأينا أطيّب من هذا اليوم. فقال إبراهيم بن الخصيب في نفسه: لا شك أن أبواب السماء قد فُتِحَتْ واستجاب الله دعائي. ثم قَبِلَ الجواري أقدامها وقلن لها: والله ما رأينا صدرك مشروحاً مثل هذا اليوم. فما زلن يرغبنها حتى قلعت أثوابها وصارت بقميص من نسيج الذهب مطرّز بأنواع الجواهر، وأبرزت نهودًا كأنهن الرمان، وأسفرت عن وجه كالبدرد ليلة تمامه، فرأى إبراهيم من الحركات ما لم يَرَ في عمره مثلهما، ولمّا أتت في رقصها بأسلوب غريب وابتداع عجيب حتى أنستنا رقص الحبيب في الكنوس، وأذكرتنا ميل العمائم عن الرؤوس، وهي كما قال فيها الشاعر:

كَمَا اشْتَهَتْ خُلِقَتْ حَتَّى إِذَا اعْتَدَلَتْ فِي قَالِبِ الْحُسْنِ لَا طُولٌ وَلَا قِصْرٌ
كَأَنَّهَا خَلِقَتْ مِنْ مَاءٍ لَوْلَوَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ حُسْنِهَا قَمَرٌ

وكما قال الآخر:

وَرَأَيْتُ مِثْلَ غُصْنِ الْبَانِ قَامَتْهُ تَكَادُ تَذْهَبُ رُوحِي مِنْ تَنَقُّلِهِ
لَا يَسْتَقِرُّ لَهُ فِي رَقْصِهِ قَدَمٌ كَأَنَّمَا نَارُ قَلْبِي تَحْتَ أَرْجُلِهِ

قال إبراهيم: فبينما أنا أنظر إليها؛ إذ لاحت منها التفاتة إليّ فرأيتني تغيّر وجهها، فقالت لجواريها: غنّوا أنتم حتى أجيء إليكن. ثم عمدت إلى سكين قدّر نصف ذراع، وأخذتها وأتت نحوي، ثم قالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فلما قربت مني غبّت عن الوجود، فلمّا رأيتني ووقع وجهها في وجهي وقعت السكين من يدها وقالت: سبحان مقلب القلوب! ثم قالت لي: يا غلام، طِبْ نفساً، ولك الأمان مما تخاف. فصرت أبكي وهي تمسح دموعي بيدها وقالت: يا غلام، أخبرني مَنْ أنت؟ وما جاء بك إلى هذا المكان؟ فقَبَلْتُ الأرض بين يديها ولزمتُ ذيلها، فقالت: لا بأس عليك، فوالله ما ملأتُ عيني من ذَكَر غيرك، فقلْ لي مَنْ أنت؟ قال إبراهيم: فحدّثتها بحديثي من أوله إلى آخره، فتعجّبت من ذلك وقالت لي: يا سيدي، أناشدك الله، هل أنت إبراهيم بن الخصيب؟ قلت: نعم. فانكبّت عليّ وقالت: يا سيدي، أنت الذي زهدتني في الرجال؛ لأنني لما سمعتُ أنه



فخرجت جميلة وعليها الحُلِّي والحُلل ومعهما الجواري، فلما رآها إبراهيم اندهش عقله.

وُجِدَ في مصر صبي لم يكن على وجه الأرض أجمل منه، هويتُك بالوصف، وتعلَّقَ قلبي
بحبك لِمَا بلغني عنك من الجمال الباهر، وصرتُ فيك كما قال الشاعر:

أُذْنِي لَقَدْ سَبَقَتْ فِي عَشْقِهِ بَصَرِي وَالْأُذُنُ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا

فالحمد لله الذي أراني وجهك، والله لو كان أحد غيرك لكنْتُ صلبْتُ البستاني وبوَّاب الخان والخياط ومَن يلوذ بهم. ثم قالت لي: كيف أحتال على شيء تأكله من غير اطلّاع جوارِي؟ فقلت لها: إن معي ما نأكل وما نشرب. ثم حلت الكارة بين يديها، فأخذت دجاجة وصارت تلقمني وألقمها، فلما رأيتُ ذلك منها توهمتُ أنه منام، ثم قدّمت الشراب فشربنا، كل ذلك وهي عندي والجواري تغني، وما زلنا كذلك من الصبح إلى الظهر، ثم قامت وقالت: قُمْ الآن هيئْ لك مركبًا وانتظرني في المحل الفلاني حتى أجيء إليك، فما بقي لي صبر على فراقك. فقلت: يا سيدتي، إن معي مركبًا، وهي ملكي، والملاحون في إجارتي، وهم في انتظاري. فقالت: هذا هو المراد. ثم مضت إلى الجواري. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة جميلة لما مضت إلى الجواري قالت لهن: قُمن بنا لنروح إلى قصرنا. فقلن لها: كيف نقوم في هذه الساعة وعادتنا أننا نقعد ثلاثة أيام؟ فقالت: إني أجد في نفسي ثقلًا عظيمًا كأني مريضة، وأخاف أن يثقل عليّ ذلك. فقلن لها: سمعًا وطاعة. فلبسن ثيابهن، ثم توجّهن إلى الشاطئ ونزلن في الزورق، وإذا بالبستاني قد أقبل على إبراهيم وما عنده علم بالذي جرى له، فقال: يا إبراهيم، ما لك حظّ في التلذذ برؤيتها؛ فإن من عادتها أن تقيم هنا ثلاثة أيام، وأنا أخاف أن تكون رأتك. فقال إبراهيم: ما رأيتي ولا رأيته ولا خرجت من القبة. قال: صدقت يا ولدي، فإنها لو رأتك لكنّا هلكنا، ولكن اقعد عندي حتى تأتي في الأسبوع الثاني وتراها وتشبع من النظر إليها. فقال إبراهيم: يا سيدي، إن معي مالًا وأخاف عليه، وورائي رجال فأخاف أن يستغيّبوني. فقال: يا ولدي، إنه يعزّ عليّ فراقك. ثم عانقه وودّعه. ثم إن إبراهيم توجّه إلى الخان الذي كان نازلًا فيه، وقابل بواب الخان وأخذ ماله، فقال له بواب الخان: خبر خير إن شاء الله. فقال له إبراهيم: إني ما وجدتُ إلى حاجتي سبيلًا، وأريد أن أرجع إلى أهلي. فبكى بواب الخان وودّعه وحمل أمتعته ووصله إلى المركب، وبعد ذلك توجّه إلى المحل الذي قالت له عليه وانتظرها فيه، فلما جنّ الليل إذا بها قد أقبلت عليه وهي في زي رجل شجاع بلحية مستديرة ووسط مشدود بمنطقة، وفي إحدى يديها قوس ونشاب، وفي الأخرى سيف مجرد، وقالت له: هل أنت ابن الخصيب صاحب مصر؟ فقال لها إبراهيم: هو أنا. فقالت له: وأيّ علق أنت حتى جئت تفسد بنات الملوك؟ قمْ كَلِّم السلطان. قال إبراهيم: فوقعْتُ مغشيًا عليّ، وأما الملاحون فإنهم ماتوا في جلودهم من الخوف. فلما رأت

ما حلَّ بي خلعتُ تلك اللحية ورمت السيف وحلَّت المنطقة، فرأيتها هي السيدة جميلة، فقلت لها: والله إنك قطعت قلبي.

ثم قلت للملاحين: أسرعوا في سير المركب. فحلُّوا الشراع وأسرعوا في السير، فما كان إلا أيام قلائل حتى وصلنا إلى بغداد، وإذا بمركب واقفة على جانب الشط، فلما رأنا الملاحون الذين فيها صاحوا على الملاحين الذين معنا وصاروا يقولون: يا فلان، يا فلان، نهنيكم بالسلامة. ثم دفعوا مركبهم على مركبنا فنظرنا فإذا فيها أبو القاسم الصندلاني، فلما رأنا قال: إن هذا هو مطلوبي، امضوا في وداعة الله، وأنا أريد التوجُّه إلى غرض. وكان بين يديه شمعة، ثم قال لي: الحمد لله على السلامة، هل قضيت حاجتك؟ قلت: نعم. فقرَّب الشمعة منَّا، فلما رأته جميلة تغَيَّر حالها، واصفراً لونها، ولما رآها الصندلاني قال: اذهبوا في أمان الله، أنا رايح إلى البصرة في مصلحة للسلطان، ولكن الهدية لمن حضر. ثم أحضر عُلبة من الحلويات ورمأها في مركبنا، وكان فيها البنج. فقال إبراهيم: يا قرَّة عيني، كُلي من هذا. فبكت وقالت: يا إبراهيم، أتدري مَنْ هذا؟ قلت: نعم، هذا فلان. قالت: إنه ابن عمي، وكان سابقاً خطبني من والدي، فما رضيت به، وهو متوجَّه إلى البصرة، فربما يعرف أبي بنا. فقلت: يا سيدتي، هو لا يصل إلى البصرة حتى نصل نحن إلى الموصل — ولم يعلم بما هو مخبوء لهما في الغيب — فأكلتُ شيئاً من الحلوة، فما نزلت جوفي حتى ضربت الأرض برأسي، فلما كان وقت السَّحَر عطست فخرج البنج من منخري، وفتحت عيني فرأيت نفسي عرياناً مرمياً في الخراب، فلطمت على وجهي وقلت في نفسي: إن هذه حيلة عملها عليَّ الصندلاني! فصرت لا أدري أين أذهب وما عليَّ سوى سروال، فقممت وتمشيت قليلاً، وإذا بالوالي أقبل عليَّ ومعه جماعة بسيوف ومطارق، فخفت، فرأيت حمماً خرباً، فتواريت فيه، فعنَّرت رجلي في شيء، فوضعتُ يدي عليه فتلوَّثت بالدم، فمسحتها في سروالي ولم أعلم ما هو، ثم مددت يدي إليه ثانياً فجاءت على القتل، وطلعت رأسه في يدي فرميتها وقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم دخلت زاوية من زوايا الحمام، وإذا بالوالي وقف على باب الحمام وقال: ادخلوا هذا المكان وفتشوا. فدخل منهم عشرة بالمشاعل، فمن خوفي دخلت وراء حائط، فتأمَّلت ذلك المقتول فرأيتُه صبيَّةً ووجهها كالبدن، ورأسها في ناحية وجثتها في ناحية، وعليها ثياب ثمينة، فلما رأيتها وقعت الرجفة في قلبي، ودخل الوالي وقال: فتشوا جهات الحمام. فدخلوا الموضع الذي أنا فيه، فنظرني رجل منهم فجاءني وبيده سكين طولها نصف ذراع، فلما قرب مني قال: سبحان الله خالق هذا الوجه الحسن! يا غلام، من أين أنت؟ ثم أخذ بيدي وقال: يا غلام، لأي شيء

قتلتَ هذه المقتولة؟ فقلت: والله ما قتلتها، وما أعرف مَنْ قتلها، وما دخلت هذا المكان إلا فزعاً منكم. وأخبرته بقصتي وقلت له: بالله عليك لا تظلمني، فإنني مشغول بنفسي. فأخذني وقدمني إلى الوالي، فلما رأى على يدي أثر الدم، قال: هذا لا يحتاج إلى بيّنة، فاضربوا عنقه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الخصيب قال: فلما قدّموني إلى الوالي ورأى على يدي أثر الدم، قال: هذا لا يحتاج إلى بيّنة، فاضربوا عنقه. فلما سمعت هذا الكلام بكيتُ بكاءً شديداً، وجرت مني دموع العين، وأنشدتُ هذين البيتين:

مَشِينَاهَا خُطَى كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَى مَشَاهَا
وَمَنْ كَانَتْ مَنِئْتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

ثم شهقتُ شهقة فوقعتُ مغشياً عليّ، فرقَّ لي قلب الجلاذ وقال: والله ما هذا وجه قتل! فقال الوالي: اضربوا عنقه. فأجلسوني في نطع الدم وشدّوا على عيني غطاءً، وأخذ السيف سيفه واستأذن الوالي وأراد أن يضرب عنقي، فصحت: وا غربتاه! وإذا بخيلٍ قد أقبلت وقائل يقول: دعوه، امنع يدك يا سيّاف. وكان لذلك سبب عجيب وأمر غريب، وهو أن الخصيب صاحب مصر كان قد أرسلَ حاجبه إلى الخليفة هارون الرشيد ومعه هدايا وتُحف، وصحبته كتابٌ يذكر له فيه: إن ولدي قد فُقد من منذ سنة، وقد سمعتُ أنه ببغداد، والمقصود من إنعام خليفة الله أن يفحص عن خبره ويجتهد في طلبه ويرسله إليّ مع الحاجب. فلما قرأ الخليفة الكتابَ أمر الوالي أن يبحث عن حقيقة خبره، فلم يزل الوالي والخليفة يسألان عنه حتى قيل له بالبصرة، فأخبر الخليفة بذلك، فكتب الخليفة كتاباً وأعطاه للحاجب المصري، وأمره أن يسافر إلى البصرة ويأخذ معه جماعةً من أتباع الوزير. فَمِنْ حرص الحاجب على ولد سيده خرج من ساعته فوجد الغلامَ في نطع الدم مع الوالي، فلما رأى الوالي الحاجبَ وعرفه ترجّلَ إليه، فقال له الحاجب: ما هذا الغلام؟

وما شأنه؟ فأخبره بالخبر، فقال الحاجب والحال أنه لم يعرف أنه ولد السلطان: إن وجه هذا الغلام وجه من لا يقتل. وأمره بحل وثاقه، فحلّه، فقال: قدّمه إليّ. فقدّمه إليه، وكان قد ذهب جماله من شدة ما قاساه من الأهوال، فقال له الحاجب: أخبرني بقضيتك يا غلام. وما شأن هذه المقتولة معك؟ فلما نظر إبراهيم إلى الحاجب عرفه، فقال له: ويلك! أمّا تعرفني؟! أمّا أنا إبراهيم ابن سيدك؟ فلعلك جئت في طلبني. فأمرنّ الحاجب فيه النظر فعرفه غاية المعرفة، فلما عرفه انكبّ على أقدامه، فلما رأى الوالي ما حصل من الحاجب اصفّر لونه، فقال له الحاجب: ويلك يا جبّار! هل كان مرادك أن تقتل ابن سيدي الخصيب صاحب مصر؟ فقَبَلَ الوالي ذيل الحاجب وقال له: يا مولاي، من أين أعرفه؟ وإنما رأيناه على هذه الصفة، ورأينا الصبية مقتولة بجانبه. فقال له: ويلك! إنك لا تصلح للولاية، هذا غلامٌ له من العمر خمسة عشر عامًا، وما قتل عصفورًا، فكيف يقتل قتيلاً؟ هلا أمهلته وسألته عن حاله! ثم قال الحاجب والوالي: فتشوا على قاتل الصبية. فدخلوا الحَمَامَ ثانياً فرأوا قاتلها، فأخذوه وأتوا به إلى الوالي، فأخذه وتوجّه به إلى دار الخلافة وأعلم الخليفة بما جرى، فأمر الرشيد بقتل قاتل الصبية، ثم أمر بإحضار ابن الخصيب، فلما تمثّل بين يديه تبسّم الرشيد وقال له: أخبرني بقصتك وما جرى لك. فحدّثه بحديثه من أوله إلى آخره، فعظّم ذلك عنده، فنادى مسروراً السيف وقال: اذهب في هذه الساعة واهجم على دار أبي القاسم الصندلاني، واثنتي به وبالصبية. فمضى من ساعته وهجم على داره، فرأى الصبية في وثاق من شعرها، وهي في حالة التلف، فحلّها مسرور وأتى بها وبالصندلاني، فلما رآها الرشيد تعجّب من جمالها، ثم التفت إلى الصندلاني وقال: خذوه واقطعوا يديّ اللتين ضرب بهما هذه الصبية، واصلبوه وسلّموا أمواله وأملاكه إلى إبراهيم. ففعلوا ذلك، فبينما هم كذلك وإذا بأبي الليث عامل البصرة والد السيدة جميلة قد أقبل عليهم يستغيث بالخليفة من إبراهيم بن الخصيب صاحب مصر، ويشكو إليه أنه أخذ ابنته، فقال له الرشيد: إنه كان سبباً في خلاصها من العذاب والقتل. وأمر بإحضار ابن الخصيب، فلما حضر قال لأبي الليث: ألا ترضى أن يكون هذا الغلام ابنُ سلطان مصر بَعلاً لابنتك؟ فقال: سمعاً وطاعةً لله ولك يا أمير المؤمنين. فدعا الخليفة بالقاضي والشهود وزوّج الصبية بإبراهيم بن الخصيب، ووهب له جميع أموال الصندلاني وجّهزّه إلى بلاده، وعاش معها في أتم سرور وأوفى حبور إلى أن أتاها هادم اللذات ومفرّق الجماعات، فسبحان الحي الذي لا يموت!

حكاية أبي الحسن الخراساني

ومما يُحكى أيضًا أيها الملك السعيد، أن المعتضد بالله كان عاليَ الهمة شريف النفس، وكان له ببغداد ستمائة وزير، وما كان يخفى عليه من أمور الناس شيء، فخرج يومًا هو وابن حمدون يتفرَّجان على الرعايا، ويسمعان ما يتجدد من أخبار الناس، فحمي عليهما الحر والهجير، وقد انتهيا إلى زقاق لطيف في شارع، فدخلا ذلك الزقاق، فرأيا في صدر الزقاق دارًا حسنة شامخة البناء، تُفصح عن صاحبها بلسان الثناء، فقعدا على الباب يستريحان فخرج من تلك الدار خادمان كالقمرين في ليلة أربعة عشر، فقال أحدهما لصاحبه: لو استأذن اليومَ ضيفٌ؛ لأن سيدي لم يأكل إلا مع الضيفان، وقد صرنا إلى هذا الوقت ولم أرَ أحدًا. فتعجَّب الخليفة من كلامهما، وقال: إن هذا دليل على كرم صاحب الدار، ولا بد أن ندخل داره وننظر مروءته، ويكون ذلك سببًا في نعمة تصل إليه منا. ثم قال للخادم: استأذن سيدك في قدوم جماعة أغراب. وكان الخليفة في ذلك الزمان إذا أراد الفرجة على الرعية تنكَّر في زي التجار، فدخل الخادم على سيده وأخبره، ففرح وقام وخرج إليهما بنفسه، وإذا به جميل الوجه حسن الصورة، وعليه قميص نيسابوري ورداء مذهَّب، وهو مضمَّخ بالطيب، وفي يده خاتم من الياقوت، فلما رآهما قال: أهلاً وسهلاً بالسادة المنعمين علينا غاية الإنعام بقدومهم. فلما دخلا تلك الدار رأياها تُنسي الأهل والأوطان، كأنها قطعة من الجنان. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة لما دخل الدار هو ومن معه ورأيها تَنسِي الأهل والأوطان، كأنها قطعة من الجنان، ومن داخلها بستان فيه من سائر الأشجار، وهي تُدهش الأبصار، وأماكنها مفروشة بنفائس الفرش، فجلسوا وجلس المعتضد يتأمل الدار والفرش، فقال ابن حمدون: فنظرتُ إلى الخليفة فرأيت وجهه قد تَغَيَّر، وكنتُ أعرف من وجهه حال الرضا والغضب، فلما رأيته قلت في نفسي: يا تَرَى ما باله حتى غضب؟ ثم جاءوا بطشت من الذهب، فغلَسنا أيدينا، ثم جاءوا بسفرة من الحرير وعليها مائدة من الخيزران، فلما انكشفت الأغطية عن الأواني رأينا طعامًا كزهر الربيع في عز الألوان صِنوانًا وغير صِنوان، ثم قال صاحب الدار: باسم الله يا سادتنا، والله إن الجوع قد أَمَضَّنِي، فَأَنَعِمُوا عَلَيَّ بِالْأَكْل من هذا الطعام كما هو أخلاق الكرام. وصار صاحب الدار يَفْسَخ الدجاج ويضعه بين أيدينا ويضحك، وَيُنَشِد الأشعار وَيُورِد الأخبار ويتكلم بلطائف ما يليق بالمجلس. قال ابن حمدون: فأكلنا وشربنا، ثم نُقِلنا إلى مجلس آخر يدهش الناظرين، تفوح منه الروائح الزكية، ثم قَدَّم لنا سفرة فاكهة جَنِيَّة، وحلويات شهية، فزادت أفراحننا وزالت أتراحننا. قال ابن حمدون: ومع ذلك لم يَزَلِ الخليفة في عُبُوس، ولم يتبسَّم لما فيه فرح النفوس، مع أن عادته أنه يحب اللهو والطرب ودفع الهموم، وأنا أعرف أنه غير حَسُود ولا ظَلُوم، فقلتُ في نفسي: يا تَرَى ما سبب عيوسه وعدم زوال بؤسه؟

ثم جاءوا بطبق الشراب ومجمع شمل الأحباب، وأحضروا الشراب المروق وبواطِي الذهب والبلور والفضة، وضرب صاحب الدار على باب مقصورة بقضيب من الخيزران، وإذا بباب المقصورة قد فُتِح وخرج منه ثلاث جوارٍ نُهد أبكار، وجوههن كالشمس في رابعة النهار، وتلك الجواري ما بين عَوادة وجنكية ورقاصة، ثم قَدَّم لنا النُّقْل والفواكه. قال ابن حمدون: فضرب بيننا وبين الثلاث جوارٍ ستارة من الديباج، وشراريبها من

الإبريسم، وحلقاتها من الذهب، فلم يلتفت الخليفة إلى هذا جميعه، وصاحب الدار لم يعلم من هو الذي عنده. فقال الخليفة لصاحب الدار: شريف أنت؟ قال: لا يا سيدي، إنما أنا رجل من أولاد التجار، أعرف بين الناس بأبي الحسن علي بن أحمد الخراساني. فقال له الخليفة: أتعرفني يا رجل؟ قال: والله يا سيدي لم يكن لي معرفة بأحد من جنابكم. فقال له ابن حمدون: يا رجل، هذا أمير المؤمنين المعتضد بالله حفيد المتوكل على الله. فقام الرجل وقبّل الأرض بين يدي الخليفة وهو يرتعد من خوفه، وقال: يا أمير المؤمنين، بحق آبائك الطاهرين، إن كنت رأيت مني تقصيراً أو قلة أدب بحضرتك أن تغفو عني. فقال الخليفة: أمّا ما صنعته معنا من الإكرام فلا مزيد عليه، وأمّا ما أنكرته عليك هنا، فإن أصدقتني حديثه واستقرّ ذلك بعقلي نجوت مني، وإن لم تعرّفني حقيقته أخذتك بحجة واضحة، وعذبتك عذاباً لم أعذب أحداً مثله. قال: معاذ الله أن أحدث بالمحال، وما الذي أنكرته عليّ يا أمير المؤمنين؟ فقال الخليفة: أنا من حين دخلت الدار وأنا أنظر إلى حسننها وأوانيها وفراشها وزينتها، حتى ثيابك، فإذا عليها اسم جدي المتوكل على الله. قال: نعم، اعلم يا أمير المؤمنين — أيّدك الله — أن الحق شعارك والصدق رداؤك، ولا قدرة لأحد على أن يتكلم بغير الصدق في حضرتك. فأمره بالجلوس فجلس، فقال له: حدّثني. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين — أيدك الله بنصره وحفّك بلطائف أمره — أنه لم يكن ببغداد أحد أيسر مني ولا من أبي، ولكن أخلّ لي ذهنك وسمعك وبصرك حتى أحدثك بسبب ما أنكرته عليّ. فقال له الخليفة: قل حديثك.

فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنه كان أبي بسوق الصيارف والعطارين والبزازين، وكان له في كل سوق حانوت ووكيل وبضائع من سائر الأصناف، وكان له حجرة داخل الدكان التي بسوق الصيارف لأجل الخلوة فيها، وجعل الدكان لأجل البيع والشراء، وكان ماله يكثر عن العد، ويزيد عن الحد، ولم يكن له ولد غيري، وكان محباً لي وشفوقاً عليّ، فلما حضرته الوفاة دعاني وأوصاني بوالدتي وبتقوى الله تعالى، ثم مات رحمه الله تعالى وأبقى أمير المؤمنين، فاشتغلت باللذات وأكلت وشربت، ثم اتخذت الأصحاب والأصدقاء، وكانت أمني تنهاني عن ذلك وتلومني عليه، فلم أسمع منها كلاماً حتى ذهب المال جميعه وبعث العقارات، ولم يبق لي شيء غير الدار التي أنا فيها، وكانت داراً حسنة يا أمير المؤمنين، فقلت لأمي: أريد أن أبيع الدار. فقالت: يا ولدي، إن بعثتها تفتضح، ولا تعرف لك مكاناً تأوي إليه. فقلت: هي تساوي خمسة آلاف دينار، فأشتري من جملة ثمنها داراً بألف دينار، ثم أتجر بالباقي. فقالت: أتبيعني هذه الدار بهذا المقدار؟ قلت: نعم. فجاءت

إلى طابق وفتحته وأخرجت منه إناءً من الصيني فيه خمسة آلاف دينار، فتخيل لي أن الدار كلها ذهب. فقالت لي: يا ولدي، لا تظن أن هذا المال مال أبيك، والله يا ولدي إنه من مال أبي، وكنت أدخرته لوقت الحاجة إليه؛ فإني كنت في زمن أبيك غنية عن الاحتياج إلى هذا المال. فأخذت المال منها يا أمير المؤمنين وعدت لما كنت عليه من المأكّل والمشرب والصحة حتى نفدت الخمسة آلاف دينار، ولم أقبل من أمي كلامًا ولا نصيحة، ثم قلت لها: مرادي أن أبيع الدار. فقالت: يا ولدي، قد نهيتك عن بيعها لعلمي أنك محتاج إليها، فكيف تريد بيعها ثانيًا؟ فقلت لها: لا تطيلي عليّ الكلام، فلا بد من بيعها. فقالت: يعني إياها بخمسة عشر ألف دينار، بشرط أن أتولى أمورك بنفسي. فبعتها لها بذلك المبلغ على أن تتولّى أموري بنفسها، فطلبت وكلاء أبي وأعطت كلّ واحد منهم ألف دينار، وجعلت المال تحت يدها، والأخذ والعطاء معها، وأعطتني بعضًا من المال لأتجر فيه، وقالت لي: اقعد أنت في دكان أبيك. ففعلت ما قالت أمي يا أمير المؤمنين، وجئت إلى الحجرة التي في سوق الصيارف، وجاء أصحابي وصاروا يشترون مني وأبيع لهم، وطاب لي الربح وكثر مالي، فلما رأني أمي على تلك الحالة الحسنة أظهرت لي ما كان مدخرًا عندها من جواهر ومعدن ولؤلؤ وذهب، ثم عادت لي أملاكي التي كان وقع فيها التفریط، وكثر مالي كما كان، ومكثت على هذه الحال مدة، وجاء وكلاء أبي فأعطيتهم البضائع.

ثم بنيت حجرة ثانية من داخل الدكان، فبينما أنا قاعد فيها على عادتي يا أمير المؤمنين، وإذا بجارية قد أقبلت عليّ، لم ترّ العيون أجمل منها منظرًا، فقالت: هذه حجرة أبي الحسن علي بن أحمد الخراساني؟ قلت لها: نعم. قالت: أين هو؟ فقلت: هو أنا. ولكن اندهش عقلي من فرط جمالها يا أمير المؤمنين. ثم إنها جلست وقالت لي: قلّ لغلامك يزن لي ثلاثمائة دينار. فأمرته أن يزن لها ذلك المقدار، فوزنه لها فأخذته وانصرفت وأنا ذاهل العقل. فقال لي غلامي: أتعرفها؟ قلت: لا والله. قال: فلم قلت لي: زنّ لها؟ فقلت: والله إني لم أدري ما أقول مما بهرني من حسننها وجمالها. فقام الغلام وتبعها من غير علمي، ثم رجع وهو يبكي وبوجهه أثر ضربة، فقلت له: ما بالك؟ فقال: إني تبعت الجارية لأنظر أين تذهب، فلما أحسّت بي رجعت وضربتني هذه الضربة، فكادت أن تتلف عيني. ثم مكثت شهرًا لم أرها ولم تأت، وأنا ذاهل العقل في هواها يا أمير المؤمنين. فلما كان آخر الشهر، وإذا بها جاءت وسلّمت عليّ، فكدت أن أطير فرحًا، فسألتنّي عن خبري وقالت: لعلك قلت في نفسك: ما شأن هذه المحتالة؟ كيف أخذت مالي وانصرفت؟ فقلت: والله يا سيدتي إن مالي وروحي ملك لك. فأسفرّت عن وجهها وجلست لتستريح والحلي والحلل

تلعب على وجهها وصدرها، ثم قالت لي: زَنْ لي ثلاثمائة دينار. فقلت: سمعًا وطاعة. ثم وزنتُ لها الدنانير، فأخذتها وانصرفت، فقلت للغلام: اتبعها. فتبعها، ثم عاد لي وهو مبهوت. ومضت مدة وهي لم تأت، فبينما أنا جالس في بعض الأيام، وإذا بها قد أقبلت عليّ وتحديث ساعة، ثم قالت لي: زَنْ لي خمسمائة دينار؛ فإنني قد احتجت إليها. فأردت أن أقول لها: على أي شيء أعطيك مالي؟ فمنعني فرط الغرام من الكلام، وأنا يا أمير المؤمنين كلما رأيته تترعد مفاصلي ويصفرُّ لوني وأنسى ما أريد أن أقول وأصير كما قال الشاعر:

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَأُبْهَتْ حَتَّى لَا أَكَادَ أُجِيبُ

ثم وزنت لها الخمسمائة دينار، فأخذتها وانصرفت، فقمْتُ وتبعته بنفسِي إلى أن وصلت إلى سوق الجواهر، فوقفتُ على إنسان فأخذتُ منه عقدًا، والتفتت فرأيتني، فقالت: زَنْ لي خمسمائة دينار. فلما نظرني صاحب العقد قام إليّ وعظَّمْني، فقلت له: أعطها العقدَ وثمنه عليّ. فقال: سمعًا وطاعة. فأخذتِ العقد وانصرفت. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا الحسن الخراساني قال: فقلت له أعطها العقد وثنه عليّ. فأخذت العقد وانصرفت، فتبعته حتى جاءت إلى الدجلة، ونزلت في مركب، فأوميت إلى الأرض لأقبلها بين يديها، فذهبت وضحكت، ومكنت واقفاً أنظرها إلى أن دخلت قصرًا، فتأملته فإذا هو قصر الخليفة المتوكل، فرجعت يا أمير المؤمنين وقد حلّ بقلبي كل همٍّ في الدنيا، وكانت قد أخذت مني ثلاثة آلاف دينار، فقلت في نفسي: قد أخذت مالي وسلبت عقلي، وربما تلفت نفسي في هواها! ثم رجعت إلى داري، وقد حدثت أُمِّي بجميع ما جرى لي، فقالت لي: يا ولدي، إياك أن تتعرّض لها بعد ذلك فتهلك! فلما رحت إلى دكاني جاءني وكيلي الذي بسوق العطارين، وكان شيخًا كبيرًا، فقال لي: يا سيدي، ما لي أراك متغير الحال يظهر عليك أثر الكآبة؟ فحدثني بخبرك. فحدثته بجميع ما جرى لي معها، فقال لي: يا ولدي، إن هذه من جوارى قصر أمير المؤمنين، وهي محظية الخليفة، فاحتسب المال لله تعالى ولا تشغل نفسك بها، وإذا جاءتك فاحذر أن تتعرّض لك، وأعلمني بذلك حتى أدبر لك أمرًا لئلا يحصل لك تلف. ثم تركني وذهب وفي قلبي لهيب النار. فلما كان آخر الشهر وإذا بها قد أقبلت عليّ، ففرحت بها غاية الفرح، فقالت لي: ما حملك على أنك تبعته؟ فقلت لها: حملني على ذلك فرط الوجد الذي بقلبي. وبكى بين يديها، فبكت رحمةً لي وقالت: والله ما في قلبك شيء من الغرام إلا وفي قلبي أكثر منه، ولكن كيف أعمل؟ والله ما لي من سبيل غير أنني أراك في كل شهر مرة. ثم دفعت إليّ ورقة وقالت: خذ هذه إلى فلان الفلاني، فإنه وكيلي، واقبض منه ما فيها. فقلت: ليس لي حاجة بمال، ومالي وروحي فداك. فقالت: سوف أدبر لك أمرًا يكون فيه وصولك إليّ، وإن كان فيه تعب لي. ثم ودّعته وانصرفت.

فجئتُ إلى الشيخ العطار وأخبرته بما جرى لي، فجاء معي إلى دار المتوكل، فرأيتها هي المكان الذي دخلت فيه الجارية، فصار الشيخ العطار متحيراً في حيلة يفعلها، ثم التفت فرأى خياطاً قبالَ الشباك المطلَّ على الشاطئ وعنده صنَّاع. فقال: بهذا تنال مرادك، ولكن افقت جيبك وتقدَّم إليه وقُلْ له أن يخيطة لك، فإذا خاطه فادفعْ له عشرة دنانير. فقلت له: سمعاً وطاعة. ثم توجَّهت إلى ذلك الخياط وأخذتُ معي شقَّتَيْن من الديباج الرومي وقلت له: فصلِّ هاتين أربعة ملابس؛ اثنتين فرجية واثنتين غير فرجية. فلما فرغ من تفصيل الملابس وخياطتها أعطيتها أجرتها زيادةً عن العادة بكثير، ثم مدَّ يده إليَّ بتلك الملابس فقلت: خذها لك ولَمَن حضر عندك. وصرت أقعد عنده وأطيل القعود معه، ثم فصلَّت عنده غيرها وقلت له: علِّقه على وجه الدكان لمن ينظره فيشتريه. ففعل، وصار كلُّ مَنْ خرج من قصر الخليفة وأعجبه شيء من الملابس وهبته له حتى البواب. فقال لي الخياط يوماً من الأيام: أريد يا ولدي أن تصدُقني حديثك؛ لأنك فصلَّت عندي مائة حلَّة ثمينة، وكل حلَّة تساوي جملةً من المال، وهبته غالبها للناس، وهذا ما هو فعل تاجر؛ لأن التاجر يحاسب على الدرهم، وما مقدار رأس مالك حتى تعطي هذه العطايا؟ وما يكون مكسبك في كل عام؟ فأخبرني خبراً صحيحاً حتى أعاونك على مرادك. ثم قال: أناشدك الله، أمَّا أنت عاشق؟ قلت: نعم. فقال: لمن؟ قلت: لجارية من جوارى قصر الخليفة. فقال: قبحهن الله! كم يفتنُّ الناس! ثم قال لي: فهل تعرف اسمها؟ قلت: لا. فقال: صِفها لي. فوصفتها له. فقال: ويلاه! هذه عوادة الخليفة المتوكل المحظية عنده، لكن لها مملوك فاجعل بينك وبينه صداقة لعله يكون سبباً في اتصالك بها.

فبينما نحن في الحديث، وإذا بالمملوك مُقبل من باب الخليفة وهو كأنه القمر في ليلة أربعة عشر، وبين يديَّ الثياب التي خاطها لي الخياط، وكانت من الديباج من سائر الألوان، فصار ينظر إليها ويتأمل، ثم أقبلَ عليَّ فقمْتُ إليه وسلَّمت عليه، فقال: مَنْ أنت؟ فقلت: رجل من التجار. قال: أتبيع هذه الثياب؟ قلت: نعم. فأخذ منها خمسة وقال: بكم هذه الخمسة؟ فقلت: هي هدية مني إليك، عقد صحبة بيني وبينك. ففرح بها، ثم جيئتُ إلى بيتي وأخذتُ له ملبوساً مرصَّعاً بالجواهر والياواقيت قيمته ثلاثة آلاف دينار، وتوجَّهت به إليه، فقبله مني، ثم أخذني ودخل بي حجرة في داخل القصر وقال لي: ما اسمك بين التجار؟ فقلت له: رجل منهم. فقال: قد رابني أمرك. فقلت: لماذا؟ قال: لأنك أهديت لي شيئاً كثيراً ملكت به قلبي، وقد صحَّ عندي أنك أبو الحسن الخراساني الصيرفي. فبكيت يا أمير المؤمنين، فقال لي: لِمَ تبكي؟ فوالله إن التي تبكي من أجلها عندها من الغرام بك

أكثر مما عندك من الغرام بها وأعظم، وقد شاع عند جميع جوارى القصر خبرها معك. ثم قال لي: وأيُّ شيء تريد؟ فقلت: أريد أنك تساعدني على بليّتي. فوعدني إلى غدٍ، فمضيت إلى داري، فلما أصبحت توجّهت إليه ودخلت حجّرتَه، فلما جاء قال: اعلم أنها لما فرغت من خدمتها عند الخليفة بالأمس ودخلت حجّرتها حدّثتها بحديثك جميعه، وقد عازمت على الاجتماع بك، فاقعد عندي إلى آخر النهار. فقعدت عنده، فلما جنّ الليل إذا بالملوك أتى ومعه قميص منسوج من الذهب، وحلّة من حُلل الخليفة، فألبسني إياها وبخّرنى، فصرت أشبه الخليفة، ثم أخذني إلى محل فيه الحُجَر صفين من الجانبين، وقال لي: هذه حُجَر الجوارى الخواص، فإذا مررتَ عليها فضع على كل باب من الأبواب حَبّة من الفول؛ لأن من عادة الخليفة أن يفعل هكذا في كل ليلة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المملوك لما قال لأبي الحسن: فإذا مررتَ عليها فضع على كل باب من الأبواب حبةً من الفول؛ لأن من عادة الخليفة أن يفعل هكذا إلى أن تأتي إلى الدرب الثاني الذي على يدك اليمنى، فترى حجرةً عتبةً بابها من المرمر، فإذا وصلت إليها فمسّها بيدك، وإن شئتُ فعُدَّ الأبواب فهي كذا وكذا بابًا، فادخل الباب الذي علامته كذا وكذا، فتراك صاحبك وتأخذك عندها، وأما خروجك فإن الله يهون عليّ فيه، ولو أخرجك في صندوق. ثم تركني ورجع، وصرتُ أمشي وأعدُّ الأبواب وأضع على كل باب حبة فول، فلما صرتُ في وسط الحُجَر سمعت ضجة عظيمة، ورأيت ضوء شموع، وأقبل ذلك الضوء نحوي حتى قرب مني، فتأملتُه فإذا هو الخليفة وحوله الجواري ومعهن الشمع، فسمعت واحدة منهن تقول لصاحبته: يا أختي، هل نحن لنا خليفتان؟ إن الخليفة قد جاز حجرتي وشممت منه رائحة العطر والطيب، ووضع حبة الفول على حجرتي كعادته، وفي هذه الساعة أرى ضوء شموع الخليفة وها هو مُقبلٌ معه! فقالت: إن هذا أمر عجيب؛ لأن التزيي بزي الخليفة لا يجسر عليه أحد! ثم قرب الضوء مني فارتعدت أعضائي، وإذا بخادم يصيح على الجواري ويقول: ها هنا. فانعطفوا إلى حجرة من الحُجَر ودخلوا، ثم خرجوا ومشوا حتى وصلوا إلى بيت صاحبتني، فسمعت الخليفة يقول: هذه حجرة من؟ فقالوا: هذه حجرة شجرة الدر. فقال: نادوها. فنادوها فخرجت وقبّلت أقدام الخليفة. فقال لها: أنشربين الليلة؟ فقالت: إن لم يكن لحضرتك والنظر إلى طلعتك فلا أشرب؛ فإنني لا أميل إلى الشراب في هذه الليلة. فقال للخادم: قل للخازن يدفع لها العقد الفلاني. ثم أمر بالدخول إلى حجرته، فدخلت بين يديه الشموع، وإذا بجارية أمامهم وضوء وجهها غالب على ضوء الشمعة التي بيدها، فقربت مني وقالت: من هذا؟ ثم قبضت

عليّ وأخذتني إلى حجرة من الحُجَر وقالت لي: مَنْ أنت؟ فقُبِّلَت الأرض بين يديها وقلت لها: أناشدك الله يا مولاتي أَنْ تحقني دمي وترحميني وتتقربني إلى الله بإنقاذ مهجتي. وبكيت فزعاً من الموت، فقالت: لا شك أنك لص. فقلت: لا والله، ما أنا لص، فهل تَرَيْنَ عليّ أثر اللصوص؟ فقالت: أَصِدَّقني خبرك وأنا أجعلك في أمان. فقلت: أنا عاشق جاهل أحمق، قد حملتني الصبابة وجهلي على ما ترين مني حتى وقعتُ في هذه الورطة. فقالت: قف هنا حتى أجيء إليك. ثم خرجت وجاءتني بثياب جارية من جواريتها، وألبستني تلك الثياب في تلك الزاوية وقالت: اخرج خلفي. فخرجت خلفها حتى وصلت إلى حجرتها وقالت: ادخل هنا. فدخلت حجرتها، فجاءت بي إلى سرير وعليه فرش عظيم وقالت: اجلس لا بأس عليك، أما أنت أبو الحسن الخراساني الصيرفي؟ قلت: بلى. قالت: قد حقن الله دمك إن كنت صادقاً ولم تكن لصاً؛ فإنك تهلك لا سيما وأنت في زي الخليفة ولباسه وبخوره، وأما إن كنتَ أبا الحسن الخراساني الصيرفي فإنك قد أمنت، ولا بأس عليك؛ لأنك صاحب شجرة الدر التي هي أختي، فإنها لا تقطع زِكْرَكَ أبداً، وتخبرنا كيف أخذت منك المال ولم تتغير، وكيف جئتُ خلفها إلى الشاطئ وأوميت لها إلى الأرض تعظيماً، وفي قلبها منك النار أكثر مما في قلبك منها، ولكن كيف وصلتُ إلى ها هنا؟ بأمرها أم بغير أمرها؟ بل خاطرت بنفسك! وما مرادك من الاجتماع بها؟ فقلت: والله يا سيدتي إنني أنا الذي خاطرت بنفسي، وما غرضي من الاجتماع بها إلا النظر والاستماع لحديثها. فقالت: أحسنت. فقلت: يا سيدتي، الله شهيد على ما أقول، إن نفسي لم تحدّثني في شأنها بمعصية. فقالت: بهذه النية نَجَاك الله ووقعت رحمتك في قلبي. ثم قالت لجاريتها: يا فلانة، امضي إلى شجرة الدر وقولي لها: إن أختك تسلّم عليك وتدعوك، فتفضّلي عندها في هذه الليلة على جري عادتك؛ فإن صدرها ضيق. فتوجّهتُ إليها ثم عادت وأخبرتها أنها تقول: متّعني الله بطول حياتك وجعلني فداك، والله لو دعوتني إلى غير هذا ما توقّفت، لكن يضرني صداع الخليفة، وأنت تعلمين منزلتي عنده. فقالت للجارية: ارجعي إليها وقولي لها: إنه لا بد من حضورك لسرّ بينك وبينها. فتوجّهتُ إليها الجارية، وبعد ساعة جاءت مع الجارية ووجهها يضيء كأنه البدر، فقابلتها واعتنقتهما وقالت: يا أبا الحسن، اخرج إليها وقبّل يديها. وكنت في مخدع في داخل الحجرة، فخرجتُ إليها يا أمير المؤمنين، فلما رأتني ألقّت نفسها عليّ وضمّتني إلى صدرها، وقالت لي: كيف صرتَ بلباس الخليفة وزينته وبخوره؟ ثم قالت: حدّثني بما جرى لك. فحدّثتها بما جرى لي وبما قاسيته من خوف وغيره، فقالت: يعزُّ عليّ ما

قاسيته من أجلي، والحمد لله الذي جعل العاقبة إلى السلامة، وتمام السلامة دخولك في منزلي ومنزل أختي. ثم أخذتني إلى حجرتها وقالت لأختها: إني قد عاهدته ألا أجتمع معه في الحرام، ولكن كما خاطرَ بنفسه وارتكب هذا الهول لأكوننَّ أرضاً لوطء قدميه وتراباً لنعليه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت لأختها: إني قد عاهدته أني لا أجتمع معه في الحرام، ولكن كما خاطر بنفسه واركب هذه الأهوال لأكون أرضاً لوطء قدميه وتراباً لنعليه. فقالت لها أختها: بهذه النية نجاه الله تعالى. فقالت: سوف ترين ما أصنع حتى أجتمع معه في الحلال، فلا بد أن أبذل مهجتي في التحيل على ذلك. فبينما نحن في الحديث، وإذا بضجة عظيمة، فالتفتنا فرأينا الخليفة قد جاء يريد حجرتها من كثرة ما هو كلف بها. فأخذتني يا أمير المؤمنين وحطتني في سرداب وطبقته علي، وخرجت تقابل الخليفة فلاقته، ثم جلس، فوقفت بين يديه وخدمته، ثم أمرت بإحضار الشراب، وكان الخليفة يحب جارية اسمها البنجة، وهي أم المعتز بالله، وكانت تلك الجارية قد هجرته وهجرها، فلعرّ الحُسن والجمال لا تصالحه، والمتوكل لعزّة الخلافة والمُلك لا يصالحها، ولا يكسر نفسه لها، مع أن في قلبه منها لهيب النار، ولكنه تشاغَلَ عنها بنظرائها من الجواري والدخول إليهن في حجرتهن. وكان يحب غناء شجرة الدر، فأمرها بالغناء، فأخذت العود وشدّت الأوتار وغنّت بهذه الأشعار:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا	فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
هَجَرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَا يَعْرِفُ الْهُوَى	وَزُرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ لَهُ صَبْرُ
فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوَى كُلِّ لَيْلَةٍ	وَيَا سَلْوَةَ الْأَيَّامِ مَوْعِدِكَ الْحَشْرُ
لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ	رَخِيمُ الْحَوَاشِي لَا هَرَاءُ وَلَا نَذْرُ
وَعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كُونَا فَكَانَتَا	فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

فلما سمعها الخليفة طَرِبَ طَرِبًا شديدًا، وطربْتُ أنا يا أمير المؤمنين في السرداب،
ولولا لطفُ الله تعالى لَصَحْتُ وافتضحنا، ثم أنشدتُ أيضًا هذه الأبيات:

أُعَانِقُهُ وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِ
وَاللُّثْمُ فَاهُ كَيْ تَزُولَ حَرَارَتِي فَيَنْشُدُ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ
كَأَنَّ فَوَادِي لَيْسَ يَشْفِيهِ غَلِيْلُهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ يَمْتَرِجَانِ

فطرب الخليفة وقال: تمنِّي عليَّ يا شجرة الدر. فقالت: أتمنى عليك عتقي يا أمير المؤمنين لما فيه من الثواب. فقال: أنتِ حُرَّةٌ لوجه الله تعالى. فقَبَلْتُ الأرض بين يديه. فقال: خذي العود وقولي لنا شيئًا في شأن جاريته التي أنا متعلِّقٌ بهوها والناس تطلب رضاي وأنا أطلب رضاها. فأخذت العود وأنشدت هذين البيتين:

أَيَا رَبَّةَ الْحُسْنِ الَّتِي أَذْهَبَتْ نُسْكِ عَلَى كُلِّ أَحْوَالي فَلَا بُدَّ لِي مِنْكَ
فَيَأْمًا بِذُلٍّ وَهُوَ الْيَقُ بِالْهُوَى وَإِمًا بِعِزٍّ وَهُوَ الْيَقُ بِالْمُلْكِ

فطرب الخليفة وقال: خذي العود وغنيَّ شعراً يتضمن شرحَ حالي مع ثلاث جوارٍ مَلَكَنَ قيادي ومنعن رقاوي وهنَّ: أَنْتِ وتلك الجارية الهاجرة وأخرى لا أَسْمِيها ليس لها مناظرة. فأخذت العود وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْإِنْسَاتُ عِنَانِي وَحَلَلَنَ مِنْ قَلْبِي أَعَزَّ مَكَانِ
مَا لِي تَطَاوَعَنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأُطِيعُهُنَّ وَهْنٌ فِي عِصْيَانِي
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهُوَى وَبِهِ غَلْبَنَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

فتعجَّبَ الخليفة من موافقة هذا الشعر لحاله غاية العجب، ومالَ به إلى مصالحة الجارية الهاجرة الطربُ، ثم خرج وقصد حجرتها، فسبقت جارية وأخبرتها بقدوم الخليفة، فاستقبلته وقَبَلْتُ الأرض بين يديه، ثم قَبَلْتُ قدميه، فصالحها وصالحته. هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر شجرة الدر، فإنها جاءت إليَّ وهي فرحانة وقالت: إني صرْتُ حُرَّةً بقدومك المبارك، ولعل الله يُعِينِي على ما أدبره حتى أَجْتَمَعَ بك في الحلال. فقلت: الحمد لله. فبينما نحن في الحديث، وإذا بخادمها قد دخل علينا، فحدَّثنا به بما جرى لنا، فقال: الحمد لله الذي جعل آخره خيرًا، ونسأل الله أن يتم ذلك بخروجك

سألماً. فبينما نحن في الحديث، وإذا بالجارية أختها قد جاءت، وكان اسمها فاتر، فقالت: يا أختي، كيف نعمل حتى نُخرجه من القصر سألماً؛ فإن الله تعالى مَنْ عليَّ بالعتق وصرت حرّةً ببركة قدومه. فقالت لها: ليس لي حيلة في خروجه إلا بأن ألبسه ثياب النساء. ثم جاءت ببذلة من ثياب النساء فألبستنيها، ثم خرجتُ يا أمير المؤمنين في ذلك الوقت، فلما جئتُ إلى وسط القصر وإذا بأمير المؤمنين جالس والخدم بين يديه، فنظر إليَّ وأنكرني غاية الإنكار، وقال لحاشيته: أسرعوا وائتوني بهذه الجارية. فلما أتوا بي رفعوا نقابي، فلما رأيَ عرفني، وسألني، فأخبرته بالخبر ولم أُخفِ عليه شيئاً، فلما سمع حديثي تفكّر في أمري، ثم قام من وقته وساعته ودخل حجرة شجرة الدر، فقال: كيف تختارين عليَّ بعض أولاد التجار؟ فقُبِلَت الأرض بين يديه وحُدِّثته بحديثها من أوله إلى آخره على وجه الصدق، فلما سمع كلامها رحمها ورقَّ قلبه لها، وعذرها في العشق وأحواله، ثم انصرف، ودخل عليها خادمها وقال: طيبي نفساً، إن صاحبك لما حضر بين يدي الخليفة سأله فأخبره كما أخبرته حرّاً بحرف. ثم رجع الخليفة وأحضرني بين يديه وقال لي: ما حملك على التجاري على دار الخلافة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، حملني على ذلك جهلي والصبابة والإقبال على عفوك وكرمك. ثم بكيت وقُبِلَت الأرض بين يديه. فقال: عفوت عنكما. ثم أمرني بالجلوس، فجلست، فدعا بالقاضي أحمد بن أبي دؤاد وزوَّجني بها، وأمر بحمل جميع ما عندها إليَّ، وزفوها في حجرتها، وبعد ثلاثة أيام خرجت ونقلت جميع ذلك إلى بيتي، فجميع ما تنظره يا أمير المؤمنين في بيتي وتكره كله من جهازها.

ثم إنها قالت لي يوماً من الأيام: اعلم أن المتوكل رجل كريم، وأخاف أن يتذكّرنا أو يذكرنا عنده أحدٌ من الحساد، فأريد أن أعمل شيئاً يكون فيه الخلاص من ذلك. قلت: وما هو؟ قالت: أريد أن أستأذنه في الحج والتوبة من الغناء. فقلت لها: نعم الرأي الذي أشرت إليه. فبينما نحن في الحديث، وإذا برسول الخليفة قد جاءني في طلبها؛ لأنه كان يحب غناءها، فمضت وخدمته. فقال لها: لا تنقطعي عنا. فقالت: سمعاً وطاعة. فاتفق أنها ذهبت إليه في بعض الأيام، وكان قد أرسل إليها على جري العادة، فلم أشعر إلا وقد جاءت من عنده ممزّقة الثياب باكياً العين، ففزعتُ من ذلك وقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! وتوهّمت أنه أمر بالقبض علينا، فقلت لها: هل المتوكل غضب علينا؟ فقالت: وأين المتوكل؟ إن المتوكل قد انقضى حكمه وانمحي رسمه. فقلت: أخبريني بحقيقة الأمر. فقالت: إنه كان جالساً وراء الستارة يشرب وعنده الفتح بن خاقان وصدقة بن صدقة، فهجم عليه المنتصر هو وجماعة من الأتراك فقتله، وانقلب السرور بالسرور، والحظُّ الجميل بالبكاء

والعويل، فهربت أنا والجارية وسَلَمْنَا الله. ثم قمّت في الحال يا أمير المؤمنين وانحدرت إلى البصرة، وجاءني الخبر بعد ذلك بوقوع الحرب بين المنتصر والمستعين، فخفت فنقلت زوجتي وجميع مالي إلى البصرة. وهذه حكايتي يا أمير المؤمنين لا زدتها حرفاً ولا نقصتها حرفاً. فجميع ما نظرتُه في بيتي يا أمير المؤمنين مما عليه اسم جدِّك المتوكل هو من نعمته علينا؛ لأن أصل نعمتنا من أصولك الأكرمين، وأنتم أهل النعم ومعدن الكرم. ففرح الخليفة بذلك فرحاً شديداً، وتعجّب من حديثه، ثم أخرجت للخليفة الجارية وأولادي منها فقبّلوا الأرض بين يديه، فتعجّب من جمالهم، واستدعى بدوّة وكتب لنا برفع الخراج عن أملاكنا عشرين سنة. ففرح الخليفة واتخذة نديماً إلى أن فرّق الدهر بينهم وسكنوا القبور بعد القصور، فسبحان الملك الغفور!

حكاية قمر الزمان وزوجة الجوهري

ومما يُحكى أيضاً أيها الملك السعيد أنه كان في قديم الزمان رجلٌ تاجر اسمه عبد الرحمن، قد رزقه الله بنتاً وولداً، فسَمَّى البنتَ كوكب الصباح؛ لشدة حُسْنها وجمالها، وسَمَّى الولد قمر الزمان لشدة حُسْنه، ولما نظر ما أعطاهما الله من الحُسْن والجمال والبهاء والاعتدال خاف عليهما من أعين الناظرين وألسنة الحاسدين ومكر الماكرين وتحيل الفاسقين، فحجبهما عن الناس في قصرٍ مدة أربع عشرة سنة، ولم يَزَهما أحدٌ غير والديهما وجارية تتعاطى خدمتهما، وكان والدهما يقرأ القرآن كما أنزله الله، وكذلك أمهما تقرأ القرآن، فصارت الأم تُقرئ بنتها والرجل يُقرئ ولده حتى حفظا القرآن، وتعلّما الخط والحساب والفنون والآداب من أبيهما وأمهما، ولم يحتاجا إلى معلم، فلما بلغ الولد مبلغ الرجال قالت للتاجر زوجته: إلى متى وأنت حاجبٌ ولدك قمر الزمان عن أعين الناس؟ أهو بنت أو غلام؟ فقال لها: غلام. قالت: حيث كان غلاماً لِمَ لم تأخذه معك إلى السوق وتُقعده في الدكان حتى يعرف الناس ويعرفوه لأجل أن يشتهر عندهم أنه ابنك، وتعلّم البيع والشراء؟ وربما يحصل لك أمر فيكون الناس قد عرفوا أنه ولدك، فيضع يده على مخلفاتك، وأما إذا متَّ على هذه الحالة وقال للناس: أنا ابن التاجر عبد الرحمن. فإنهم لا يصدّقونه، بل يقولون له: ما رأيُناك ولا نعرف أن له ولداً. وتأخذ أموالك الحكّام ويصير ولدك محروماً، وكذلك البنت، مرادي أن أشهرها عند الناس؛ لعل أحداً كفواً لها يخطبها فنزوّجها له ونفرح بها. فقال لها: مخافةٌ عليهما من أعين الناس. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة التاجر لما قالت له ذلك الكلام، قال لها: مخافةً عليهما من أعين الناس؛ لأنني محبٌ لهما، والمحبُّ شديدُ الغيرات، وقد أحسنَ مَنْ قال هذه الأبيات:

أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ نَظَرِي وَمَنِّي وَمِنْكَ وَمِنْ مَكَانِكَ وَالزَّمَانِ
وَلَوْ أَنِّي وَضَعْتُكَ فِي عُيُونِي دَوَامًا مَا سَيَّمْتُ مِنَ التَّدَانِ
وَلَوْ وَاصَلْتَنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا كَفَانِي

فقالت له زوجته: توكل على الله، ولا بأس على مَنْ يحفظه الله، وخذه في هذا اليوم معك إلى الدكان. ثم إنها ألبسته بدلة من أفخر الملابس، فصار فتنة للناظرين وحسرة في قلوب العاشقين، وأخذه أبوه معه ومضى به إلى السوق، فصار كل مَنْ رآه يفتتن به ويتقدّم إليه ويبوس يده ويسلم عليه، وصار أبوه يشتم الناس حيث تبعوه لقصد الفرجة، وصار البعض من الناس يقول: إن الشمس قد طلعت في المحل الفلاني وأشرقت في السوق. والبعض يقول: مطلع البدر في الجهة الفلانية. والبعض يقول: ظهر هلال العيد على عباد الله. وصاروا يلتمحون إلى الولد بالكلام ويدعون له، وقد حصل لأبيه خجل من كلام الناس، ولا يقدر أن يمنع أحدًا منهم عن الكلام، وصار يشتم أمه ويدعو عليها؛ لأنها هي التي كانت سببًا في خروجه. والتفت أبوه فرأى الخلائق مزدحمين عليه خلفه وقدامه، وهو ماشٍ إلى أن وصل إلى الدكان، ففتح الدكان وجلس وأجلس ولده قدامه، والتفت إلى الناس فرآهم قد سدوا الطريق، وصار كلُّ مَنْ مرَّ به من رائجٍ وغادٍ يقف قدام

الدكان وينظر إلى ذلك الوجه الجميل، ولا يقدر أن يفارقه. وانعقد عليه إجماع النساء والرجال متمثلين بقول مَنْ قال:

حَاقَتْ الْجَمَالَ لَنَا فَتُنَّةٌ وَقُلْتُ لَنَا يَا عِبَادِي اتَّقُونُ
فَأَنْتَ جَمِيلٌ تُحِبُّ الْجَمَالَ فَكَيْفَ عِبَادُكَ لَا يَعْشَقُونَ

فلما رأى التاجر عبد الرحمن الناس مزدحمين عليه وواقفين صفوفًا نساءً ورجالاً لديه، شاخصين لولده، خجل غاية الخجل وصار متحيرًا في أمره، ولم يدِرْ ماذا يصنع. فلم يشعر إلا ورجل درويش من السياحين وعليه شعار عباد الله الصالحين قد أقبل عليه من طرف السوق، ثم تقدّم إلى الغلام وصار ينشد الأشعار ويُرْخي الدموع الغزار، فلما رأى قمر الزمان جالسًا كأنه قضيب البان، نابت على كتيب من الزعفران، أفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين:

رَأَيْتُ غُصْنًا عَلَى كَثِيبٍ شَبِيهَ بَدْرٍ إِذَا تَلَّالَا
فَقُلْتُ: مَا الاسْمُ؟ قَالَ: لَوْلُو فَقُلْتُ: لِي لِي. فَقَالَ: لَالَا

ثم إن الدرويش صار يمشي الهوينا ويمسح شببته بيده اليمنى، فانشق لهيبته قلب الزحام، فلما نظر إلى الغلام اندهش منه العقل والنظر، وانطبق عليه قول الشاعر:

فَبَيْنَمَا ذَاكَ الْمَلِيحُ فِي مَحَلٍّ مِنْ وَجْهِهِ هِلَالُ عِيدِ الْفِطْرِ طَلَّ
إِذَا بِشَيْخٍ ذِي وَقَارٍ قَدْ أَهْلَ يَمْشِي وَلَكِنْ مَشْيُهُ عَلَى مَهْلٍ
يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ لِلزُّهْدِ وَخَاضَ فِي الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ
قَدْ مَارَسَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي وَرَقَّ حَتَّى صَارَ كَالْخِلَالِ
وَعَادَ عَظْمًا بَالِيًا فِي جِلْدٍ وَكَانَ فِي ذَا الْفَنِّ أَعْجَمِيًّا
وَفِي مَحَبَّةِ النِّسَاءِ غُذْرِيًّا فِي الْخَصْلَتَيْنِ مَاهِرًا غَوِيًّا
فَزَيْنَبُ لَدَيْهِ مِثْلُ زَيْدٍ

يَهِيمُ بِالْحَسَنَا وَيَهْوَى الْحُسَنَا وَيَنْدُبُ الرَّبْعَ وَيَبْكِي الدِّمْنَا
تَخَالُهُ مَنْ فَرَطَ شَوْقَ غُصْنَا مَعَ الصَّبَا إِلَى هُنَاكَ أَوْ هُنَا
إِنَّ الْجُمُودَ مِنْ طِبَاعِ الصَّلْدِ
وَكَانَ فِي فَنِّ الْهَوَى خَبِيرًا مُسْتَيْقِظًا فِي أَمْرِهِ بَصِيرًا
وَجَابَ مِنْهُ السَّهْلَ وَالْعَسِيرَا وَعَانَقَ الظُّبْيَةَ وَالْغَرِيرَا
وَهَامَ بِالشَّيْبِ مَعَا وَالْمُرْدِ

ثم تقدّم إلى الولد وأعطاه عرق ريحان، فمدّ أبوه يده إلى جيبه وأخرج له ما تيسّر من الدراهم، وقال: خذ نصيبك يا درويش واذهب إلى حال سبيلك. فأخذ منه الدراهم وجلس على مصطبة الدكان قدام الولد، وصار ينظر إلى الولد ويبكي ويتحسّر حشرات متتابعة ودموعه كالعيون النابعة، فصارت الناس تنظر إليه وتعترض عليه، وبعضهم يقول: كل الدراويش فسّاق. وبعضهم يقول: إن الدراويش في قلبه من عشق للولد احتراق. وأما أبوه فإنه لما عاين هذا الحال قام وقال: قُمْ يا ولدي حتى نقفل الدكان ونروح إلى بيتنا، ولا يتبقى لنا في هذا اليوم بيع ولا شراء، الله تعالى يجازي أمك بما فعلت معنا؛ فإنها هي التي تسبّبت في هذا كله. ثم قال: يا درويش، قم حتى أقفل الدكان. فقام الدراويش وقفل التاجر دكانه وأخذ ولده ومشى. فتبعهما الدراويش والناس إلى أن وصلا إلى منزلهما، فدخل الولد المنزل، والتفت التاجر إلى الدراويش وقال له: ما تريد يا درويش؟ وما لي أراك تبكي؟ فقال: يا سيدي، أريد أن أكون ضيفك في هذه الليلة، والضيف ضيف الله تعالى. فقال: مرحباً بضيف الله، ادخل يا درويش. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكّت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الدرويش لما قال للتاجر والد قمر الزمان: أنا ضيف الله. فقال له التاجر: مرحباً بضيف الله، ادخل يا درويش. وقال التاجر في نفسه: إن كان هذا الدرويش عاشقاً للولد وطلب منه فاحشة فلا بد أن أقتله في هذه الليلة، وأخفي قبره، وإن كان ما عنده فساد، فإن الضيف يأكل نصيبه. ثم إنه أدخل الدرويش هو وقمر الزمان في قاعة وقال سرّاً لقمر الزمان: يا ولدي، اجلس بجانب الدرويش وناغشه ولاعبه بعد أن أخرج من عندكما، فإن طلب منك فساداً فأنا أكون ناظرًا لكما من الطاقة المطلة على القاعة، فأنزل إليه وأقتله. ثم إن الولد لما اختل به الدرويش في تلك القاعة قعد بجانب الدرويش، فصار الدرويش ينظر إليه ويتحسّر ويبكي، وإذا كلمه الولد يرد عليه برفق وهو يرتعش ويلتفت إلى الولد ويتنهد ويبكي، إلى أن أتى العشاء، فصار يأكل وعينه من الولد ولا يفتر عن البكاء، فلما مضى ربع الليل وفرغ الحديث وجاء وقت النوم، قال أبو الولد: يا ولدي، تقيّد بخدمة عمك الدرويش ولا تخالفه. وأراد أن يخرج، فقال له الدرويش: يا سيدي، خذ ولدك معك أو نَم عندنا. قال: لا، وها هو ولدي نائم عندك، ربما تشتهي نفسك شيئاً فولدي يقضي حاجتك ويقوم بخدمتك. ثم خرج وخلّاهما وقعد في قاعة ثانية فيها طاقة تطل على القاعة التي هما فيها.

هذا ما كان من أمر التاجر، وأما ما كان من أمر الولد، فإنه تقدّم إلى الدرويش، وصار يناغشه ويعرض نفسه عليه، فاغتاظ الدرويش وقال له: ما هذا الكلام يا ولدي؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! اللهم إن هذا منك لا يرضيك، ابعد عني يا ولدي! ثم قام الدرويش من مكانه وقعد بعيداً عن الولد، فتبعه الولد ورمى روحه عليه وقال له: لأي شيء يا درويش تحرم نفسك من لذة وصالي وأنا قلبي يحبك؟ فازداد غيظ الدرويش وقال له: إن لم تمتنع عني ناديتُ أباك وأخبره بخبرك! فقال له: إن أبي يعرف أنني بهذه

الصفة، ولا يمكن أن يمنعي، فاجبر بخاطري، لأي شيء تمتنع عني؟ أما أعجبتك؟ فقال له: والله يا ولدي ما أفعل ذلك ولو قُطعتُ بالسيوف البواتر. وأنشد قول الشاعر:

إِنَّ قَلْبِي يَهْوَى الْمَلَحَ ذُكُورًا وَإِنَّا وَلَسْتُ بِالْمُتَوَانِي
بَلْ أَرَاهُمْ أَصَائِلًا وَبُكُورًا لَمْ أَكُنْ لَاتِطًا وَلَا أَنَا زَانِي

ثم بكى وقال له: قم افتح لي الباب حتى أروح إلى حال سبيلي، أنا ما بقيت أنام في هذا المكان. ثم قام على قدميه، فتعلّق به الولد وصار يقول له: انظر لإشراق وجهي وحُمْرة خَدَيَّ وَلَيْنَ مَعَاطِفِي وَرِقَّةَ شَفَايَفِي. ثم كشف له عن سَاقِ تَخْجِلِ الحَمَرِ والسَاقِي، وَرَنَا إِلَيْهِ بَلْخُطٍ يُعْجِزُ السَّحَرُ والِرَاقِي، وكان بديعَ الجمال رخيّم الدلال كما قال فيه بعض من قال:

لَمْ أَنْسُهُ مَذْ قَامَ يَكْشِفُ عَامِدًا عَنْ سَاقِهِ كَاللُّؤْلُؤِ الْبَرَّاقِ
لَا تَعْجَبُوا مِنْ أَنْ تَقُومَ قِيَامَتِي إِنَّ الْقِيَامَةَ يَوْمَ كَشَفِ السَّاقِ

ثم بيّن له الغلام صدره وصار يقول له: انظر إلى نهودي، فإنها أحسن من نهود البنات، ويريقي أحلى من السكر النبات، فدع الورع والزهادة وخلّنا من النسك والعبادة، واغتنم وصالي وتملّ بجمالي، ولا تخفّ من شيء أبدًا، وعليك الأمان من الردي، واترك هذه البلادة فإنها بنسّ العادة. وصار يريه ما خفي من محاسنه ويبيديه ويثني عنان عقله بتثنيته، والدرويش يلفت وجهه ويقول: أعوذ بالله! استح يا ولدي، إن هذا شيء حرام لا أفعله ولا في المنام. فشدد عليه الغلام، فانفلت منه الدرويش واستقبل القبلة وصار يصلي، فلما رآه يصلي تركه حتى صلى ركعتين وسلّم وأراد أن يتقدّم إليه فنوى الصلاة ثاني مرة، وصلى ركعتين، ولم يزل يفعل هكذا ثالثًا ورابعًا وخامسًا. فقال له الولد: وما هذه الصلاة؟ وهل مرادك أن تطير على السحاب؟ أضعت حظنا وأنت طول الليل في المحراب. ثم إن الغلام ارتمى عليه وصار يبوسه بين عينيه. فقال له: يا ولدي، اخز عنك الشيطان، وعليك بطاعة الرحمن. فقال له: إن لم تفعل بي ما أريد أنادي أبي وأقول له إن الدرويش يريد أن يفعل بي الفاحشة، فيدخل عليك ويضربك حتى يكسر عظمك على لحمك. كل هذا وأبوه ينظر بعينه ويسمع بأذنه، فثبت عند أبي الولد أن الدرويش ما عنده فساد، وقال في نفسه: لو كان هذا الدرويش مفسودًا ما كان يتحمّل هذه المشقة كلها. ثم إن الولد صار

يحاول الدرويش، وكلما نوى الصلاة قطعها عليه حتى اغتاط الدرويش غاية الغيظ، وأغلظ على الولد وضربه، فبكى الولد، فدخل عليه أبوه ومسح دموعه وأخذ بخاطره، وقال للدرويش: يا أخي، حيث كنت على هذه الحالة، لأي شيء تبكي وتتحسّر حين رأيت ولدي؟ هل لهذا من سبب؟ قال له: نعم. فقال له: أنا لما رأيته تبكي عند رؤيته ظننتُ فيك السوء، فأمرت الولد بهذا الأمر حتى أجربك، وأضمرتُ أني إذا رأيته تطلب منه فاحشة أدخل عليك وأقتلك، فلما رأيته ما وقع منك عرفتُ أنك من الصلاح على غاية، ولكن بالله عليك أن تخبرني بسبب بكائك. فتنهّد الدرويش وقال له: يا سيدي، لا تحرك عليّ ساكن الجراح. فقال: لا بد أن تخبرني. فقال: أعلم أنني درويش سيّاح في البلاد والأقطار؛ لأعتبر بآثار خالق الليل والنهار، فاتفق أنني دخلت مدينة البصرة في يوم جمعة ضحوة النهار ... وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الدرويش لما قال للتاجر: اعلم أنني درويش سيّاح، فاتفق أنني دخلتُ مدينة البصرة في يوم جمعة ضحوية النهار، فرأيت الدكاكين مفتوحة وفيها من سائر الأصناف والبضائع والمأكول والمشروب، وهي خالية ليس فيها رجل ولا امرأة ولا بنت ولا ولد، وليس في الشوارع والأسواق كلاب ولا قطط ولا حس حسيّس ولا إنس، فتعجّبت من ذلك وقلت: يا ترى، أين راح أهل هذه المدينة بقططهم وكلابهم؟ وما فعل الله بهم؟ وكنت جائعًا فأخذت عيشًا سخنًا من فرن خباز ودخلت دكان زيات وبسّستُ العيش بالسمن والعسل، وأكلت، وطلعت دكان شربات فشربت ما أردت، ورأيت القهوة مفتوحة فدخلتها ورأيت فيها البكارج على النار مملئة بالقهوة، وليس فيها أحد فشربت كفايتي، وقلت: إن هذا الشيء عجيب! كأنَّ أهل هذه المدينة أتاهم الموت فماتوا كلهم في هذه الساعة، أو خافوا من شيء نزل بهم فهربوا وما قدروا أن يقفلوا دكاكينهم. فبينما أنا أفكر في هذا الأمر، وإذا بصوت نوبة تدق، فخفت واختفيت حصة من الزمان، وصرت أنظر من خلال الخروق، فرأيت جوارِي كأنهن الأقمار وقد مشين في السوق زوجًا زوجًا من غير غطاء، بل مكشوفات الوجوه، وهنَّ أربعون زوجًا بثمانين جارية، ورأيت وليدة راكبة على جواد لا يقدر أن ينقل أقدامه مما عليه وعليها من الذهب والفضة والجواهر، وتلك الوليدة مكشوفة الوجه من غير غطاء وهي مزينة بأفخر الزينة ولابسة أفخر الملابس، وفي عنقها عقد من الجواهر، وفي صدرها قلائد من الذهب، وفي يديها أساور تضيء كالنجوم، وفي رجليها خلاخل من الذهب مرصعة بالمعادن، والجواري قدامها وخلفها وعن يمينها وشمالها، وبين يديها جارية مقلدة بسيف عظيم قبضته من زمرد وعلائقه من ذهب مرصع بالجواهر، فلما وصلت تلك الصبية إلى الجهة التي قدامي حبستُ عنان الجواد وقالت: يا بنات، إني قد سمعت حس شيء في داخل هذا الدكان،

ففتشَّه لئلا يكون فيه أحد مستخفٍ ومراده أن يتفرج علينا ونحن مكشوفات الوجوه. ففتشَّ الدكان الذي قدام القهوة التي أنا مستخفٍ فيها، وبقيت أنا خائفاً، فرأيتهن قد خرجنَ برجل وقلنَ لها: يا سيدتنا، قد رأينا هنا رجلاً، وها هو بين يديك. فقالت للجارية التي معها السيف: ارمي عنقه. فتقدَّمت إليه الجارية وضربت عنقه، ثم تركَّنه مطروحاً على الأرض ومضينَ. ففزعتُ أنا لما رأيت هذه الحالة، ولكن تعلَّق قلبي بعشق الصبية، وبعد ساعة ظهر الناس وصار كلُّ مَنْ كان له دكان يدخلها، ودرجت الناس في الأسواق والتمُّوا على المقتول يتفرَّجون عليه، فخرجتُ أنا من المكان الذي كنت فيه سرّاً، ولم ينتبه لي أحد، ولكن تملَّك قلبي عشق تلك الصبية، فصرت أتجسَّس عليها سرّاً، فلم يخبرني أحد عنها بخبر. ثم إنني خرجت من البصرة وفي قلبي من عشقها حسرة، فلما رأيت ابنك هذا رأيته أشبه الناس بتلك الصبية، فأذكرني بها وهيَّج عليَّ نار الغرام، وأضرم بقلبي لهيباً، وهذا سبب بكائي. ثم إنه بكى بكاءً شديداً ما عليه من مزيد، وقال: يا سيدي، بالله عليك أن تفتح لي الباب حتى أذهب إلى حال سبيلي. ففتح له الباب وخرج.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر قمر الزمان، فإنه لما سمع كلام الدرويش اشتغل باله بعشق تلك الصبية، وتمكَّن منه الغرام، وهاج به الوجد والهيام، فلما أصبح الصباح قال لأبيه: كل أولاد التجار يسافرون البلاد لتحصيل المراء، وليس منهم واحد إلا وأبوه يجهِّز له بضاعة فيسافر بها ويربح فيها. ولأي شيء يا أبي لم تجهِّز لي تجارة حتى أسافر بها وأنظر سعدي؟ فقال له: يا ولدي، إن التجار مقلُّون من المال، فيسفرُّون أولادهم من أجل الفوائد والمكاسب وجلب الدنيا، وأما أنا فعندي أموال كثيرة، وليس عندي طمع، فكيف أغرِّبك وأنا لا أقدر على فراقك ساعة؟ خصوصاً وأنت فريد في الجمال والحسن والكمال وأخاف عليك. فقال له: يا أبي، لا يمكن إلا أن تجهز لي متجراً لأسافر به، وإلا أغافلك وأهرب ولو من غير مال ولا تجارة، وإن أردت تطيب خاطرني فجهِّز لي بضاعة حتى أسافر وأتفرج على بلاد الناس. فلما رآه أبوه متعلِّقاً بالسفر أخبر زوجته بهذا الخبر وقال لها: إن ولدك يريد أن أجهِّز له متجراً ليسافر به إلى بلاد الغربة، مع أن الغربة كربة. فقالت له زوجته: ماذا يضرُّك من ذلك؟ إن هذه عادة أولاد التجار؛ فكلهم يتفاحرون بالأسفار والمكاسب. فقال لها: إن غالب التجار فقراء يطلبون كثرة المال، وأما أنا فمالي كثير. فقالت له: زيادة الخير لا تضر، وإن كنت أنت لا تسمح له بذلك فأنا أجهِّز له متجراً من مالي. فقال التاجر: إنني أخاف عليه من الغربة؛ لأنها بتُست الكربة. قالت: لا بأس بالاغتراب الذي فيه الاكتساب، وإلا يذهب ولدنا ونطلبه فلا نراه ونفتضح

بين الناس. فقبل التاجر كلام زوجته وجَهَّزَ متجرًا لولده بتسعين ألف دينار، وأعطته أمه كيسًا فيه أربعون فصًّا من ثمين الجواهر، أقل قيمة الواحد خمسمائة دينار، وقالت: يا ولدي، احتفظُ بهذه الجواهر فإنها تنفعك. فأخذ قمر الزمان جميع ذلك وسافرَ إلى البصرة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان أخذ جميع ذلك وسافر إلى البصرة، وكان وُضِعَ الجواهر في كمرٍ وشدّه على وسطه، ولم يزل مسافرًا حتى لم يبقَ بينه وبين البصرة إلا مرحلة واحدة، فخرج عليه العرب وعروّه وقتلوا رجاله وخدّمه، فرقد بين قَتِيلَيْن ولطّخ روحه بالدم، فظنّ العرب أنه مقتول، فتركوه ولم يتقرّب منه أحد، ثم أخذوا أمواله وراحوا، فلما راح العرب إلى حال سبيلهم قام قمر الزمان من بين القتلى ومشى وهو لا يملك شيئًا غير الفصوص التي على حزامه، ولم يزل سائرًا حتى دخل البصرة، فاتفق أن دخوله كان في يوم جمعة، وكانت المدينة خالية من الناس كما أخبر الدرويش، فرأى الأسواق خالية والدكاكين مفتوحة وهي مملئة بالبضائع، فأكل وشرب وصار يتفرّج. فبينما هو كذلك إذ سمع النوبة تدق، فاخترق في دكان إلى أن جاءت البنات، فتفرّج عليهن، ولما رأى الصبيّة راكبة أخذة العشق والغرام وملكه الوجد والهيام، حتى صار لا يستطيع القيام. وبعد حصة من الزمان ظهرت الناس وملأت الأسواق، فذهب إلى السوق وتوجّه إلى رجل جوهرى، وأخرج له حجرًا من الأربعين يساوي ألف دينار، فباعه له ورجع إلى محله، ثم بات تلك الليلة، فلما أصبح الصباح غيّر حوائجه ودخل الحمام وطلع كأنه البدر التمام. ثم باع أربعة فصوص بأربعة آلاف دينار، وصار يتفرّج في شوارع البصرة وهو لابس أفخر الملابس حتى وصل إلى سوق، فرأى فيه رجلًا مزينًا، فدخل عنده وحلق رأسه وعمل معه صحبة، ثم قال: يا والدي، أنا غريب البلاد، وبالأمس دخلت هذه المدينة فرأيتها خالية من السكان وما فيها أحد من إنس ولا جان، ثم إنني رأيت بناتًا وبينهن صبيّة راكبة في موكب ... وأخبره بما رأى، فقال له: يا ولدي، هل أخبرت غيري بهذا الخبر؟ قال: لا. فقال له: يا ولدي، إياك أن تذكر هذا الكلام قدام أحد غيري، فإن كل الناس لا يكتمون الكلام والأسرار، وأنت ولد صغير فأخاف عليك أن ينتقل الكلام من ناسٍ إلى ناسٍ حتى يصل

إلى أصحابه فيقتلوك، واعلم يا ولدي أن هذا الذي رأيته ما أحد رآه ولا يعرفه في غير هذه المدينة، وأما أهل البصرة فإنهم يموتون بهذه الحسرة، وفي كل يوم جمعة عند ضحوة النهار يحبسون الكلاب والقطط ويمنعونها عن المشي في الأسواق، وجميع أهل المدينة يدخلون الجوامع ويغلقون عليهم الأبواب، ولا يقدر أحد منهم أن يمر في السوق، ولا أن يطل من طاقة، ولا يعرف أحد ما سبب هذه البليّة، ولكن يا ولدي في هذه الليلة أسأل زوجتي عن سببها؛ فإنها داية تدخل بيوت الأكابر وتعرف أخبار هذه المدينة، فإن شاء الله تعالى تأتي عندي في غد وأنا أخبرك بما تخبرني به. فكبش كبشة من الذهب وقال: يا ولدي، خذ هذا الذهب وأعطه لزوجتك، فإنها صارت أُمي. وكبش كبشة ثانية وقال: خذ هذا لك. فقال المزين: يا ولدي، اجلس مكانك حتى أروح إلى زوجتي وأسألها وأجيء إليك بالخبر الصحيح.

ثم تركه في الدكان وراح إلى زوجته وأخبرها بشأن الغلام، وقال لها: مرادي أن تخبريني بحقيقة أمر هذه المدينة حتى أخبر بها هذا الشاب التاجر؛ فإنه متولّع بالاطّلاع على حقيقة أمرها من امتناع الناس والحيوانات عن الأسواق في ضحوة يوم الجمعة، وأظن أنه عاشق وهو كريم سخي، فإذا أخبرناه يحصل لنا منه خير كثير. فقالت له: رُحْ هاتِه وقل له: تعالَ كَلِّمْ أُمك زوجتي، فإنها تُقرئك السلام وتقول لك: إن الحاجة مقضية. فذهب إلى الدكان فرأى قمر الزمان قاعداً ينتظره، فأخبره بالخبر وقال له: يا ولدي، اذهب بنا إلى أُمك زوجتي، فإنها تقول لك: إن الحاجة مقضية. ثم أخذه وسار به حتى دخل على زوجته، فرحبت به وأجلسته، ثم إنه أخرج مائة دينار وأعطاها لها وقال لها: يا أُمي، أخبريني عن هذه الصبيّة مَنْ تكون؟ فقالت: يا ولدي، اعلم أن سلطان البصرة قد جاءته جوهرة من عند ملك الهند، فأراد أن يثقبها، فأحضر جميع الجوهرجية وقال لهم: أريد منكم أن تثقبوا لي هذه الجوهرة، والذي يثقبها له عليّ تَمْنِيّة، فمهما تمنّاه أعطيته له، وإن كسرهما فإنني أرمي رأسه. فخافوا وقالوا: يا ملك الزمان، إن الجوهرة سريع العطب، وقلّ أن يثقبه أحد ويسلم؛ لأنّ الغالب عليه الكسر، فلا تحمّلنا ما لا نطيق، فنحن لا يخرج من أيدينا أن نثقب هذه الجوهرة، وإنما شيخنا أخبر منا. فقال الملك: وَمَنْ شيخكم؟ قالوا له: المعلم عبيد، وهو أخبر منّا بهذه الصناعة، وعنده أموال كثيرة، وله معرفة جيدة، فأرسل إليه وأحضره بين يديك، وأمره أن يثقب لك هذه الجوهرة. فأرسل إليه وأمره بثقبها، وشرط عليه الشرط المذكور، فأخذها وثقبها على مزاج الملك، فقال له: تمنّ عليّ يا معلم. فقال: يا ملك الزمان، أمهلني إلى غدٍ. والسبب في ذلك أنه أراد أن يشاور زوجته،

وكانت زوجته تلك الصبية التي رأيتها في الموكب، وكان يحبها محبةً شديدة، ومن عظم محبته لها أنه كان لا يفعل شيئاً إلا إذا شاورها فيه، ولأجل ذلك أمهل التمنية حتى يشاورها. فلما أتى إليها قال لها: إني ثقت للملك جوهرة وأعطاني تمنية، وقد أمهلتها حتى أشاورك، فأني شيء تريد حتى أتمناه؟ قالت: نحن عندنا أموال لا تأكلها النيران، ولكن إن كنت تحبني فتمنّ على الملك أنه ينادي في شوارع البصرة أن أهلها يدخلون الجوامع يوم الجمعة قبل الصلاة بساعتين، ولا يبق في البلد كبير ولا صغير حتى يكون في المسجد أو في البيت، وتقف عليهم أبواب المساجد والبيوت ويتركون دكاكين البلد مفتوحة، وأنا أركب بجواري وأشق في المدينة ولا ينظرني أحد من طاقة ولا من شبك، وكل من عثر به قتلته. فراح إلى الملك وتمنّى عليه هذه الأمنية، فأعطاه ما تمنّاه، ونادى بين أهل البصرة ... وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما أعطى الجوهري ما تمنّاه، ونادى بين أهل البصرة بما تمنّاه، قالوا: إننا نخاف على البضائع من القطط والكلاب. فأمر الملك بحبسها في ذلك اليوم حتى تخرج الناس من صلاة الجمعة، وصارت تلك الجارية تخرج في كل يوم جمعة قبل الصلاة بساعتين وتركب بجواريتها في شوارع البصرة، ولا يقدر أحد أن يمر في السوق ولا أن يطل من طاقة ولا من شبّاك. فهذا هو السبب، وقد عرّفك بالجارية، ولكن يا ولدي هل مرادك معرفة خبرها أو مرادك الاجتماع بها؟ فقال: يا أمي، مرادي الاجتماع بها. فقالت: أخبرني بما عندك من الذخائر الفاخرة. فقال: يا أمي، عندي من ثمين المعادن أربعة أصناف؛ صنف ثمن كل واحد منه خمسمائة دينار، وصنف ثمن كل واحد منه سبعمائة دينار، وصنف ثمن كل واحد منه ثمانمائة دينار، وصنف ثمن كل واحد منه ألف دينار. قالت له: وهل تسمح نفسك بأربعة منها؟ قال: نفسي تسمح بالجميع. قالت: قُمْ يا ولدي من غير مطرود، وأخرج منها فصّاً يكون ثمنه خمسمائة دينار، واسأل عن دكان المعلم عبيد شيخ الجوهريّة، واذهب إليه تَرَه جالساً في دكانه وعليه ثياب فاخرة وتحت يده الصنّاع، فسَلِّم عليه واجلس على الدكان وأخرج الفص وقل له: يا معلم، خذ هذا الحجر وصِغْه لي خاتماً بالذهب، ولا تجعله كبيراً، بل اجعله قدر مثقال من غير زيادة، واصنعه صنّاً جيّداً. ثم أعطه عشرين ديناراً وأعط الصنّاع كلّ واحد ديناراً، واقعد عنده حصّة وتحدّث معه، وإذا أتاك سائل فأعطه ديناراً، وأظهر الكرم حتى يتولّع بمحبّتك، ثم قُمْ من عنده ورُحْ إلى منزلك وبِتْ هناك، فإذا أصبحت فهاتِ معك مائة دينار وأعطها لأبيك فإنه فقير. قال: وهو كذلك. ثم خرج من عندها وذهب إلى الوكالة وأخذ فصّاً ثمنه خمسمائة دينار، وعمد به إلى سوق الجواهر وسأل عن دكان المعلم عبيد شيخ الجوهريّة، فدلّوه على دكانه، فلما وصل إلى الدكان رأى شيخ الجوهريّة رجلاً مهاباً،

وعليه ثياب فاخرة وتحت يده أربعة صنّاع، فقال لهم: السلام عليكم. فردّ عليه السلام ورحب به وأجلسه، فلما جلس أخرج له الفص وقال له: يا معلم، أريد منك أن تصوغ لي هذا الحجر خاتماً بالذهب، ولكن اجعله قدر مثقال من غير زيادة، وصغّه صياغة طيبة. ثم أخرج له عشرين ديناراً وقال له: خذ هذه في نظير نقشه، والأجرة باقية. ثم أعطى كل صانع ديناراً، فأحبّه الصنّاع وأحبّه المعلم عبيد، وقعد يتحدّث معه، وصار كلّ مَنْ أتاه من السائلين يعطيه ديناراً، فتعجبوا من كرمه. ثم إن المعلم عبيد كان عنده عدة في بيته مثل العدة التي في الدكان، وكان من عادته أنه إذا أراد أن يصنع شيئاً غريباً يشغله في بيته، حتى إن الصنّاع لا يتعلّمون منه الصنعة الغريبة. وكانت الصبيّة زوجته تجلس قدامه، فإذا كانت قدامه ونظر إليها فإنه يصنع كل شيء غريب في صناعته، بحيث لا يليق إلا بالملوك. فقعد يصنع هذا الخاتم صنعة عجيبة في البيت، فلما رأته زوجته قالت له: ما مرادك أن تصنع بهذا الفص؟ قال: أريد أن أصوغه خاتماً بالذهب، فإن ثمنه خمسمائة دينار. فقالت له: لمن؟ قال: لغلّام تاجر جميل الصورة له عيون تجرح وخدود تقدح، وله فم كخاتم سليمان، ووجنتان كشقائق النعمان، وشفاف حمر كالمرجان، وله عنق مثل أعناق الغزلان، وهو أبيض مشرب بحمرة، ظريف لطيف كريم، فعل كذا وكذا. وصار تارةً يصف لها حسنّه وجماله، وتارةً يصف لها كرمه وكماله، وما زال يذكر لها محاسنه وكرم أخلاقه حتى عشّقها فيه، ولم يكن أحد أعرض من الذي يصف لزوجته إنساناً بالحسن والجمال وفرط سخائه بالمال! فلما فاض بها الغرام قالت له: هل يوجد فيه شيء من محاسني؟ فقال لها: جميع محاسنك كلها فيه، وهو شبّيهك في الصفة، وربما كان عمره قدر عمرك، ولولا أنني أخاف على خاطرك لقلْتُ: إنه أحسن منك بألف مرة. فسكتت، ولكن التهب نار محبته في قلبها. ثم إن الصايغ لم يزل يتحدّث في تعداد محاسنه حتى فرغ من صياغة هذا الخاتم، ثم ناوله لها فلبسته، فجاء على قدر إصبعها، فقالت له: يا سيدي، إن قلبي حب هذا الخاتم، وأشتهي أنه يكون لي ولا أنزعه من إصبعي. فقال لها: اصبري، فإن صاحبه كريم، وأنا أطلب أن أشتريه منه، فإن باعني إياه جئت به إليك، وإن كان عنده حجر آخر أشتريه لك وأصوغه مثله. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهرى قال لزوجته: اصبري، فإن صاحبه كريم وأنا أطلب أن أشتريه منه، فإن باعني إياه جئت به إليك، وإن كان عنده حجر آخر أشتريه وأصوغه لك مثله.

هذا ما كان من أمر الجوهرى وزوجته، وأما ما كان من أمر قمر الزمان فإنه بات في منزله، فلما أصبح أخذ مائة دينار وأتى إلى العجوز زوجة المزين وقال لها: خذي هذه المائة دينار. فقالت له: أعطها لأبيك. فأعطاهما له، ثم إنها قالت له: هل فعلت كما قلت لك؟ قال: نعم. قالت له: قُمْ وتوجّه الآن إلى شيخ الجوهريّة، فإذا أعطاك الخاتم فضعه في رأس إصبعك وانزعه بسرعة وقل له: يا معلم، أخطأت، إن الخاتم جاء ضيقًا. فيقول لك: يا تاجر، هل أكسره وأصوغه واسعًا؟ فقل له: لا أحتاج إلى كسره وصياغته ثانيًا، ولكن خذه وأعطه لجارية من جواريك. وأخرج له حجرًا آخر يكون ثمنه سبعمائة دينار وقل له: خذ هذا الحجر صغره لي، فإنه أحسن من ذلك. وأعطه ثلاثين دينارًا وأعط لكل صانع دينارين وقل له: هذه الدنانير في نظير نقشه، والأجرة باقية. ثم ارجع إلى منزلك وبت هناك وتعال في الصباح ومعك مائتا دينار وأنا أكمل لك بقية الحيلة. ثم إنه ذهب إلى الجوهرى فرحب به وأجلسه على الدكان، فلما جلس قال له: قضيت الحاجة؟ قال: نعم. وأخرج له الخاتم، فأخذه وحطّه في رأس إصبعه، ثم نزع سريعًا وقال له: أخطأت يا معلم! ورماه له وقال له: إنه ضيق على إصبعي. فقال له الجوهرى: يا تاجر، هل أوسّعه؟ قال: لا، ولكن خذه إحسانًا وألبسه لإحدى جواريك، فإن ثمنه تافه؛ لأنه خمسمائة دينار، فلا يحتاج إلى صياغته ثانيًا. ثم أخرج له فصًا آخر ثمنه سبعمائة دينار وقال له: اصنع هذا. ثم أعطاه ثلاثين دينارًا وأعطى كل صانع دينارين. فقال له: يا سيدي، لمّا نصوغ الخاتم نأخذ أجرته. قال: هؤلاء في نظير نقشه، والأجرة باقية. ثم تركه ومضى،

فاندھش الجوهري من شدة كرم قمر الزمان وكذلك الصنَّاعُ. ثم إن الجوهري ذهب إلى زوجته وقال لها: يا فلانة، ما رأيت عيني أكرم من هذا الشاب، وأنت بختك طيب؛ لأنه أعطاني الخاتم بلا ثمن وقال لي: أعطه لبعض جواريك. وحكى لها القصة، ثم قال لها: أظن أن هذا الولد ما هو من أولاد التجار، وإنما هو من أولاد الملوك والسلاطين. وصار كلما مدَّحه تزداد فيه غراماً ووجْداً وهياماً. ثم لبست الخاتم والجوهري صاغ له الثاني أوسع من الأول بقليل، فلما فرغ من صناعته لبسته في إصبعها من داخل الخاتم الأول، ثم قالت: يا سيدي، انظر، ما أحسنَ الخاتمين في إصبعي! فأشتهي أن يكون الخاتمان لي. فقال لها: اصبري، لعلني أشتري الثاني لك. ثم بات، فلما أصبح أخذ الخاتم وتوجَّه إلى الدكان.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر قمر الزمان فإنه أصبح متوجَّهاً إلى العجوز زوجة المزين، وأعطاهما مائتي دينار، فقالت له: توجَّه إلى الجوهري، فإذا أعطاك الخاتم فضَّعه في إصبعك وانزعه سريعاً وقل: أخطأت يا معلم، إن الخاتم جاء واسعاً، والمعلم الذي يكون مثلك إذا أتاه مثلي بشغل ينبغي له أن يأخذ القياس، فلو كنت أخذت قياس إصبعي ما أخطأت! وأخرج له حجراً آخر يكون ثمنه ثمانمائة دينار وقل له: خذ هذا اصنعه، وأعط هذا الخاتم إلى جارية من جواريك. ثم أعطه أربعين ديناراً، وأعط كل صانع ثلاثة دنانير وقل له: هذا في نظير نقشه، وأما الأجرة فإنها باقية. وانظر ماذا يقول لك، ثم تعالَ ومعك ثلاثمائة دينار وأعطها لأبيك يستعين بها على وقته؛ فإنه رجل فقير الحال. فقال: سمعاً وطاعة. ثم إنه توجه إلى الجوهري فرحَّب به وأجلسه، ثم أعطاه الخاتم فوضعه في إصبعه ونزعه بسرعة وقال له: ينبغي للمعلم الذي مثلك إذا أتاه مثلي بشغل أن يأخذ قياسه، فلو كنت أخذت قياس إصبعي ما أخطأت، ولكن خذه وأعطه لإحدى جواريك. ثم أخرج له حجراً ثمنه ثمانمائة دينار وقال له: خذ هذا واصنعه لي خاتماً على قدر إصبعي. فقال: صدقتَ والحق معك. فأخذ القياس وأخرج له أربعين ديناراً وقال له: خذ هذه في نظير نقشه والأجرة باقية. فقال له: يا سيدي، كم أجرة أخذناها منك، فأحسانك علينا كثير! فقال له: لا بأس. ثم إنه تحدَّث معه حصة وصار كلما يمرُّ به سائل يعطيه ديناراً، وبعد ذلك تركه وانصرف.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الجوهري فإنه توجَّه إلى بيته وقال لزوجته: ما أكرم هذا الشاب التاجر! فما رأيت أكرم منه ولا أجمل منه ولا أحلى من لسانه! وصار يذكر لها محاسنه وكرمه ويبالغ في مدحه، فقالت له: يا عديم الذوق، حيث

كنتَ تعرف فيه هذه الصفات، وقد أعطاك خاتمين مَثْمَنين ينبغي لك أن تعزمه وتعمل له ضيافة وتتودّد إليه، فإذا رأى منك المودة وجاء منزلنا ربما تنال منه خيراً كثيراً، وإن كنتَ لا تسمح له بضيافة، فاعزمه وأنا أعمل له الضيافة من عندي. فقال لها: هل أنتَ تعرفين أنني بخيل حتى تقولي هذا الكلام؟! قالت له: ما أنتَ بخيل ولكنك عديم الذوق، فاعزمه في هذه الليلة ولا تَجِئْ بدونه، وإن امتنع فاحلف عليه بالطلاق وأكّد عليه. فقال لها: على الرأس والعين. ثم إنه صاغ الخاتم ونام وأصبح في ثالث يوم متوجّهاً إلى الدكان وجلس فيها.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر قمر الزمان فإنه أخذ ثلاثمائة دينار وتوجه إلى العجوز وأعطاهما لزوجها، فقالت له: ربما يعزم عليك في هذا اليوم، فإذا عزم عليك وبتَّ عنده فمهما جرى لك فأخبرني به في الصباح، وهاتِ معك أربعمائة دينار وأعطها لأبيك. فقال: سمعاً وطاعة. وصار كلما فرغت منه الدراهم يبيع من الأحجار، ثم إنه توجّه إلى الجوهري فقام له وأخذه بالأحضان وسلّم عليه، وعقد معه صحبة، ثم إنه أخرج له الخاتم فرآه على قدر إصبعه. فقال له: بارك الله فيك يا سيد المعلمين، إن الصياغة موافقة، ولكن الفص ليس على مرادي. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما قال للجوهري: إن الصياغة موافقة، ولكن الفص ليس على مرادي؛ لأن عندي أحسن منه، فخذ وأعطه لإحدى جواريك. وأخرج له غيره وأخرج له مائة دينار وقال له: خذ أجرتك، ولا تؤاخذنا فإننا أتعبنك. فقال له: يا تاجر، إن الذي تعبنا فيه قد أعطيتنا إياه، وتفضلت علينا بشيء كثير، وأنا قلبي تعلق بحبك، ولا أقدر على فراقك، فبالله عليك أن تكون ضيفي في هذه الليلة وتجبر بخاطري. فقال: لا بأس، ولكن لا بد أن أتوجه إلى الخان لأجل أن أوصي أتباعي وأخبرهم بأنني غير بائ في الخان حتى لا ينتظروني. فقال له: أنت نازل في أي خان؟ قال: في الخان الفلاني. فقال: أجيء إليك هناك. فقال: لا بأس. ثم إن الجوهري توجه إلى ذلك الخان قبل المغرب خوفاً من غضب زوجته عليه إن دخل البيت بدونه، ثم إنه أخذه ودخل به في بيته، وجلسا في قاعة ليس لها نظير، وكانت الصبيّة رآته حين دخوله فافتتنت به، ثم صارا يتحدثان إلى أن جاء العشاء، فأكلا وشربا وبعد ذلك جاءت القهوة والشربات، ولم يزل يسامرهما إلى وقت العشاء فصلّيا الفريضة، ثم دخلت عليهما جارية ومعها فنجانان من المشروب، فلما شربا غلب عليهما النوم فناما، ثم جاءت الصبيّة فرأتهم نائمين، فنظرت في وجه قمر الزمان فاندesh عقلها من جماله، وقالت: كيف ينام من عشق الملاح؟ ثم قلبته على قفاه وركبت على صدره، ومن شدة غيظها من غرامه نزلت على خدوده بعلقة بوس حتى أثّر ذلك في خده، فاشتدت حمرة وزهت وجنته، ونزلت على شفته بالمص، ولم تزل تمص شفته حتى خرج الدم من فمها، ومع ذلك لم تنطفئ نارها، ولم يزل معها بين بوس وعناق والتفاف ساق على ساق حتى أشرق جبين الصباح، وتبلّج الفجر ولاح، ثم وضعت في جيبه أربعة عواشق وتركته وراحت، وبعد ذلك أرسلت جاريته بشيء مثل النشوق فوضعت في مناخيرهما، فعطسا وأفاقا، فقالت لهما الجارية: اعلموا يا أسيادي أن

الصلاة وجبت، فقوموا لصلاة الصبح. وأتت لهما بالطشت والإبريق، ثم قال قمر الزمان: يا معلم، إن الوقت جاء، وقد تجاوزنا الحد في النوم. فقال الجوهري للتاجر: يا صاحبي، إن نوم هذه القاعة ثقيل، كلما أنام فيها يجري لي هذا الأمر. فقال: صدقت. ثم إن قمر الزمان أخذ يتوضأ، فلما وضع الماء على وجهه أحرقته خدوده وشفته. فقال: عجائب! إذا كان هواء القاعة ثقيلاً واستغرقنا في النوم فما بال خدودي وشفتي تحرقني؟ ثم قال: يا معلم، إن خدودي وشفتي تحرقني. فقال: أظن أن هذا من أكل الناموس. فقال: عجائب! وهل يجري لك فيها مثلي؟ قال: لا، ولكن إذا كان عندي ضيف مثلك يصبح يشكو من قرص الناموس، ولا يكون ذلك إلا إذا كان الضيف مثلك أمرد، وأما إذا كان ملتحيًا فلا يعفُّ عليه الناموس، وما منع الناموس عني إلا لحييتي، كأن الناموس لا يهوى أصحاب اللحى. فقال له: صدقت.

ثم إن الجارية جاءت لهما بالفطور، فأفطرا وخرجا وراح قمر الزمان إلى العجوز، فلما رأيته قالت له: إني أرى آثار الحظ على وجهك، فأخبرني بما رأيته. قال: ما رأيته شيئاً، وإنما تعشيت أنا وصاحب المحل في قاعة وصلينا العشاء، ثم نمنا، فما أفقنا إلا الصبح. فضحكت وقالت: ما هذا الأثر الذي في خدك وعلى شفتك؟ قال لها: إن ناموس القاعة فعل معي هذه الفعال. فقالت: صدقت، وهل جرى لصاحب البيت مثل ما جرى لك؟ قال: لا، ولكنه أخبرني أن ناموس تلك القاعة لا يضرُّ أصحاب اللحى، ولا يعفُّ إلا على المُرد، وكلما يكون عنده ضيف، فإن كان أمرد يصبح يشكو من قرص الناموس، وإن كان ملتحيًا فلا يجري له شيء من ذلك. فقالت: صدقت، فهل رأيته شيئاً غير هذا؟ قال: رأيته في جيبتي أربعة عواشق. قالت: أرني إياها. فأعطاهما لها، فأخذتها وضحكت وقالت: إن معشوقتك قد وضعت هذه العواشق في جيبك. قال: وكيف ذلك؟ قالت: إنها تقول لك بالإشارة: لو كنت عاشقًا ما نمت، فإن الذي يعشق لا ينام، ولكن أنت لم تزل صغيرًا ولا يليق بك إلا اللعب بهذه العواشق، فما حملك على عشق الملاح؟ وقد جاءتك في الليل فرأيتك نائمًا فقطعت خدودك بالبوس، وحطت لك هذه الأمانة، ولكنها لا يكفيها منك ذلك، بل لا بد أن ترسل إليك زوجها فيعزم عليك في هذه الليلة، فإذا رحت معه فلا تنم عاجلاً، وهات معك خمسمائة دينار وتعال أخبرني بما حصل، وأنا أكمل لك الحيلة. قال لها: سمعًا وطاعة. ثم توجه إلى الخان.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر زوجة الجوهري فإنها قالت لزوجها: هل راح الضيف؟ قال: نعم، ولكن يا فلانة إن الناموس شوش عليه في هذه الليلة وقطع

خُدوده وشفته، وأنا استحييت منه. فقالت: هذه عادة ناموس قاعتنا؛ فإنه لا يهوى إلا المُرد، ولكن اعزمه في الليلة الآتية. فتوجّه إليه في الخان الذي هو فيه وعزمه وأتى به إلى القاعة، فأكلا وشربا وصلّيّا العشاء، فدخلت عليهما الجارية وأعطت كل واحد فنجانًا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية دخلتُ عليهما وأعطت كل واحد فنجاناً، فشربا وناما، فأتت الصبية وقالت له: يا علق، كيف تنام وتدّعي أنك عاشق، والعاشق لا ينام؟ ثم ركبت على صدره ولا زالت نازلة عليه ببوس وعض ومص وهراش إلى الصباح، ثم حطّت له في جيبه سكيناً وأرسلت جاريته عند الصباح فنّبّهتُهما، وخدوده كأنها ملتهبة بالنار من شدة الاحمرار وشفاهه كالمرجان بسبب المص والتقبيل. فقال له الجوهري: لعل الناموس شوّش عليك. قال: لا، لأنه لما عرف النكتة ترك الشكاية، ثم إنه رأى السكين في جيبه فسكت، ولما أفطر وشرب القهوة خرج من عند الجوهري وتوجّه إلى الخان، وأخذ خمسمائة دينار وذهب إلى العجوز، وأخبرها بما رأى، وقال لها: إنني نمت غصباً عني، ولما أصبحت ما رأيت شيئاً غير سكين في جيبِي. فقالت له: الله يحميك منها في الليلة القابلة، إنها تقول لك: إن نمتَ مرةً أخرى ذبحتك. وأنت معزوم عندهم الليلة القابلة، فإن نمتَ ذبحتك. فقال: وكيف يكون العمل؟ فقالت: أخبرني بما تأكله وما تشربه قبل النوم. قال: نتعشى على عادة الناس، ثم تدخل علينا جارية بعد العشاء وتعطي كل واحد منّا فنجاناً، فمتى شربت فنجانِي نمت ولا أفيق إلا في الصباح. فقالت له: إن الداهية في الفنجان، فخذ منها ولا تشربه حتى يشرب سيدها ويرقد، وحين تعطيه لك الجارية قل لها: اسقيني ماءً. فتذهب لتجيء إليك بالقلّة فكبّ الفنجان خلف المخدة واجعل روحك نائماً، فلما ترجع إليك بالقلّة تظن أنك نمتَ بعد أن شربت الفنجان، فتروح عنك، وبعد حصّةٍ يظهر لك الحال، وإياك أن تخالف أمري. فقال: سمعاً وطاعة. ثم توجه إلى الخان. هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر زوجة الجوهري، فإنها قالت لزوجها: إكرام الضيف ثلاث ليالٍ، فاعزمه مرةً ثالثة. فتوجّه إليه وعزمه وأخذه ودخل به إلى القاعة، فلما تعشّيا وصلّى العشاء وإذا بالجارية دخلت وأعطت كلّ واحد فنجاناً، فشرب

سيدها ورقد، وأما قمر الزمان فإنه لم يشرب، فقالت له الجارية: أما تشرب يا سيدي؟ فقال لها: أنا عطشان، هاتي القلة. فذهبت لتجيء إليه بالقلة، فكبَّ الفنجان خلف المخذة ورقد، فلما رجعت الجارية رآته راقداً، فأخبرت سيدها بذلك وقالت: إنه لما شرب الفنجان رقد. فقالت الصبية في نفسها: إن موته أحسن من حياته. ثم أخذت سكيناً ماضية ودخلت عليه وهي تقول: ثلاث مرات وأنت لم تلاحظ الإشارة يا أحمق! الآن أشق بطنك. فلما رآها مقبلة عليه وفي يدها السكين فتح عينيه وقام ضاحكاً، فقالت له: ما فهمُ هذه الإشارة من فطنتك، بل بدلالةٍ ماكرٍ، فأخبرني من أين لك هذه المعرفة؟ قال: من عجوز، وجرى لي معها كذا وكذا ... وأخبرها بالخبر. فقالت له: في غدٍ اخرج من عندنا ورُحْ إلى العجوز وقل لها: هل بقي معك من الحيل زيادة عن هذا المقدار؟ فإن قالت لك: معي. فقل لها: اجتهدني في الوصول إليها جهاداً. وإن قالت: ما لي مقدرة وهذا آخر ما معي، فاتركها عن بالك وفي ليلةٍ غدٍ يأتي إليك زوجي ويعزمك، فتعالَ معه وأخبرني وأنا أعرف بقية التدبير. فقال: لا بأس.

ثم بات معها بقية الليلة على ضمِّ وعناق وأعمال حرف الجر باتفاق، واتصال الصلة بالموصول، وزوجها كتكوين الإضافة معزول، ولم يزل على هذه الحالة إلى الصباح، ثم قالت له: أنا ما يكفيني منك ليلة ولا يوم ولا شهر ولا سنة، وإنما قصدي أن أقيم معك بقية العمر، ولكن اصبر حتى أعمل لك مع زوجي حيلةً تحيِّر ذوي الألباب ونبليج بها الآراب، وأدخل عليه الشكَّ حتى يطلِّقني وأتزوَّج بك وأروح معك إلى بلادك، وأنقل جميع ماله وذخائره عندك، وأتحيلُ لك على خراب دياره ومحو آثاره، ولكن اسمع كلامي وطاوُعني فيما أقوله لك ولا تخالفني. فقال لها: سمعاً وطاعة، وما عندي خلاف. فقالت له: رُحْ إلى الخان، وإن جاء زوجي وعزمك فقل له: يا أخي، إن ابن آدم ثقيل، ومتى أكثرَ الترداد اشمأزَّ منه الكريمُ والبخيل، وكيف أروح عندك كلَّ ليلة وأرقد أنا وأنت في القاعة؟ فإن كنتِ أنت لا تغتَاطُ مني فربما يغتَاطُ حريمك مني بسبب منعك عنهن، فإن كان مرادك عشتري فخذ لي بيتاً بجانب بيتك، وتبقى أنت تارةً تسهر عندي إلى وقت النوم، وأنا تارةً أسهر عندك إلى وقت النوم، ثم أروح إلى منزلي وأنت تدخل مع حريمك، وهذا الرأي أحسن من حبك عن حريمك كل ليلة. فإنه بعد ذلك يأتي إليَّ ويشاورني فأشير عليه أن يُخرج جارنا، فإن البيت الذي هو ساكن فيه بيتنا، والجار ساكن بالكرا، ومتى أتيت البيت يهون الله علينا بقية تدبيرنا. ثم إنها قالت له: رُحِ الآن وافعل كما أمرتك.

فقال لها: سمعًا وطاعة. ثم تركته وراحت وهو جعل روحه نائمًا، وبعد مدة أتت الجارية فنَبَّهَتْهُمَا، فلما أفاق الجوهرى قال: يا تاجر، لعل الناموس شَوَّشَ عليك. قال: لا. فقال الجوهرى: لعلك اعتدت عليه. ثم إنهما أفطرا وشربا القهوة وخرجا إلى أشغالهما، وتوجَّه قمر الزمان إلى العجوز وأخبرها بما جرى. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لمَّا توجَّه إلى العجوز وأخبرها بما جرى وقال لها: إنها قالت لي كذا وكذا، وقلتُ لها كذا وكذا، فهل عندك أكثر من هذا التدبير حتى توصليني إلى الاجتماع بها جهارًا؟ فقالت: يا ولدي، إلى هنا انتهى تدبري وفرغت حيلي. فعند ذلك تركها وتوجَّه إلى الخان، ولما أصبح الصباح توجَّه إليه الجوهري عند المساء وعزمه. فقال له: لا يمكن أني أروح معك. فقال له: لماذا وأنا أحببتك وما بقيت أقدر على فراقك؟ فبالله عليك أن تمضي معي. فقال له: إن كان مرادك طول العشرة معي ودوام الصحبة بيني وبينك فخذ لي بيتًا بجانب بيتك، وإن شئتَ تسهر عندي وأنا أسهر عندك، وعند النوم يروح كلُّ منا إلى بيته وينام فيه. فقال له: إن عندي بيتًا بجانب بيتي، وهو ملكي، فامضِ معي في هذه الليلة وفي غدٍ أخليه لك. فمضى معه وتعشَّيًا وصلَّيًا العشاء، وشرب زوجها الفنجان الذي فيه العمل فرقدَ، وفنجان قمر الزمان لا غشَّ فيه، فشربه ولم يرقد، فجاءته وقعدت تسامره إلى الصباح وزوجها مرَّميٌّ مثل الميت. ثم إنه صحا من النوم على العادة وأرسلَ أحضر الساكن وقال له: يا رجل، أخلِ لي بيتي فأني قد احتجت إليه. فقال له: على الرأس والعين. فأخلاه له وسكن فيه قمر الزمان ونقل جميع مصالحه فيه. وفي تلك الليلة سهر الجوهري عند قمر الزمان، ثم راح إلى بيته، وفي ثاني يوم أرسلت الصبيَّة إلى معماري ماهر، فأحضرتَه وأرغبتَه بالمال حتى عمل لها سردابًا من قصرها يوصل إلى قمر الزمان، وجعل له طابقًا تحت الأرض، فما يشعر قمر الزمان إلا وهي داخلة عليه ومعها كيسان من المال. فقال لها: من أين جئتِ؟ فأترته السرداب وقالت له: خذ هذين الكيسين من ماله. وقعدت تهارشه وتلاعبه إلى الصباح، ثم قالت له: انتظرني حتى أروح له وأنبِّهه ليذهب إلى دكانه وآتي لك. فقعد ينتظرها وانصرفت لزوجها وأيقظته، وتوضَّأ وصلى وذهب إلى الدكان، وبعد ذهابه أخذت أربعة

أكياس وراحت إلى قمر الزمان من السرداب وقالت له: خذ هذا المال. وجلست عنده، ثم انصرف كلُّ منهما إلى حال سبيله، فتوجَّهَتْ إلى بيتها وتوجَّهَ قمر الزمان إلى السوق، ولما رجع في وقت المغرب رأى عنده عدة أكياس وجواهر وغير ذلك، ثم إن الجوهري جاءه في بيته وأخذه إلى القاعة، وسهر فيها هو وإياه، فدخلت الجارية على العادة وأسقتهما، فرقد سيدها، وقمر الزمان ما أصابه شيء لأن فنجانه سالم لا غشَّ فيه، ثم أقبلت إليه الصبيَّة وجلست تلاعبه، وصارت الجارية تنقل المصالح إلى بيته من السرداب، ولم يزالوا على هذه الحالة إلى الصباح، ثم إن الجارية نبَّهت سيدها وأسقتهما القهوة، وكلُّ منهما راح إلى حال سبيله، وفي ثالث يوم أخرجَتْ له سكينًا كانت لزوجها وهي صياغته بيده وكلفها خمسمائة دينار، لم يوجد لها مثيل في حسن الصياغة، ومن كثرة ما طلبها منه الناس وضعها في صندوق ولم تسمح نفسه ببيعها لأحد من المخلوقين، ثم قالت له: خذ هذه السكين وحطَّها في حزامك، ورُحْ إلى زوجي واجلس عنده وأخرجْها من حزامك وقل له: يا معلم، انظر هذه السكين، فأني اشتريتها في هذا اليوم، وأخبرني هل أنا مغلوب فيها أو غالب؟ فإنه يعرفها ويستحي أن يقول لك: هذه سكيني، فإن قال لك: من أين اشتريتها؟ وبكم أخذتها؟ فقل له: رأيت اثنين من اللاوندية يتقاتلان مع بعضهما، فقال واحد منهما للآخر: أين كنت؟ قلت عند صاحبتني، وكلما أجمع معها تعطيني دراهم، وفي هذا اليوم قالت لي: إن يدي لا تطول دراهم في هذا الوقت، ولكن خذ هذه السكين فإنها سكين زوجي، فأخذتها منها ومرادي بيعها، فأعجبْتَنِي السكين، ولما سمعته يقول ذلك قلت له: أتبيعها لي؟ فقال: اشتر. فأخذتها منه بثلاثمائة دينار. فيا ترى هل هي رخيصة أو غالية؟ وانظر ما يقول لك، ثم تحدَّثْ معه مدةً وقُمْ من عنده وتعالَ إليَّ بسرعة فتراني قاعدة في فم السرداب أنتظرك، فأعطيني السكين. فقال لها: سمعًا وطاعة. ثم أخذ تلك السكين وحطَّها في حزامه وراح إلى دكان الجوهري، فسَلَّمَ عليه، فرحَّب به وأجلسه، فرأى السكين في حزامه فتعجَّب وقال في نفسه: إن هذه سكيني، ومَن أوصلها إلى هذا التاجر؟ وصار يفكِّر في نفسه ويقول: يا تُرى هي سكيني أو سكين تشابهها؟ وإذا بقمر الزمان أخرجَها وقال: يا معلم، خذ هذه السكين تفرِّجَ عليها. فلما أخذها من يده عرفها حقَّ المعرفة، واستحي أن يقول هذه سكيني. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري لما أخذ السكين من قمر الزمان عرفها، واستحى أن يقول هذه سكينى، ثم قال له: من أين اشتريتها؟ فأخبره بما أوصته به الصبيّة. فقال له: هذه بهذا الثمن رخيصة؛ لأنها تساوي خمسمائة دينار. واتقدت النار في قلبه وارتبطت أيديه عن الشغل في صنعته، وصار يتحدث معه وهو غريق في بحر الأفكار، وكلما كلمه الغلام خمسين كلمة يردّ عليه بكلمة واحدة، وصار قلبه في عذاب وجسمه في اضطراب، وتكدّر منه خاطر وصار كما قال الشاعر:

لَمْ أَدْرِ قَوْلًا إِذَا حَبُّوا مُكَالَمَتِي أَوْ كَلَّمُونِي يَرُونِي غَائِبَ الْفِكْرِ
عَرَقَانُ فِي بَحْرِ فِكْرٍ لَا قَرَارَ لَهُ لَا أَفَرِّقُ النَّاسَ أَنْتَاهَا مِنَ الذِّكْرِ

فلما رآه تغيّرت حالته قال له: لعلك مشغول في هذه الساعة. ثم قام من عنده وتوجّه إلى البيت بسرعة، فرآها واقفةً في باب السرداب تنتظره، فلما رآته قالت له: هل فعلت كما أمرتك؟ قال: نعم. قالت له: ما قال لك؟ قال لها: قال لي إنها رخيصة بهذا الثمن؛ لأنها تساوي خمسمائة دينار، ولكن تغيّرت أحواله فقمّت من عنده ولم أدِر ما جرى له بعد ذلك. فقالت: هاتِ السكين وما عليك منه. ثم أخذت السكين وحطّتها في موضعها وقعدت. هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر الجوهري فإنه بعد ذهاب قمر الزمان من عنده التهبّت بقلبه النار، وكثر عنده الوسواس وقال في نفسه: لا بدّ أن أقوم وأتفقّد السكين وأقطع الشك باليقين. فقام وأتى البيت ودخل على زوجته وهو ينفخ مثل الثعبان، فقالت له: ما لك يا سيدي؟ فقال لها: أين سكينى؟ قالت: في الصندوق. ثم دقّت صدرها بيدها وقالت: يا همّي، لعلك تخاصمت مع أحد فأتيت تطلب السكين لتضربه بها! قال

لها: هاتي أريني إياها. قالت: حتى تحلف أنك لا تضرب بها أحداً. فحلف لها، ففتحت الصندوق وأخرجتها له، فصار يقبلها ويقول: إن هذا شيء عجيب! ثم إنه قال لها: خذيها وحطّيها في مكانها. قالت له: أخبرني ما سبب ذلك؟ قال لها: إني رأيت مع صاحبنا سكيناً مثلها ... وأخبرها بالخبر كله، ثم قال لها: ولما رأيته في الصندوق قطعتُ الشكَّ باليقين. فقالت له: لعلك ظننتُ بي سوءاً وجعلتني صاحبةً اللاوندي وأعطيتهُ السكين؟! فقال لها: نعم، إني شككتُ في هذا الأمر، ولكن لما رأيت السكين ارتفع الشك من قلبي. فقالت له: يا رجل، أنت ما بقي فيك خير. فصار يعتذر إليها حتى أرضاها، ثم خرج وتوجّه إلى دكانه، وفي ثاني يوم أعطت قمر الزمان ساعة زوجها، وكان صنعها بيده، ولم يكن عند أحد مثلاً، ثم إنها قالت له: رُحْ إلى دكانه واجلس عنده وقل له: إن الذي رأيته بالأمس رأيته في هذا اليوم وفي يده ساعة، وقال لي: أتشتري هذه الساعة؟ فقلت له: من أين لك هذه الساعة؟ قال: كنت عند صاحبتني فأعطتني إياها. فاشتريتها منه بثمانية وخمسين ديناراً، فانظر هل هي رخيصة بهذا الثمن أو غالية؟ وانظر ما يقول لك، وإذا قمت من عنده فأتني بسرعة وأعطني إياها. فراح إليه قمر الزمان وفعل معه ما أمرته به، فلما رآها الجوهرى قال: هذه تساوي سبعمائة دينار! وداخله الهمُّ، ثم إن الغلام تركه وراح إلى الصبية وأعطاهها تلك الساعة، وإذا بزوجها دخل ينفخ وقال لها: أين ساعتى؟ قالت له: ها هي حاضرة. قال لها: هاتيه. فأتت له بها، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقالت له: يا رجل، ما أنت بلا خبر، فأخبرني بخبرك. فقال لها: ماذا أقول؟ إني تحيّرت في هذه الحالات. ثم أنشد هذه الأبيات:

وَحَاقَتْ بِيَ الْأَحْزَانُ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي	تَحَيَّرْتُ وَالرَّحْمَنُ لَا شَكَّ فِي أَمْرِي
صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرٌ مِنَ الصَّبْرِ	سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّي
صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَحَرَّ مِنَ الْجَمْرِ	وَمَا مِثْلُ مَرِّ الصَّبْرِ صَبْرِي وَإِنَّمَا
أُمِرْتُ بِحُسْنِ الصَّبْرِ مِنْ صَاحِبِ الْأَمْرِ	وَمَا الْأَمْرُ أَمْرِي فِي الْمُرَادِ وَإِنَّمَا

ثم قال: يا امرأة، إني رأيت مع التاجر صاحبنا أولاً سكيناً، وقد عرفتها لأن صياغتها اختراع من عقلي، وليس يوجد مثلاً، وأخبرني بأخبار تغم القلب، وأتيتُ فرأيتها، ورأيت معه الساعة ثانياً وصياغتها أيضاً اختراع من عقلي، وليس يوجد مثلاً في البصرة، وأخبرني أيضاً بأخبار تغم القلب، فتحيرتُ في عقلي وما بقيتُ أعرف ما جرى لي. فقالت له: مقتضى كلامك أني أنا خلية ذلك التاجر وصاحبه وأعطيته مصالحك وجوّزتُ خيانتني، فجئتُ

تسألني، ولو كنتَ ما رأيت السكين والساعة عندي كنتَ أثبتَّ خيانتني! لكن يا رجل، حيث
إنك ظننتَ بي هذا الظن ما بقيتُ أواكلُك في زادٍ ولا أشاربكُ في ماءٍ بعدَ هذا، فإنني كرهتك
كراهةَ التحريم. فصار يأخذ بخاطرها حتى أرضاها، ثم خرج وتندَّم على مقابلتها بهذا
الكلام، وتوجَّهَ إلى دكانه وجلس. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهرى لما خرج من عند زوجته صار يتندّم على هذا الكلام، ثم ذهب إلى الدكان وجلس معه في الدكان، وصار في قلق شديد، وفكّر ما عليه من مزيد، وهو ما بين مصدّق ومكذّب. وعند المساء أتى إلى البيت وحده، ولم يأت بقمر الزمان معه، فقالت له الصبية: أين التاجر؟ قال: في منزله. قالت: هل بردتِ الصبحة التي بينك وبينه؟ قال: والله إني كرهته مما جرى منه. فقالت له: قم هاتِه من شأن خاطري. فقام ودخل عليه بيته فرأى حوائجه منشورة فيه فعرفها، فاتقدت النار في قلبه وصار يتنهد. فقال قمر الزمان: ما لي أراك في فكّر؟ فاستحى أن يقول له: إن حوائجي عندك! مَنْ أوصلها إليك؟ وإنما قال له: حصل عندي تشويش، ولكن قم بنا إلى البيت لنتسلّى هناك. فقال: دُعني في محليّ، فلا أروح معك. فحلف عليه وأخذه، ثم تعشّى معه وسهرا تلك الليلة، وصار يتحدث معه وهو غريق في بحر الأفكار، وإذا تكلم الغلام التاجر مائة كلمة يرد عليه الجوهرى بكلمة واحدة، ثم دخلت عليهما الجارية بفنجانين على العادة، فلما شربا رقد التاجر ولم يرقد الغلام؛ لأن فنجانهم غير مغشوش، ثم دخلت الصبية على قمر الزمان وقالت له: كيف رأيت هذا القرنان الذي هو في غفلته سكران، ولا يعرف مكائد النسوان؟ فلا بد أن أخدعه حتى يطلّقني، ولكن في غدٍ أنهياً بهيئة جارية وأروح خلفك إلى الدكان، وقل له: يا معلم، إني دخلت اليوم خان اليسيرجية فرأيت هذه الجارية فاشتريتها بألف دينار. فانظرها لي هل هي رخيصة بهذا الثمن أو غالية؟ ثم اكشف له عن وجهي ونهودي وفرّجه عليّ، ثم خذني وارجع بي إلى منزلك، وأنا أدخل بيتي من السرداب حتى أنظر آخر أمرنا معه. ثم إنهما أمضيا ليلتهما على أنس وصفاء ومنادمة وهراش وبسط وانسراح إلى الصباح، وبعد ذلك ذهبت إلى مكانها وأرسلت الجارية فأيقظت سيدها وقمر الزمان، فقاما

وصلّىا الصبح وأفطرا وشربا القهوة وخرج الجوهري إلى دكانه وقمر الزمان دخل بيته، وإذا بالصبيّة خرجت له من السرداب وهي بصفة جارية، وكان أصلها جارية، ثم توجّه إلى دكان الجوهري ومشت خلفه، ولم يزل ماشياً وهي خلفه حتى وصل بها إلى دكان الجوهري، فسلم عليه وجلس وقال: يا معلم، إني دخلت اليوم خان اليسرجية بقصد الفرجة فرأيت هذه الجارية في يد الدلال، فأعجبنتني فاشتريتها بألف دينار، وقصدي أن تتفرج عليها وتنظرها هل هي رخيصة بهذا الثمن أم لا؟ وكشف له عن وجهها فرأها زوجته وهي لابسة أفخر ملبوسها ومتزينة بأحسن الزينة ومكحلة ومخضبة كما كانت تتزين قدامه في بيته، فعرفها حق المعرفة بوجهها وملبوسها وصيغتها؛ لأنه صاغها بيده، ورأى الخواتم التي صاغها جديداً لقمر الزمان في إصبعها، وتحقق عنده أنها زوجته من سائر الجهات. فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: حليلة. وزوجته اسمها حليلة، فذكرت له الاسم بعينه، فتعجّب من ذلك، وقال له: بكم اشتريتها؟ قال: بألف دينار. قال: إنك أخذتها بلا ثمن؛ لأن الألف دينار أقلُّ من ثمن الخواتم وملبسها ومصاغها بلا شيء. فقال له: بشّرَكَ الله بالخير، وحيث أعجبتك فأنا أذهب بها إلى بيتي. فقال: افعل مرادك. فأخذها وراح إلى بيته ونزلت من السرداب وقعدت في قصرها.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر الجوهري، فإن النار اشتعلت في قلبه، وقال في نفسه: أنا أروح أنظر زوجتي، فإن كانت في البيت تكون هذه الجارية شبيهتها، وجلّ مَنْ ليس له شبيهه، وإن لم تكن زوجتي في البيت تكون هي من غير شك. ثم إنه قام يجري إلى أن دخل البيت، فرأها قاعدة بملبسها وزينتها التي رآها بها في الدكان، فضرب يداً على يد وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقالت له: يا رجل، هل حصل لك جنون؟ أو ما خبرك؟ فما هذه عادتك، لا بد أن يكون لك أمر من الأمور. فقال لها: إذا كان مرادك أن أخبرك فلا تغتمّي. فقالت له: قل. قال: التاجر صاحبنا اشترى جارية قدّها مثل قدك، وطولها مثل طولك، واسمها مثل اسمك، وملبسها مثل ملبسك، وهي تشبهك في جميع صفاتك، وفي إصبعها خواتم مثل خواتمك، ومصاغها مثل مصاغك، فلما فرّجني عليها ظننت أنها أنت، وقد تحيّرت في أمري، ليتنا ما رأينا هذا التاجر ولا صاحبناه ولا جاء من بلاده ولا عرفناه؛ فإنه كدّر عيشتي بعد الصفاء، وكان سبباً في الجفاء بعد الوفاء، وأدخَلَ الشك في قلبي. فقالت له: طلّ في وجهي لعلّي أكون أنا التي كنتُ معه والتاجر صاحبي، وقد تلبّستُ بصفة جارية واتفقت معه على أن يفرّجك عليّ حتى يكيدك. فقال: أي

شيء هذا الكلام؟! أنا ما أظن بك أن تفعلي مثل هذه الفعال. وكان ذلك الجوهرى مغفلاً
عن مكايدة النساء وما يفعلن مع الرجال، ولم يسمع بقول من قال:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَانِ طُرُوبٌ بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيبُ
يُكَلِّفُنِي لَيْلِي وَقَدْ شَطَّ وَلِيْهَا وَعَادَتْ عَوَادِ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ
وَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْهِنٍ نَصِيبُ

وقول الآخر:

اغْصِ النِّسَاءَ فَتِلْكَ الطَّاعَةُ الْحَسَنَةُ فَلَنْ يَقُورَ فَتًى يُعْطِيَ النِّسَاءَ رَسَنَهُ
يُعِقُّهُ عَنْ كَمَالٍ فِي فَضَائِلِهِ وَلَوْ سَعَى طَالِبًا لِلْعِلْمِ أَلْفَ سَنَةٍ

وقول الآخر:

إِنَّ النِّسَاءَ شَيَاطِينَ خُلِقْنَ لَنَا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ كَيْدِ الشَّيَاطِينِ
وَمَنْ بِهِنَ رَمَاهُ الْعِشْقُ مُبْتَلِيًا قَدْ ضَيَّعَ الْحَزَمَ مِنْ دُنْيَا وَمِنْ دِينِ

ثم قالت له: ها أنا قاعدة في قصري، ورُح أنت إليه في هذه الساعة واطرق الباب
واحتمل على الدخول عليه بسرعة، فإذا دخلت ورأيت الجارية عنده تكون جاريته تشبهني،
وجل من ليس له شبيهه، وإن لم تر الجارية عنده أكون أنا الجارية التي رأيته معها،
ويكون ظنك بي السوء محققاً. فقال: صدقت. ثم تركها وخرج، فقامت هي ونزلت من
السرداب، وقعدت عند قمر الزمان وأخبرته بذلك، وقالت له: افتح الباب بسرعة وفرِّجْه
عليّ. فبينما هما في الكلام، وإذا بالباب يطرق، فقال: من بالباب؟ قال: أنا صاحبك؛ فإنك
فرَّجتني على الجارية في السوق وفرحت لك بها، ولكن ما كملت فرحتي بها، فافتح الباب
وفرِّجني عليها. قال: لا بأس بذلك. ثم فتح له الباب فرأى زوجته قاعدة، فقامت وقبَّلت
يده ويد قمر الزمان، وتفرَّج عليها وتحدَّث معه مدة، فرأها لا تتميز عن زوجته بشيء.
فقال: يخلق الله ما يشاء. ثم إنه خرج وكثر في قلبه الوسواس، ورجع إلى بيته فرأى
زوجه جالسة؛ لأنها سبقته من السرداب حين خرج من الباب. وأدرك شهرزاد الصباح،
فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصبيّة سبقت زوجها من السرداب حين خرج من الباب، ثم قعدت في قصرها، فلما دخل عليها زوجها، قالت له: أي شيء رأيت؟ قال: رأيته عند سيدها وهي تشبهك. فقالت: توجّه إلى دكانك وحسبك سوء الظن، فما بقيت تظن بي سوءًا. فقال لها: الأمر كذلك، فلا تؤاخذيني بما صدر مني. قالت: سامحك الله. ثم قبلها ذات اليمين وذات الشمال، وراح إلى دكانه، فنزلت من السرداب إلى قمر الزمان ومعها أربعة أكياس، وقالت له: جهّز حالك لسرعة السفر، واستعدّ لتحميل المال بلا إمهال، حتى أفعل لك ما عندي من الحيل. فطلع واشترى بغالاً وحمل أحمالاً وجهّز تخترواناً واشترى ممالك وخدمًا، وأخرج الجميع من البلد وما بقي له عاقبة، وأتى وقال: إني تمّمت أموري. فقالت له: وأنا الأخرى قد نقلت بقية ماله وجميع ذخائره عندك، وما خلّيت له قليلًا ولا كثيرًا ينتفع به، وكل هذا محبةً فيك يا حبيب قلبي، فأنا أفديك ألف مرة بزوجي، ولكن ينبغي أن تذهب إليه وتودّعه وتقول له: أنا أريد السفر بعد ثلاثة أيام، وجئت لأودّعك، فاحسب ما انجمل لك عندي من أجرة البيت حتى أوردك وأتبرئ ذمتي. وانظر ما يكون من جوابه، وارجع إليّ وأخبرني، فإنني عجزت وأنا أحتال عليه وأغيظه لأجل أن يطلّقني، فما أراه إلا متعلقًا بي، وما بقي لنا أحسن من السفر إلى بلادك. فقال لها: يا حبيبًا، إن صحت الأحلام. ثم راح إلى دكانه وجلس عنده وقال: يا معلم، أنا مسافر بعد ثلاثة أيام، وما جئت إلا لأودّعك، والمراد أنك تحسب ما انجمل لك عندي من أجرة البيت حتى أعطيه لك وتبرئ ذمتي. فقال له: ما هذا الكلام؟ إن فضلك عليّ، والله ما أخذ منك شيئاً من أجرة البيت، وحلّت البركات، ولكنك توحشنا بسفرك، ولولا أنه يحرم عليّ لتعرّضت لك ومنعتك عن عيالك وبلادك. ثم ودّعه وتباكياً بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد، وقفل الدكان من ساعته وقال في نفسه: ينبغي أن أشيّع صاحبي. وصار كلما راح يقضي حاجة يروح معه، وإذا

دخل بيت قمر الزمان يجدها فيه، وتقف بين أيديهما وتخدمهما، وإذا رجع إلى بيته يراها قاعدة هناك. ولم يزل يراها في بيته إذا دخله ويراه في بيت قمر الزمان إذا دخله مدة الثلاثة أيام، ثم إنها قالت له: إني نقلت جميع ما عنده من الذخائر والأموال والفروش، ولم يبقَ عنده إلا الجارية التي تدخل عليكما بالشراب، ولكني لا أقدر على فراقها؛ لأنها قريبتى وعزيزة عندي وكاتمة لسري، ومرادي أن أضربها وأغضب عليها، وإذا أتى زوجي أقول له: أنا ما بقيت أقبل هذه الجارية ولا أقعد أنا وإياها في بيت، فخذها وبيعها. فيأخذها لبييعها، فاشتريها أنت حتى تأخذها معنا. فقال: لا بأس. ثم إنها ضربتها، فلما دخل زوجها رأى الجارية تبكي، فسألها عن سبب بكائها، فقالت: إن سيدتي ضربتني. فدخل وقال: ما فعلت هذه الجارية الملعونة حتى ضربتها؟ فقالت له: يا رجل، إني أقول لك كلمة واحدة، أنا ما بقيت أقدر أن أنظر هذه الجارية، فخذها وبيعها، وإلا فطلقني. فقال: أبيعها ولا أخالف لك أمراً. ثم إنه أخذها معه وهو خارج إلى الدكان، ومرَّ بها على قمر الزمان، وكانت زوجته بعد خروجه بالجارية مرقت من السرداب بسرعة إلى قمر الزمان، فأدخلها في التختران قبل أن يصل إليه الشيخ الجوهري. فلما وصل إليه ورأى قمر الزمان الجارية معه، قال له: ما هذه؟ قال: جاريتي التي كانت تسقينا الشراب، ولكنها خالفت سيدتها فغضبت عليها وأمرتني أن أبيعها. فقال: إنها حيث بغضتها سيدتها ما بقي لها قعود عندها، ولكن بيعها لي حتى أشم رائحتك فيها، وأجعلها خادمة لجاريتي حليلة. فقال: لا بأس، خذها. فقال له: بكم؟ فقال: أنا لا آخذ منك شيئاً؛ لأنك تفضلت علينا. فقبلها منه وقال للصبيّة: قبلي يد سيدك. فبرزت له من التختران وقبلت يده، ثم ركبت في التختران وهو ينظر إليها، ثم قال له قمر الزمان: أستودعك الله يا معلم عبيد، أبرئ ذمتي. فقال له: أبرأ الله ذمتك، وحملك بالسلامة إلى عيالك. وودَّعه وتوجَّه إلى دكانه وهو يبكي، وقد عزَّ عليه فراق قمر الزمان؛ لكونه كان رفيقاً له، والرفيق له حق، ولكنه فرح بزوال الوهم الذي حصل عنده من أمر زوجته؛ حيث سافر ولم يتحقَّق ما ظنه في زوجته.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر قمر الزمان، فإن الصبيّة قالت له: إن أردت السلامة فسافر بنا على غير طريق معهودة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لَمَّا سافر، قالت له الصبيّة: إن أردت السلامة فسافرْ بنا على غير طريق معهودة. فقال: سمعًا وطاعة. ثم سلك طريقًا غير الطريق التي تعهّد الناس المشي فيها. ولم يزل مسافرًا من بلاد إلى بلاد حتى وصل إلى حدودِ قُطْرِ مصر، ثم كتب كتابًا وأرسله إلى والده مع ساع، وكان والده التاجر عبد الرحمن قاعدًا في السوق بين التجار، وفي قلبه من فراق ولده لهيب النار؛ لأنه من يوم توجّه ما أتاه من عنده خبر. فبينما هو كذلك، وإذا بالساعي مقبل وقال: يا سادتي، مَن فيكم اسمه التاجر عبد الرحمن؟ فقالوا له: ما تريد منه؟ قال لهم: إن معي كتابًا من عند ولده قمر الزمان، وقد فارقتُه عند العريش. ففرح وانشرح، وفرح له التاجر وهنّوه بالسلامة، ثم أخذ الكتاب وقرأه، فرآه من عند قمر الزمان إلى التاجر عبد الرحمن، وبعد السلام عليك وعلى جميع التجار، فإن سألتُم عنّا فله الحمد والمنة، وقد بعنا واشترينا وكسبنا، ثم قدّمنا بالصحة والسلامة والعافية. فعند ذلك فتح باب الفرح وعمل اللوائِم وأكثُر الضيافات والعزائم، وأحضَرَ آلات الطرب، وأتى في الفرح بأنواع العجب، فلما وصل ولده الصالحة، خرج إلى مقابلته أبوه وجميع التجار، فقابلوه واعتنقه والده وضَمَّهُ إلى صدره وبكى حتى أغْمِيَ عليه، ولما أفاق قال له: يوم مبارك يا ولدي؛ حيث جمَعنا بك المهيمِن القادر. ثم أنشد قول الشاعر:

وَقُرْبُ الْحَبِيبِ تَمَامُ السُّرُورِ وَكَأْسُ الْهَنَاءِ عَلَيْنَا يَدُورُ
فَأَهْلًا وَسَهْلًا يَلِي مَرْحَبًا بِنُورِ الزَّمَانِ وَبَدْرِ الْبُدُورِ

ثم أفاض من شدة الفرح دمع العين، وأنشد هذين البيتين:

قَمَرُ الزَّمَانِ يُلَوِّحُ فِي إِسْفَارِهِ إِشْرَاقُهُ إِذْ جَاءَ مِنْ أَسْفَارِهِ
فَشَعُورُهُ فِي اللُّونِ لَيْلٌ غِيَابِهِ لَكِنْ شُرُوقُ الشَّمْسِ مِنْ أَزْرَارِهِ

ثم إن التجار تقدّموا إليه وسلّموا عليه، فرأوا معه أحمالاً كثيرة وخدمًا وتختروانًا، وهو في دائرة واسعة، فأخذوه ودخلوا به البيت، فلما خرجت الصبيّة من التختروان رآها أبوه فتنةً لمن يراها، ففتحوا لها قصرًا عاليًا كأنه كنز نُحِلَّت عنه الطلاس، ولما رأتها أمه افتتنت بها وظنّت أنها مَلِكَة من زوجات الملوك، وفرحت بها وسألتهَا، فقالت لها: أنا زوجة ولدك. قالت: حيث تزوّج بك ينبغي لنا أننا نقيم لك فرحًا عظيمًا حتى نفرح بك وبولدي.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر التاجر عبد الرحمن، فإنه بعد انفضاض الناس ورواح كل واحد إلى حال سبيله، اجتمع بولده وقال له: يا ولدي، ما تكون هذه الجارية عندك؟ وبكم اشتريتها؟ فقال له: يا والدي، إنها ليست جارية، وإنما هي التي كانت سبب غربتي. قال والده: وكيف ذلك؟ قال: إنها التي كان يصفها لنا الدرويش ليلة ما بات عندنا، فإن آمالي تعلّقت بها من ذلك الوقت، ولا طلبتُ السفر إلا من أجلها حتى تعرّيت في الطريق وأخذتِ العربُ أموالِي، وما دخلتُ البصرة إلا وحدي، وحصل لي كذا وكذا ... وصار يحكي لوالده من المبتدأ إلى المنتهى. فلما فرغ من حديثه قال له: يا ولدي، وبعد ذلك كله هل تزوّجتها؟ قال: لا، ولكن وعدتها أن أتزوّج بها. قال له: هل مرادك الزواج بها؟ قال: إن كنت تأمرني أفعل ذلك، وإلا فلا أتزوّجها. قال له: إن تزوّجت بها أكون بريئًا منك في الدنيا والآخرة، وأغضب عليك غضبًا شديدًا! كيف تتزوّج بها وهي عملت هذه الفعال مع زوجها؟ وكما عملتها مع زوجها على شأنك تعمل معك مثلها على شأن غيرك؛ فإنها خائنة، والخائن ليس له أمان. فإن كنت تخالفني أكون غضبانًا عليك، وإن سمعتَ كلامي أفتّش لك على بنتٍ أحسن منها، تكون طاهرةً زاكيةً، فأزوّجك بها ولو كنتُ أنفقُ عليها جميع مالي، وأعمل لك فرحًا ليس له نظير، وأفتخر بك وبها، وإذا قال الناس: فلان تزوّج بنت فلان، أحسن من أن يقولوا تزوّج جارية معدومة النّسب والحسب. وصار يرغب ولده في عدم زواجها، ويذكر له في شأن ذلك عبارات ونكتًا وأشعارًا وأمثالًا ومواعظ، فقال قمر الزمان: يا والدي، حيث كان الأمر كذلك، فلا علاقة لي بزواجها. فلما قال قمر الزمان ذلك الكلام قبّله أبوه بين عينيه، وقال له: أنت ولدي حقًا،

وحياتك يا ولدي لا بد لي من أن أزوجه بنتاً ليس لها نظير. ثم إن التاجر عبد الرحمن حطَّ زوجة عبيد الجوهري وجاريتها في قصر عالٍ، وقفل عليهما، وقيدَ بهما جارية سوداء توصلَ لهما أكلهما وشربهما، وقال لها: أنتِ وجاريتك تستمران محبوستين في هذا القصر حتى أنظر لكما مَنْ يشتریکما وأبيعكما له، وإن خالفتِ قتلْتُكِ أنتِ وجاريتكِ؛ فإنكِ خائنة ولا خيرَ فيكِ. فقالت له: افعل مرادك؛ فإنني أستحقُّ جميع ما تفعله معي. ثم قفل عليهما الباب ووصَّى عليهما حريمه، وقال: لا يطلع عندهما أحد ولا يكلمهما غير الجارية السوداء التي تعطيها أكلهما وشربهما من طاقة القصر. فقعدت هي وجاريتها تبكي وتندم على ما فعلت بزوجهما.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر التاجر عبد الرحمن، فإنه أرسل الخُطَّاب يخطبون بنتاً ذات حَسَبٍ ونَسَبٍ لولده، فلا زلن يفتشن، وكلما رأين واحدة يسمعن بأحسن منها، حتى دخلن بيت شيخ الإسلام، فرأينَ بنته لم يكن لها نظير في مصر، وهي ذات حُسْنٍ وجمال، وقدَّ واعتدال؛ لأنها أحسن من زوجة عبيد الجوهري بألف طبقة. فأخبرته بها، فذهب هو والأكابر إلى والدها وخطبوها منه، وكتبوا الكتاب وعملوا لها فرحاً عظيماً، ثم عمل الولائم وعزم في أول يوم الفقهاء، فعملوا مولداً شريفاً. وثاني يوم عزم التجار تماماً، ثم دُقَّت الطبول وزمرت الزمور ورُيِّنَت الحارة والخط بالقناديل، وفي كل ليلة تأتي سائر أرباب الملاعب ويلعبون بأنواع اللعب، وكل يوم يعمل ضيافة لصنف من أصناف الناس حتى عزم العلماء والأمراء والصناجق والحكام، ولم يزل الفرح قائماً مدة أربعين يوماً، وكل يوم يقعد التاجر ويستقبل الناس، وولده يقعد بجانبه ليتفرَّج على الناس وهم يأكلون من السماط. وكان فرحاً ليس له نظير. وفي آخر يوم عزم الفقراء والمساكين، غريباً وقريباً، فصاروا يأتون زُمراً يأكلون، والتاجر جالس وابنه بجانبه. فبينما هم كذلك، وإذا بالشيخ عبيد زوج الصبيَّة داخل في جملة الفقراء وهو عريان تعبان، وعلى وجهه أثر السفر، فلما رآه قمر الزمان عرفه، فقال لأبيه: انظر يا أباي إلى هذا الرجل الفقير الذي دخل من الباب. فنظر إليه فرآه رثَّ الثياب وعليه خلق جلاباب يساوي درهمين، وفي وجهه اصفرار يعلوه غبار، وهو مثل مقاطيع الحجاج، ويئنُّ أنينَ المريض المحتاج، ويمشي بتهافت في مشيه ذات اليمين وذات الشمال، وتحقق فيه قول مَنْ قال:

الْفَقْرُ يُزْرِئُ بِالْفَتَى دَائِماً كَمَا اصْفَرَّ الشَّمْسُ عِنْدَ الْمَغِيبِ
يَمُرُّ بَيْنَ النَّاسِ مُسْتَخْفِياً وَإِنْ خَلَا يَبْكِي بِدَمْعٍ صَبِيبٍ

وَأِنْ يَغِيبَ فَلَيْسَ يُعْنَى بِهِ
وَاللَّهِ مَا الْإِنْسَانُ فِي أَهْلِهِ
وَمَا لَهُ عِنْدَ حُضُورِ نَصِيبٍ
إِذَا ابْتَلَى بِالْفَقْرِ إِلَّا غَرِيبٌ

ويقول الآخر:

يَمْشِي الْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضَدَّهُ
وَتَرَاهُ مَمْقُوتًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ
حَتَّى الْكَلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَا نِعْمَةٍ
وَإِذَا تَرَى يَوْمًا فَقِيرًا بَائِسًا
وَالْأَرْضُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا
وَيَرَى الْعَدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا
أُؤْمِتُ إِلَيْهِ وَحَرَكْتُ أَذْنَابَهَا
نَبَحْتُ عَلَيْهِ وَكَشَّرْتُ أَنْيَابَهَا

وما أحسن قول الشاعر:

إِذَا صَحِبَ الْفَتَى عِزًّا وَسَعْدًا
وَوَاصَلَ الْحَبِيبُ بَغِيرٍ وَعَدٍ
وَعَدَّ النَّاسُ ضَرْطَتَهُ غِنَاءً
وَقَالُوا إِنَّ فَسَا قَدْ فَاحَ طِيبٌ
تَحَامَتُهُ الْمَكَارُهُ وَالْخُطُوبُ
طُفِيلِيًّا وَقَادَ لَهُ الرَّقِيبُ

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن التاجر عبد الرحمن لما قال له ولده: انظر إلى هذا الرجل الفقير. قال: يا ولدي، من هذا؟ قال له: هذا المعلم عبيد الجوهري زوج المرأة المحبوسة عندنا. فقال له: هذا الذي كنتَ تحدّثني عنه؟ قال: نعم، وقد عرفته معرفةً جيدة. وكان السبب في مجيئه أنه لما ودّع قمر الزمان توجّه إلى دكانه، فجاءته دقة شغل فأخذها واشتغلها في بقية النهار، وعند المساء قفل الدكان وذهب إلى البيت، ووضع يده على الباب فانفتح، فدخل فلم يرَ زوجته ولا الجارية، ورأى البيت في أسوأ الحال، منطبقاً عليه قول من قال:

كَانَتْ خَلِيَّاتٍ نَحَلٍ وَهِيَ عَامِرَةٌ لَمَّا خَلَا نَحْلُهَا عَادَتْ خَلِيَّاتٍ
كَأَنَّهَا الْيَوْمَ بِالسُّكَّانِ مَا عَمَرَتْ أَوْ غَالِ سُكَّانَهَا فَصُلِّ الْمُنِيَّاتِ

فلما رأى الدار خالية التفتَ يميناً وشمالاً، ثم دار فيه مثل المجنون، فلم يجد أحداً، وفتح خزينته فلم يجد فيها شيئاً من ماله ولا من ذخائره، فعند ذلك فاق من سكرته وتنبّه من غشيته، وعرف أن زوجته هي التي كانت تتقلب عليه بالحيّل حتى غدرته، فبكى على ما حصل له، ولكنه كتم أمره حتى لا يشمت به أحدٌ من أعدائه، ولا يتكدر أحد من أحبائه، وعلم أنه إذا باح بالسّر لا يناله إلا الهتكة والتعنيف من الناس، وقال في نفسه: يا فلان، اكتم ما حصل لك من الخبال والوبال، وعليك بالعمل بقول من قال:

إِذَا كَانَ صَدْرُ الْمَرْءِ بِالسَّرِّ ضَيْقًا فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السَّرَّ أَضْيَقُ

ثم إنه قفل بيته وقصد الدكان ووكل بها صانعاً من صنّاعه، وقال له: إن الغلام التاجر صاحبي عزم عليّ أن أروح معه على مصر بقصد الفرجة، وحلف أنه ما يرحل حتى يأخذني معه بحريمي، وأنت يا ولدي وكيل في الدكان، وإن سألكم عني الملك فقولوا له: توجّه بحريمه إلى بيت الله الحرام. ثم باع بعض مصالحه واشترى له جملاً وبغالاً ومماليك، واشترى له جارية وحطّها في تختروان وخرج من البصرة بعد عشرة أيام، فودّعه أحبابه وسافر والناس لا يظنون إلا أنه أخذ زوجته وتوجّه إلى الحج. وفرحت الناس وقد أنقذهم الله من حبسهم في المساجد والبيوت في كل يوم جمعة، وصار بعض الناس يقول: لا ردّه الله إلى البصرة مرةً أخرى حتى لا نُحبس في المساجد والبيوت في كل يوم جمعة؛ لأن هذه الخصلة أورثت أهل البصرة حسرةً عظيمة. وبعضهم يقول: أظنّه لا يرجع من سفره بسبب دعاء أهل البصرة عليه. وبعضهم يقول: إن رجع لا يرجع إلا منكسّ الحال. وفرح أهل البصرة بسفره فرحاً عظيماً بعد أن كانوا في حسرة عظيمة حتى ارتاحت قسطهم وكلابهم، فلما أتى يوم الجمعة نادى المنادي في البلد على العادة بأنهم يدخلون المساجد قبل صلاة الجمعة بساعتين أو يستخفون في البيت، وكذلك القطط والكلاب، فضاقت صدورهم، فاجتمعوا جميعاً وتوجّهوا إلى الديوان ووقفوا بين يدي الملك وقالوا له: يا ملك الزمان، إن الجوهرى أخذ حريمه وسافر إلى حج بيت الله الحرام، وزال السبب الذي كنا نُحبس لأجله. فبأي سبب نُحبس الآن؟ فقال الملك: كيف سافرَ هذا الخائن ولم يُعلّمني؟! لكن إذا جاء من سفره لا يكون إلا خيراً، روحوا إلى دكاكينكم وبيعوا واشتروا؛ فقد ارتفعت عنكم هذه الحالة.

هذا ما كان من أمر الملك وأهل البصرة، وأما ما كان من أمر المعلم عبيد الجوهرى، فإنه سافر عشرة مراحل فحلّ به ما حلّ بقمر الزمان قبل دخوله البصرة، وطلعت عليه عرب بغداد فعزّوه وأخذوا ما كان معه، وجعل روحه ميئاً حتى خلص، وبعد ذهاب العرب قام ومشى وهو عريان إلى أن دخل بلدًا، فحنّ الله عليه أهل الخير، فستروا عورته بقطع من الثياب الخلقّة، وصار يسأل ويتفقّ من بلد إلى بلد حتى وصل إلى مصر المحروسة، فأحرّقه الجوع فدار يسأل في الأسواق، فقال له رجل من أهل مصر: يا فقير، عليك ببيت الفرّح، كُل واشرب، فإن هناك في هذا اليوم سماءُ الفقراء والغرباء. فقال: لا أعرف طريق الفرّح. فقال له: اتبعني وأنا أريه لك. فتبعه إلى أن وصل إلى البيت. فقال له: هذا هو بيت الفرّح، فادخل ولا تحفّ، فما على باب الفرّح من حجاب. فلما دخل رآه قمر الزمان فعرفه وأخبر به أباه. ثم إن التاجر عبد الرحمن قال لولده: يا ولدي، اتركه في هذه الساعة، ربما

يكون جائعاً، فدَعَهُ يأكل حتى يشبع ويسكن روعه وبعد ذلك نطلبه. فصبرا عليه حتى أكل واكتفى وغسل يديه وشرب القهوة والشربات السكر الممزوجة بالمسك والعنبر، وأراد أن يخرج، فأرسل خلفه والد قمر الزمان، فقال له الرسول: تعالَ يا غريب كلِّم التاجر عبد الرحمن. فقال: ما يكون هذا التاجر؟ فقال له: صاحب الفرخ. فرجع وظن أنه يعطيه إحساناً، فلما أقبل التاجر رأى صاحبه قمر الزمان، فغاب عن الوجود من الحياء منه، وقام له قمر الزمان على الأقدام، وأخذه بالأحضان، وسلَّم عليه، وتباكياً بكاءً شديداً، ثم إنه أجلسه بجانبه. فقال له أبوه: يا عديم الذوق، ما هذا شأن ملاقة الأصحاب! أرسله أولاً إلى الحمام، وأرسل إليه بدلةً تليق به، وبعد ذلك أقعد معه وتحدث أنت وإياه. فصاح على بعض الخدَّام وأمرهم أن يُدخلوه الحمام، وأرسلَ إليه بدلة من خاص الملبوس تساوي ألف دينار وأكثر من ذلك المبلغ، وغسلوا جسده وألبسوه البدلة، فصار كأنه شاه بندر التجار. وكان الحاضرون سألوا قمر الزمان عنه حين غيابه في الحمام وقالوا: مَنْ هذا؟ ومن أين تعرفه؟ فقال: هذا صاحبي، وقد أنزلني في بيته، وله عليَّ إحسان لا يُحصَى؛ فإنه أكرمني إكراماً زائداً، وهو من أهل السعادة والسيادة، وصنعتة جوهري ليس له نظير، وملك البصرة يحبه حباً كثيراً، وله عنده مقام عظيم وكلام نافذ. وصار يبالغ لهم في مدحه ويقول: إنه فعل معي كذا وكذا، وأنا صرْتُ في حياءٍ منه، ولا أدري ما أجازيه به في مقابلة ما صنعه معي من الإكرام. ولم يزل يُثني عليه حتى عظمَ قدره عند الحاضرين، وصار مُهاباً في أعينهم. فقالوا: نحن كلنا نقوم بواجبه وإكرامه من شأنك، ولكن مرادنا أن نعرف ما سبب مجيئه إلى مصر؟ وما سبب خروجه من بلاده؟ وما فعل الله به حتى صار في هذه الحالة؟ فقال لهم: يا ناس، لا تتعجبوا، إن ابن آدم تحت القضاء والقدر، وما دام في هذه الدنيا لا يسلم من الآفات، وقد صدق مَنْ قال هذه الأبيات:

الدَّهْرُ يَفْتَرِسُ الرَّجَالَ فَلَا تَكُنْ	مِمَّنْ تُطَيِّشُهُ الْمَنَاصِبُ وَالرُّتَبُ
وَاحْذَرْ مِنَ الزَّلَّاتِ وَاجْتَنِبِ الْأَسَى	وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ شَيْمَتُهُ الْعَطَبُ
كَمْ نِعْمَةٍ زَالَتْ بِأَصْغَرِ نَقْمَةٍ	وَلِكُلِّ شَيْءٍ فِي تَقْلِبِهِ سَبَبُ

اعلموا أنني أنا دخلت البصرة في أسوأ من هذه الحالة، وأشد من هذا النكال؛ لأن هذا الرجل دخل مصر مستور العورة بالخلقان، وأما أنا فإني دخلت بلاده مكشوف العورة، يد من خلف ويد من قدام، ولا نفعني إلا الله وهذا الرجل العزيز، والسبب في ذلك أن العرب عزَّوني وأخذوا جمالي وبغالي وأحمالي وقتلوا غلماني ورجالي، ورقدت بين القتلى

فظنوا أنني ميت، فذهبوا وفاتوني، وبعد ذلك قمت ومشيت عرياناً إلى أن دخلت البصرة، فقابلني هذا الرجل وكساني وأنزلني في بيته وقوّاني بالمال، وجميع ما أتيت به معي ليس إلا من خير الله وخيره. فعندما سافرت أعطاني شيئاً كثيراً ورجعت إلى بلادي مجبور الخاطر، وفارقتة وهو في سيادة وسعادة، فلعله حدث له بعد ذلك نكبة من نكبات الزمان أوجبت له فراق الأهل والأوطان، وجرى له في الطريق مثل ما جرى لي، ولا عجب في ذلك، ولكن ينبغي لي الآن أن أجازيه على ما صنع معي من كريم الفعال، وأعمل بقول مَنْ قال:

يَا مُحْسِنًا بِالزَّمَانِ ظَنًّا هَلْ تَدْرِي مَا يَفْعَلُ الزَّمَانُ
مَا شِئْتُ فَاصْنَعْ جَمِيلَ فِعْلٍ كَمَا يَدِينُ الْفَتَى يُدَانُ

فبينما هم في هذا الكلام وأمثاله، وإذا بالمعلم عبيد مقبلٌ عليهم كأنه شاه بندر التجار، فقام إليه الجميع وسلموا عليه وأجلسوه في الصدر، وقال له قمر الزمان: يا صاحبي، نهارك مبارك سعيد، لا تحك لي على شيء جرى عليّ قبلك، فإن كان العرب عرّوك وأخذوا منك مالاً، فإن المال فدى الأبدان، فلا تغم نفسك، فأني دخلت بلادك عرياناً، وقد كسوتني وأكرمتني ولك عليّ الإحسان الكثير فأنا أجازيك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما قال للمعلم عبيد الجوهري: إني دخلت بلادك عرياناً، وقد كسوتني ولك عليّ الإحسان الكثير، فأنا أجازيك وأفعل معك كما فعلت معي، بل أكثر من ذلك، فطُِبْ نفساً وقرَّ عيناً. وصار يأخذ بخاطره ومنعه من الكلام لئلا يذكر زوجته وما فعلت معه، ولم يزل يعظه بمواعظ وأمثال وأشعار ونكت وحكايات وأخبار ويسليه، حتى لحظ الجوهري ما أشار عليه قمر الزمان من الكتمان، فكتم ما عنده وتسلى بما سمعه من الأخبار والنوادر، وأنشد قول الشاعر:

فِي جَبْهَةِ الدَّهْرِ سَطَرٌ لَوْ نَظَرْتُ لَهُ أَبْكَاءَ مَضْمُونُهُ مِنْ مُقْلَتَيْكَ دِمَا
مَا سَلَّمَ الدَّهْرُ بِالْيَمْنَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا وَيُسْرَاهُ تَسْقِيهِ الرَّدَى كَظْمَا

ثم إن قمر الزمان ووالده التاجر عبد الرحمن أخذوا الجوهري ودخلا به في قاعة الحريم، واختليا به، فقال له التاجر عبد الرحمن: نحن ما منعناك من الكلام إلا خوفاً من الفضيحة في حقك وحقنا، ولكن نحن الآن في خلوة، فأخبرني بما جرى بينك وبين زوجتك وولدي. فأخبره بالقضية من المبتدأ إلى المنتهى، فلما فرغ من قصته، قال له: هل الذنب من زوجتك أو من ولدي؟ قال له: والله إن ولدك ما عنده ذنب؛ لأن الرجال لها الطمع في النساء، والنساء عليهن أن يمتنعن من الرجال، فالعيب عند زوجتي التي خانتني وفعلت معي هذه الفعال. فقام التاجر واختلى بولده وقال له: يا ولدي، إننا اخترنا زوجته وعرفنا أنها خائنة، ومرادي الآن أن أختبره وأعرف هل هو صاحب عِرْضٍ ومروءة أو هو دَيُّوثٌ؟ فقال له: وكيف ذلك؟ فقال: مرادي أن أحمله على الصلح مع زوجته، فإن رضي بالصلح وسامحها فإني أضربه بالسيف فأقتله، وبعد ذلك أقتلها هي وجاريتها؛ لأن لا

خيرَ في حياة الدُّيُوث والزَّانية، وإن نفر منها فإني أزوِّجُه أختك وأعطيهِ بأكثر من ماله الذي أخذته منه. ثم إنه رجع إليه وقال له: يا معلم، إن معاشرَةَ النساء تحتاج إلى طول البال، ومَن كان يهواهن فإنه يحتاج إلى سعة الصدر؛ لأنهن يعربدن في الرجال ويؤذنينهم لعزتهن عليهم بالحُسن والجمال، فيستعظمن أنفسهن ويستحقرن الرجال، ولا سيما إذا بانَت لهن المحبة من بعولهن، فيقابلنهم بالتيه والدلال وكريه الفعال من جميع الجهات، فإن كان الرجل يغضب كلما رأى من زوجته ما يكره فلا يحصل بينه وبينها عشرة، ولا يوافقهن إلا مَن كان واسعَ البال كثيرَ الاحتمال، وإن لم يتحمَّل الرجل زوجته ويقابل إساءتها بالسماح فإنه لا يحصل له في عِشرتها نجاح، وقد قيل في حقهن: لو كنَّ في السماء لَمالت إليهن أعناق الرجال. ومَن قدر وعفى كان أجره على الله. وهذه المرأة زوجتك ورفيقتك، وطالت عِشرتها معك، فينبغي أن يكون عندك لها السماح، وهذا في العِشرة من علامات النجاح. والنساء ناقصات عقل ودين، وهي إن أساءت فإنها قد تابت، وإن شاء الله لا ترجع إلى فعل ما كانت تفعله أولاً. فالرأي عندي أنك تصطلح أنت وإياها، وأنا أُرِد لك أكثر من مالك، وإن أقمت عندي فمرحباً بك وبها، وليس لكما إلا ما يسرُّكما، وإن كنتَ تطلب التوجُّهَ إلى بلادك فأنا أعطيك ما يرضيك. وها هو التختروان حاضر فركبَ زوجتك وجاريتها فيه وسافر إلى بلادك، والذي يجري بين الرجل وزوجته كثير، فعليك بالتيسير، ولا تسلك سبيل التعسير. فقال الجوهرى: يا سيدي، وأين زوجتي؟ فقال له: ها هي في هذا القصر، فاطلع إليها واستوص بها من شأني، ولا تشوَّش عليها، فإن ولدي لما جاء بها وطلب زواجها منعت، وحطَّطُها في هذا القصر وقفلت عليها الباب وقلت في نفسي: ربما يجيء زوجها فأسلَّمها إليه؛ لأنها جميلة الصورة، والتي مثل هذه لا يمكن زوجها أن يفوتها، والذي حسبته حصل والحمد لله تعالى على اجتماعك بزوجتك. وأما من جهة ابني فإني خطبت له وزوجته غيرها، وهذه الولائم والضيافات من أجل فرحه، وفي هذه الليلة دُخلتُه على زوجته. وها هو مفتاح القصر الذي فيه زوجتك، فخذُه وافتح الباب وادخل على زوجتك وجاريتك وانبسط معها، ويأتيكم الأكل والشرب، ولا تنزل من عندها حتى تشبع منها. فقال له: جزاك الله عني كل خير يا سيدي. ثم أخذ المفتاح وطلع فرحاناً، فظن التاجر أن هذا الكلام أعجبه، وأنه رضي به، فأخذ السيف وتبعه من خلفه بحيث لم يره، ثم وقف ينظر ما يحصل بينه وبين زوجته.

هذا ما كان من أمر التاجر عبد الرحمن، وأما ما كان من أمر الجوهرى، فإنه دخل على زوجته فرأها تبكي بكاءً شديداً بسبب أن قمر الزمان تزوَّج بغيرها، ورأى الجارية

تقول لها: كم نصحتك يا سيدتي وقلت لك إن هذا الغلام لا ينالك منه خير فاتركي عُشْرته، فما سمعت كلامي حتى نهبت جميعَ مال زوجك وأعطيتَه له، وبعد ذلك فارقت مكانك وتعلّقت في هواه وجئت معه في هذه البلاد، وبعد ذلك رماك من باله وتزوَّجَ بغيرك، ثم جعل آخر تعلُّقك به الحبس. فقالت لها: اسكتي يا ملعونة، فإنه وإن تزوَّجَ بغيري لا بد أن أخطر يومًا على باله، فأنا لا أسلو مسامرتَه، وأنا على كل حال أتسلَّى بقول مَنْ قال:

يَا سَادَتِي هَلْ يَخْطُرَنَّ بِبَالِكُمْ مَنْ لَيْسَ يَخْطُرُ غَيْرُكُمْ فِي بَالِهِ
حَاشَاكُمْ أَنْ تَغْفُلُوا عَنْ حَالِ مَنْ هُوَ غَافِلٌ فِي حَالِكُمْ عَنْ حَالِهِ

فلا بد أن يتذكَّر عُشْرتي وصُحْبتي ويسأل عني، وأنا لا أرجع عن محبته، ولا أُحوِّل عن هواه ولو متُّ في السجن؛ فإنه حبيبي وطبيبي، وعشمي فيه أن يرجع إليَّ ويعمل معي انبساطًا. فلما سمعها زوجها تقول هذا الكلام دخل عليها وقال لها: يا خائنة، إن عشمك فيه مثل عشم إبليس في الجنة! كل هذه العيوب فيكَ وأنا ما عندي خبر؟! ولو علمتُ أن فيكَ عيبًا من هذه العيوب ما كنتُ قنيتك عندي ساعةً واحدة، ولكن حيث تيقنْتُ فيكَ ذلك ينبغي أن أقتلك ولو قتلوني فيكَ يا خائنة. ثم قبض عليها بيديَّه الاثنتين وأنشد هذين البيتين:

يَا مَلَا حَا أَذْهَبْتُمْ صِدْقَ وَدِّي بِالتَّجَنِّي وَلَمْ تُرَاعُوا حُقُوقَا
كَمْ بِكُمْ صَبَوَةٌ عَلِقْتُ وَلَكِنْ بَعْدَ هَذَا الْأَسَى كَرِهْتُ الْعُلُوقَا

ثم اتَّكأ على زمارة حلقها وكسرها، فصاحت الجارية: وا سيدتاه! فقال لها: يا عاهرة، العيب كله منك؛ حيث كنتِ تعرفين أن فيها هذه الخصلة ولم تخبريني. ثم قبض على الجارية وخنقها، كل ذلك حصل والتاجر ماسك السيف بيده وهو واقف خلف الباب يسمع بأذنه ويرى بعينه. ثم إن عبيدًا الجوهرى لما خنقهما في قصر التاجر كثرت عليه الأوهام، وخاف عاقبة الأمر، وقال في نفسه: إن التاجر إذا علم أنني قتلتهما في قصره لا بد أنه يقتلني، ولكن أسأل الله أن يجعل قبض روحي على الإيمان. وصار متحيرًا في أمره ولم يدِر ماذا يفعل. فبينما هو كذلك، وإذا بالتاجر عبد الرحمن دخل عليه وقال له: لا بأس عليك، إنك تستأهل السلامة، وانظر هذا السيف الذي في يدي، فإني كنتُ ضامرًا على أن أقتلك إن صالحتها ورضيت عليها وأقتل الجارية، وحيث فعلت هذه الفعال فمرحبًا بك،

ثم مرحباً، وما جزأوك إلا أن أزوجك ابنتي أخت قمر الزمان. ثم إنه أخذه ونزل به وأمر بإحضار الغاسلة، وشاع الخبر أن قمر الزمان ابن التاجر عبد الرحمن جاء بجاريتين معه من البصرة فماتتا، فصار الناس يعزونه ويقولون له: تعيش رأسك وعوض الله عليك. ثم غسلوهما وكفنوهما ودفنوهما ولم يعرف أحد حقيقة الأمر.

هذا ما كان من أمر عبيد الجوهري وزوجته وجاريته، وأما ما كان من أمر التاجر عبد الرحمن، فإنه أحضر شيخ الإسلام وجميع الأكابر وقال: يا شيخ الإسلام، اكتب كتاب بنتي كوكب الصباح على المعلم عبيد الجوهري، ومهرها قد وصلني بالتمام والكمال. فكتب الكتاب وسقاهم الشربات وجعلوا الفرح واحداً، وزفوا بنت شيخ الإسلام زوجة قمر الزمان وأخته كوكب الصباح زوجة المعلم عبيد الجوهري في تختروان واحد في ليلة واحدة. وفي المساء زفوا قمر الزمان والمعلم عبيداً سواءً، وأدخلوا قمر الزمان على بنت شيخ الإسلام، وأدخلوا المعلم عبيداً على بنت التاجر عبد الرحمن، فلما دخل عليها رآها أحسن من زوجته وأجمل منها بألف طبقة، ثم إنه أزال بكارتها، ولما أصبح دخل الحمام مع قمر الزمان، ثم أقام عندهم مدة في فرح وسرور. وبعد ذلك اشتاق إلى بلاده، فدخل على التاجر عبد الرحمن وقال: يا عم، إني اشتقت إلى بلادي، ولي فيها أملاك وأرزاق، وكنت أقمت فيها صانعاً من صناعي وكيلاً عني، وفي خاطري أن أسافر إلى بلادي لأبيع أملاكي وأرجع إليك، فهل تأذن لي في التوجه إلى بلادي من أجل ذلك؟ فقال له: يا ولدي، قد أذنت لك، ولا لوم عليك في هذا الكلام، فإن حب الوطن من الإيمان، والذي ما له خير في بلاده ما له خير في بلاد الناس، وربما أنك إذا سافرت بغير زوجتك ودخلت بلادك يطيب لك فيها القعود وتصير متحيراً بين رجوعك إلى زوجتك وقعودك في بلادك، فالرأي الصواب أن تأخذ زوجتك معك، وبعد ذلك إن شئت الرجوع إلينا فارجع أنت وزوجتك، ومرحباً بك وبها؛ لأننا ناس لا نعرف طلاقاً، ولا تتزوج منا امرأة مرتين، ولا نهجر إنساناً بطراً. فقال: يا عم، أخاف أن ابنتك لا ترضى بالسفر معي إلى بلادي. فقال له: يا ولدي، نحن ما عندنا نساء تخالف بعولهن، ولا نعرف امرأة تغضب على بعلها. فقال له: بارك الله فيكم وفي نساءكم. ثم إنه دخل على زوجته وقال لها: أنا مرادي السفر إلى بلادي فما تقولين؟ قالت: إن أبي لا زال يحكم علي ما دمت بكراً، وحيث تزوجت فقد صار الحكم كله في يد بعلي فأني لا أخالفه. فقال لها: بارك الله فيك وفي أبيك، ورحم الله بطناً حملك وظهرًا ألقاك. ثم بعد ذلك قطع علائقه وأخذ في أسباب السفر، فأعطاه عمه شيئاً كثيراً، وودعا بعضهما، ثم أخذ زوجته وسافر، ولم يزل مسافراً حتى دخل البصرة، فخرجت

لملاقاته الأقارب والأصحاب وهم يظنون أنه كان في الحجاز، وصار بعض الناس فرحاناً بقدمه وبعضهم مغموماً لرجوعه إلى البصرة، وقال الناس لبعضهم: إنه يضيّق علينا في كل جمعة بحسب العادة، ويحبسنا في الجوامع والبيوت وحتى يحبس قطننا وكلابنا.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر ملك البصرة، فإنه لما علم بقدمه غضب عليه وأرسل إليه وأحضره بين يديه، وعنّفه وقال له: كيف تسافر ولم تُعلمني بسفرك؟ فهل كنت عاجزاً عن شيء أعطيه لك لتستعين به على الحج إلى بيت الله الحرام؟ فقال له: العفو يا سيدي، والله ما حججت، ولكن جرى لي كذا وكذا ... وأخبره بما جرى له مع زوجته ومع التاجر عبد الرحمن المصري، وكيف زوّجه ابنته، إلى أن قال له: وقد جئت بها إلى البصرة. فقال له: والله، لولا أنني أخاف من الله تعالى لَقَتَلْتُكَ وتزوّجت بهذه البنت الأصيلة من بعدك، ولو كنت أنفق عليها خزائن الأموال؛ لأنها لا تصلح إلا للملوك، ولكن جعلها الله من نصيبك، وبارك لك فيها، فاستوص بها خيراً. ثم إنه أنعم على الجوهري، ونزل من عنده وقعد معها خمس سنوات، وبعد ذلك توفّي إلى رحمة الله تعالى، فخطبها الملك، فما رضيت وقالت: أيها الملك، أنا ما وجدت في طائفتي امرأة تزوّجت بعد بعليها، فأنا لا أتزوج أحداً بعد بعلي، فلا أتزوجك ولو كنت تقتلني. فأرسل يقول لها: هل تطلبين التوجّه إلى بلادك؟ فقالت: إذا فعلت خيراً تجازى به. فجمع لها جميع أموال الجوهري، وزادها من عنده على قدر مقامه، ثم أرسل معها وزيراً من وزرائه مشهوراً بالخير والصلاح، وأرسل معه خمسمائة فارس، فسار بها ذلك الوزير حتى أوصلها إلى أبيها، وأقامت من غير زواج حتى ماتت ومات الجميع. وإذا كانت هذه المرأة ما رضيت أن تبدّل زوجها بعد موته بسلطان، كيف تستوي بمن تبدّله في حال حياته بغلام مجهول الأصل والنسب؟ وخصوصاً إذا كان ذلك في السّفاح وعلى غير طريق سنّة النكاح! ومن ظن أن النساء كلهن سواء، فإن داء جنونه ليس له دواء. فسبحان من له الملك والملكوت، وهو الحي الذي لا يموت.

حكاية عبد الله بن فاضل وأخويه

ومما يُحكى أيضاً أيها الملك السعيد، أن الخليفة هارون الرشيد تفقّد خراج البلاد يوماً من الأيام، فرأى خراج جميع الأقطار والبلاد جاء إلى بيت المال إلا خراج البصرة، فإنه لم يأت في ذلك العام، فنصب ديواناً لهذا السبب، وقال: عليّ بالوزير جعفر. فحضر بين يديه، فقال له: إن خراج جميع الأقطار جاء إلى بيت المال إلا خراج البصرة، فإنه لم يأت منه

شيء. فقال: يا أمير المؤمنين، لعل نائب البصرة حصل له أمر ألهاه عن إرسال الخراج. فقال: إن مدة حضور الخراج عشرون يوماً، فما عذره في هذه المدة حتى لم يرسل الخراج أو يرسل بإقامة العذر؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، إن شئت أرسلنا إليه رسالة. فقال: أرسل له أبا إسحاق الموصلي النديم. فقال: سمعاً وطاعة لله ولك يا أمير المؤمنين. ثم إن الوزير جعفر نزل إلى داره وأحضر أبا إسحاق الموصلي النديم، وكتب له خطاً شريفاً، وقال له: امض إلى عبد الله بن فاضل نائب مدينة البصرة، وانظر ما الذي ألهاه عن إرسال الخراج، ثم تسلّم منه خراج البصرة بالتمام والكمال، واتّني به سريعاً، فإن الخليفة تفقّد خراج الأقطار فوجده قد وصل إلّا خراج البصرة، وإن رأيت الخراج غير حاضر واعتذر إليك بعذر فهايته معك ليخبر الخليفة بالعذر من لسانه. فأجاب بالسمع والطاعة، وأخذ خمسة آلاف فارس من عسكر الوزير وسافر حتى وصل إلى مدينة البصرة، فعلم بقدومه عبد الله بن فاضل، فخرج بعسكره إليه ولاقاه ودخل به البصرة وطلع به قصره، وبقيّة العسكر نزلوا في الخيام خارج البصرة، وقد عيّن لهم ابن فاضل جميع ما يحتاجون إليه، ولما دخل أبو إسحاق الديوانَ وجلس على الكرسي أجلس عبد الله بن فاضل بجانبه، وجلس الأكابر حوله على قدر مراتبهم، ثم بعد السلام قال له ابن فاضل: يا سيدي، هل لقدومك علينا من سبب؟ قال: نعم، إنما جئت لطلب الخراج، فإن الخليفة سأل عنه، ومدة وروده قد مضت. فقال: يا سيدي، يا ليتك ما تعبت ولا تحمّلت مشقة السفر، فإن الخراج حاضر بالتمام والكمال، وقد كنت عازماً على أن أرسله في غد، ولكن حيث أتيت فأنا أسلمه إليك بعد ضيافتك ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أحضر الخراج بين يديك، ولكن وجب علينا الآن أننا نقدّم إليك هدية من بعض خيرك وخير أمير المؤمنين. فقال له: لا بأس بذلك. ثم إنه فضّ الديوان ودخل به قصرًا في داره ليس له نظير، ثم قدّم له ولأصحابه سفرة الطعام، فأكلوا وشربوا وتلذّذوا وطربوا، ثم رُفعت المائدة وغُسّلت الأيدي وجاءت القهوة والشربات، وقعدوا في المنادمة إلى ثلث الليل، ثم فرشوا له سريرًا من العاج مرصّعًا بالذهب والوَهَّاج، فنام عليه ونام نائب البصرة على سرير آخر بجانبه، فغلب السهر على أبي إسحاق رسول أمير المؤمنين، وصار يفكر في بحور الشعر والنظام؛ لأنه من خواص ندماء الخليفة، وكان له باع عظيم في الأشعار ولطائف الأخبار، ولم يزل سهرانًا في إنشاء الشعر إلى نصف الليل، فبينما هو كذلك، وإذا بعبد الله بن فاضل قام وشدّ حزامه وفتح دولابًا، وأخذ منه سوطًا، وأخذ شمعةً مضيئةً وخرج من باب القصر وهو يظن أن أبا إسحاق نائم. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن فاضل لما خرج من باب القصر وهو يظن أن أبا إسحاق النديم نائم، فلما خرج تعجّب أبو إسحاق وقال في نفسه: إلى أين يذهب عبد الله بن فاضل بهذا السوط؟ فلعلّ مراده أن يعذب أحداً، ولكن لا بد لي من أن أتبعه وأنظر ما يصنع في هذه الليلة. ثم إن أبا إسحاق قام وخرج وراءه قليلاً قليلاً، بحيث إنه لم يره، فرأى عبد الله فتح خزانة وأخرج منها مائدة فيها أربعة أصحن من الطعام، وخبزاً وقُلة فيها ماء، ثم إنه حمل المائدة والقلة ومشى، فتبعه أبو إسحاق مستخفياً إلى أن دخل قاعة، فوقف أبو إسحاق خلف باب القاعة من داخل، وصار ينظر من خلال ذلك الباب، فرأى هذه القاعة واسعة ومفروشة فرشاً فاخراً، وفي وسط تلك القاعة سرير من العاج مصفّح بالذهب، وذلك السرير مربوط فيه كلبان في سلسلتين من الذهب، ثم إنه رأى عبد الله حطّ المائدة على جانب في مكان وشمّر عن أيديه وفكّ الكلب الأول، فصار يتلوّى في يده ويضع وجهه في الأرض كأنه يقبل الأرض بين يديه ويعوي عواء خفيفاً بصوت ضعيف، ثم إنه كتّفه ورماه على الأرض وسحب السوط ونزل به عليه وضربه ضرباً وجيعاً من غير شفقة، وهو يتلوّى بين يديه ولا يجد له خلاصاً. ولم يزل يضربه بذلك السوط حتى قطع الأنين وغاب عن الوجود، ثم إنه أخذه وربطه في مكانه، وبعد ذلك أخذ الكلب الثاني وفعل به كما فعل بالأول، ثم إنه أخرج محرمة وصار يمسح لهما دموعهما ويأخذ بخاطرهما ويقول: لا تؤاخذهني، والله ما هذا بخاطري، ولا يسهل عليّ، ولعل الله يجعل لكما من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً. ويدعو لهما. وحصل كل هذا وأبو إسحاق النديم واقف يسمع بأذنه ويرى بعينه، وقد تعجّب من هذه الحالة. ثم إنه قدّم لهما سفرة الطعام، وصار يلقّمهما بيده حتى شبعوا، ومسح لهما أفواههما وحمل القُلة وسقاها، وبعد ذلك حمل المائدة والقُلة والشمعة وأراد أن يخرج، فسبقه أبو إسحاق وجاء إلى سريره ونام، ولم يره

ولم يعرف أنه تبعه واطَّلَعَ عليه. ثم إن عبد الله وضع السفرة والْقُلَّة في الخزانة ودخل القاعة وفتح الدواب ووضع السوط في محله، وقلع حوائجه ونام.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر أبي إسحاق، فإنه بات بقية تلك الليلة يفكر في شأن هذا الأمر، ولم يأتِه نوم من كثرة العَجَب، وصار يقول في نفسه: يا تُرى ما سبب هذه القضية؟! ولم يَزَل يتعَجَّب إلى الصباح، ثم قاموا وصلوا الصبح وانحطَّ لهم الفطور، فأكلوا وشربوا القهوة وطلعوا إلى الديوان، واشتغل أبو إسحاق بهذه النكتة طول النهار، ولكنه كتمها ولم يسأل عبد الله عنها. وثاني ليلة فعل بالكلبين كذلك، فضربهما ثم صالحهما وأطعمهما وسقاهما، وتبعه أبو إسحاق فرآه فعل بهما كأول ليلة، وكذلك ثالث ليلة. ثم إنه أحضر الخراج إلى أبي إسحاق النديم في رابع يوم، فأخذه وسافر ولم يُبَد له شيئاً، ولم يَزَل مسافراً حتى وصل إلى بغداد، وسَلَّم الخراج إلى الخليفة. ثم إن الخليفة سألَه عن سبب تأخير الخراج، فقال له: يا أمير المؤمنين، رأيت عامل البصرة قد جهَّز الخراج وأراد إرساله، ولو تأخرت يوماً لِقابلني في الطريق. لكن رأيت من عبد الله بن فاضل عجباً، عمري ما رأيت مثله يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: وما هو يا أبا إسحاق؟ قال: رأيت ما هو كذا وكذا. وأخبره بما فعله مع الكلبين، وقال له: رأيته ثلاث ليالٍ متواليات وهو يعمل هذا العمل، فيضرب الكلبين وبعد ذلك يصلحهما ويأخذ بخاطرهما ويُطعمهما وأنا أتفرَّج عليه بحيث لا يراني. فقال له الخليفة: فهل سألتَه عن السبب؟ فقال له: لا وحياة رأسك يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: يا أبا إسحاق، أمرتك أن ترجع إلى البصرة وتأتيني بعبد الله بن فاضل والكلبين. فقال: يا أمير المؤمنين، دَعني من هذا، فإن عبد الله بن فاضل أكرَمني إكراماً زائداً، وقد اطلَّعتُ على هذه الحالة اتفاقاً من غير قصد، فأخبرتُك بها، فكيف أرجع إليه وأجيب به؟ فإن رجعتُ إليه لا ألقى لي وجهاً حياءً منه، فاللائق إرسال غيري إليه بخطِّ يدك فيأتيك به والكلبين. فقال له: إن أرسلتُ له غيرك فربما ينكر هذا الأمر ويقول: ما عندي كلاب، وأما إذا أرسلتُك أنت وقلت له: إني رأيْتُك بعيني، فإنه لا يقدر على إنكار ذلك؛ فلا بد من ذهابك إليه وإتيانك به والكلبين، وإلا فلا بد من قتلك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة هارون الرشيد قال لأبي إسحاق: لا بد من ذهابك إليه وإتيانك به وبالكلبين، وإلا فلا بد من قتلك. فقال له أبو إسحاق: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصدق من قال: آفة الإنسان من اللسان. فأنا الجاني على نفسي حيث أخبرتك، ولكن اكتب خطًا شريفًا وأنا أذهب إليه وأتيك به. فكتب له خطًا شريفًا وتوجّه به إلى البصرة، فلما دخل على عامل البصرة قال له: كفانا الله شر رجوعك يا أبا إسحاق! فما لي أراك رجعت سريعًا؟ لعل الخراج ناقص فلم يقبله الخليفة. فقال: يا أمير عبد الله، ليس رجوعي من أجل نقص الخراج، فإنه كامل وقبله الخليفة، ولكن أرجو منك عدم المؤاخذه؛ فإني أخطأت في حقك، وهذا الذي وقع مني مقدّر من الله تعالى. فقال له: وما وقع منك يا أبا إسحاق؟ أخبرني، فإنك حبيبي وأنا لا أؤاخذك. فقال له: أعلم أنني لما كنت عندك اتبعتك ثلاث ليالٍ متواليات وأنت تقوم كل ليلة في نصف الليل وتعذب الكلاب وترجع، فتعجبت من ذلك واستحييت أن أسألك عنه، ثم إنني أخبرتك الخليفة بخبرك اتفاقًا من غير قصد، فألزماني بالرجوع إليك، وهذا خطٌ يده، ولو كنت أعلم أن الأمر يحوج إلى ذلك ما كنت أخبرته، ولكن جرى القدر بذلك. وصار يعتذر إليه، فقال له: حيث أخبرته فأنا أصدق خبرك عنده لئلا يظن بك الكذب؛ فإنك حبيبي، ولو أخبر غيرك كنت أنكرت ذلك وكذبتّه، فها أنا أروح معك وأخذ الكلبين معي، ولو كان في ذلك تلف نفسي وانقضاء أجلي. فقال له: الله يسترك كما سترت وجهي عند الخليفة.

ثم إنه أخذ هديةً تليق بالخليفة، وأخذ الكلبين في جنازير من الذهب، وحمل كل كلب على جمل، وسافروا إلى أن وصلوا إلى بغداد، ودخل على الخليفة فقبل الأرض بين يديه، فأذن له بالجلوس، فجلس وأحضر الكلبين بين يديه. فقال الخليفة: ما هذان الكلبان

يا أمير عبد الله؟ فصار الكلبان يقبلان الأرض بين يديه ويحركان أذناهما ويبكيان كأنهما يشكوان إليه. فتعجب الخليفة من ذلك وقال له: أخبرني خبر هذين الكلبين، وما سبب ضربك لهما وإكرامهما بعد الضرب. فقال له: يا خليفة الله، ما هذان كلبان، وإنما هما رجلان شابان ذوا حُسن وجمال وقُدِّ واعتدال، وهما أخوَي وولدا أُمِّي وأبِي. فقال الخليفة: وكيف كانا آدميَّين وصارا كلبين؟ قال: إنْ أذنت لي يا أمير المؤمنين أخبرك بحقيقة الخبر. فقال: أخبرني، وإياك والكذب، فإنه صفة أهل النفاق، وعليك بالصدق فإنه سفينة النجاة وسيمة الصالحين. فقال له: اعلم يا خليفة الله أني إذا أخبرتك بخبرهما يكونان هما الشاهدان عليَّ، فإن كذبتُ يكذباني وإن صدقتُ يُصدقان. فقال له: هذان من الكلاب لا يقدران على نطق ولا جواب! فكيف يشهدان لك أو عليك؟ فقال لهما: يا أخويَّ، إذا أنا تكلمتُ كلامًا كذبًا فارفعا رءوسكما وحملقا أعينكما، وإذا تكلمتُ صدقًا فنكَّسا رءوسكما وغضَّا أعينكما. ثم إنه قال: اعلم يا خليفة الله أنَّا نحن ثلاثة أخوة، أمُّنا واحدة وأبونا واحد، وكان اسم أبينا فاضل، وما سُمِّي بهذا الاسم إلا لكونِ أمه وضعت ولدين توءمَّين في بطن واحد، فمات أحدهما من وقته وساعته، وفضل الثاني فسَمَّاهُ أبوه فاضلاً، ثم ربَّاه وأحسَّن تربيته إلى أن كبر، فزوَّجه أمَّنا، ومات، فوضعت أخي هذا أولاً فسماه منصورًا، وحملت ثاني مرة ووضعت أخي هذا فسَمَّاه ناصراً، وحملت ثالث مرة ووضعتني فسَمَّاني عبد الله، وربَّانا حتى كبرنا وبلغنا مبلغ الرجال، فمات وخلف لنا بيتاً ودكاناً ملائقاً قماشاً ملوناً من سائر أنواع القماش الهندي والرومي والخراساني وغير ذلك، وخلف لنا ستين ألف دينار، فلما مات أبونا غسَّلناه وعملنا له مشهداً عظيماً ودفنَّاه وذهب لرحمة مولاه، وعملنا له عتاقة وختمات، وتصدَّقنا عليه إلى تمام الأربعين يوماً، ثم إنني بعد ذلك جمعتُ التجار وأشرف الناس وعملت لهم يوماً عظيماً، وبعدها أكلوا قلت لهم: يا تجار، إن الدنيا فانية والآخرة باقية، وسبحان الدائم بعد فناء خلقه، هل تعلمون لأي شيء جمعتُكم في هذا اليوم المبارك عندي؟ قالوا: سبحان الله علام الغيوب. فقلت لهم: إن أبي مات عن جملةٍ من المال، وأنا خائف أن يكون عليه تبعة لأحد من دَيْن أو رهن أو غير ذلك، ومرادي خلاص ذمة أبي من حقوق الناس. فمَن كان له عليه شيء فليقل: إن لي عليه كذا وكذا. وأنا أورد له لأجل براءة ذمة أبي. فقال لي التجار: يا عبد الله، إن الدنيا لا تُغني عن الآخرة، ولسنا أصحاب باطل، وكلُّ منَّا يعرف الحلال من الحرام، ونخاف من الله تعالى ونتجنَّب أكل مال اليتيم، ونعلم أن أباك — رحمة الله عليه — كان دائماً يُبقي ماله عند الناس ولا يخلي في ذمته شيئاً إلى أحد، ونحن دائماً نسمعه وهو يقول: أنا خائف من متاع

الناس. ودائمًا كان يقول في دعائه: إلهي، أنت ثقتني ورجائي، فلا تُمتني وعليَّ دين. وكان من جملة طباعه أنه إذا كان لأحد عليه شيء فإنه يدفعه له من غير مطالبة، وإذا كان له على أحد شيء فإنه لا يطالبه ويقول له: على مهلك. وإن كان فقيرًا يسامحه ويبرئ ذمته، وإن لم يكن فقيرًا ومات يقول: سامحه الله مما لي عنده. ونحن كلنا نشهد أنه ليس لأحد عنده شيء. فقلت: بارك الله فيكم.

ثم إني التفتُ إلى أخويَّ هذين وقلت لهما: إن أبانا ليس عليه لأحد شيء، وقد خَلَفَ لنا هذا المال والقماش والبيت والدكان، ونحن ثلاثة أخوة، كُلُّ منا يستحق ثلث هذا الشيء، فهل نتفق على عدم القسمة ويستمر مالنا مشتركًا بيننا ونأكل سواء ونشرب سواء؟ أو نقسِّم القماش والأموال ويأخذ كل واحد منا حصته؟ فقالا: نقسِّم ويأخذ كل واحد منا حصته. ثم التفت إلى الكلبين وقال لهما: هل جرى ذلك يا أخويَّ؟ فنكَّسا رأسيهما وغضَّا عيونهما كأنهما قالَا نعم. ثم إنه قال: فأحضرت قسَّامًا من طرف القاضي يا أمير المؤمنين، فقسَّم بيننا المال والقماش وجميع ما خَلَفَ لنا أبونا، وجعلوا البيت والدكان من قسمي في نظير بعض ما أستحقه من الأموال، ورضينا بذلك، وصار البيت والدكان في قسمي، وهما أخذا قسمهما مالًا وقماشًا. ثم إني فتحت الدكان وحططت فيه القماش، واشتريت بجانب من المال الذي خَصَّنِي زيادةً على البيت والدكان قماشًا حتى ملأت الدكان وقعدتُ أبيع وأشتري. وأما أخوأي فإنهما اشتريا قماشًا واكتريا مركبًا وسافرا في البحر إلى بلاد الناس، فقلت: الله يساعدهما، وأنا رزقي يأتيني، وليس للراحة قيمة. ودمت على ذلك مدة سنة كاملة، ففتح الله عليَّ وصرت أكتسب مكاسب كثيرة حتى صار عندي مثل الذي خَلَفَ لنا أبونا، فاتفق لي يومًا من الأيام أنني كنتُ جالسًا في الدكان وعليَّ فروتان؛ إحداهما سمور والأخرى سنجاب؛ لأن ذلك الوقت كان في فصل الشتاء، في أوان اشتداد البرد. فبينما أنا كذلك، وإذا بأخويَّ قد أقبلَا عليَّ وعلى بدن كل واحد منهما قميص خلق من غير زيادة، وشفاهما بيض من البرد وهما ينتفضان. فلما رأيتهما عسر عليَّ ذلك وحزنت عليهما. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن فاضل لما قال للخليفة: فلما رأيتهما ينتفضان عسر عليّ ذلك وحزنت عليهما وطار عقلي من رأسي، فقامت إليهما واعتنقتهما وبكيت على حالهما، وخلعت على واحد منهما الفروة السمور وعلى الآخر الفروة السنجاب، وأدخلتهما الحمام، وأرسلت إلى كل واحد منهما في الحمام بدلة تاجر ألفي. وبعدما اغتسلا لبس كل واحد منهما بدلته، ثم أخذتهما إلى البيت فرأيتهما في غاية الجوع، فوضعت لهما سفرة الأطعمة، فأكلا وأكلت معهما، ولطفتهما وأخذت بخاطرهما. ثم التفت إلى الكلبين وقال لهما: هل جرى ذلك يا أخويّ؟ فنكّسا رأسيهما وغصّا عيونهما. ثم إنه قال: يا خليفة الله، ثم إني سألتهما وقلت لهما: ما الذي جرى لكما؟ وأين أموالكما؟ فقالا: سافرنا في البحر ودخلنا مدينةً تُسمّى مدينة الكوفة، وصرنا نبيع القطعة القماش التي ثمنها علينا نصف دينار بعشرة دنانير، والتي بدينار بعشرين دينارًا، وكسبنا مكاسب عظيمة، واشترينا من قماش العجم الشقة الحرير بعشرة دنانير، وهي تساوي في البصرة أربعين دينارًا، ودخلنا مدينةً تُسمّى الكرخ، فبعنا واشترينا وكسبنا مكاسب كثيرة، وصار عندنا أموال كثيرة. وجعلنا يذكران لي البلاد والمكاسب، فقلت لهما: حيث رأيتهما هذا الفرح والخير، فما لي أراكما رجعتما عريانين؟ فتنهدا وقالا: يا أخانا، ما حل بنا إلا عين صائبة، والسفر ما له أمان؛ فلما جمعنا تلك الأموال والخيرات وسقنا متاعنا في مركب وسافرنا في البحر بقصد التوجه إلى مدينة البصرة، وقد سافرنا ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع رأينا البحر قام وقعد وأرغى وأزبد وتحرك وهاج، وتلاطم بالأمواج، وصار الموج يقدح الشرار كلهيب النار، واختلفت علينا الأرياح، والتطمت بنا المركب في سن جبل فانكسرت وغرقنا، وراح جميع ما كان معنا في البحر، وصرنا نخطب على وجه الماء يومًا وليلة، فأرسل الله لنا مركبًا أخرى فأخذتنا ركبها وصرنا من بلاد إلى بلاد ونحن نسأل ونتقوّت مما نحصله

بالسؤال، وقاسينا الكرب العظيم، وصرنا نقلع من حوائجنا ونبيع ونتقوّت حتى قربنا من البصرة، وما وصلنا إلى البصرة حتى شربنا ألف حسرة، ولو كنا سلّمنا بما كان معنا كنا أتينا بأموال تضاهي أموال الملك، ولكن هذا مقدّر من الله علينا. فقلت لهما: يا أخويّ، لا تحملا همًّا؛ فإنّ المال فداء الأبدان، والسلامة غنيمة، وحيث كتبكم الله من السالمين فهذا غاية المنى، وما الفقر والغنى إلا كطيف خيال، والله درُّ من قال:

إِذَا سَلَمْتُ هَامُ الرَّجَالِ مِنَ الرَّدَى فَمَا الْمَالُ إِلَّا مِثْلَ قَصِّ الْأَطَاوِرِ

ثم قلت لهما: يا أخويّ، نحن نقدّر أن أبانا قد مات في هذا اليوم وخلف لنا جميع هذا المال الذي عندي، وقد طابت نفسي على أننا نقسّمه بيننا بالسوية. ثم أحضرت قسّامًا من طرف القاضي، وأحضرت له جميع مالي، فقسّمه بيننا وأخذ كلّ منا ثلث المال، فقلت لهما: يا أخويّ، بارك الله للإنسان في رزقه إذا كان في بلده، فكل واحد منكما يفتح له دكانًا ويقعد فيه لتعاطي الأسباب، والذي له شيء في الغيب لا بد أن يحصله. ثم سعت لكل واحد منهما في فتح دكان، وملأته له بالبضائع، وقلت لهما: بيعا واشتريا واحفظا أموالكما، ولا تصرفا منها شيئًا، وجميع ما يلزم لكما من أكل وشرب وغيرهما يكون من عندي، ثم قمت بإكرامهما، وصارا يبيعان ويشتريان في النهار، وعند المساء يبيتان في بيتي. ولم أدعهما يصرفان شيئًا من أموالهما، وكلما جلسْتُ معهما للحديث يمدحان الغربة ويذكران محاسنها ويصفان ما حصل لهما فيها من المكاسب، ويغرياني على أن أوافقهما على التغرّب في بلاد الناس. ثم قال للكلبين: هل جرى ذلك يا أخويّ؟ فنكّسا رأسيهما وغضّا عيونهما تصديقًا له.

ثم قال: يا خليفة الله، فما زالا يرغّباني ويذكران لي كثرة الربح والمكاسب في الغربة، ويأمراني بالسفر معهما حتى قلت لهما: لا بد أن أسافر معكما من أجل خاطركما. ثم إنني عقدت الشركة بيني وبينهما، وحملنا قماشًا من سائر الأصناف النفيسة، واكترينا مركبًا وشحنّاه بالبضائع من أنواع المتاجر، ونزلنا في ذلك المركب جميع ما نحتاج إليه، ثم سافرنا من مدينة البصرة في البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، الذي الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود. ولا زلنا مسافرين حتى طلّعنا إلى مدينة من المداين، فبعنا واشترينا وظهر لنا كثرة المكسب، ثم رحلنا منها إلى غيرها، ولم نزل نرحل من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة ونحن نبيع ونشتري حتى صار عندنا مال جسيم وربح عظيم، ثم إننا وصلنا إلى جبل فألقى الرئيس المرساة وقال لنا: يا ركاب، اطلعوا إلى البر تنجوا من هذا

اليوم، وفتشوا فيه لعلكم تجدون ماءً. فخرج جميع من في المركب، وخرجت أنا بجملتهم وصرنا نفتش على الماء، وتوجه كل منا في جهة، وصعدت أنا على أعلى الجبل. فبينما أنا سائر إذ رأيت حية بيضاء تسعى هاربة، ووراءها ثعبان أسود يسعى خلفها وهو مشوه الخلق هائل المنظر. ثم إن الثعبان لحقها وضايقها ومسكها من رأسها ولف ذيله على ذيلها، فصاحت، فعرفت أنه مفتر عليها، فأخذتني الشفقة عليها وتناولت حجراً من الصوان قدر خمسة أرنطال أو أكثر وضربت به الثعبان، فجاء في رأسه فدقها، فما أشعر إلا وتلك الحية انقلبت وصارت بنتاً شابة ذات حسن وجمال، وبهاء وكمال، وقد واعتدال، كأنها البدر المنير. فأقبلت عليّ وقبّلت يدي، ثم قالت لي: سترك الله بسترين؛ ستر من العار في الدنيا، وستر من النار في الآخرة يوم الموقف العظيم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. ثم قالت: يا إنسي، أنت قد سترت عرضي وصار لك عليّ الجميل ووجب عليّ جزاؤك. ثم أشارت بيدها إلى الأرض فانشقت ونزلت فيها، ثم انطبقت عليها الأرض فعرفت أنها من الجن. وأما الثعبان، فإن النار اتقدت فيه وأحرقته وصار رماداً، فتعجبت من ذلك، ثم إنني رجعت إلى أصحابي وأخبرتهم بما رأيت، وبتنا تلك الليلة، وعند الصباح قلع الرئيس الخطأف ونشر القلوع وطوى الأطراف، ثم سافرنا حتى غاب البر عنا. ولم نزل مسافرين مدة عشرين يوماً ولم نر برّاً ولا طيراً، وفرغ ماؤنا. فقال الرئيس: يا ناس، إن الماء الحلو قد فرغ منا. فقلنا: نطلع البر لعلنا نجد ماءً. فقال: والله، إنني تهت عن الطريق ولا أعرف طريقاً يوديني إلى جهة البر. فحصل لنا غمٌ شديد، وبكينا ودعونا الله تعالى أن يهدينا إلى الطريق، ثم بتنا تلك الليلة في أسوأ حال، والله درُّ من قال:

وَكَمْ لَيْلَةٍ بَتُّ فِي كُرْبَةٍ يَكَادُ الرَّضِيعُ لَهَا أَنْ يَشِيبَ
فَمَا أَصْبَحَ الصُّبْحُ إِلَّا أَتَى مَنْ اللَّهَ نَصْرُ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ

فلما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح، رأينا جبلاً عالياً، فلما رأينا ذلك الجبل فرحنا واستبشرنا به، ثم إننا وصلنا إلى ذلك الجبل، فقال الرئيس: يا ناس، اطلعوا البر حتى نفتش على ماء. فطلعنا كلنا نفتش على ماء، فلم نر فيه ماءً، فحصل لنا مشقة بسبب قلة وجود الماء، ثم إنني صعدت على أعلى ذلك الجبل فرأيت خلفه دائرة واسعة مسافة سير ساعة أو أكثر، فناديت أصحابي فأقبلوا عليّ، فلما أتوا قلت لهم: انظروا إلى هذه الدائرة التي خلف هذا الجبل، فإني أرى فيها مدينة عالية البنيان مشيدة الأركان ذات أسوار وبروج، وروابٍ ومروج، وهي من غير شك لا تخلو من الماء والخيرات، فسيروا بنا

نمض إلى هذه المدينة ونجى منها بالماء، ونشترى ما نحتاج إليه من الزاد واللحم والفاكهة ونرجع. فقالوا: نخاف أن يكون أهل هذه المدينة كفاراً مشركين أعداء الدين، فيقبضوا علينا ونكون أسرى تحت أيديهم أو يقتلونا ونكون قد تسببنا في قتل أنفسنا حيث أوقعنا أنفسنا في الهلاك وسوء الارتباك، والمغرور غير مشكور؛ لأنه على خطرٍ من الأسواء، كما قال فيه بعض الشعراء:

مَا دَامَتِ الْأَرْضُ أَرْضًا وَالسَّمَاءُ سَمَا لَيْسَ الْمُغْرُ بِمَحْمُودٍ وَإِنْ سَلِمَا

فنحن لا نغر بأنفسنا. فقلت لهم: يا ناس، لا حكم لي عليكم، ولكن آخذ أخوي وأتوجه إلى هذه المدينة. فقال لي أخوي: نحن نخاف من هذا الأمر، ولا نروح معك. فقلت: أمّا أنا فقد عزمْتُ على الذهاب إلى هذه المدينة، وتوكلتُ على الله ورضيتُ بما قدّر الله عليّ، فانتظّراني حتى أذهب إليها وأرجع إليكما. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله قال: فانتظراني حتى أذهب إليها وأرجع إليكما. ثم تركتهما ومشيت حتى وصلت إلى باب تلك المدينة، فرأيتها مدينةً عجيبةً البناء غريبةً الهندسة، أسوارها عالية وأبراجها محصنة وقصورها شاهقة وأبوابها من الحديد الصيني، وهي مزخرفةً منقوشةً تدهش العقول. فلما دخلت من الباب رأيت دكةً من الحجر، وهناك رجل قاعد عليها وفي ذراعه سلسلة من النحاس الأصفر، وفي تلك السلسلة أربعة عشر مفتاحًا، فعرفت أن ذلك الرجل بواب المدينة، والمدينة لها أربعة عشر بابًا. ثم إني دنوت منه وقلت له: السلام عليكم. فلم يرد عليّ السلام، فسلمت عليه ثانيًا وثالثًا، فلم يرد عليّ الجواب، فوضعت يدي على كتفه وقلت له: يا هذا، لأي شيء لم تردّ السلام؟ هل أنت نائمٌ أو أصمٌ أو غير مسلمٍ حتى تمنع رد السلام؟ فلم يُجبني ولم يتحرّك، فتأمّلتُ فيه فرأيته حجرًا، فقلت: إن هذا شيء عجيب، هذا الحجر مصوّر بصورة ابن آدم ولم ينقص عنه غير النطق! ثم تركته ودخلت المدينة، فرأيت رجلًا واقفًا في الطريق، فدنوتُ منه وتأمّلتُه فرأيته حجرًا! ثم إني لم أزل ماشيًا في شوارع تلك المدينة وكلما رأيت إنسانًا أدنو منه وأتأمّله فأجده حجرًا. وقابلت امرأةً عجوزًا على رأسها عقدة ثياب مهيدة للغسيل، فدنوتُ منها وتأمّلتُها فرأيتها من الحجر، والعقدة الثياب التي على رأسها من الحجر. ثم إني دخلت السوق فرأيت زياتًا ميزانه منصوبٌ وقدامه أصناف البضائع من الجبن وغيره وكل ذلك من الحجر. ثم إني رأيت سائر المتسبين جالسين في الدكاكين وبعض الناس واقفٌ وبعض الناس جالسٌ، ورأيت رجالًا ونساءً وصبيانًا وكل ذلك من الحجر، ثم دخلت سوق التجار فرأيت كل تاجر جالسًا في مكانه، والدكان كان ممتلئًا بأنواع البضائع، وكل ذلك من الحجر، ولكن الأقمشة كنسيج العنكبوت، فصرت أنفجر عليها، وكلما مسكت ثوبًا من القماش يصير بين يدي هباءً منثورًا!



تَوَجَّهْتُ مِنْ ذَلِكَ الدِّيَوَانِ إِلَى دِيَوَانِ النِّسَاءِ، فَرَأَيْتُهُمْ أَيْضًا مِنْ حَجَرٍ.

ورأيت صناديق، ففتحتُ واحدًا فوجدت فيه ذهبًا في أكياس، فمسكت الأكياس فذابت في يدي والذهب لم يزل على حاله، فحملت منه على قدر ما أطيقه، وصرت أقول في نفسي: لو حضر أخوأي معي لأخذًا من الذهب كفايتهما وتمتعا من هذه الذخائر التي لا أصحاب لها. وبعد ذلك دخلت دكانًا آخر فرأيت فيه أكثر من ذلك، ولكن ما بقيت أقدر أن أحمل غير ما حملت. ثم إنني خرجت من ذلك السوق إلى سوق آخر، ثم منه إلى سوقٍ

آخر وهكذا، ولا زلت أتفرج على مخلوقاتٍ مختلفة الأشكال وكلها من الحجارة، حتى الكلاب والقطط من الحجارة! ثم إني دخلت سوق الصاغة فرأيت فيه رجالاً جالسين في الدكاكين، والبضائع عندهم بعضها في أيديهم وبعضها في أقفاص، فلما رأيت ذلك يا أمير المؤمنين رميت ما كان معي من الذهب وحملت من المصاغ ما أطيق حمله، وخرجت من سوق الصاغة إلى سوق الجواهر، فرأيت الجوهريّة جالسين في دكاكينهم وقدام كل واحد منهم قفصٌ ملأٌ بأنواع المعادن كالياقوت والألماس والزمرد والبلخش وغير ذلك من سائر الأصناف، وأصحاب الدكاكين أحجارٌ، فرميتُ ما كان معي من المصاغ وحملت من الجواهر ما أطيق حمله، وبقيت أتندّم حيث لم يكن أخوأي معي حتى يأخذنا من تلك الجواهر ما أراداه. ثم إني خرجت من سوق الجواهر فمررت على باب كبيرٍ مزخرف مزين بأحسن زينة، ومن داخل الباب دك، وجالس على تلك الدك خدّامٌ وجندٌ وأعوانٌ وعساكرٌ وحكّامٌ وهم لابسون أفخر الملابس، وكلهم أحجار، فلمست واحداً منهم فتناثرت ملابسه على بدنه مثل نسيج العنكبوت. ثم إني مشيت في ذلك الباب فرأيت سراية ليس لها نظير في بنائها وإحكام صنائعها، ورأيت في تلك السراية ديواناً مشحوناً بالأكابر والوزراء والأعيان والأمراء وهم جالسون على كراسي وكلهم أحجار، ثم إني رأيت كرسيّاً من الذهب الأحمر مرصّعا بالدر والجواهر، وجالسٌ فوقه آدمي عليه أفخر الملابس، وعلى رأسه تاج كسروي مكّلاً بنفيس الجواهر التي لها شعاعٌ مثل شعاع النهار، فلما وصلت إليه رأيت من الحجر، ثم إني توجّهت من ذلك الديوان إلى باب الحريم، ودخلت فيه فرأيت ديواناً من النساء، ورأيت في ذلك الديوان كرسيّاً من الذهب الأحمر مرصّعا بالدر والجواهر وجالس فوقه امرأةٌ مَلِكَة وعلى رأسها تاجٌ مكّلاً بنفيس الجواهر وحولها نساء مثل الأقمار جالسات على كراسي ولايسات أفخر الملابس الملونة بسائر الألوان، وواقف هناك طواشيّة أيديهم على صدورهم كأنهم واقفون من أجل الخدمة، وذلك الديوان يدهش عقول الناظرين بما فيه من الزخرفة وغريب النقش وعظيم الفرش، ومعلّق فيه أبهج التعاليق من البلور الصافي، وفي كل قدرة من البلور جوهرة يتيمة لا يفي بتمنّها مال، فرميت ما معي يا أمير المؤمنين وصرت آخذ من هذه الجواهر، وحملت منها على قدر ما أطيق وبقيت متحيراً فيما أحمله وفيما أتركه؛ لأنني رأيت ذلك المكان كأنه كنز من كنوز المدن. ثم إني رأيت باباً صغيراً مفتوحاً وفي داخله سلام، فدخلت ذلك الباب وطلعت أربعين سلماً، فسمعت إنساناً يتلو القرآن بصوت رخيم، فمشيت جهة ذلك الصوت حتى وصلت إلى باب القصر، فرأيت ستارة من الحرير مصفحة بشرائط من الذهب ومنظوم فيها اللؤلؤ والمرجان والياقوت

وقطع الزمرد، والجواهر فيه تضيء كضوء النجوم، والصوت خارج من تلك الستارة، فدنوت من الستارة ورفعتها، فظهر لي باب قصرٍ مزخرفٍ يحيرُ الأفكار، فدخلت من ذلك الباب فرأيت قصرًا كأنه كنزٌ على وجه الدنيا، ومن داخله بنتٌ كأنها الشمس الضاحية في وسط السماء الصاحية، وهي لابسة أفخر الملابس ومتحلية بأنفس ما يكون من الجواهر، مع أنها بديعة الحسن والجمال، بقدر واعتدال، وظرفٍ وكمال، وخصرٍ نحيل، وردفٍ ثقيل، وريقٍ يشفي العليل، وأجفان ذات اعتدال، كأنها المُرادة بقولٍ من قال:

سَلَامٌ عَلَى مَا فِي الثِّيَابِ مِنَ الْقَدِّ	وَمَا فِي بَسَاتِينِ الْخُدُودِ مِنَ الْوَرْدِ
كَأَنَّ الثَّرِيًّا عُلِقَتْ فِي جَبِينِهَا	وَبَاقِي نُجُومِ اللَّيْلِ فِي الصَّدْرِ كَالْعُقْدِ
فَلَوْ لَبَسَتْ ثَوْبًا مِنَ الْوَرْدِ خَالِصًا	لَأَذْمَى مَجَانِي جِسْمِهَا وَرَقَّ الْوَرْدِ
وَلَوْ تَفَلَّتْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ مَالِحٌ	لَأَصْبَحَ طَعْمُ الْبَحْرِ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ
وَلَوْ وَاصَلَتْ شَيْخًا كَبِيرًا عَلَى عَصَا	لَأَصْبَحَ ذَاكَ الشَّيْخُ مُفْتَرَسَ الْأُسْدِ

ثم إنه قال: يا أمير المؤمنين، لما رأيت تلك البنت شُغِفْتُ بها حبًّا، وتقدَّمتُ إليها فرأيتها جالسةً على مرتبةٍ عاليةٍ وهي تتلو كتابَ الله عز وجل حفظًا على ظهر قلبها، وصوتها كأنه صرير أبواب الجنان إذا فتحها رضوان، والكلام خارجٌ من بين شفتيها يتناثر كالجواهر، ووجهها ببديع المحاسن زاهٍ وزاهر، كما قال في مثلها الشاعر:

يَا مُطَرِّبًا بِلُغَاتِهِ وَصِفَاتِهِ	قَدْ زَادَ فِيكَ تَشَوُّفِي وَتَشَوُّفِي
شَيْئَانِ فِيكَ ذَوْبًا أَهْلَ الْهَوَى	نَعَمَاتُ دَاوُدَ وَصُورَةُ يُوسُفَ

فلما سمعتُ نغماتها في تلاوة القرآن العظيم، وقد قرأ قلبي من فاتك لحظاتها: سلامٌ قولاً من رب رحيم، تلجلجتُ في الكلام ولم أحسن السلام، واندعش مني العقل والناظر، وصرت كما قال الشاعر:

مَا هَزَنِي الشَّوْقُ حَتَّى تَهْتَ عَنْ كَلَمِي	وَمَا دَخَلْتُ الْحَمَى إِلَّا لِسَفْكِ دَمِي
وَلَا سَمِعْتُ كَلَامًا مِنْ عَوَازِلِنَا	إِلَّا لِأَشْهَدَ مَنْ أَهْوَاهُ فِي الْكَلِمِ

ثم تجلَّدتُ على هول الغرام وقلت لها: السلام عليكِ أيتها السيدة المصونة والجوهرة المكنونة، أدام الله قوائم سعدك ورفع دعائم مجدك. فقالت: وعليك مني السلام والتحية

والإكرام يا عبد الله يا ابن فاضل، أهلاً وسهلاً ومرحباً بك يا حبيبي وقرة عيني. فقلت لها: يا سيدتي، من أين علمت اسمي؟ ومن تكونين أنت؟ وما شأن أهل هذه المدينة حتى صاروا أحجاراً؟ فمرادي أن تخبريني بحقيقة الأمر، فإني تعجبت من هذه المدينة ومن أهلها ومن كونها لم يوجد فيها أحد إلا أنت. فبالله عليك أن تخبريني بحقيقة ذلك على وجه الصدق. فقالت لي: اجلس يا عبد الله وأنا إن شاء الله تعالى أحدثك وأخبرك بحقيقة أمري وبحقيقة أمر هذه المدينة وأهلها على التفصيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فجلست إلى جانبها، فقالت لي: اعلم يا عبد الله — يرحمك الله — أنني بنت ملك هذه المدينة، ووالدي هو الذي رأيته جالساً في الديوان على الكرسي العالي، والذين حوله أكابر دولته وأعيان مملكته. وكان أبي ذا بطش شديد، ويحكم على ألف ألف ومائة ألف وعشرين ألف جندي وعدة أمراء، دولته أربعة وعشرون ألفاً، كلهم حكام وأصحاب مناصب، وتحت طاعته من المدن ألف مدينة غير البلدان والضياح والحصون والقلاع والقرى، وأمراء العربان الذين تحت يده ألف أمير، كل أمير يحكم على عشرين ألف فارس، وعنده من الأموال والذخائر والمعادن والجواهر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بنت ملك مدينة الأحجار قالت: يا عبد الله، إن أبي كان عنده من الأموال والذخائر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكان يقهر الملوك ويبيد الأبطال والشجعان في الحرب وحومة الميدان، وتخشاه الجبابرة وتخضع له الأكاسرة، ومع ذلك كان كافرًا مشركًا بالله يعبد الصنم دون مولاه، وجميع عساكره كفارًا يعبدون الأصنام دون الملك العلّام. فاتفق أنه كان يومًا من الأيام جالسًا على كرسي مملكته وحوله أكابر دولته، فلم يشعر إلا وقد دخل عليه شخص فأضاء الديوان من نور وجهه، فنظر إليه أبي فرآه لابسًا حلة خضراء، وهو طويل القامة وأيديه نازلة إلى تحت ركبتيه، وعليه هيبّة ووقارٌ، والنور يلوح من وجهه. فقال لأبي: يا باغي! يا مفتري! إلى متى وأنت مغرور بعبادة الأصنام وتترك عبادة الملك العلّام؟ قلّ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأسلم أنت وقومك ودع عبادة الأصنام؛ فإنها لا تنفع ولا تشفع، ولا يُعبد بحق إلا الله رافع السموات بغير عماد وباسط الأرضين رحمةً للعباد. فقال له: من أنت أيها الرجل الجاحد لعبادة الأصنام حتى تتكلم بهذا الكلام؟ أما تخشى أن تغضب عليك الأصنام؟ فقال له: إن الأصنام أحجارٌ لا يضرّني غضبها ولا ينفعني رضاها، فأحضر لي صنمك الذي أنت تعبده وأمر كل واحدٍ من قومك أن يحضر صنمه، فإذا حضر جميع أصنامكم فادعوهم ليغضبوا عليّ وأنا أدعو ربي أن يغضب عليهم، وتنظرون غضب الخالق من غضب المخلوق؛ فإن أصنامكم قد صنعتموها أنتم وتلبّست بها الشياطين، وهم الذين يكلمونكم من داخل بطون الأصنام، فأصنامكم مصنوعةٌ وإلهي صانع، ولا يُعجزه شيءٌ، فإن ظهر لكم الحق فاتبعوه، وإن ظهر لكم الباطل فاتركوه. فقالوا له: اثنتا

ببرهان ربك حتى نراه! فقال: اثتوني ببراهين أربابكم. فأمر الملك كلُّ مَنْ كان يعبد ربًّا من الأصنام أن يأتي به، فأحضر جميع العساكر أصنامهم في الديوان.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمري، فإنني كنت جالسةً في داخل ستارةٍ تُشرف على ديوان أبي، وكان لي صنمٌ من زمردة خضراء جسمه قدر جسم ابن آدم، فطلبه أبي فأرسلته إليه في الديوان، فوضعه في جانب صنم أبي، وكان صنم أبي من الياقوت وصنم الوزير من جوهر الألماس، وأما أكابر العساكر والرعية فبعض أصنامهم من البلخش، وبعضها من العقيق، وبعضها من المرجان، وبعضها من العود القماري، وبعضها من الأبنوس، وبعضها من الفضة، وبعضها من الذهب، وكل واحدٍ منهم له صنمٌ على قدر ما تسمح به نفسه. وأما رعاا العساكر والرعية فبعض أصنامهم من الصوان، وبعضها من الخشب، وبعضها من الفخار، وبعضها من الطين، وكل الأصنام مختلفة الألوان ما بين أصفر وأحمر وأخضر وأسود وأبيض. ثم قال ذلك الشخص لأبي: ادعُ صنمك وهؤلاء الأصنام تغضب عليّ. فصفا تلك الأصنام ديواناً وجعلوا صنم أبي على كرسي من الذهب، وصنمي إلى جانبه في الصدر، ثم رتبوا الأصنام كلُّ منها في مرتبة صاحبه الذي يعبد، وقام أبي وسجد لصنمه وقال له: يا إلهي، أنت الرب الكريم، وليس في الأصنام أكبر منك، وأنت تعلم أن هذا الشخص أتاني طاعناً في ربوبيتك مستهزئاً بك، ويزعم أن له إلهاً أقوى منك، ويأمرنا أن نترك عبادتك ونعبد إلهه، فاغضب عليه يا إلهي. وصار يطلب من الصنم والصنم لا يرد عليه جواباً ولا يخاطبه بخطاب. فقال له: يا إلهي، ما هذه عادتك؛ لأنك كنتَ تكلمني إذا كلمتك، فما لي أراك ساكناً لا تتكلم؟ هل أنت غافلٌ أو نائمٌ؟ فانتبه وانصرتني وكلمني. ثم هزّه بيده فلم يتكلم، ولم يتحرك من مكانه. فقال ذلك الشخص لأبي: ما لي أرى صنمك لا يتكلم؟ قال له: أظن أنه غافلٌ أو نائم. فقال له: يا عدو الله، كيف تعبد إلهاً لا ينطق وليس له قدرةٌ على شيء، ولا تعبد إلهي الذي هو قريبٌ مجيب، وحاضرٌ لا يغيب، ولا يغفل ولا ينام، ولا تدركه الأوهام، يرى ولا يُرى وهو على كل شيء قدير؟ وإلهك عاجزٌ لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه، وقد كان ملتبساً به شيطان رجيمٌ يضلُّك ويغويك، وقد ذهب الآن شيطانه، فاعبد الله واشهد أنه لا إله إلا هو ولا معبود سواه، وأنه لا يستحق العبادة غيره، ولا خير إلا خيره. وأما إلهك هذا فإنه لا يقدر على دفع الشر عن نفسه، فكيف يقدر على دفعه عنك؟ فانظر بعينك عجزه. ثم تقدّم وصار يصكه على رقبتة حتى وقع على الأرض. فغضب الملك وقال للحاضرين: إن هذا الجاحد قد صكَّ إلهي فاقتلوه. فأرادوا القيام ليضربوه فلم يقدر أحد منهم أن يقوم من

مكانه، فعرض عليهم الإسلام فلم يسلموا، فقال: أريكم غضب ربي؟ فقالوا: أرنا. فبسط يديه وقال: إلهي وسيدي، أنت ثقتي ورجائي، فاستجب دعائي على هؤلاء القوم الفجّار الذين يأكلون خبزك ويعبدون غيرك، يا حق يا جبار يا خالق الليل والنهار، أسألك أن تقلّب هؤلاء القوم أحجاراً؛ فإنك قادرٌ ولا يُعجزك شيءٌ وأنت على كل شيء قدير. فمسح الله أهل هذه المدينة أحجاراً. وأما أنا، فإنني حين رأيت برهانه أسلمت وجهي لله فسلمت مما أصابهم. ثم إن ذلك الشخص دنا مني وقال: سبقت لك من الله السعادة، والله في ذلك إرادة. وصار يعلمني، وأخذت عليه العهد والميثاق، وكان عمري سبع سنين في ذلك الوقت، وفي هذا الوقت صار عمري ثلاثين عاماً.

ثم إنني قلت له: يا سيدي، جميع ما في هذه المدينة وجميع أهلها صاروا أحجاراً بدعوتك الصالحة، وقد نجوت أنا حين أسلمت على يدك، فأنت شيخي، فأخبرني باسمك ومُدّني بمددك وتصرف لي في شيء أقتات منه. فقال لي: اسمي أبو العباس الخضر. ثم غرس لي شجرةً من الرُمان بيده، فكبرت وأورقت وأزهرت وأثمرت رمانة واحدة في الحال، فقال: كُلِّي مما رزقك الله تعالى، واعبديه حق عبادته. ثم علّمني شروط الإسلام وشروط الصلاة وطريق العبادة، وعلمّني تلاوة القرآن، وصار لي ثلاثة وعشرون عاماً وأنا أعبد الله في هذا المكان، وفي كل يوم تطرح لي هذه الشجرة رمانةً فأكلها وأقتات بها من الوقت إلى الوقت، والخضر عليه السلام يأتيني كلّ جمعة، وهو الذي عرفني باسمك وبشّرني بأنك سوف تأتيني في هذا المكان، وقد قال لي: إذا أتاك فأكرميه وأطيعي أمره ولا تخالفيه، وكوني له أهلاً ويكون لك بعلاً، واذهبي معه حيث شاء. فلما رأيتك عرفتك، وهذا هو خبر هذه المدينة وأهلها والسلام.

ثم إنها أرّنتني شجرة الرمان وفيها رمانة، فأكلت نصفها وأطعمتني نصفها، فما رأيت أحلى ولا أزكى ولا أطعم من تلك الرمانة، ثم قلت لها: هل رضيت بما أمرك به شيخك الخضر عليه السلام بأن تكوني لي أهلاً وأكون لك بعلاً وتذهبي معي إلى بلادي وأمكث بك في مدينة البصرة؟ فقالت: نعم، إن شاء الله تعالى، فإنني سمعة لقولك مطيعة لأمر من غير خلاف. ثم إنني أخذت عليها العهد الوثيق، وأدخلتني إلى خزانة أبيها وأخذنا منها على قدر ما استطعنا حملة، وخرجنا من تلك المدينة ومشينا حتى وصلنا إلى أخوي، فرأيتهما يفتشان عليّ، فقالا لي: أين كنت؟ فإنك أبطأت علينا وقلبنا مشغول بك. وأما رئيس المركب فإنه قال لي: يا تاجر عبد الله، إن الريح طاب لنا من مدة وأنت عوّقتنا عن

السفر. فقلت له: لا ضررَ في ذلك، ولعل التأخير خيرٌ؛ لأن غيابي لم يكن فيه غير الإصلاح، وقد حصل لي فيه بلوغ الآمال، والله درُّ مَنْ قال:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
هَلِ الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي

ثم قلت لهم: انظروا ما حصل لي في هذه الغيبة! وفرّجتهم على ما معي من الذخائر، وأخبرتهم بما رأيت في مدينة الحجر، وقلت لهم: لو كنتم أطعمتموني ورحتم معي كان يحصل لكم من هذا شيءٌ كثيرٌ. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن فاضل قال لهم ولأخويه: لو رحتم معي لحصل لكم من هذا خير كثير. فقالوا له: والله، لو رحنا ما كنا نسترجي أن ندخل على ملك المدينة. فقلت لأخوي: لا بأس عليكم، فالذي معي يكفينا جميعاً، وهذا نصيبنا. ثم إنني قسمت ما معي أقساماً على قد الجميع، وأعطيت لأخوي والريس، وأخذت مثل واحد منهم، وأعطيت ما تيسر للخدامين والنوتية، ففرحوا ودعوا لي ورضوا بما أعطيته لهم إلا أخوي، فإنهما تغيرت أحوالهما ولجت عيونهما، فلحظت أن الطمع تمكّن منهما، فقلت لهما: يا أخوي، أظن أن الذي أعطيته لكما لم يقنعكما، ولكن أنا أخوكما وأنتما أخواي ولا فرق بيني وبينكما، ومالي ومالكما شيء واحد، وإذا مت لا يرثني غيركما. وصرت آخذ بخاطرهما، ثم إنني أنزلت البنت في الغليون وأدخلتها في الخزنة، وأرسلت لها شيئاً تأكله، وقعدت أحدث أنا وأخواي، فقالا لي: يا أخانا، ما مرادك تفعل بهذه البنت البديعة الجمال؟ فقلت لهما: مرادي أن أكتب كتابي عليها إذا دخلت البصرة، وأعمل فرحاً عظيماً وأدخل بها هناك. فقال أحدهما: يا أخي، اعلم أن هذه الصبية بديعة الحُسن والجمال، وقد وقعت محبتها في قلبي، فمرادي أن تعطيتها لي فأتزوج بها أنا. وقال الثاني: وأنا الآخر كذلك، فأعطيها لي لاتزوج بها. فقلت لهما: يا أخوي، إنها قد أخذت عليّ عهداً وميثاقاً أنني أتزوج بها، فإذا أعطيتها لواحد منكما أكون ناقضاً للعهد الذي بيني وبينها، وربما يحصل لها كسر خاطر؛ لأنها ما أتت معي إلا على شرط أنني أتزوج بها، فكيف أزوجه لغيري؟ وأمّا من جهة أنكما تحبانها، فأنا أحبها أكثر منكما، على أنها لقطتي، وكوني أعطيتها لواحد منكما هذا شيء لا يكون أبداً، ولكن إذا دخلنا مدينة البصرة بالسلامة، أنظر لكما بنتين من خيار بنات البصرة وأخطبهما لكما وأدفع المهر من مالي، وأجعل الفرع واحداً، وندخل نحن الثلاثة في ليلة واحدة، وأعرضاً عن هذه البنت؛ فإنها من نصيبي.

فسكتا، وقد ظننتُ أنهما رضىا بما قلتَ لهما. ثم إننا سافرنا متوجّهين إلى أرض البصرة، وصرتُ أرسل إليها ما تأكل وما تشرب وهي لا تخرج من خزنة المركب، وأنا أنام بين أخويّ على ظهر الغليون. ولم نزل مسافرين على هذه الحالة مدة أربعين يوماً حتى بانّت لنا مدينة البصرة، ففرحنا بإقبالنا عليها وأنا راكناً إلى أخويّ ومطمئنّ بهما، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى، فنمت تلك الليلة.

فبينما أنا مستغرق في النوم لم أشعر إلا وأنا محمولٌ بين أيادي أخويّ هذين؛ واحدٌ قابض عليّ من سيقاني والآخر من يدي؛ لكونهما اتفقا على تغريقي في البحر من شأن تلك البنت. فلما رأيت روعي محمولاً بين أيديهما قلت: يا أخويّ، لأي شيء تفعّلان معي هذه الفعال؟ فقالا: يا قليل الأدب، كيف تبيع خاطرنا ببنت؟ فنحن نرميك في البحر من أجل ذلك. ثم رموني فيه. ثم إنه التفت إلى الكلبين وقال: أحقّ ما قتلته يا أخويّ أم لا؟ فنكّسا رأسيهما وصارا يعويان كأنهما يُصدّقان قوله. فتعجّب الخليفة من ذلك.

ثم قال: يا أمير المؤمنين، فلما رموني في البحر وصلت إلى القرار، ثم نفضني الماء على وجه البحر، فما أشعر إلا وطائرٌ كبيرٌ قدر الأدمي نزل عليّ وخطفني وطار بي في الجو الأعلى، ففتحت عيني فرأيت روعي في قصر مشيد الأركان عالي البنيان منقوش بالنقوشات الفاخرة، وفيه تعاليق الجواهر من سائر الأشكال والألوان، وفيه جوارٍ واقفة واضعة الأيادي على الصدور، وإذا بامرأة جالسة بينهن على كرسي من الذهب الأحمر مرصّع بالدر والجوهر، وعليها ملابس لا يقدر الإنسان أن يفتح عينه فيها من شدة ضياء الجواهر، وفي وسطها حزامٌ من الجواهر لا يفي بثمنه مال، وعلى رأسها تاجٌ ثلاث دوراتٍ يحير العقول والأفكار ويخطف القلوب والأبصار. ثم إن الطير الذي كان خطفني انتفض فصار صبيّة كأنها الشمس المضيئة، فأمعنت النظر فيها فإذا هي التي كانت في الجبل بصفة حيّة وكان الثعبان يقاتلها ولفّ ذيله على ذيلها، وأنا حين رأيت الثعبان قهرها وغلب عليها قتلتها بالحجر. فقالت لها المرأة التي هي جالسة على الكرسي: لأي شيء جئت هنا بهذا الإنسي؟ فقالت لها: يا أمي، إن هذا هو الذي كان سبباً في ستر عرّضي بين بنات الجان. ثم قالت لي: هل تعرف من أنا؟ قلت: لا. قالت: أنا التي كنت في الجبل الفلاني وكان الثعبان الأسود يقاتلني ويريد هتك عرّضي وأنت قتلتها. فقلت: إنما رأيت مع الثعبان حيّة بيضاء. فقالت: أنا التي كنت حيّة بيضاء، ولكني بنت الملك الأحمر ملك الجان، واسمي سعيدة، وهذه الجالسة هي أمي واسمها مباركة، زوجة الملك الأحمر، والثعبان الذي كان يقاتلني ويريد هتك عرّضي هو وزير الملك الأسود واسمه درفيل، وهو قبيح الخلقة. واتفق أنه لما

رَأَنِي عَشَقْنِي، ثُمَّ إِنَّهُ خَطَبَنِي مِنْ أَبِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبِي يَقُولُ لَهُ: وَمَا مَقْدَارُكَ يَا قِطَاعَةَ
الْوُزَرَاءِ حَتَّى تَتَزَوَّجَ بِنَاتِ الْمُلُوكِ؟! فَاعْتَاطَ مِنْ ذَلِكَ وَحَلَفَ يَمِينًا أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَفْضَحَ
عِرْضِي كَيْدًا فِي أَبِي، وَصَارَ يَقْفُو أَثَرِي، وَتَبْتَعَنِي أَيْنَمَا رُحْتُ، وَمَرَادُهُ أَنْ يَفْضَحَ عِرْضِي،
وَقَدْ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ وَمَشَقَّاتٌ جَسِيمَةٌ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ أَبِي لَكُونَهُ جَبَّارًا
مَكَّارًا. ثُمَّ إِنَّ أَبِي كَلَّمَا ضَايِقَهُ وَأَرَادَ أَنْ يَظْفِرَ بِهِ يَهْرَبُ مِنْهُ، وَقَدْ عَجَزَ أَبِي وَصَرْتُ أَنَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْقَلَبُ أَشْكَالًا وَأَلْوَانًا، وَكَلَّمَا أَنْقَلَبَ فِي صَفَةٍ يَنْقَلِبُ هُوَ فِي صَفَةٍ ضِدِّهَا، وَكَلَّمَا
هَرَبْتُ إِلَى أَرْضٍ يَشُمُ رَائِحَتِي وَيَلْحَقْنِي فِي تِلْكَ الْأَرْضِ حَتَّى قَاسَيْتُ مِنْهُ مَشَقَّةً عَظِيمَةً، ثُمَّ
انْقَلَبْتُ فِي صَفَةِ حَيَةٍ وَذَهَبْتُ إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ، فَانْقَلَبَ فِي صَفَةِ ثَعْبَانٍ وَتَبَعَنِي فِيهِ، فَوَقَعْتُ
فِي يَدِهِ وَعَالَجَنِي وَعَالَجْتُهُ حَتَّى أَتَعَبَنِي وَرَكِبَ عَلَيَّ، وَكَانَ مَرَادُهُ أَنْ يَفْعَلَ بِي مَا يَشْتَهِيهِ،
فَأَتَيْتُ أَنْتَ وَضَرْبَتَهُ بِالْحَجَرِ فَقَتَلْتَهُ، وَأَنَا انْقَلَبْتُ بَنَاتًا وَأَرَيْتُكَ رُوحِي وَقُلْتُ لَكَ: إِنَّهُ صَارَ
لَكَ عَلَيَّ جَمِيلٌ لَا يَضِيعُ إِلَّا مَعَ أَوْلَادِ الزَّنَا. فَلَمَّا رَأَيْتُ أَخَوَيْكَ فَعَلًا بِكَ هَذِهِ الْمَكِيدَةَ، وَرَمِيَاكَ
فِي الْبَحْرِ، بَادَرْتُ إِلَيْكَ وَخَلَصْتُكَ مِنَ الْهَلَاكِ، وَوَجِبَ لَكَ الْإِكْرَامُ مِنْ أُمِّي وَأَبِي. ثُمَّ إِنَّهَا
قَالَتْ: يَا أُمِّي، أَكْرَمِيهِ فِي نَظِيرِ مَا سَتَرَ عِرْضِي. فَقَالَتْ: مَرْحَبًا بِكَ يَا إِنْسِي، فَإِنَّكَ فَعَلْتَ مَعْنَا
جَمِيلًا وَتَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْإِكْرَامَ. وَأَمَرْتُ لِي بِبَدَلَةِ كَنْزُونِي تَسَاوِي جَمَلَةً مِنَ الْمَالِ، وَأَعْطَتْنِي
جَمَلَةً مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالْمَعَادِنِ، ثُمَّ إِنَّهَا قَالَتْ: خَذُوهُ وَأَدْخُلُوهُ عَلَى الْمَلِكِ. فَأَخَذُونِي وَأَدْخَلُونِي
عَلَى الْمَلِكِ فِي الدِّيْوَانِ، فَرَأَيْتُهُ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْمَرْدَّةُ وَالْأَعْوَانُ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ زَاغَ
بَصَرِي مِمَّا رَأَيْتُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ، فَلَمَّا رَأَنِي قَامَ عَلَى الْأَقْدَامِ وَقَامَتِ الْعَسَاكِرُ إِجْلَالًا لَهُ،
ثُمَّ حَيَّانِي وَرَحَّبَ بِي وَأَكْرَمَنِي غَايَةَ الْإِكْرَامِ، وَأَعْطَانِي مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ
قَالَ لِبَعْضِ أَتْبَاعِهِ: خَذُوهُ إِلَى بَنَتِي تَوْصِلُهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي جَاءَتْ مِنْهُ. فَأَخَذُونِي وَذَهَبُوا
إِلَى سَعِيدَةِ بَنْتِهِ، فَحَمَلْتَنِي، ثُمَّ طَارَتْ بِي وَبِمَا مَعِيَ مِنَ الْخَيْرَاتِ.

هَذَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرٍ سَعِيدَةٍ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ رِيَّسِ الْغُلْيُونِ، فَإِنَّهُ أَفَاقَ
عَلَى الْخَبْطَةِ حِينَ رَمَوْنِي فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ: مَا الَّذِي وَقَعَ فِي الْبَحْرِ؟ فَبَكَى أَخَوَايَ وَصَارَا
يَخْبِطَانِ عَلَى صُدُورِهِمَا وَيَقُولَانِ: يَا ضَيْعَةَ أَخِينَا! فَإِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَزِيلَ ضَرُورَةً فِي جَانِبِ
الْغُلْيُونِ فَوَقَعَ فِي الْبَحْرِ! ثُمَّ إِنَّهُمَا وَضَعَا أَيْدِيَهُمَا عَلَى مَالِي، وَوَقَعَ بَيْنَهُمَا الْإِخْتِلَافُ مِنْ جِهَةِ
الْبَنْتِ، وَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقُولُ: مَا يَأْخُذُهَا غَيْرِي! وَاسْتَمَرَّا عَلَى الْخِصَامِ مَعَ بَعْضِهِمَا
وَلَمْ يَتَذَكَّرَا أَخَاهُمَا وَلَا غَرْقَهُ، وَزَالَ حَزْنُهُمَا عَلَيْهِ. فَبَيْنَمَا هُمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، وَإِذَا بِسَعِيدَةِ
نَزَلَتْ بِي فِي وَسْطِ الْغُلْيُونِ. وَأَدْرَكَ شَهْرُزَادُ الصَّبَاحِ، فَسَكَتَتْ عَنِ الْكَلَامِ الْمُبَاحِ.

فلما كانت الليلة ٩٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن فاضل قال: فبينما هما في هذه الحالة، وإذا بسعيدة نزلت بي في وسط الغليون، فرآني أخوأي فعانقاني وفرحاً بي وصاراً يقولان: يا أخانا، كيف حالك فيما جرى لك؟ إن قلبنا مشغولٌ عليك. فقالت سعيدة: لو كان قلبكما عليه أو كنتما تحبانه ما كنتما رميتماه في البحر وهو نائمٌ، ولكن اختاراً لكم ما موتاً تموتانهما. وقبضت عليهما وأرادت قتلتهما، فصاحا وقالوا: في عرضك يا أخانا! فصرت أتناحل عليهما وأقول لهما: أنا واقع في عرضك، لا تقتلي أخوي! وهي تقول: لا بد من قتلتهما؛ إنهما خائنَان. فما زلت لألطفهما وأتعطفهما حتى قالت: من شأن خاطرك لا أقتلتهما، ولكن أسحرهما. ثم أخرجت طاسةً وحطت فيها ماءً من ماء البحر، وتكلمت عليهما بكلامٍ لا يفهم، وقالت: اخرجاً من الصورة البشرية إلى الصورة الكلبية. ثم رشتهما بالماء فانقلبا كلبين كما تراهما يا خليفة الله. ثم التفت إليهما وقال: أحق ما قلته يا أخوي؟ فنكسا رأسيهما كأنهما يقولان: صدقت. ثم قال: يا أمير المؤمنين، وبعد أن سحرتهما كلبين قالت لمن كان في الغليون: اعلموا أن عبد الله بن فاضل هذا صار أخي، وأنا أشق عليه كل يوم مرةً أو مرتين، وكل من خالفه منكم أو عصى أمره وآذاه باليد أو اللسان فإني أفعل به ما فعلت بهذين الخائنين وأسحره كلباً حتى ينقضي عمره وهو في صورة الكلب ولا يجد له خلاصاً. فقال لهما الجميع: يا سيدتنا، نحن كلنا عبيده وخدمه ولا نخالفه. ثم إنها قالت لي: إذا دخلت البصرة فتفقّد جميع ما لك، فإن كان نقص منه شيء فأعلمني وأنا أجيء لك به من أي شخص كان ومن أي مكان كان، ومن كان آخذاً له أسحره كلباً. ثم بعد أن تخزّن أموالك حطاً في رقبة كل واحد من هذين الخائنين غلاً واربطهما في ساق السرير، واجعلهما في سجنٍ وحدهما، وكل ليلة في نصف الليل انزل إليهما واضرب كل واحدٍ منهما

علقة حتى يغيب عن الوجود، وإن مضت ليلة ولم تضربهما فإني أجيء إليك وأضربك علةً وبعد ذلك أضربهما. فقلت لها: سمعاً وطاعة. ثم إنها قالت لي: اربطهما في الحبال حتى تدخل البصرة. فحططت في رقبة كل واحدٍ منهما حبلاً، ثم ربطتهما في الصاري، وتوجّهت هي إلى حال سبيلها. وفي ثاني يوم دخلنا البصرة وطلع التجار لمقابلتني، وسلّموا عليّ ولم يسأل أحدٌ عن أخويّ، وإنما صاروا ينظرون إلى الكلاب ويقولون لي: يا فلان، ماذا تصنع بهذين الكلبين اللذين جئتَ بهما معك؟ فأقول لهم: إني ربّيتهما في هذه السفرة وجئتَ بهما معي. فيضحكون عليهما ولم يعرفوا أنهما أخوي.

ثم إني حططتهما في خزنة والتهيت تلك الليلة في توزيع الأحمال التي فيها القماش والمعادن، وكان عندي التجار لأجل السلام، فاشتغلت بهم ولم أضربهما، ولم أربطهما بالسلاسل، ولم أعمل معهما ضرراً، ثم نمت، فما أشعر إلا وقد أتتني سعيدة بنت الملك الأحمر وقالت لي: أما قلتُ لك حظاً في رقابهما السلاسل واضرب كل واحدٍ منهما علةً؟! ثم إنها قبضت عليّ وأخرجت السوط وضربتني علةً حتى غبت عن الوجود، وبعد ذلك ذهبت إلى المكان الذي فيه أخوي وضربت كلّ واحدٍ منهما علةً بالسوط حتى أشرف على الموت، وقالت: كل ليلةٍ اضرب كل واحدٍ منهما علةً مثل هذه العلة، وإن مضت ليلة ولم تضربهما فأنا أضربك. فقلت: يا سيدتي، في غدٍ أحط السلاسل في رقابهما، واللييلة الآتية أضربهما ولا أرفع الضرب عنهما ليلةً واحدة. فأكدت عليّ في الوصية بضربهما.

فلما أصبح الصباح لم يهن عليّ أن أضع السلاسل في رقابهما، فذهبت إلى صائغ وأمرته أن يعمل لهما غلّين من الذهب، فعملهما وجئتُ بهما ووضعتهما في رقابهما وربطتهما كما أمرتني. وفي ثاني ليلةٍ ضربتهما قهراً عني، وكانت هذه الحركة في مدة خلافة المهدي الخامس من بني العباس، وقد اصطحبت معه بإرسال الهدايا، فقلّدتني ولايةً وجعلني نائباً في البصرة، ودمت على هذه الحالة مدةً من الزمان. ثم إني قلت في نفسي: لعل غيظها قد برد. فتركتهما ليلةً من غير ضربٍ، فأتتني وضربتني علةً لم أنس حرارتها ببقية عمري. فمن ذلك الوقت لم أقطع عنهما الضرب مدةً خلافة المهدي، ولما توفّي المهدي توليت أنت بعده وأرسلت إليّ تقرير الاستمرار على مدينة البصرة، وقد مضى لي اثنا عشر عاماً وأنا في كل ليلةٍ أضربهما قهراً عني، وبعدما أضربهما أخذ بخاطرهما وأعتذر إليهما وأطعمهما وأسقيهما وهما محبوسان، ولم يعلم بهما أحدٌ من خلق الله تعالى حتى أرسلت إليّ أبا إسحاق النديم من أجل الخراج، فاطلّع على سري ورجع إليك



فلما رأيت الملك وهو جالس على العرش وبين يديه المردة، زاغ بصري مما رأيته.

فأخبرك، فأرسلته ثانيًا تطلبني وتطلبهما، فأجبت بالسمع والطاعة وأتيت بهما بين يديك، ولما سألتني عن حقيقة الأمر أخبرتك بالقصة، وهذه حكايتي.

فعند ذلك تعجّب الخليفة هارون الرشيد من حال هذين الكلبين، ثم قال: وهل أنت في هذه الحالة سامحت أخويك مما صدر منهما في حقك وعفوت عنهما أم لا؟ فقال: يا سيدي، سامحهما الله وأبرأ نمتهما في الدنيا والآخرة، وأنا محتاج لكونهما يسامحاني؛

لأنه مضى لي اثنا عشر عامًا وأنا أضربهما كل ليلة علقّة. فقال له الخليفة: يا عبد الله، إن شاء الله تعالى أنا أسعى في خلاصهما ورجوعهما آدميين كما كانا أولًا، وأصلح بينكم وتعيشون بقية أعماركم إخوة متحابين، وكما أنك سامحتهما يسامحانك، فخذهما وانزل إلى منزلك، وفي هذه الليلة لا تضربهما، وفي غدٍ ما يكون إلا الخير. فقال له: يا سيدي، وحياة رأسك، إن تركتهما ليلة واحدة من غير ضرب تأتيني سعيدة وتضربني، وأنا ما لي جسدٌ يتحمل ضربًا! فقال له: لا تخف، فأنا أعطيك خطاً يدي، فإذا أتتك سعيدة فأعطها الورقة، فإذا قرأتها وعَفْتُ عنك كان الفضل لها، وإن لم تُطع أمري كان أمرك إلى الله، ودَعُها تضربك علقّة وقدّرُ أنك نسيتهما من الضرب ليلة وضربتك بهذا السبب، وإذا حصل ذلك وخالفْتَنِي، فإن كنتُ أنا أمير المؤمنين فإني أعمل خلاصي معها. ثم إن الخليفة كتب لها قطعة ورقة مقدار إصبعين، وبعدما كتبها ختمها وقال: يا عبد الله، إذا أتتك سعيدة فقل لها: إن الخليفة ملكُ الإنس أمرني بعدم ضربهما، وكتب لي هذه الورقة، وهو يُقرِّئك السلام. وأعطها المرسوم ولا تخشَ بأسًا. ثم أخذ عليه العهد والميثاق أنه لا يضربهما. فأخذهما وراح بهما إلى منزله، وقال في نفسه: يا تُرى، ما الذي يصنعه الخليفة في حق بنت سلطان الجن إذا كانت تخالفه وتضربني في هذه الليلة؟ ولكن أنا أصبر على ضربي علقّة وأريح أخويّ في هذه الليلة ولو كان يحصل لي من أجلهما العذاب. ثم إنه تفكّر في نفسه وقال له عقله: لولا أن الخليفة مستندٌ إلى سندٍ عظيم ما كان يمنعك عن ضربهما. ثم إنه دخل منزله ونزع الأغلال من رقاب أخويّه وقال: توكلّتُ على الله. وصار يأخذ بخاطرهما ويقول لهما: لا بأس عليكما، فإن الخليفة السادس من بني العباس قد تكفّل بخلاصكما، وأنا قد عفوت عنكما، وإن شاء الله تعالى يكون الأوان قد آن وتخلصان في هذه الليلة المباركة، فأبشِرا بالهناء والسرور. فلما سمعا هذا الكلام صارا يعويان مثل عواء الكلاب. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن فاضل قال لأخويه: أبشرا بالهنا والسرور. فلما سمعا هذا الكلام صارا يعويان مثل عُواء الكلاب، ويمرغان خدودهما على أقدامهما كأنهما يدعوان له ويتواضعان بين يديه، فحزن عليها وصار يملس بيده على ظهورهما إلى أن جاء وقت العشاء، فلما وضعوا السفرة قال لهما: اجلسا. فجلسا يأكلان معه على السفرة، فصار أعوانه باهتين يتعجبون من أكله مع الكلاب ويقولون: هل هو مجنون أو مختل العقل؟! كيف يأكل نائب مدينة البصرة مع الكلاب وهو أكبر من وزير؟! أما يعلم أن الكلب نجس؟! وصاروا ينظرون إلى الكلبين وهما يأكلان معه أكل الحشمة، ولا يعلمون أنهما أخواه، وما زالوا يتفرجون على عبد الله والكلبين حتى فرغوا من الأكل. ثم إن عبد الله غسل يديه فمدَّ الكلبان أيديهما وصارا يغسلان، وكل من كان واقفاً صار يضحك ويتعجب ويقولون لبعضهم: عمرنا ما رأينا الكلاب تأكل وتغسل أيديها بعد أكل الطعام! ثم إنهما جلسا على المراتب بجانب عبد الله بن فاضل، ولم يقدر أحد أن يسأله عن ذلك، واستمر الأمر هكذا إلى نصف الليل، ثم صرف الخدام وناموا ونام كل كلبٍ على سرير، وصار الخدام يقولون لبعضهم: إنه نام ونام معه الكلبان! وبعضهم يقول: حيث أكل مع الكلاب على السفرة فلا بأس إذا ناموا معه، وما هذا إلا حال المجانين! ثم إنهم لم يأكلوا مما بقي في السفرة من الطعام شيئاً، وقالوا: كيف نأكل فضلة الكلاب؟! ثم أخذوا السفرة بما فيها ورموها وقالوا: إنها نجسة.

هذا ما كان من أمر عبد الله بن فاضل، فإنه لم يشعر إلا بالأرض قد انشقت وطلعت سعيدة وقالت: يا عبد الله، لأي شيء ما ضربتكما في هذه الليلة؟ ولأي شيء نزعْتَ الأغلال من أعناقهما؟ هل فعلت ذلك عناداً لي واستخفافاً بأمرِي؟ ولكن أنا الآن أضربك وأسحرك كلباً مثلهما. فقال لها: يا سيدتي، أقسمتُ عليك بالنقش

الذي على خاتم سليمان بن داود عليهما السلام أن تحلمي عليّ حتى أخبرك بالسبب، ومهما أردته بي فافعليه. فقالت له: أخبرني. فقال لها: أمّا سبب عدم ضربهما، فإن ملك الإنس الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد أمرني ألاّ أضربهما في هذه الليلة، وقد أخذ عليّ موثيق وعهود ذلك، وهو يُقرُّك السلام، وأعطاني مرسومًا بخط يده وأمرني أن أعطيك إياه، فامتثلتُ أمره وأطعته، وطاعة أمير المؤمنين واجبة، وها هو المرسوم فخذيه واقرئيه، وبعد ذلك افعلي مرادك. فقالت: ها تَه. فناولها المرسوم ففتحته وقرأته، فرأت مكتوبًا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من ملك الإنس هارون الرشيد إلى بنت الملك الأحمر سعيدة. أما بعد، فإن هذا الرجل قد سامح أخويه وأسقط حقّه عنهما، وقد حكمتُ عليهما بالصلح، وإذا وقع الصلح ارتفع العقاب، فإن اعترضتمونا في أحكامنا اعترضناكم في أحكامكم، وخرقنا قانونكم، وإن امتثلتم أمرنا ونفذتم أحكامنا فإننا ننفذ أحكامكم. وقد حكمتُ عليك بعدم التعرّض لهما، فإن كنتِ تؤمنين بالله ورسوله فعليك بطاعة ولي الأمر، وإن عفوتِ عنهما فأنا أجازيك بما يقدرني عليه ربي، وعلامة الطاعة أن ترفعي سحرَك عن هذين الرجلين حتى يقابلاني في غدٍ خالصين، وإن لم تخلّصيهما فأنا أخلّصهما قهراً عنك بعون الله تعالى.» فلما قرأت ذلك الكتاب قالت: يا عبد الله، لا أفعل شيئاً حتى أذهب إلى أبي وأعرض عليه مرسوم ملك الإنس وأرجع إليك بالجواب بسرعة. ثم أشارت بيدها إلى الأرض فانشقّت ونزلت فيها، فلما ذهبت صار قلب عبد الله فرحاً وقال: أعزّ الله أمير المؤمنين.

ثم إن سعيدة دخلت على أبيها وأخبرته بالخبر، وعرضت عليه مرسوم أمير المؤمنين، فقبّله ووضع على رأسه، ثم قرأه وفهم ما فيه وقال: يا بنتي، إن أمر ملك الأنس علينا ما ض، وحكمه فينا نافذ، ولا نقدر أن نخالفه، فامضي إلى الرجلين وخلصيهما في هذه الساعة، وقولي لهما: أنتما في شفاعة ملك الإنس. فإنه إن غضب علينا أهلكنا عن آخرنا، فلا تحملينا ما لا نطيق. فقالت له: يا أبت، إذا غضب علينا ملك الإنس فماذا يصنع بنا؟ فقال لها: يا بنتي، إنه يقدر علينا من وجوه؛ الأول: أنه من البشر، فهو مفضلٌ علينا، والثاني: أنه خليفة الله، والثالث: أنه مصرٌّ على ركعتي الفجر، فلو اجتمعت عليه طوائف الجن من السبع أرضين لا يقدر أن يصنعوا به مكروهاً، فإنه إن غضب علينا يصلي ركعتي الفجر ويصيح علينا صيحةً واحدةً فنجتمع بين يديه طائعين ونصير كالغنم بين يدي الجزار، إن شاء يأمرنا بالرحيل من أوطاننا إلى أرضٍ موحشةٍ لا نستطيع المكث فيها، وإن شاء هلكنا أمرنا بهلاك أنفسنا فيهلك بعضنا بعضاً. فنحن لا نقدر على مخالفة

أمره، فإنْ خالفنا أمره أحرقنا جميعاً، وليس لنا مفرٌّ من بين يديه، وكذلك كل عبدٍ داوَمَ على ركعتي الفجر، فإن حكمه نافذٌ فينا، فلا تتسبَّبِي في هلاكنا من أجل رجلَيْن، بل امضي وخلصيهما قبل أن يَحِيقَ بنا غضبُ أمير المؤمنين. فرجعت إلى عبد الله بن فاضل وأخبرته بما قال أبوها، وقالت له: قَبِّلْ لنا أيادي أمير المؤمنين واطلب لنا رضاه. ثم إنها أخرجت الطاسة ووضعت فيها الماء وعزمت عليها وتكلَّمت بكلماتٍ لا تُفهم، ثم رشَّتهما بالماء وقالت: اخرجَا من الصورة الكلبية إلى الصورة البشرية. فعادا بشرَيْن كما كانا أولاً، وانفكَّ عنهما رصد السحر وقالا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم إنهما وقعا على يد أخيهما وعلى رجليه يقبلانها ويطلبان منه السماح، فقال لهما: سامحاني أنتما. ثم إنهما تابا توبةً نصوحاً وقالا: قد غرَّنا إبليس اللعين وأغوانا الطمع، وربنا جازانا بما نستحقه، والعفو من شيم الكرام. وصارا يستعطفان أخاهما وببيكان ويتندَّمان على ما وقع منهما. ثم إنه قال لهما: ما فعلتما بزوجتي التي جنَّت بها من مدينة الحجر؟ فقالوا: لما أغوانا الشيطان ورميناك في البحر وقع الخلاف بيننا، وصار كلُّ منا يقول: أنا أتزوَّج بها. فلما سمعتُ كلامنا ورأت اختلافنا وعرفت أننا رميناك في البحر طلعت من الخزنة وقالت: لا تختصما من أجلي، فإنني لستُ لواحدٍ منكما، إن زوجي راح البحر وأنا أتبعه. ثم إنها رمت روحها في البحر وماتت. فقال: إنها ماتت شهيدةً، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم إنه بكى عليها بكاءً شديداً، وقال لهما: لا يصحُّ منكما أن تفعلَا معي هذه الفعال وتعدماني زوجتي. فقالا: إننا أخطأنا وربنا جازانا على فعلنا، وهذا شيء قدَّرَه الله علينا قبل أن يخلقنا. فقبِلَ عُذرهما. ثم إن سعيدة قالت: أيفعلان معك كل هذه الفعال وأنت تعفو عنهما؟! فقال: يا أختي، مَنْ قدر وعفا كان أجره على الله. فقالت: خذ حذرک منهما؛ فإنهما خائنان. ثم ودَّعته وانصرفت. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله لما حذَرْتَهُ سعيدة من أخُوَيْهِ ودَّعْتَهُ وانصرفت إلى حال سبيلها، فبات عبد الله بقية تلك الليلة هو وأخواه على أكلٍ وشربٍ وبسطٍ وانشرح صدر. فلما أصبح الصباح أدخلهما الحَمَّام، وعند خروجهما من الحمام ألبس كل واحدٍ منهما بدلةً تساوي جملةً من المال، ثم إنه طلب سفرة طعام، فقَدَّموها بين يديه، فأكل هو وأخواه، فلما نظرهما الخَدَّام وعرفوا أنهما أخواه سلموا عليهما وقالوا للأمير عبد الله: يا مولانا، هنَّاك الله باجتماعك على أخويك العزيزين، وأين كانا في هذه المدة؟ فقال لهم: هما اللذان رأيتموهما في صورة كلبين، والحمد لله الذي خَلَّصهما من السجن والعذاب الأليم. ثم إنه أخذهما وتوجَّه إلى ديوان الخليفة هارون الرشيد، ودخل بهما عليه وقبَّل الأرض بين يديه، ودعا له بدوام العز والنَّعم، وإزالة البؤس والنَّقم. فقال له الخليفة: مرحبًا بك يا أمير عبد الله، أخبرني بما جرى لك. فقال: يا أمير المؤمنين، أعزَّ الله قَدْرَكَ، إنني لما أخذت أخويَّ وذهبت بهما إلى منزلي اطمأننت عليهما بسببك؛ حيث تكفَّلت بخلاصهما، وقلت في نفسي: إن الملوك لا يعجزون عن أمرٍ يجتهدون فيه؛ فإن العناية تساعدهم. ثم نزعت الأغلال من رقابهما وتوكلت على الله، وأكلت أنا وإياهما على السفرة، فلما رأيَ أتباعي آكل معهما وهما في صورة كلبين استخفُّوا عقلي، وقالوا لبعضهم: لعله مجنونٌ، كيف يأكل نائب البصرة مع الكلاب وهو أكبر من الوزير؟! ورموا ما فضل من السفرة وقالوا: لا نأكل ما بقي من الكلاب. وصاروا يسفِّهون رأيي، وأنا أسمع كلامهم ولا أرد عليهم جوابًا لعدم معرفتهم أنهما أخواي، ثم صرفتهم. وعندما جاء وقت النوم وطلبت النوم فما أشعر إلا بالأرض قد انشقت وخرجت سعيدة بنت الملك الأحمر وهي غضبانَّةٌ عليَّ وعيناها مثل النار ... ثم أخبر الخليفة بجميع ما وقع منها ومن أبيها، وكيف أخرجتهما من الصورة الكلبية إلى الصورة البشرية، ثم قال: وها هما بين يديك يا أمير المؤمنين. فالتفت الخليفة فرأهما

شابين كالقمرين، فقال الخليفة: جزاك الله عني خيرًا يا عبد الله حيث أعلمتني بفائدة ما كنت أعلمها، إن شاء الله لا أترك صلاة هاتين الركعتين قبل طلوع الفجر ما دمت حيًا. ثم إنه عَنَّفَ أخوَيَّ عبد الله بن فاضل على ما سلف منهما في حقه، فاعتذرا قدام الخليفة، فقال لهم: تصافحوا وسامحوا بعضكم، وعفا الله عما سلف. ثم التفت إلى عبد الله وقال: يا عبد الله، اجعل أخوك مُعَيَّنَ لك، وتوصَّ بهما. وأوصاهما بطاعة أخيهما، ثم أنعم عليهما وأمرهم بالارتحال إلى مدينة البصرة بعد أن أعطاهم إنعامًا جزيلاً، فزلوا من ديوان الخليفة مجبورين، وفرح الخليفة بهذه الفائدة التي استفادها من هذه الحركة؛ وهي المداومة على صلاة ركعتين قبل الفجر، وقال: صدَقَ مَنْ قال: مصائب قوم عند قوم فوائد.

هذا ما كان من أمرهم مع الخليفة، وأمَّا ما كان من أمر عبد الله بن فاضل، فإنه سافر من مدينة بغداد ومعه أخواه بالإعزاز والإكرام ورفع المقام إلى أن دخلوا مدينة البصرة، فخرج الأكابر والأعيان لملاقاتهم، وزيّنوا لهم المدينة وأدخلوهم بموكب ليس له نظير، وصار الناس يدعون له وهو ينثر الذهب والفضة، وصار جميع الناس ضاجين بالدعاء له، ولم يلتفت أحد إلى أخويه، فدخلت الغيرة والحسد في قلوبهما، ومع ذلك كان عبد الله يداريها مَدَارَةَ العين الرمءاء، وكلما داراهما لا يزدادان إلا بُغْضًا له وحسدًا فيه. وقد قيل في هذا المعنى:

وَدَارَيْتُ كُلَّ النَّاسِ لَكِنَّ حَاسِدِي مَدَارَاتُهُ شَطَطٌ وَعَزَّ نَوَالُهَا
وَكَيْفَ يَدَارِي الْمَرْءُ حَاسِدَ نِعْمَةٍ إِذَا كَانَ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُهَا

ثم إنه أعطى كل واحدٍ منهما سريةً ليس لها نظير، وجعلهما بخدم وحشم وجوارٍ وعبيدٍ سودٍ وبيضٍ من كل نوعٍ أربعين، وأعطى كل واحدٍ منهما خمسين جوادًا من الخيل الجياد، وصار لهما جماعةٌ وأتباعٌ. ثم إنه عَيَّنَ لهما الخراج ورَتَّبَ لهما الرواتب وجعلهما مُعَيَّنَينَ له، وقال لهما: يا أخوَيَّ، أنا وأنتما سواءٌ، ولا فَرْقَ بيني وبينكما. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله رتب لأخويه الرواتب وجعلهما معينين له، وقال لهما: يا أخوي، أنا وأنتما سواء ولا فرق بيني وبينكما؛ فالحكم بعد الله والخليفة لي ولكما، فاحكما في البصرة في غيابي وحضوري، وحكما نافذ، ولكن عليكما بتقوى الله في الأحكام، وإياكما والظلم؛ فإنه إن دام دمّر، وعليكما بالعدل فإنه إن دام عمر، ولا تظلما العباد فيدعوا عليكما وخبركما يصل إلى الخليفة فتحصل فضيحة في حقي وحكما، فلا تتعرضا لظلم أحد، والذي تطمعان فيه من أموال الناس خذاه من مالي زيادة على ما تحتاجان إليه، ولا يخفى عليكما ما ورد في الظلم من محكم الآيات، والله در من قال هذه الأبيات:

وَلَيْسَ إِلَّا الْعَجْزُ يَخْفِيهِ	الظُّلْمُ فِي نَفْسِ الْفَتَى كَامِنٌ
حَتَّى يَرَى الْوَقْتَ يُوَفِّيهِ	ذُو الْعَقْلِ لَا يَنْهَضُ فِي حَاجَةٍ
وَقَلْبُ مَنْ يَجْهَلُ فِيهِ	لِسَانُ مَنْ يَعْقِلُ فِي قَلْبِهِ
يَقْتُلُهُ أَصْغَرُ مَا فِيهِ	مَنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَ مِنْ عَقْلِهِ
مَنْ فَعَلَهُ يُظْهَرُ خَافِيهِ	أَصْلُ الْفَتَى خَافٍ وَلَكِنَّهُ
لَا يُظْهَرُ الطَّيِّبُ مَنْ فِيهِ	مَنْ لَمْ يَكُنْ عُنْصُرُهُ طَيِّبًا
كَانَ لِذِي الْجَهْلِ مُسَاوِيهِ	مَنْ قَلَدَ الْأَحْمَقَ فِي فِعْلِهِ
تَنْبَهَتْ لَهُ أَعَادِيهِ	وَمَنْ أَطْلَعَ النَّاسَ عَلَى سِرِّهِ
وَتَرَكَهَ مَا لَيْسَ يَعْزِيهِ	يَكْفِي الْفَتَى مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ

ثم إنه صار يعظُ أخويه ويأمرهما بالعدل وينهاهما عن الظلم، حتى ظنَّ أنهما أحبَّاه بسبب بذل النصيحة لهما، ثم إنه ركن إليهما وبالغ في إكramهما، ومع إكramه لهما ما ازدادًا إلا حسدًا له وبغضًا فيه. ثم إن أخويه ناصراً ومنصوراً اجتمعوا مع بعضهما، فقال ناصرٌ لمنصورٍ: يا أخي، إلى متى ونحن تحت طاعة أخينا عبد الله وهو في هذه السيادة والإمارة؟ وبعدما كان تاجراً صار أميراً، وبعدما كان صغيراً صار كبيراً، ونحن لم نكبر ولم يبقَ لنا قدرٌ ولا قيمة، وها هو ضحك علينا وعملنا مُعِينَيْن له، ما معنى ذلك؟ أليس أننا خَدَمته ومن تحت طاعته؟ وما دام طيباً لا ترتفع درجتنا ولم يَبْقَ لنا شأنٌ، فلا يتم غرضنا إلا إن قتلناه وأخذنا أمواله، ولا يمكن أخذ هذه الأموال إلا بعد هلاكه؛ فإذا قتلناه نسود ونأخذ جميع ما في خزائنه من الجواهر والمعادن والذخائر، وبعد ذلك نقسمها بيننا، ثم نهبي هديةً للخليفة ونطلب منه منصب الكوفة، وأنت تكون نائب البصرة، وأنا أكون نائب الكوفة، أو أنك تكون نائب الكوفة وأنا أكون نائب البصرة، ويبقى لكل واحد منا صورةٌ وشأنٌ، ولكن لا يتم لنا ذلك إلا إذا أهلكناه. فقال منصور: إنك صادقٌ فيما قلت، ولكن ماذا نصنع معه حتى نقتله؟ فقال: نعمل ضيافةً عند أحدنا، ونعرفه فيها ونخدمه غاية الخدمة، ثم نساهره بالكلام ونحكي له حكاياتٍ ونكتاً ونوادِرَ إلى أن يزوب قلبه من السهر، ثم نفرش له حتى يرقد؛ فإذا رقد نبرك عليه وهو نائمٌ فنخنقه ونرميه في البحر ونصبح نقول: إن أخته الجنيّة أتته وهو قاعدٌ يتحدّث بيننا وقالت له: يا قطاعة الإنسان، ما مقدارك حتى تشكوني إلى أمير المؤمنين؟ أتظن أننا نخاف منه؟ فكما أنه ملكٌ نحن ملوكٌ، وإن لم يلزم أدبه في حقنا قتلناه أقبح قتلة، ولكن بقيت أنا أقتلك حتى ننظر ما يخرج من يد أمير المؤمنين. ثم خطفته وشقّت الأرض ونزلت به، فلما رأينا ذلك غُشي علينا، ثم استيقنا ولم ندرِ ما حصل له، وبعد ذلك نرسل إلى الخليفة ونعلمه؛ فإنه يوليّا مكانه، وبعد مدّة نرسل إلى الخليفة هديةً سنيّةً ونطلب منه حكم الكوفة، وواحدٌ منا يقيم في البصرة والآخر يقيم بالكوفة، وتطيب لنا البلاد ونقهر العباد ونبلغ المراد. فقال له: نعم ما أشرت به يا أخي.

ثم اتفقا على قتل أخيهما، وصنّع ناصر ضيافةً وقال لأخيه عبد الله: يا أخي، اعلم أنني أنا أخوك، ومرادي أنك تجبر بخاطري أنت وأخي منصور وتأكلان ضيافتي في بيتي حتى أفتخر بك ويقال: إن الأمير عبد الله أكل ضيافة أخيه ناصر؛ لأجل أن يحصل لي بذلك جبر خاطِر. فقال له عبد الله: لا بأس يا أخي، ولا فرقٌ بيني وبينك، وبيتك بيتي، ولكن حيث عزمتمني فما يأبى الضيافة إلا اللئيم. ثم التفت إلى أخيه منصور وقال له: أتروح

معي إلى بيت أخيك ناصر ونأكل ضيافته ونجبر بخاطره؟ فقال له: يا أخي، وحياة رأسك، ما أروح معك حتى تحلف لي أنك بعدما تخرج من بيت أخي ناصر تدخل بيتي وتأكل ضيافتي، فهل ناصر أخوك وأنا لست أخاك؟! فكما جبرت بخاطره تجبر بخاطري. فقال: لا بأس بذلك، حباً وكرامةً، فمتى خرجتُ من دار أخيك أدخل دارك، وكما هو أخي أنت أخي. ثم إن ناصرًا قبَّلَ يد أخيه عبد الله ونزل من الديوان وعمل الضيافة، وفي ثاني يومٍ ركب عبد الله وأخذ معه جملةً من العسكر وأخاه منصورًا، وتوجَّه إلى دار أخيه ناصر، فدخل وجلس هو وجماعته وأخوه، فقدَّم لهم السمات ورَحَّبَ بهم، فأكلوا وشربوا وتلذَّذوا وطربوا، وارتفعت السفرة والزبادي وغسلت الأيادي، وأقاموا ذلك اليوم على أكلٍ وشربٍ وبسطٍ ولعبٍ إلى الليل. فلما تعشَّوا صلوا المغرب والعشاء ثم جلسوا على منادمة، وصار منصورٌ يحكي حكاية وناصرٌ يحكي حكاية وعبد الله يسمع، وكانوا في قصرٍ وحدهم، وبقية العسكر في مكانٍ آخر، ولم يزالوا في نكتٍ وحكاياتٍ ونوادرٍ وأخبارٍ حتى ذاب قلب أخيه عبد الله من السهر وغلب عليه النوم. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله لما طال عليه السهر وأراد النوم، فرشوا له الفرش، ثم قلع ثيابه ونام وناما بجانبه على فرش آخر، وصبرا عليه حتى استغرق في النوم، فلما عرفا أنه استغرق في النوم قاما وبركا عليه، فأفاق فرأهما باركين على صدره، فقال لهما: ما هذا يا أخوي؟ فقالا له: ما نحن أخواك، ولا نعرفك يا قليل الأدب، وقد صار موتك أحسن من حياتك. وخطأ أيديهما في رقبتة وخنقاه، فغاب عن الدنيا ولم يبق فيه حركة، فظننا أنه مات، وكان القصر على البحر، فرموه في البحر. فلما وقع في البحر سخر الله له درفيلًا كان معتادًا على مجيئه تحت ذلك القصر؛ لأن المطبخ كان فيه طاقة تُشرف على البحر، وكانوا كلما ذبحوا الذبائح يرمون تعاليقها في البحر من تلك الطاقة، فيأتي ذلك الدرفيل ويلتقطها من على وجه الماء، فاعتاد على ذلك المكان، وكانوا في ذلك اليوم قد رموا سقاطًا كثيرًا بسبب الضيافة، فأكل ذلك الدرفيل زيادةً عن كل يوم، وحصلت له قوة، فلما سمع الخبطة في البحر أتى بسرعة، فرآه ابن آدم، فهده الهادي وحمله على ظهره وشق به في وسط البحر. ولم يزل ماشيًا به حتى وصل إلى البحر من الجهة الثانية وألقاه على البر، وكان ذلك المكان الذي أطلعه فيه على قارعة الطريق، فمرت به قافلة فرأوه مرميًا على جانب البحر، فقالوا: هنا غريقُ ألقاه البحر على الشاطئ. واجتمع عليه جماعة من تلك القافلة يتفرجون عليه، وكان شيخ القافلة رجلًا من أهل الخير، وعارفًا بجميع العلوم، وخبيرًا بعلم الطب، وصاحب فراسة صادقة، فقال لهم: يا ناس، ما الخبر؟ فقالوا: هذا غريقٌ ميتٌ. فأقبل عليه وتأمله وقال: يا ناس، هذا الشاب فيه الروح، وهذا من خيار أولاد الناس الأكابر وتربية العز والنعم، وفيه الرجاء إن شاء الله تعالى. ثم إنه أخذه وألبسه بدلةً، وأدفأه وصار يعالجه ويلطفه مدة ثلاث مراحل حتى أفاق، ولكن حصلت له خضة، فغلب عليه الضعف، وصار شيخ القافلة يعالجه بأعشابٍ يعرفها. ولم يزلوا

مسافرين مدة ثلاثين يوماً حتى بعدوا عن البصرة بهذه المسافة وهو يعالج فيه، ثم دخلوا مدينة يُقال لها مدينة عوج، وهي في بلاد العجم، فنزلوا في خان وفرشوا له ورقد، فبات تلك الليلة يئنُّ، وقد أقلق الناس من أنينه، فلما أصبح الصباح أتى بواب الخان إلى شيخ القافلة وقال: ما شأن هذا الضعيف الذي عندك؟ فإنه أقلقنا! فقال: هذا رأيته في الطريق على جانب البحر غريقاً، فعالجته وعجزت ولم يُشَفَّ. فقال له: اعرضه على الشیخة راجحة. فقال له: وما تكون الشیخة راجحة؟ فقال: عندنا بنتٌ بكرٌ شیخة، وهي عذراء جميلة اسمها الشیخة راجحة، كلُّ مَنْ كان به داءٌ يأخذونه إليها فيبيت عندها ليلة واحدة فيصبح معافى ولم يكن فيه شيءٌ يضره. فقال له شيخ القافلة: دُلّني عليها. فقال له: احمل مريضك. فحملة ومشى بواب الخان قدّامه إلى أن وصل إلى زاوية، فرأى خلائق داخلين بالنذور، وخلائق خارجين فرحانين، فدخل بواب الخان حتى وصل إلى الستارة وقال: دستور يا شیخة راجحة، خذي هذا المريض. فقالت: أدخله من داخل هذه الستارة. فقال له: ادخل. فدخل ونظر إليها فرأها زوجته التي جابها من مدينة الحجر، فعرفها وعرفته وسلّمت عليه وسلّم عليها. فقال لها: مَنْ أتى بكِ إلى هذا المكان؟ فقالت له: لما رأيت أخويك رمياك في البحر وتخاصما عليّ، رميتُ روعي في البحر، فتناولني شيخي الخضر أبو العباس وأتى بي إلى هذه الزاوية، وأعطاني الإذن بشفاء المرضى، ونادى في هذه المدينة: كلُّ مَنْ كان به داءٌ فعليه بالشیخة راجحة. وقال لي: أقيمي في هذا المكان حتى يئین الأوان ويأتي إليك زوجك في هذه الزاوية. فصار كل مريض يأتي إليّ أكبسه فيصبح طيباً، وشاع ذكرى بين العالم، وأقبلت عليّ الناس بالنذور، وعندي الخير، وأنا في عزٍّ وإكرام، وجميع أهل هذه البلاد يطلبون مني الدعاء. ثم إنها كبسته فشفي بقدرة الله تعالى. وكان الخضر عليه السلام يحضر عندها في كل ليلة جمعة، وكانت تلك الليلة التي اجتمع فيها ليلة الجمعة، فلما جنَّ الليل جلست هي وإياه بعدما تعشّيا من أفخر المأكول، ثم قعدا ينتظران حضور الخضر، فبينما هما جالسان وإذا به قد أقبل عليهما، فحملهما من الزاوية ووضعهما في قصر عبد الله بن فاضل بالبصرة، ثم تركهما وذهب. فلما أصبح الصباح تأمّل عبد الله في القصر، فرآه قصره وعرفه، وسمع الناس في ضجة، فطلّ من الشباك فرأى أخويه مصلوبين؛ كل واحدٍ منهما على خشبة، والسبب في ذلك أنهما لما رمياه في البحر أصبحا يبكيان ويقولان: إن أخانا خطفته الجنية. ثم هيا هدية وأرسلها إلى الخليفة وأخبره بهذا الخبر، وطلبا منه منصب البصرة، فأرسل أحضرهما عنده وسألهما، فأخبراه كما ذكرنا، فاشتدَّ غضب الخليفة، فلما جنَّ الليل صلى ركعتين

قبل الفجر على عادته، وصاح على طوائف الجن، فحضروا بين يديه طائعين، فسألهم عن عبد الله، فحلفوا له أنه لم يتعرّض له أحد منهم، وقالوا له: ما عندنا خبرٌ به. فأُتت سعيذة بنت الملك الأحمر وأُخبرت الخليفة بخبره فصرفهم. وفي ثاني يوم رمى ناصراً ومنصوراً تحت الضرب، فأقرّاً على بعضهما، فغضب عليهما الخليفة وقال: خذوهما إلى البصرة واصلبوهما قدام قصر عبد الله.

هذا ما كان من أمرهما، وأما ما كان من أمر عبد الله، فإنه أمر بدفن أخويه، ثم ركب وتوجّه إلى بغداد وأخبر الخليفة بحكايته وما فعل معه أخواه من الأول إلى الآخر، فتعجّب الخليفة من ذلك، وأحضر القاضي والشهود وكتب كتابه على البنت التي جاء بها من مدينة الحجر، ودخل بها وأقام معها في البصرة إلى أن أتاها هادم اللذات ومفرّق الجماعات، فسبحان الحي الذي لا يموت.

حكاية الإسكافي معروف

ومما يُحكى أيها الملك السعيد أنه كان في مدينة مصر المحروسة رجل إسكافي يرقّع الزرابين القديمة، وكان اسمه معروفًا، وكان له زوجة اسمها فاطمة ولقبها العرّة، وما لقبوها بذلك إلا لأنها كانت فاجرةً شرّانيةً قليلة الحياء كثيرة الفتن، وكانت حاكمةً على زوجها، وفي كل يوم تسبّه وتلعنه ألف مرة، وكان يخشى شرّها ويخاف من أذاها؛ لأنه كان رجلًا عاقلًا يستحي على عرضه، لكنه كان فقير الحال، فإذا اشتغل بكثيرٍ صرفه عليها، وإذا اشتغل بقليلٍ انتقمت من بدنه في تلك الليلة وأعدمته العافية، وتجعل ليلته مثل صحيفتها، وهي كما قال في حقها الشاعر:

كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَتُّ مَعَ زَوْجَتِي فِي أَشْأَمِ الْأَحْوَالِ قَضَيْتُهَا
يَا لَيْتَنِي عِنْدَ دُخُولِي بِهَا أَحْضَرْتُ سُمًّا ثُمَّ سَمَّيْتُهَا

ومن جملة ما اتفق لهذا الرجل مع زوجته أنها قالت له: يا معروف، أريد منك في هذه الليلة أن تجيء لي معك بكنافةٍ عليها عسل نحل. فقال لها: الله تعالى يسهّل لي حقها وأنا أجيء بها لك في هذه الليلة، والله لم يكن معي دراهم في هذا اليوم، ولكن ربنا يسهل. فقالت له: أنا ما أعرف هذا الكلام. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن معروفًا الإسكافي قال لزوجته: الله يسهل بكلفتها وأنا أجيء بها إليك في هذه الليلة، والله لم يكن معي دراهم في هذا اليوم، لكن ربنا يسهل. فقالت له: أنا ما أعرف هذا الكلام، إن سهَّل أو لم يسهَّل لا تجئني إلا بالكنافة التي بعسل نحل، وإن جئت من غير كنافَةٍ جعلت ليلتك مثل بختك حين تزوجتني ووقعت في يدي. فقال لها: الله كريم. ثم خرج ذلك الرجل والغمُّ يتناثر من يديه، فصلى الصبح وفتح الدكان وقال: أسألك يا رب أن ترزقني بحق هذه الكنافة، وتكفيني شر هذه الفاجرة في هذه الليلة. وقعد في الدكان إلى نصف النهار فلم يأتِه شغل، فاشتدَّ خوفه من زوجته، فقام وقفل الدكان وصار متحيرًا في أمره من شأن الكنافة مع أنه لم يكن معه من حق الخبز شيء. ثم إنه مر على دكان الكنفاني ووقف باهتًا، وغرغرت عيناه بالدموع، فلحظ عليه الكنفاني وقال: يا معلم معروف، ما لك تبكي؟ فأخبرني بما أصابك. فأخبره بقصته وقال له: إن زوجتي جبَّارة، وطلبت مني كنافَةً، وقد قعدتُ في الدكان حتى مضى نصف النهار فلم يجئني ولا حق الخبز، وأنا خائفٌ منها. فضحك الكنفاني وقال: لا بأس عليك، كم رطلًا تريد؟ قال: خمسة أرطال. فوزن له خمسة أرطال وقال له: السمن عندي، ولكن ما عندي عسل نحل، وإنما عندي عسل قطر أحسن من عسل النحل، وماذا يضر إذا كانت بعسل قطر؟ فاستحى منه لكونه يصبر عليه بثمانها. فقال له: هايتها بعسل قطر. فقلى له الكنافة بالسمن وغرَّقها بعسل قطر فصارت تُهدى للملوك. ثم إنه قال له: أحتاج عيشًا وجبناً؟ قال: نعم. فأخذ له بأربعة أنصافٍ عيشًا وبنصفٍ جبناً، والكنافة بعشرة أنصاف، وقال له: اعلم يا معروف أنه قد صار عندك خمسة عشر نصفًا، رُحْ إلى زوجتك واعمل حظًا، وخذ هذا النصف حق الحَمَّام، وعليك مهلٌ يومٌ أو يومان أو ثلاثة حتى يرزقك الله، ولا تضيق على زوجتك، فأنا أصبر عليك متى يبقى عندك دراهم فاضلة عن

مصروفك. فأخذ الكنافة والعيش والجبن وانصرف داعياً له، وراح مجبور الخاطر وهو يقول: سبحانك ربي، ما أكرمك! ثم إنه دخل عليها فقالت له: هل جئت بالكنافة؟ قال: نعم. ثم وضعها قدامها، فنظرت إليها فرأتها بعسل قصب فقالت له: أما قلت لك هايتها بعسل نحل؟ تعمل على خلاف مرادي وتعملها بعسل قصب؟! فاعتذرت إليها وقال لها: أنا ما اشتريتها إلا مؤجلاً ثمنها. فقالت: هذا كلامٌ باطلٌ، أنا ما أكل الكنافة إلا بعسل نحل. وغضبت عليه وضربته بها في وجهه، وقالت له: قم يا معرص هات لي غيرها. ولكمته في صدغه فقلعت سنّاً من أسنانه، ونزل الدم على صدره، ومن شدة الغيظ ضربها ضربةً واحدةً لطيفةً على رأسها، فقبضت على لحيته وصارت تصيح وتقول: يا مسلمين! فدخل الجيران وخلصوا لحيته من يدها، وقاموا عليها باللوم وعيَّبوها وقالوا: نحن كلنا في قبل أكل الكنافة التي بعسل القصب، ما هذا التجبّر على هذا الرجل الفقير؟! إن هذا عيبٌ عليك. ولا زالوا يلاطفونها حتى أصلحوا بينها وبينه، ولكنها بعد ذهاب الناس حلفت ما تأكل من الكنافة شيئاً، فأحرقه الجوع، فقال في نفسه: هي حلفت ما تأكل فأنا أكل. ثم أكل، فلما رآته يأكل صارت تقول له: إن شاء الله يكون أكلها سمّاً يهري بدن البعيد. فقال لها: ما هو بكلامك. وصار يأكل ويضحك ويقول: أنتِ حلفت ما تأكلين من هذه، فإني شاء الله في ليلة غدٍ أجيء لك بكنافة تكون بعسل نحلٍ وتأكلينها وحدك. وصار يأخذ بخاطرهما وهي تدعو عليه، ولم تزل تسبّه وتشتمه إلى الصباح.

فلما أصبح الصباح شمّرت عن ساعدها لضربه، فقال لها: أمهليني وأنا أجيء إليك بغيرها. ثم خرج إلى المسجد وصلى وتوجّه إلى الدكان وفتحها وجلس، فلم يستقرّ به الجلوس حتى جاءه اثنان من طرف القاضي وقالاه: قُمْ كَلِّمِ الْقَاضِي، فَإِنَّ امْرَأَتَكَ اشْتَكَاكَ إِلَيْهِ وَصَفَتْهَا كَذَا وَكَذَا. فعرفها وقال: الله تعالى ينگد عليها! ثم قام مشى معهما إلى أن دخل على القاضي، فرأى زوجته رابطة ذراعها وبرقعها ملوثٌ بالدم، وهي واقفة تبكي وتمسح دموعها. فقال له القاضي: يا رجل، ألم تخف من الله تعالى؟! كيف تضرب هذه الحرمة وتكسر ذراعها وتقلع سنّها وتفعل بها هذه الفعّال؟ فقال له: إن كنت ضربتها أو قلعت سنّها فاحكم فيّ بما تختار، وإنما القصة كذا وكذا، والجيران أصلحوا بيني وبينها. وأخبره بالقصة من الأول إلى الآخر، وكان ذلك القاضي من أهل الخير، فأخرج له ربع دينار وقال له: يا رجل، خذ هذا واعمل لها به كنافة بعسل نحل، واصطليح أنت وإياها. فقال له: أعطه لها. فأخذته وأصلح بينهما، وقال: يا امرأة، أطيعي زوجك، وأنت يا رجل، ترفق بها. وخرجا مصطححين على يد القاضي، وراحت المرأة من طريق وزوجها راح من طريقٍ آخر إلى

دكانه وجلس، وإذا بالرسل أتوا له وقالوا: هات خدمتنا. فقال لهم: إن القاضي لم يأخذ مني شيئاً، بل أعطاني ربع دينار. فقالوا: لا علاقة لنا بكون القاضي أعطاك أو أخذ منك، فإن لم تُعطينا خدمتنا أخذناها قهراً عنك. وصاروا يجرونه في السوق، فباع عدته وأعطاهم نصف دينار، ورجعوا عنه وحطّ يده على خده وقعد حزينا حيث لم يكن عنده عدّة يشتغل بها. فبينما هو قاعدٌ، وإذا برجلين قبيحي المنظر أقبلا عليه وقالا له: قم يا رجل كلّم القاضي، فإن زوجتك اشتكتك إليه. فقال لهما: قد أصلح بيني وبينها! فقالا له: نحن من عند قاضٍ آخر، فإن زوجتك اشتكتك إلى قاضينا. فقام معهما وهو يحتسب عليها، فلما رآها قال لها: أمّا اصطلاحنا يا بنت الحلال؟ فقالت: ما بقي بيني وبينك صلح. فتقدّم وحكى للقاضي حكايته وقال له: إن القاضي فلاناً أصلح بيننا في هذه الساعة. فقال لها القاضي: يا عاهرة، حيث اصطلحتما لماذا جئتِ تشكين إليّ؟ قالت: إنه ضربني بعد ذلك. فقال لهما القاضي: اصطلحا ولا تُعدّ إلى ضربها، وهي لا تعود إلى مخالفتك. فاصطلحا وقال له القاضي: أعطِ الرُّسل خدمتهم. فأعطى الرسل خدمتهم وتوجّه إلى الدكان وفتحها وقعد فيها وهو مثل السكران من الهمّ الذي أصابه. فبينما هو قاعدٌ، وإذا برجلٍ أقبل عليه وقال له: يا معروف، قُم واستخف، فإن زوجتك اشتكتك إلى الباب العالي، ونازل عليك أبو طبق. فقام وقفل الدكان وهرب في جهة باب النصر، وكان قد بقي معه خمسة أنصاف فضة من حق القوالب والعدة، فاشترى بأربعة أنصاف عيشاً وبنصفٍ جبناً وهو هارب منها، وكان ذلك في فصل الشتاء وقت العصر، فلما خرج بين الكيمان نزل عليه المطر مثل أفواه القُرَب، فابتلت ثيابه، فدخل العادلية فرأى موضعاً خرباً فيه حاصلٌ مهجورٌ من غير باب، فدخل يستكنُّ فيه من المطر وحوائجه مبتلةٌ بالماء، فنزلت الدموع من أجفانه وصار يتضجّر مما به ويقول: أين أهرب من هذه العاهرة؟ أسألك يا رب أن تقيّض لي مَنْ يوصلني إلى بلادٍ بعيدةٍ لا تعرف طريقي فيها. فبينما هو جالس يبكي، وإذا بالحاظ قد انشقّ وخرج له منها شخصٌ طويلُ القامة ورؤيته تقشعرُّ منها الأبدان، وقال له: يا رجل، ما لك أقلقنتني في هذه الليلة! أنا ساكنٌ في هذا المكان منذ مائتي عامٍ فما رأيتُ أحداً دخل هذا المكان وعمل مثل ما عملتِ أنت! فأخبرني بمقصودك وأنا أقضي حاجتك، فإن قلبي أخذته الشفقة عليك. فقال له: مَنْ أنت؟ وما تكون؟ فقال له: أنا عامر هذا المكان. فأخبره بجميع ما جرى له مع زوجته، فقال له: أتريد أن أوصلك إلى بلادٍ لا تعرف لك زوجتك فيها طريقاً؟ قال: نعم. قال له: اركب فوق ظهري. فركب وحمله وطار به من بعد العشاء إلى طلوع الفجر، وأنزله على رأس جبلٍ عالٍ. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن معروفًا الإسكافي لما حمله المارد طار به وأنزله على جبل عالٍ وقال: يا إنسي، انحدر من فوق هذا الجبل تر عتبة مدينة فادخلها، فإن زوجتك لا تعرف لك طريقًا، ولا يمكنها أن تصل إليك. ثم تركه وراح، فصار معروف باهتًا متحيرًا في نفسه إلى أن طلعت الشمس، فقال في نفسه: أقوم وأنزل من على هذا الجبل إلى المدينة، فإن قعودي هنا ليس فيه فائدة. فنزل إلى أسفل الجبل فرأى مدينة بأسوار عالية وقصور مشيدة وأبنية مزخرفة، وهي نزهة للناظرين، فدخل من باب المدينة فرأها تشرح القلب الحزين، فلما مشى في السوق صار أهل المدينة ينظرون إليه ويتفرجون عليه، واجتمعوا عليه وصاروا يتعجبون من ملبسه؛ لأن ملبسه لا يشبه ملابسهم. فقال له رجل من أهل المدينة: يا رجل، هل أنت غريب؟ قال: نعم. قال له: من أي البلاد؟ قال: من مدينة مصر السعيدة. قال له: ألك زمانٌ مفارقها؟ قال له: الباردة العصر. فضحك عليه وقال: يا ناس، تعالوا انظروا هذا الرجل واسمعوا ما يقول! فقالوا: ما يقول؟ قال: إنه يزعم أنه من مصر وخرج منها الباردة العصر. فضحكوا كلهم واجتمع عليه الناس وقالوا: يا رجل، أنت مجنون حتى تقول هذا الكلام؟ كيف تزعم أنك فارقت مصر بالأمس في وقت العصر وأصبحت هنا، والحال أن بين مدينتنا وبين مصر مسافة سنة كاملة؟ فقال لهم: ما مجنونٌ إلا أنتم، وأما أنا فإني صادقٌ في قولي، وهذا عيش مصر لم يزل معي طريًا! وأراهم العيش، فصاروا يتفرجون عليه ويتعجبون منه؛ لأنه لا يشبه عيش بلادهم، وكثر الخلّاق عليه وصاروا يقولون لبعضهم: هذا عيش مصر، تفرّجوا عليه. وصارت له شهرة في تلك المدينة، ومنهم ناسٌ يصدّقون وناسٌ يكذبون ويهزءون به.

فبينما هم في تلك الحالة، وإذا بتاجرٍ أقبل عليهم وهو راكبٌ بغلة وخلفه عبدان، ففرّق الناس وقال: يا ناس، أما تستحون وأنتم ملتئمون على هذا الرجل الغريب وتسخرون

منه وتضحكون عليه؟ ما علاقتكم به؟ ولم يزل يسبهم حتى طردهم عنه ولم يقدر أحد أن يرد عليه جواباً وقال له: تعال يا أخي، ما عليك بأس من هؤلاء، إنهم لا حياءَ عندهم. ثم أخذه وسار به إلى أن أدخله داراً واسعة مزخرفة، وأجلسه في مقعد ملوكي وأمر العبيد ففتحو له صندوقاً، وأخرجوا له بدلة تاجر ألفي وألبسه إياها، وكان معروف وجيهاً، فصار كأنه شاه بندر التجار. ثم إن ذلك التاجر طلب السفرة، فوضعوا قدامهما سفرة فيها جميع الأطعمة الفاخرة من سائر الألوان، فأكلا وشربا، وبعد ذلك قال له: يا أخي، ما اسمك؟ قال: اسمي معروف وصنعتي إسكافي أرقع الزرابين القديمة. قال له: من أي البلاد أنت؟ قال: من مصر. قال: من أي الحارات؟ قال له: هل أنت تعرف مصر؟ قال له: أنا من أولادها. فقال له: أنا من الدرب الأحمر. قال له: من تعرف من الدرب الأحمر؟ قال له: فلاناً وفلاناً. وعد له ناساً كثيرة. قال له: هل تعرف الشيخ أحمد العطار؟ قال: هو جاري الحيط في الحيط. قال له: هل هو طيب؟ قال: نعم. قال له: كم له من الأولاد؟ قال: ثلاثة؛ مصطفى، ومحمد، وعلي. قال له: ما فعل الله بأولاده؟ قال: أمّا مصطفى فإنه طيب، وهو عالمٌ مدرس. وأمّا محمد فإنه عطار، قد فتح له دكاناً بجانب دكان أبيه بعد أن تزوج وولدت له زوجته ولداً اسمه حسن. قال: بَشَّرَك الله بالخير. قال: وأمّا علي فإنه كان رفيقي ونحن صغار، وكنت دائماً أَلْعَبُ أنا وإياه، وبقينا نروح بصفة أولاد النصارى وندخل الكنيسة ونسرق كتب النصارى ونبيعها ونشتري بثمنها نفقة، فاتفق في بعض المرات أن النصارى رأونا ومسكونا بكتاب، فاشتكونا إلى أهلنا وقالوا لأبيه: إذا لم تمنع ولدك من أذانا شكوناك إلى الملك. فأخذ بخاطرهم وضربه علقه، فبهذا السبب هرب من ذلك الوقت ولم يعرف له طريقاً، وهو غائبٌ له عشرون سنة، ولم يخبر عنه أحدٌ بخبر. فقال له: هو أنا علي ابن الشيخ أحمد العطار، وأنت رفيقي يا معروف. وسلما على بعضهما.

وبعد السلام قال: يا معروف، أخبرني بسبب مجيئك من مصر إلى هذه المدينة. فأخبره بخبر زوجته فاطمة العرة وما فعلت معه، وقال له: إنه لما اشتد عليّ أذاها هربت منها في جهة باب النصر، ونزل عليّ المطر فدخلت في حائل خرب في العادلية، وقعدت أبكي، فخرج لي عامر المكان وهو عفريتٌ من الجن وسألني، فأخبرته بحالي، فأركبني على ظهره وطار بي طول الليل بين السماء والأرض، ثم حطني على الجبل وأخبرني بالمدينة، فنزلت من الجبل ودخلت المدينة، والتم الناس عليّ وسألوني فقلت لهم: إني طلعت البارحة من مصر فلم يصدقوني، فجئت أنت ومنعت عني الناس وجئت بي إلى هذه الدار، وهذا سبب خروجي من مصر. وأنت ما سبب مجيئك هنا؟ قال له: غلب عليّ الطيش وعمري

سبع سنين، فمن ذلك الوقت وأنا دائر من بلدٍ إلى بلد، ومن مدينةٍ إلى مدينة، حتى دخلت هذه المدينة واسمها اختيان الختن، فرأيت أهلها ناسًا كرامًا وعندهم الشفقة، ورأيتهم يأتُمون الفقير ويديّنونه، وكل ما قاله يصدّقونه فيه، فقلت لهم: أنا تاجر، وقد سبقتُ الحملة، ومرادي مكان أنزل فيه حملتي. فصدّقوني وأخلّوا لي مكانًا، ثم إنني قلت لهم: هل فيكم مَنْ يُدائنني ألف دينارٍ حتى تجيء حملتي وأردّ له ما آخذه منه؟ فإني محتاجٌ إلى بعض مصالح قبل دخول الحملة. فأعطوني ما أردتُ وتوجّهت إلى سوق التجار، فرأيت شيئًا من البضاعة فاشتريته، وفي ثاني يوم بعته فربحت فيه خمسين دينارًا، واشترت غيره، وصرت أعاشر الناس وأكرمهم فحبوني، وصرت أبيع وأشتري فكثرت مالي. واعلم يا أخي أن صاحب المثل يقول: الدنيا فشر وحيلة، والبلاد التي لا يعرفك أحدٌ فيها مهما شئت فافعل فيها. وأنت إذا قلت لكلّ مَنْ سألك: أنا صنعتي إسكافي وفقير وهربت من زوجتي والبارحة طلعت من مصر، فلا يصدّقونك، وتصير عندهم مسخرةً مدة إقامتك في هذه المدينة. وإن قلت: حملني عفريت. نفروا منك ولا يقرب منك أحدٌ، ويقولون: هذا رجلٌ معفرتٌ، وكلّ مَنْ تقرّب منه يحصل له ضررٌ. وتبقى هذه الإشاعة قبيحةً في حقي وحقك؛ لكونهم يعرفون أنني من مصر. قال: وكيف أصنع؟ قال: أنا أعلمك كيف تصنع، إن شاء الله تعالى أعطيك في غدٍ ألفَ دينار، وبغلةً تركبها، وعبداً يمشي قدامك حتى يوصلك إلى باب سوق التجار، فادخلْ عليهم وأكون أنا قاعدًا بين التجار، فمتى رأيتك أقوم لك وأسلم عليك وأقبل يدك وأعظم قدرك، وكلما سألتك عن صنفٍ من القماش قلت لك: هل جئتَ معك بشيء من الصنف الفلاني؟ فقل: كثيرٌ. وإن سألوني عنك أشكر وأعظمك في أعينهم، ثم إنني أقول لهم: خذوا له حاصلًا ودكانًا، وأصفك بكثرة المال والكرم، وإذا أتاك سائلٌ فأعطه ما تيسّر، فيثقون بكلامي ويعتقدون عظمتك وكرمك ويحبونك، وبعد ذلك أعزمك وأعزم جميع التجار من شأنك، وأجمع بينك وبينهم حتى يعرفوك جميعهم وتعرفهم. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن التاجر عليًا قال لمعروف: أعزمك وأعزم جميع التجار من شأنك، وأجمع بينك وبينهم حتى يعرفوك جميعهم وتعرفهم؛ لأجل أن تباع وتشتري وتأخذ وتعطي معهم، فما تمضي عليك مدة حتى تصير صاحب مال. فلما أصبح الصباح أعطاه ألف دينار، وألبسه بدلة، وأركبه بغلة، وأعطاه عبداً، وقال: أبرا الله ذمتك من الجميع لأنك رفيقي، فواجب عليّ إكرامك، ولا تحمل همًا، ودع عنك سيرة زوجتك ولا تذكرها لأحد. فقال له: جزاك الله خيراً. ثم إنه ركب البغلة ومشى قدامه العبد إلى أن أوصله إلى باب سوق التجار، وكانوا جميعاً قاعدين والتاجر عليٌّ قاعد بينهم، فلما رآه قام ورمى روحه عليه وقال له: نهار مبارك يا تاجر معروف، يا صاحب الخيرات والمعروف. ثم قبل يده قدام التجار وقال: يا إخواننا، أنسكم التاجر معروف، فسلموا عليه. وصار يشير لهم بتعظيمه، فعظم في أعينهم، ثم أنزله من فوق ظهر البغلة، وسلموا عليه، وصار يختلي بواحد بعد واحد منهم ويشكره عنده، فقالوا له: هل هذا تاجر؟ فقال لهم: نعم، بل هو أكبر التجار، ولا يوجد واحد أكثر مالاً منه؛ لأن أمواله وأموال أبيه وأجداده مشهورة عند تجار مصر، وله شركاء في الهند والسند واليمن، وهو في الكرم على قدر عظيم، فاعرفوا قدره وارفعوا مقامه وخدموه واعلموا أن مجيئه إلى هذه المدينة ليس من أجل التجارة، وما مقصده إلا الفرجة على بلاد الناس؛ لأنه غير محتاج إلى التغرّب من أجل الربح والمكاسب؛ لأن عنده أموالاً لا تأكلها النيران، وأنا من بعض خدّمه.

ولم يزل يشكره حتى جعلوه فوق رؤوسهم، وصاروا يخبرون بعضهم بصفاته. ثم اجتمعوا عنده وصاروا يهادونه بالفطورات والشربات حتى شاه بندر التجار أتى له وسلم عليه وصار يقول له التاجر علي بحضرة التجار: يا سيدي، لعلك جئت معك بشيء من القماش الفلاني. فيقول له: كثير. وكان في ذلك اليوم فرّجه على أصناف القماش المثمنة،

وعرفه أسامي الأقمشة، الغالي والرخيص. فقال له تاجرٌ من التجار: يا سيدي، هل جئتَ معك بجوخٍ أصفر؟ قال: كثيرٌ. قال: وأحمر دم غزال؟ قال: كثيرٌ. وصار كلما سأله عن شيءٍ يقول له: كثيرٌ. فعند ذلك قال: يا تاجر علي، إن بليديك لو أراد أن يحمل ألف حمل من القماشات المثمنة يحملها. فقال له: يحملها من حاصلٍ من جملة حواصله، ولا ينقص منه شيءٌ.

فبينما هم قاعدون وإذا برجلٍ سائلٍ دارَ على التجار، فمنهم من أعطاه نصف فضة، ومنهم من أعطاه جديداً، وغالبهم لم يعطيه شيئاً، حتى وصل إلى معروف، فكبش له كبشة ذهبٍ وأعطاه إياها، فدعا له وراح، فتعجَّب التجار من ذلك وقالوا: إن هذه عطايا ملوك؛ فإنه أعطى السائل ذهباً من غير عِدٍ، ولولا أنه من أصحاب النعم الجزيلة وعنده شيءٌ كثيرٌ ما كان أعطى السائل كبشة ذهبٍ. وبعد حصّة أتنه امرأة فقيرة، فكبش وأعطاهها وذهبت تدعو له وحكت للفقراء، فأقبلوا عليه واحداً بعد واحد، وصار كل من أتى له يكبش ويعطيه حتى أنفق الألف دينار، وبعد ذلك ضرب كفّاً على كفٍّ وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال له شاه بندر التجار: ما لك يا تاجر معروف؟ قال: كأنَّ غالبَ أهل هذه المدينة فقراء ومساكين! ولو كنت أعرف أنهم كذلك كنتُ جئتُ معي في الخرج بجانب من المال وأحسن به إلى الفقراء، وأنا خائفٌ أن تطول غربتي، ومن طبعي أني لا أردّ السائل، ولم يبق معي ذهب، فإذا أتاني فقيرٌ ماذا أقول له؟ قال له: قل له الله يرزقك. قال: ما هي عادتي، وقد ركبني الهمُّ بهذا السبب، وكان مرادي ألف دينارٍ أتصدّق بها حتى تجيء حملتي. فقال: لا بأس. وأرسلَ بعض أتباعه فجاء له بألف دينار، فأعطاه إياها، فصار يعطي كلَّ من مرَّ به من الفقراء حتى أذن الظهر، فدخلوا الجامع وصلوا الظهر، والذي بقي معه من الألف دينارٍ نثره على رءوس المصلين، فانتبه له الناس وصاروا يدعون له، وصارت التجار تتعجَّب من كثرة كرمه وسخائه. ثم إنه مال على تاجرٍ آخر وأخذ منه ألف دينار وفرَّقها، وصار التاجر عليٌّ ينظر فعله ولا يقدر أن يتكلم، ولم يزل على هذه الحالة حتى أذن العصر، فدخل المسجد وصلى وفرَّق الباقي، فما قفلوا باب السوق حتى أخذ خمسة آلاف دينار وفرَّقها، وكل من أخذ منه شيئاً يقول له: حتى تجيء الحملة، إن أردت ذهباً أعطيك، وإن أردت قماشاً أعطيك؛ فإن عندي شيئاً كثيراً. وعند المساء عزمه التاجر علي، وعزم معه التجار جميعاً، وأجلسه في الصدر، وصار لا يتكلم إلا بالقماشات والجواهر، وكلما ذكروا له شيئاً يقول: عندي منه كثيرٌ. وثاني يومٍ توجّه إلى السوق وصار يميل على التجار ويأخذ منهم الأموال ويفرّقها على الفقراء.

ولم يزل على هذه الحالة مدة عشرين يومًا، حتى أخذ من الناس ستين ألف دينار ولم تأتِه حملة ولا كبة حامية. فضجَّت الناس على أموالهم وقالوا: ما أتت حملة التاجر معروف، وإلى متى وهو يأخذ أموال الناس ويعطيها للفقراء؟ فقال واحدٌ منهم: الرأي أن نتكلَّم مع بلديه التاجر علي. فأتوه وقالوا له: يا تاجر علي، إن حملة التاجر معروف لم تأت. فقال لهم: اصبروا؛ فإنها لا بد أن تأتي عن قريب. ثم إنه اختلَى به وقال له: يا معروف، ما هذه الفعال؟ هل أنا قلت لك قَمَر الخبز أو أحرقة؟ إن التجار ضجوا على أموالهم، وأخبروني أنه صار عليك ستون ألف دينار أخذتها وفرَّقتها على الفقراء، ومن أين تسدُّ دَيْن الناس وأنت لا تبيع ولا تشتري؟ فقال له: أي شيء يجري؟ وما مقدار الستين ألف دينار؟ لما تجيء الحملة أعطيهم إن شاءوا قماشًا وإن شاءوا ذهبًا وفضة. فقال له التاجر علي: الله أكبر! وهل أنت لك حملة؟ قال: كثير. قال له: الله، والرجال عليك وعلى سماجتك! هل أنا علمتك هذا الكلام حتى تقوله لي؟ فأنا أخبر بك الناس. قال: رُحْ بلا كثرة كلام، هل أنا فقير؟ إنَّ حملتي فيها شيء كثير؛ فإذا جاءت يأخذون متاعهم المثل مثليين، أنا غير محتاج إليهم. فعند ذلك اغتاظ التاجر علي وقال له: يا قليل الأدب، لا بد أن أريك كيف تكذب علي ولا تستحي. فقال له: الذي يخرج من يدك افعله، ويصبرون حتى تجيء حملتي ويأخذون متاعهم بزيادة. فتركه وراح وقال في نفسه: أنا شكرته سابقًا، وإنَّ ذممتُه الآن صرتُ كاذبًا وأدخل في قول مَنْ قال: مَنْ شكر وذم، كذَّب مرتين. وصار متحيرًا في أمره، ثم إنَّ التجار أتوه وقالوا: يا تاجر علي، هل كلَّمته؟ قال لهم: يا ناس، أنا أستحي منه، ولي عنده ألف دينار، ولم أقدر أن أكلمه عليها، وأنتم لما أعطيتموه ما شاورتموني، وليس لكم عليّ كلام، فطالبوه منكم له، وإن لم يعطكم فاشكوه إلى ملك المدينة وقولوا له: إنه نصاب، نصب علينا. فإنَّ الملك يخلِّصكم منه. فراحوا للملك وأخبروه بما وقع وقالوا: يا ملك الزمان، إننا تحيَّرنَا في أمرنا مع هذا التاجر الذي كرمه زائد؛ فإنه يفعل كذا وكذا، وكل شيء أخذه يفرِّقه على الفقراء بالكبشة، فلو كان مقلًا ما كانت تسمح نفسه أن يكبش الذهب ويعطيه للفقراء، ولو كان من أصحاب النعم كان صدَّقه ظهر لنا بمجيء حملته، ونحن لا نرى له حملة مع أنه يدَّعي أن له حملة وقد سبقها، وكلما ذكرنا له صنفاً من أصناف القماش يقول: عندي منه كثير. وقد مضت مدة ولم يُبَيِّن عن حملته خبر، وقد صار لنا عنده ستون ألف دينار، وكل ذلك فرَّقه على الفقراء. وصاروا يشكرونه ويمدحون كرمه. وكان ذلك الملك طمَّاعًا، أطمع من أشعب، فلما سمع بكرمه وسخائه غلب عليه الطمع، وقال لوزيره: لو لم يكن هذا التاجر عنده أموال كثيرة

ما كان يقع منه هذا الكرم كله، ولا بد أن تأتي حملته ويجتمع هؤلاء التجار عنده ويبعثر عليهم أموالاً كثيرة، فأنا أحقُّ منهم بهذا المال، فمرادي أن أعاشره وأتودّد إليه حتى تأتي حملته، والذي يأخذه منه هؤلاء التجار آخذه أنا وأزوّجه ابنتي، وأضمّ ماله إلى مالي. فقال له الوزير: يا ملك الزمان، ما أظنه إلا نصّاباً، والنصّاب قد أخرب بيت الطمّاع. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكّنتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما قال للملك: ما أظنه إلا نصَّابًا، والنصَّاب قد أخرب بيت الطَّمَّاع. قال له الملك: يا وزير، أنا أمتحنه وأعرف هل هو نصَّابٌ أو صادقٌ، وهل هو تربية نعمة أو لا! قال الوزير: بماذا تمتحنه؟ قال الملك: إن عندي جوهرة، فأنا أبعث إليه وأحضره عندي، وإذا جلس أكرمه وأعطيه الجوهرة، فإن عرفها وعرف ثمنها يكون صاحب خيرٍ ونعمٍ، وإن لم يعرفها فهو نصَّابٌ محدث، فأقتله أقبح قُتلة. ثم إن الملك أرسل إليه وأحضره، فلما دخل عليه سلَّم عليه، فردَّ عليه السلام وأجلسه إلى جانبه وقال له: هل أنت التاجر معروف؟ قال: نعم. قال له: إن التاجر يزعمون أن لهم عندك ستين ألف دينارٍ، فهل ما يقولونه حق؟ قال: نعم. قال له: لمَ لم تُعْطِهِم أموالهم؟ قال: يصبرون حتى تجيء حملتي وأعطيتهم المثل مثلين، وإن أرادوا ذهبًا أعطيتهم، وإن أرادوا فضةً أعطيتهم، وإن أرادوا بضاعةً أعطيتهم، والذي له ألفُ أعطيه ألفين في نظير ما ستر به وجهي مع الفقراء، فإن عندي شيئًا كثيرًا. ثم إن الملك قال له: يا تاجر، خذ هذه وانظر ما جنسها وما قيمتها. وأعطاه جوهرةً قدر البندقة كان الملك اشتراها بألف دينارٍ، ولم يكن عنده غيرها، وكان مستعزًّا بها، فأخذها معروف بيده وقرط عليها بالإبهام والشاهد فكسرها؛ لأن الجواهر رقيق لا يتحمل. فقال له الملك: لأي شيء كسرت الجوهرة؟ فضحك وقال: يا ملك الزمان، ما هذه جوهرة! هذه قطعة معدن تساوي ألف دينارٍ، كيف تقول عليها إنها جوهرة؟ إن الجوهرة يكون ثمنها سبعين ألف دينارٍ، وإنما يقال على هذه: قطعة معدن. والجوهرة ما لم تكن قدر الجوزة فلا قيمة لها عندي ولا أعطني بها. كيف تكون مَلِكًا وتقول على هذه جوهرة وهي قطعة معدنٍ قيمتها ألف دينارٍ؟ ولكن أنتم معذورون لكونكم فقراء وليس عندكم ذخائر لها قيمة. فقال له الملك: يا تاجر، هل عندك

جواهر من الذي تخبر به؟ قال: كثيرٌ. فغلب الطمع على الملك، فقال له: هل تعطيني جواهر صحاحاً؟ قال له: حتى تجيء الحملة أعطيك كثيراً، ومهما طلبته فعندي منه كثيرٌ، وأعطيك من غير ثمن. ففرح الملك وقال للتجار: روحوا إلى حال سبيلكم، واصبروا عليه حتى تجيء الحملة، ثم تعالوا خذوا مالكم مني. فراحوا.

هذا ما كان من أمر معروف والتجار، وأمّا ما كان من أمر الملك، فإنه أقبل على الوزير وقال له: لأطف التاجر معروفاً وخذ وأعطِ معه في الكلام، واذكر له ابنتي حتى يتزوَّج بها ونغتنم هذه الخيرات التي عنده. فقال الوزير: يا ملك الزمان، إن حال هذا الرجل لم يعجبني، وأظن أنه نصابٌ وكذابٌ، فاترك هذا الكلام لئلا تضيع بنتك بلا شيء. وكان الوزير سابقاً على الملك أن يزوجه البنت، وأراد زواجها له، فلما بلغها ذلك لم ترض. ثم إن الملك قال له: يا خائن، أنت لا تريد لي خيراً لكونك خطبت ابنتي سابقاً ولم ترض أن تتزوَّج بك، فصرت الآن تقطع طريق زواجها، ومرادك أن ابنتي تبور حتى تأخذها أنت! فاسمع مني هذه الكلمة، ليس لك علاقة بهذا الكلام، كيف يكون نصاباً كذاباً مع أنه عرف ثمن الجوهرة مثل ما اشتريتها به، وكسرهما لكونها لم تعجبه وعنده جواهر؟ فمتى دخل على ابنتي يرهما جميلة فتأخذ عقله ويحبها ويُعطيها جواهر وذخائر، وأنت مرادك أن تحرم ابنتي وتحرمني من هذه الخيرات. فسكت الوزير وخاف من غضب الملك عليه، وقال في نفسه: أغر الكلاب على البقر. ثم ميّل على التاجر معروف وقال له: إن حضرة الملك حبك، وله بنت ذات حُسن وجمال يريد أن يزوجه لك، فما تقول؟ فقال له: لا بأس، ولكن يصبر حتى تأتي حملتي، فإن مهر بنات الملوك واسع، ومقامهن ألا يُمَهَّرْنَ إلا بمهرٍ يناسب حالهن، وفي هذه الساعة ما عندي مال، فليصبر عليّ حتى تجيء الحملة، فالخير عندي كثير، ولا بد أن أدفع صداقها خمسة آلاف، وأحتاج إلى ألف كيس أفرّقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة، وألف كيس أعطيها للذين يمشون في الرِّفّة، وألف كيس أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم، وأحتاج إلى مائة جوهرة أعطيها للملكة صبيحة العُرس، ومائة جوهرة أفرّقها على الجوّاري والخدم، فأعطي كل واحدة جوهرة تعظيماً لمقام العروسة. وأحتاج إلى أن أكسي ألف عريانٍ من الفقراء، ولا بد من صدقات، وهذا شيء لا يمكن إلا إذا جاءت الحملة، فإن عندي شيئاً كثيراً، وإذا جاءت الحملة لا أبالي بهذا المصروف كله. فراح الوزير وأخبر الملك بما قاله، فقال الملك: حيث كان مراده ذلك، كيف تقول عنه إنه نصابٌ كذابٌ؟ قال الوزير: ولم أزل أقول ذلك. ففرع فيه الملك ووبّخه وقال له: وحياء رأسي، إن لم تترك هذا الكلام لأقتلنك! فارجع إليه وهاتِه عندي،

وأنا مني له أصطفل. فراح إليه الوزير وقال: تعالَ كُلُّم الملك. فقال: سمعًا وطاعةً. ثم جاء إليه، فقال له الملك: لا تعتذرُ بهذه الأعذار، فإنَّ خزنتي ملائنة، فخذ المفاتيح عندك وأنفقْ جميع ما تحتاج إليه، وأعطِ ما تشاء، واكسُ الفقراء وافعل ما تريد، وما عليك من البنت والجواري، وإذا جاءت حملتك فاعمل مع زوجتك ما تشاء من الإكرام، ونحن نصبر عليك بصداقتها حتى تجيء الحمله، وليس بيني وبينك فرقٌ أبدًا.

ثم أمر شيخ الإسلام أن يكتب الكتاب، فكتب كتاب بنت الملك على التاجر معروف، وشرع في عمل الفرخ، وأمر بزيئة المدينة، ودُقَّت الطبول ومُدَّت الأظعمة من سائر الألوان، وأقبلت أرباب الملاعب، وصار التاجر معروف يجلس على كرسي في مقعدٍ، وتأتي قدامه أرباب الملاعب والشطار والجنك وأرباب الحركات الغربية والملاهي العجيبة، وصار يأمر الخازندار ويقول له: هاتِ الذهب والفضة. فيأتيه بالذهب والفضة، وصار يدور على المتفرجين ويعطي كل من لعب بالكبشة ويحسن للفقراء والمساكين، ويكسو العريانيين، وصار فرحًا عاجًا. وما بقي الخازندار يلحق أن يجيء بالأموال من الخزنة، وكاد قلب الوزير أن ينفقع من الغيظ، ولم يقدر أن يتكلم، وصار التاجر عليُّ يتعجب من بذل هذه الأموال ويقول للتاجر معروف: الله والرجال على صدغك! أمَّا كفاك أن أضعت مال التجار حتى تضيع مال الملك؟ فقال له التاجر معروف: لا علاقة لك، وإذا جاءت الحمله أعوض ذلك على الملك بأضعافه. وصار يبذد في الأموال ويقول في نفسه: كبةٌ حامية، فالذي يجري يجري والمقدَّر ما منه مفر. ولم يزل الفرخ مدة أربعين يومًا، وفي اليوم الحادي والأربعين عملوا الزفة للعروسة ومشى قدامها جميع الأمراء والعساكر، ولما دخلوا بها صار ينثر الذهب على رءوس الخلائق، وعملوا لها زفةً عظيمةً، وصرف أموالاً لها مقدار عظيم، وأدخلوه على الملكة فقعد على المرتبة العالية، وأرخوا الستائر وقفلوا الأبواب وخرجوا وتركوه عند العروسة، فخبط يدًا على يدٍ وقعد حزينًا مدةً وهو يضرب كفًا على كفٍ ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقالت له الملكة: يا سيدي، سلامتك، ما لك مغمومًا؟ فقال: كيف لا أكون مغمومًا وأبوك قد شوَّش عليَّ وعمل معي عملةً مثل حرق الزرع الأخضر؟! قالت: وما عمل معك أبي؟ قل لي. قال: أدخلني عليك قبل أن تأتي حملتي، وكان مرادي أقل ما يكون مائة جوهرة أفرَّقها على جواريك، لكل واحدة جوهرة تفرح بها وتقول: إن سيدي أعطاني جوهرةً في ليلة دخلته على سيدتي. وهذه الخصلة كانت تعظيمًا لمقامك وزيادةً في شرفك، فإني لا أقصر ببذل الجواهر؛ لأن عندي منها كثيرًا. فقالت له: لا تهتم بذلك، ولا تغم نفسك بهذا السبب، أما أنا فما عليك مني؛

لأنني أصبر عليك حتى تجيء الحملة، وأمّا الجوّاري فما عليك منهم. قم اقلع ثيابك واعمل انبساطاً، ومتى جاءت الحملة فإننا لاحقون على تلك الجواهر وغيرها. فقام وقلع ما كان عليه من الثياب، وجلس على الفراش وطلب النغاش ووقع الهراش، وحنطاً يده على ركبتيها، فجلست هي في حجره وألصقت شفتها في فمه، وصارت هذه الساعة تنسي الإنسان أباه وأمه، فحضنها وضمها إليه وعصرها في حضنه، وضمها إلى صدره ومصّ شفتها حتى سال العسل من فمها، ووضع يده من تحت إبطها الشمال، فحنّت أعضاؤه وأعضاؤها للوصل، ولكزها بين النهدين فراحت بين الفخذين، وتحزّمت بالساقين ومارس العملين ونادى: يا أبا اللثامين! وحنطاً الذخيرة وأشعل الفتيل، وحرّر على بيت الإبرة وأعطى النار، فخسف البرج من الأربعة أركان، وحصلت النكتة التي لا يسأل عنها، وزعقت الزعقة التي لا بد منها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بنت الملك لما زعقت الزعقة التي لا بد منها، أزال التاجر معروف بكارتها، وصارت تلك الليلة لا تُعد من الأعمار؛ لاشتغالها على وصل الملاح من عناقٍ وهراشٍ ومص ورضع إلى الصباح، ثم دخل الحمام ولبس بدلةً من ملابس الملوك، وطلع من الحمام ودخل ديوان الملك، فقام له مَنْ فيه على الأقدام، وقابلوه بإعزازٍ وإكرامٍ، وهنّوه وباركوا له، وجلس بجانب الملك وقال: أين الخازندار؟ فقالوا: ها هو حاضر بين يديك. قال: هاتِ الخلع وألبس جميع الوزراء والأمراء وأرباب المناصب. فجاء له بجميع ما طلب، وجلس يعطي كلَّ مَنْ أتى له، ويهبُ لكل إنسانٍ على قدر مقامه، واستمرَّ على هذه الحالة مدة عشرين يومًا، ولم يَظهر له حملة ولا غيرها. ثم إن الخازندار تضايق منه غاية الضيق، ودخل على الملك في غياب معروفٍ، وكان الملك جالسًا هو والوزير لا غير، فقبَّل الأرض بين يديه وقال: يا ملك الزمان، أنا أُخبرك بشيءٍ؛ لأنك ربما تلومني على عدم الإخبار به. اعلم أن الخزنة فرغت ولم يبقَ فيها شيء من المال إلا القليل، وبعد عشرة أيام نقفلها على الفارغ. فقال الملك: يا وزير، إن حملة نسيبي تأخَّرت ولم يَبْنُ عنها خبر. فضحك الوزير وقال له: الله يلطف بك يا ملك الزمان، ما أنت إلا مغفلٌ عن فعل هذا النصاب الكذاب، وحياة رأسك إنه لا حملة له ولا كبة تريحننا منه، وإنما هو لم يزل ينصب عليك حتى أتلَفَ أموالك وتزوَّج بنتك بلا شيء، وإلى متى وأنت غافل عن هذا الكذاب؟ فقال له: يا وزير، كيف العمل حتى نعرف حقيقة حاله؟ فقال: يا ملك الزمان، لا يطلُّع على سر الرجل إلا زوجته، فأرسل إلى بنتك لتأتي خلف الستارة حتى أسألها عن حقيقة حاله؛ لأجل أن تختبره وتُطلعنا على طبيعة حاله. فقال: لا بأس بذلك، وحياة رأسي إن ثبت أنه نصابٌ كذابٌ لأقتلنَّه أشأمَ قتلَةٍ!

ثم إنه أخذ الوزير ودخل به إلى قاعة الجلوس، وأرسل إلى بنته فأنت خلف الستارة، وكان ذلك في غياب زوجها، فلما أتت قالت: يا أبي، ما تريده؟ قال: كلمي الوزير. قالت: أيها الوزير، ما بالك؟ قال: يا سيدتي، اعلمي أن زوجك أتلف مال أبيك، وقد تزوّج بك بلا مهر، وهو لم يزل يّعِدُّنا ويخلف الميعاد، ولم يَبِنْ لحملته خبر، وبالجملّة نريد أن نخبرينا عنه. فقالت: إن كلامه كثير، وهو في كل وقتٍ يجيء ويَعِدُّني بالجواهر والذخائر والقماشات المثلثة، ولم أرَ شيئاً. فقال: يا سيدتي، هل تقدرين في هذه الليلة أن تأخذي وتعطي معه في الكلام وتقولي له: أخبرني بالصحيح ولا تخف من شيء، فإنك صرت زوجي ولا أفرط فيك، فأخبرني بحقيقة الأمر وأنا أدبر لك تدبيراً ترتاح به. ثم قربي وبعدي له في الكلام، وأريه المحبة وقرّريه، ثم بعد ذلك أخبرينا بحقيقة أمره. فقالت: يا أبت، أنا أعرف كيف أختبره. ثم إنها ذهبت، وبعد العشاء دخل عليها زوجها معروف على جري عادته، فقامت له وأخذته من تحت إبطه، وخادعته خادعاً زائداً، وناهيك بمُخَادَعَةِ النساء إذا كان لهنَّ عند الرجال حاجةٌ يُرَدُّنَ قضاءها. وما زالت تخادعه وتلاطفه بكلامٍ أحلى من العسل حتى سرقت عقله، فلما رآته مال إليها بكليته قالت له: يا حبيبي، يا قرّة عيني، يا ثمرة فؤادي، لا أوحش الله ولا فرّق الزمان بيني وبينك، فإن محبتك سكنت فؤادي، وثار غرامك أحرقت أكبادي، وليس فيك تفریط أبداً، ولكن مرادي أن تخبرني بالصحيح؛ لأن حيل الكذب غير نافعة، لا تنطلي في كل الأوقات، وإلى متى وأنت تنصب وتكذب على أبي؟! وأنا خائفة أن يفتضح أمرك عنده قبل أن ندبر له حيلةً فيببطش بك. فأخبرني بالصحيح، وما لك إلا ما يسرك، ومتى أخبرتني بحقيقة الأمر فلا تخش من شيء يضرك، فكم تدعي أنك تاجرٌ وصاحب أموالٍ ولك حملةٌ، وقد مضت لك مدة طويلة وأنت تقول: حملتي حملتي، ولم يَبِنْ عن حملتك خبر، ويلوح على وجهك الهم بهذا السبب، فإن كان كلامك ليس له صحة فأخبرني وأنا أدبر لك تدبيراً تخلص به إن شاء الله. فقال لها: يا سيدتي، أنا أخبرك بالصحيح، ومهما أردت فافعلي. فقالت: قلّ وعليك بالصدق؛ فإن الصدق سفينة النجاة، وإياك والكذب؛ فإنه يفضح صاحبه، والله درٌّ من قال:

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ وَلَوْ أَنَّهُ أَحْرَقَكَ عَمْدًا بِنَارِ الْوَعِيدِ
وَأَبْغِ رِضًا لِلَّهِ فَأَغْبَى الْوَرَى مَنْ أَسْخَطَ الْمُؤَلَى وَأَرْضَى الْعَبِيدِ

فقال: يا سيدتي، اعلمي أنني لست تاجرًا، ولا لي حملة ولا كبة حامية، وإنما كنتُ في بلادِي رجلًا إسكافيًا، ولي زوجة اسمها فاطمة العرّة، وجرى لي معها كذا وكذا ... وأخبرها

بالحكاية من أولها إلى آخرها. فضحكت وقالت: إنك ماهرٌ في صناعة الكذب والنصب. فقال: يا سيدتي، الله تعالى يبيِّك لستر العيوب وفك الكروب. فقالت: أعلم أنك نصبت على أبي وغررتَه بكثرة فشرك حتى زوّجني بك من طمعه، ثم أتلّفت ماله، والوزير مُنكر ذلك عليك، وكم مرة يتكلّم فيك عند أبي ويقول له: إنه نصّابٌ كذّابٌ. ولكن أبي لم يُطعه فيما يقول بسبب أنه كان خطبني وأنا لم أرض به أن يكون لي بَعْلًا وأكون له أهلاً، ثم إن المدة طالت، وقد تضايق أبي وقال لي: قرّريه. وقد قرّرتك وانكشف المغطّى، وأبي مصرٌّ لك على الضرر بهذا السبب، ولكنك صرت زوجي وأنا لا أفرط فيك، فإن أخبرت أبي بهذا الخبر ثبت عنده أنك نصّابٌ كذّابٌ، وقد نصبت على بنات الملوك وأذهبت أموالهم، فذنبك عنده لا يُغتفر، ويقتلك بلا محالة، ويشيع بين الناس أنني تزوّجتُ برجلٍ نصّابٍ كذّابٍ، وتكون فضيحة في حقي، وإذا قتلك أبي ربما يحتاج إلى أن يزوّجني إلى آخر، وهذا شيء لا أقبله ولو مت، ولكن قم الآن والبس بدلة مملوك، وخذ معك خمسين ألف دينارٍ من مالي، واركب على جوادٍ وسافر إلى بلاد يكون حكم أبي لا ينفذ فيها، واعمل تاجرًا هناك واكتب لي كتابًا وأرسله مع ساعٍ يأتيني به خفيةً لأعلم في أي البلاد أنت، حتى أرسلَ إليك كل ما طالته يدي ويكثر مالك، فإن مات أبي أرسلت إليك فتجيء بإعزازٍ وإكرامٍ، وإذا مت أنت أو مت أنا إلى رحمة الله تعالى، فالقيامة تجمعنا، وهذا هو الصواب، وما دمت طيبًا وأنا طيبة فلا أقطع عنك المراسلة والأموال. قم قبل أن يطلع النهار عليك وتحتار ويحيط بك الدمار.

فقال لها: يا سيدتي، أنا في عرضك أن تودّعيني بوصالك. فقالت: لا بأس. ثم واصلها واغتسل ولبس بدلة مملوك، وأمر السُّيَّاس أن يشدّوا له جواده من الخيل الجياد، فشدوا له جوادًا، ثم ودّعها وخرج من المدينة في آخر الليل وسار، فصار كل من رآه يظن أنه مملوكٌ من مماليك السلطان مسافرٌ في قضاء حاجة. فلما أصبح الصباح جاء أبوها هو والوزير إلى قاعة الجلوس، وأرسل إليها أبوها فأتت خلف الستارة، فقال لها أبوها: يا بنتي، ما تقولين؟ قالت: أقول: سوّد الله وجه وزيرك؛ فإنه كان مراده أن يسوّد وجهي مع زوجي. قال: وكيف ذلك؟ قالت: إنه دخل عليّ أمس قبل أن أذكر له هذا الكلام، وإذا بفرج الطواشي جاء عليّ ويده كتابٌ وقال: إن عشرة مماليك واقفون تحت شبك القصر، وأعطوني هذا الكتاب وقالوا لي: قبّل لنا أيادي سيدي معروف وأعطه هذا الكتاب؛ فإننا من مماليكه الذين مع الحملة، وقد بلغنا أنه تزوّج بنت الملك فأتينا له لنخبره بما حلّ بنا في الطريق. فأخذتُ الكتاب وقرأته فرأيت فيه: «من المماليك الخمسمائة إلى حضرة سيدنا

التاجر معروف. وبعد؛ فالذي نعلمك به أنك بعدما فتّنا خرج العرب علينا وحاربونا وهم قدر ألفين من الفرسان ونحن خمسمائة مملوك، ووقع بيننا وبين العرب حربٌ عظيمة، ومنعونا عن الطريق، ومضى لنا ثلاثون يومًا ونحن نحاربهم، وهذا سبب تأخيرنا عنك...» وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بنت الملك قالت لأبيها: إن زوجي جاءه مكتوبٌ من أتباعه مضمونه: «إن العرب منعونا عن الطريق، وهذا سبب تأخيرنا عنك، وقد أخذوا منا مائتي حمل قماش من الحملة، وقتلوا منا خمسين مملوكًا». فلما بلغه الخبر قال: خيِّبهم الله! كيف يتحاربون مع العرب لأجل مائتي حمل بضاعة؟ وما مقدار مائتي حمل؟ فما كان ينبغي لهم أن يتأخروا من أجل ذلك، فإن قيمة المائتي حمل سبعة آلاف دينار، ولكن ينبغي أن أروح إليهم وأستعجلهم، والذي أخذه العرب لا تنقص به الحملة ولا يؤثرٌ عندي شيئًا، وأقدرُ أنني تصدّقتُ به عليهم. ثم نزل من عندي ضاحكًا ولم يُغمَّ على ما ضاع من ماله ولا على قتل مماليكه، ولما نزل نظرتُ من شبك القصر فرأيت العشرة ممالك الذين أتوا له بالكتاب كأنهم الأقمار؛ كل واحدٍ منهم لابس بدلة تساوي ألف دينار، وليس عند أبي مملوكٍ يشبه واحدًا منهم. ثم توجهَ مع الممالك الذين جاءوا له بالمكتوب ليجيء بحملته، والحمد لله الذي منعني أن أذكر له شيئًا من هذا الكلام الذي أمرتني به؛ فإنه كان يستهزئ بي وبك، وربما كان يراني بعين النقص ويبغضني، ولكن العيب كله من وزيرك الذي يتكلم في حق زوجي كلامًا لا يليق به. فقال الملك: يا بنتي، إن مال زوجك كثير، ولا يفكر في ذلك، ومن يوم دخل بلادنا وهو يتصدّق على الفقراء، وإن شاء الله عن قريب يأتي بالحملة ويحصل لنا منه خيرٌ كثيرٌ. وصار يأخذ بخاطرها ويوبّخ الوزير، وانطلت عليه الحيلة.

هذا ما كان من أمر الملك، وأما ما كان من أمر التاجر معروف، فإنه ركب الجواد وسار في البر الأقفر وهو متحير لا يدري إلى أي البلاد يروح، وصار من ألم الفراق ينوح، وقاسى الوجد واللوعات، وأنشد هذه الأبيات:

غَدَرَ الزَّمَانُ بِشَمْلِنَا فَتَفَرَّقَا
وَالْعَيْنُ تَقْطُرُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّتِي
يَا طَلْعَةَ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ أَنَا الَّذِي
يَا لَيْتَنِي لَمْ أَجْتَمِعْ بِكَ سَاعَةً
مَا زَالَ مَعْرُوفٌ بِدُنْيَا مُغْرَمًا
يَا بَهْجَةَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ أَذْرِكِي
يَا هَلْ تَرَى الْأَيَّامَ تَجْمَعُ شَمْلَنَا
وَيَضُمُّنَا قَصْرَ الْحَبِيبَةِ بِالْهَنَا
يَا طَلْعَةَ الْبَدْرِ الْمُنِيرَةِ شَمْسُهُ
إِنِّي لَرَاضٍ بِالْغَرَامِ وَهَمِّهِ
وَالْقَلْبُ ذَابَ مِنَ الْجَفَا وَتَحَرَّقَا
هَذَا الْفِرَاقُ مَتَى يَكُونُ الْمُلتَقَى
فِي حُبِّكُمْ تَرَكَ الْفُؤَادَ مُمَرِّقًا
مِنْ بَعْدِ طَيْبٍ وَصَالِكُمْ ذُقْتُ الشَّقَا
إِنْ كَانَ مَاتَ صَبَابَةً فَلَهَا الْبَقَا
قَلْبًا لِمَعْرُوفِ الْمَحَبَّةِ مُحَرَّقًا
وَنَفُوزٍ مِنْهَا بِالْمَسْرَةِ وَاللِّقَا
وَأَضْمُ فِيهِ مُعَانِقًا غُضْنَ النِّقَا
مَا زَالَ وَجْهُكَ بِالْمَحَاسِنِ مُشْرِقًا
حَيْثُ السَّعَادَةُ فِي الْهَوَى عَيْنُ الشَّقَا

فلما فرغ من شعره بكى بكاءً شديداً، وقد انسدت الطرقات في وجهه، واختار الممات على الحياة، ثم إنه مشى كالسكران من شدة حيرته، ولم يزل سائراً إلى وقت الظهر حتى أقبل على بلدة صغيرة، فرأى رجلاً حراًئاً قريباً منها يحرث على ثورين، وكان قد اشتد به الجوع، فقصد الحرَّاث وقال له: السلام عليكم. فردَّ عليه السلام وقال: مرحباً بك يا سيدي، هل أنت من ممالك السلطان؟ قال: نعم. قال: انزل عندي للضيافة. فعرف أنه من الأجوايد، فقال له: يا أخي، ما أنا ناظرٌ عندك شيئاً حتى تطعمني إياه، فكيف تعزم عليّ؟ فقال الحرَّاث: يا سيدي، الخير موجودٌ، انزل أنت وها هي البلدة قريبةٌ، فأروح وأجيء لك بغداء وعليق لحصانك. قال: حيث كانت البلدة قريبةً فأنا أصل إليها في مقدار ما تصل أنت إليها وأشتري مرادي من السوق وأكل. فقال له: يا سيدي، إن البلدة كفرٌ صغير، وليس فيها سوق ولا بيع ولا شراء. سألتك بالله أن تنزل عندي وتجبر بخاطري وأنا أذهب إليها وأرجع إليك بسرعة. فنزل، ثم إن الفلاح تركه وراح البلد ليجيء له بالغداء، فقعد معروف ينتظره، ثم قال في نفسه: إننا شغلنا هذا الرجل المسكين عن شغله، ولكن أنا أقوم وأحرث عوضاً عنه حتى يأتي في نظير ما عوّقته عن شغله. ثم أخذ المحراث وساق الثيران، فحرث قليلاً، وعثر المحراث فرآه مشبوكاً في حلقة من الذهب، فكشف عنها



فكشف عنها التراب، فوجد تلك الحلقة في وسط حجرٍ من المرمز.

التراب فوجد تلك الحلقة في وسط حجرٍ من المرمز قدر قاعدة الطاحون، فعالج فيه حتى قلعه من مكانه، فبان من تحته طابق بسلام، فنزل في تلك السلالم فرأى مكاناً مثل الحمام بأربعة لواوين؛ اللبوان الأول ملآن من الأرض إلى السقف بالذهب، واللبوان الثاني ملآن زمرداً ولؤلؤاً ومرجاناً من الأرض إلى السقف، واللبوان الثالث ملآن ياقوتاً وبلخشاً وفيروزاً، واللبوان الرابع ملآن بالألئاس ونفيس المعادن من سائر أصناف الجواهر. وفي

صدر المكان صندوق من البلور الصافي ملآن بالجواهر اليتيمة التي كل جوهرة منها قدر الجوزة. وفوق ذلك الصندوق علبة صغيرة قدر الليمونة، وهي من الذهب. فلما رأى ذلك تعجّب وفرح فرحاً شديداً وقال: يا هل ترى أي شيء في هذه العلبة؟ ثم إنه فتحها فرأى فيها خاتماً من الذهب مكتوباً عليه أسماء وطلاسم مثل ديبب النمل، فدعك الخاتم، وإذا بقائل يقول: لبيك لبيك يا سيدي، فاطلب تُعط، هل تريد أن تعمّر بلدًا أو تخرب مدينةً أو تقتل ملكًا أو تحفر نهرًا أو نحو ذلك؟ فمهما طلبته فإنه قد صار بإذن الملك الجبار خالق الليل والنهار. فقال له: يا مخلوق ربي، من أنت؟ وما تكون؟ قال: أنا خادم هذا الخاتم القائم بخدمة مالكة، فمهما طلبه من الأغراض قضيته له ولا عذر لي فيما يأمرني به؛ فإني سلطانٌ على أعوانٍ من الجان، وعدّة عسكري اثنتان وسبعون قبيلةً، كل قبيلةً عدتها اثنان وسبعون ألفاً، وكل واحدٍ من الألف يحكم على ألف مارِدٍ، وكل مارِدٍ يحكم على ألف عونٍ، وكل عونٍ يحكم على ألف شيطانٍ، وكل شيطانٍ يحكم على ألف جنيٍّ، وكلهم من تحت طاعتي، ولا يقدرّون على مخالفتي، وأنا مرصود لهذا الخاتم لا أقدر على مخالفة من ملكه، وها أنت قد ملكته وصرّت أنا خادمك، فاطلب ما شئت فإني سميعٌ لقولك مطيعٌ لأمرك، وإذا احتجت إليّ في أي وقتٍ في البر أو في البحر فادعك الخاتم تجدني عندك، وإياك أن تدعه مرتين متواليّتين فتحرّقني بنار الأسماء، وتعدمني وتندم عليّ بعد ذلك، وقد عرّفتك بحالي والسلام. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خادم هذا الخاتم لما أخبر معروفًا بأحواله قال له معروف: ما اسمك؟ قال: اسمي أبو السعادات. فقال له: يا أبا السعادات، ما هذا المكان؟ ومن أرصدك في هذه العلبة؟ قال له: يا سيدي، هذا المكان كنزٌ يقال له كنز شداد بن عاد الذي عمّر إرم ذات العماد، التي لم يُخلَق مثُلها في البلاد، وأنا كنت خادمه في حياته، وهذا خاتمه، وقد وضعه في كنزه، ولكنه نصيبك. فقال له معروف: هل تقدر أن تخرج ما في هذا الكنز على وجه الأرض؟ قال: نعم، أسهل ما يكون. قال: أخرج جميع ما فيه ولا تَبَق منه شيئًا. فأشار بيده إلى الأرض فانشقَّت، ثم نزل وغاب مدةً لطيفةً، وإذا بغلمانٍ صغارٍ ظرافٍ بوجوهٍ حسانٍ قد خرجوا وهم حاملون مشنّاتٍ من الذهب، وتلك المشنّات ممتلئة ذهبًا، وفرغوها ثم راحوا وجاءوا بغيرها، ولا زالوا ينقلون من الذهب والجواهر، فلم تمض ساعة حتى قالوا: ما بقي في الكنز شيءٌ. ثم طلع له أبو السعادات وقال له: يا سيدي، قد رأيت أن جميع ما في الكنز قد نقلناه. فقال له: ما هذه الأولاد الحسان؟ قال: هؤلاء أولادي؛ لأن هذه الشغلة لا تستحق أن أجمع لها الأعوان، وأولادي قضاوا حاجتك وتشرفوا بخدمتك، فاطلب ما تريد غير هذا. قال له: هل تقدر أن تجيء لي ببغالٍ وصناديقٍ وتحطّ هذه الأموال في الصناديق وتحمل الصناديق على البغال؟ قال: هذا أسهل ما يكون. ثم إنه زعق زعقةً عظيمةً فحضر أولاده بين يديه، وكانوا ثمانمائة. فقال لهم: لينقلب بعضكم في صورة البغال، وبعضكم في صورة الممالك الحسان الذين أقل من فيهم لا يوجد مثله عند ملك من الملوك، وبعضكم في صورة المكارية، وبعضكم في صورة الخدّامين. ففعلوا كما أمرهم، ثم صاح على الأعوان فحضروا بين يديه، فأمرهم

أن ينقلب بعضهم في صورة الخيل المسرجة بسروج الذهب المرصع بالجواهر. فلما رأى معروف ذلك قال: أين الصناديق؟ فأحضروهم بين يديه. قال: عبّوا الذهب والمعادن كل صنفٍ وحده. فعبوها وحملوها على ثلاثمائة بغلٍ، فقال معروف: يا أبا السعادات، هل تقدر أن تجيء لي بأحمالٍ من نفيس القماش؟ قال: أتريدها قماشاً مصرياً أو شامياً أو عجمياً أو هندياً أو رومياً؟ قال: هات من قماش كل بلد مائة حملٍ على مائة بغلٍ. قال: يا سيدي، أعطني مهلةً حتى أرتّب أعواني لذلك وأمر كل طائفة أن تروح إلى بلدٍ لتجيء بمائة حملٍ من قماشها وينقلب الأعوان في صورة البغال ويأتون حاملين البضائع. قال: ما قدر زمن المهلة؟ قال: مدة سواد الليل، فلا يطلع النهار إلا وعندك جميع ما تريد. قال: أمهلتك هذه المدة. ثم إنه أمرهم أن ينصبوا له خيمةً، فنصبوها وجلس وجاءوا له بسماطٍ، وقال له أبو السعادات: يا سيدي، اجلس في الخيمة، وهؤلاء أولادي بين يديك يحرسونك، ولا تخش من شيء، وأنا رايح أجمع أعواني وأبعثهم ليقضوا حاجتك.

ثم ذهب أبو السعادات إلى حال سبيله، وجلس معروف في الخيمة والسماط قدامه وأولاد أبي السعادات بين يديه في صورة الممالك والخدم والحشم. فبينما هو جالسٌ على تلك الحالة، وإذا بالرجل الفلاح أقبل وهو حاملٌ قصعةً عدسٍ كبيرةٍ، ومخلّةً ممثّلةً شعيراً، فرأى الخيمة منصوبة والممالك واقفةً وأيديهم على صدورهم، فظنّ أنه السلطان أتى ونزل في ذلك المكان، فوقف باهتاً وقال في نفسه: يا ليتني كنت ذبحت فرختين وحمّرتهما بالسمن البقري من شأن السلطان. وأراد أن يرجع ليزبح فرختين يضيّف بهما السلطان، فرآه معروف فزقق عليه، وقال للممالك: هاتوه. فحملوه هو وقصعة العدس وأتوا بهما قدامه، فقال له: ما هذا؟ قال: هذا غداؤك وعليق حصانك، فلا تؤاخذني؛ فإني ما كنتُ أظن أن السلطان يأتي إلى هذا المكان، ولو علمت بذلك كنتُ ذبحت له فرختين وضيّفته ضيافةً مليحةً. فقال معروف: إن السلطان لم يجر، وإنما أنا نسيبه، وكنت مغبوناً منه، وقد أرسل إليّ ممالكه فصالحوني، وأنا الآن أريد أن أرجع إلى المدينة، وأنت قد عملت لي هذه الضيافة على غير معرفةٍ، وضيافتك مقبولة ولو كانت عدساً، فأنا ما أكل إلا من ضيافتك. ثم أمره بوضع القصعة في وسط السماط، وأكل منها حتى اكتفى، وأما الفلاح فإنه ملأ بطنه من تلك الألوان الفاخرة، ثم إن معروفاً غسل يديه وأذن للممالك في الأكل، فنزلوا على بقية السماط وأكلوا، ولما فرغت القصعة ملأها له ذهباً وقال له: أوصلها إلى منزلك وتعالَ عندي في المدينة وأنا أكرمك. فأخذ القصعة ملأته ذهباً، وساق الثيران وذهب إلى بلده وهو يظن أنه نسيب الملك. وبات معروفاً تلك الليلة في أنسٍ وصفاءٍ،

وجاءوا له ببناتٍ من عرائس الكنوز، فدقوا الآلات ورقصوا قدامه، وقضى ليلته وكانت لا تُعد من الأعمار.

فلما أصبح الصباح لم يشعر إلا والغبار قد علا وطار وانكشف عن بغالٍ حاملةٍ أحمالاً، وهي سبعمائة بغلٍ حاملة أقمشة وحولها غلمانٌ مكاريةٌ وعكامةٌ وضوية، وأبو السعادات راكبٌ على بغلةٍ وهو في صورة مقدّم الحملة، وقدامه تختروان له أربعة عساكر من الذهب الأحمر الوهاج مرصعة بالجواهر. فلما وصل إلى الخيمة نزل من فوق ظهر البغلة وقبّل الأرض وقال: يا سيدي، إن الحاجة قُضيت بالتمام والكمال، وهذا التختروان فيه بدلة كنوزية لا مثلٌ لها من ملابس الملوك، فالبسها واركب في التختروان وأمرنا بما تريد. فقال له: يا أبا السعادات، مرادي أن أكتب لك كتاباً تروح به إلى مدينة خيتان الختن، وتدخل على عمي الملك، ولا تدخل عليه إلا في صورة ساعٍ أنيس. فقال له: سمعاً وطاعة. فكتب كتاباً وختمه، فأخذه أبو السعادات وذهب به حتى دخل على الملك، فرآه يقول: يا وزير، إن قلبي على نسيبي وأخاف أن تقتله العرب، يا ليتني كنت أعرف أين يذهب حتى كنت أتبعه بالعسكر، ويا ليته كان أخبرني بذلك قبل الذهاب. فقال له الوزير: الله يلطف بك على هذه الغفلة التي أنت فيها، وحياء رأسك إن الرجل عرف أننا انتبهنا له فخاف من الفضيحة وهرب، وما هو إلا كذابٌ نصابٌ. وإذا بالساعي داخلٌ، فقبّل الأرض بين يدي الملك ودعا له بدوام العز والنعم والبقاء، فقال له الملك: مَنْ أنت؟ وما حاجتك؟ فقال له: أنا ساعٍ أرسلني إليك نسيبك، وهو مُقبِل بالحملة، وقد أرسل إليك معي كتاباً، وها هو. فأخذه وقرأه فرأى فيه: «بعد مزيد السلام على عمنا الملك العزيز، فإنني جئتُ بالحملة، فاطلع وقابلني بالعسكر». فقال الملك: سوّد الله وجهك يا وزير! كم تقدح في عرض نسيبي وتجعله كذاباً نصاباً، وقد أتى بالحملة، فما أنت إلا خائنٌ. فأطرق الوزير رأسه على الأرض حياءً وخجلاً وقال: يا ملك الزمان، أنا ما قلت هذا الكلام إلا لطول غياب الحملة، وكنت خائفاً على ضياع المال الذي صرفه. فقال: يا خائن، أي شيء أموالي حيثما أتت حملته؟ فإنه يعطيني عوضاً عنها شيئاً كثيراً. ثم أمر الملك بزيينة المدينة، ودخل على بنته وقال لها: لك البشارة، إن زوجك عن قريبٍ يجيء بحملته، وقد أرسل إليّ مكتوباً بذلك، وها أنا طالعٌ لملاقاته. فتعجّبت البنت من هذه الحالة وقالت في نفسها: إن هذا شيءٌ عجيبٌ! هل كان يهزأ بي ويتمسخر عليّ أو كان يختبرني حين أخبرني بأنه فقير؟ ولكن الحمد لله حيث لم يقع مني تقصير في حقه.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر التاجر علي المصري، فإنه لما رأى الزينة سأل عن سبب ذلك فقالوا له: إن التاجر معروفاً نسيب الملك قد أتت حملته. فقال: الله أكبر! ما هذه الداهية؟ إنه قد أتاني هارباً من زوجته، وكان فقيراً! فمن أين جاءت له حملة؟ ولكن لعل بنت الملك دبّرت له حيلةً خوفاً من الفضيحة، والملوك لا تعجز عن شيء، فالله تعالى يستره ولا يفضحه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن التاجر علياً لما سأل عن الزينة أخبروه بحقيقة الحال، فدعا له وقال: الله يستره ولا يفضحه. وسائر التجار فرحوا وانسروا لأجل أخذ أموالهم. ثم إن الملك جمع العسكر وطلع، وكان أبو السعادات قد رجع إلى معروف وأخبره بأنه بلغ الرسالة. فقال معروف: حملوا. فحملوا ولبس البدلة الكنوزية وركب في التختروان، وصار أعظم وأهيب من الملك بألف مرة، ومشى إلى نصف الطريق، وإذا بالملك قابله بالعسكر، فلما وصل إليه رآه لابساً تلك البدلة وراكباً في التختروان، فرمى روحه عليه وسلم عليه وحيّاه بالسلام، وجميع أكابر الدولة سلموا عليه، وبأن أن معروفًا صادق ولا كذب عنده، ودخل المدينة بموكب يفقع مرارة الأسد، وسعت إليه التجار وقبّلوا الأرض بين يديه. ثم إن التاجر علياً قال: قد عملت هذه العملة وطلعت بيدك يا شيخ النصابين، ولكن تستأهل، فإله تعالى يزيدك من فضله. فضحك معروف، ولما دخل السراية قعد على الكرسي وقال: أدخلوا أحمال الذهب في خزانة عمي الملك، وهاتوا أحمال الأقمشة فقدّموها له. وصاروا يفتحونها حملاً بعد حمل، ويخرجون ما فيها حتى فتحوا السبعمائة حمل، فنقّى أطيبها وقال: أدخلوه للملكة لتفرّقه على جواريتها، وخذوا هذا صندوق الجواهر وأدخلوه لها لتفرّقه على الجواري والخدم. وصار يعطي التجار الذين لهم عليه دين من الأقمشة في نظير ديونهم، والذي له ألف يعطيه قماشاً يساوي ألفين أو أكثر، وبعد ذلك صار يفرّق على الفقراء والمساكين، والملك ينظر بعينه ولا يقدر أن يعترض عليه. ولم يزل يعطي ويهب حتى فرّق السبعمائة حمل، ثم التفت إلى العسكر وجعل يفرّق عليهم معادن وزمرداً ويواقيت ولؤلؤاً ومرجاناً وغير ذلك، وصار لا يعطي الجواهر إلا بالكبش من غير عِدٍ. فقال له الملك: يا ولدي، يكفي هذا العطاء؛ لأنه لم يبق من الحملة إلا القليل. فقال له: عندي كثير. واشتهر صدقه، وما بقي أحد يقدر أن يكذبه، وصار لا يبالي بالعطاء؛ لأن

الخادم يحضر له مهما طلب. ثم إن الخازندار أتى للملك وقال: يا ملك الزمان، إن الخزنة امتلأت وصارت لا تسع بقية الأحمال، وما بقي من الذهب والمعادن أين نضعه؟ فأشار له إلى مكان آخر. ولما رأت زوجته هذه الحالة ازداد فرحها، وصارت متعجبةً وتقول في نفسها: يا هل ترى من أين جاء له كل هذا الخير؟ وكذلك التجار فرحوا بما أعطاهم ودعوا له. وأما التاجر علي فإنه صار متعجباً ويقول في نفسه: يا ترى كيف نصب وكذب حتى ملك هذه الخزائن كلها؟ فإنها لو كانت من عند بنت الملك ما كان يفرّقها على الفقراء، ولكن ما أحسن قول من قال:

مَلِكُ الْمُلُوكِ إِذَا وَهَبَ لَا تَسْأَلَنَّ عَنِ السَّبَبِ
اللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ ءُ فَكُنْ عَلَى حَدِّ الْأَدَبِ

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الملك، فإنه تعجّب غاية العجب مما رأى من معروف، ومن كرمه وسخائه ببذل المال، ثم بعد ذلك دخل معروف على زوجته، فقابلته وهي متبسّمة ضاحكةً فرحانةً، وقبّلت يده وقالت: هل كنت تتمسخر عليّ أو كنت تجرّبني بقولك أنا فقيرٌ وهاربٌ من زوجتي؟ والحمد لله حيث لم يقع مني في حَقِّك تقصيرٌ، وأنت حبيبي، وما عندي أعز منك؛ سواءً كنت غنياً أو فقيراً، وأريد أن تخبرني ما قصدت بهذا الكلام؟ قال: أردت تجريبك حتى أنظر هل محبتك خالصةٌ أو على شأن المال وطمع الدنيا، فظهر لي أن محبتك خالصةٌ، وحيث كنت صادقةً في المحبة فمرحباً بك، وقد عرفت قيمتك. ثم إنه اختلّى في مكان وحده ودعك الخاتم، فحضر له أبو السعادات وقال له: لبيك، فاطلب ما تريد. قال: أريد منك بدلةً كنوزيةً لزوجتي، وحلياً كنوزياً مشتملاً على عقد فيه أربعون جوهرةً يتيمةً. قال: سمعاً وطاعةً. ثم أحضر له ما أمره به، فحمل البدلة والحلي بعد أن صرف الخادم، ثم دخل على زوجته ووضعهما بين يديها وقال لها: خذي والبسي، فمرحباً بك. فلما نظرت إلى ذلك طار عقلها من فرحتها، ورأت من جملة الحلي خلخالين من الذهب مرصّعين بالجواهر صنعة الكهنة، وأساور وحلقاً وخزّاماً لا يتقوّم بثمنها أموال، فلبست البدلة والحلي، ثم قالت: يا سيدي، مرادي أن أدّخرها للمواسم والأعياد. قال: البسيها دائماً، فإن عندي غيرها كثيراً. فلما لبستها ونظرها الجوّاري فرحن وقبّلن يديه، فتركهنّ واختلّى بنفسه، ثم دعك الخاتم فحضر له الخادم، فقال له: هاتِ مائة بدلةً بمصاغها. فقال: سمعاً وطاعةً. ثم أحضر له البدلات، وكل بدلةً مصاغها في قلبها، فأخذها وزعق على الجوّاري، فأتين إليه، فأعطى كل واحدةً بدلةً، فلبسن البدلات وصرن

مثل الحور العين، وصارت الملكة بينهن مثل القمر بين النجوم، ثم إن بعض الجواري أخبر الملك بذلك، فدخل الملك على ابنته فرأها تدهش من رآها هي وجواريها، فتعجب من ذلك غاية العجب، ثم خرج وأحضر وزيره وقال له: يا وزير، إنه حصل كذا وكذا، فما تقول في هذا الأمر؟ قال: يا ملك الزمان، إن هذه الحالة لا تقع من التجار؛ لأن التاجر تقعد عنده القطع الكتان سنين ولا يبيعهها إلا بمكسب، فمن أين للتجار كرم مثل هذا الكرم؟ ومن أين لهم أن يحوزوا مثل هذه الأموال والجواهر التي لا يوجد منها عند الملوك إلا قليل؟ فكيف يوجد عند التجار منها أحمال؟ فهذا لا بد له من سبب، ولكن إن طأعتني أبين لك حقيقة الأمر. فقال له: أطاوعك يا وزير. فقال له: اجتمع عليه ووايده وتحدث معه وقل له: يا نسيبي، في خاطري أن أروح أنا وأنت والوزير من غير زيادة بستاناً لأجل النزهة؛ فإذا خرجنا إلى بستان نحطُ سفرة المدام، واغصب عليه واسقيه، ومتى شرب المدام ضاع عقله وغاب رشده، فنسأله عن حقيقة أمره، فإنه يخبرنا بأسراره، والدام فضّاح، والله درُّ من قال:

وَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا إِلَى مَوْضِعِ الْأَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا: قِفِي
مَخَافَةَ أَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فَتَظْهَرُ نَدْمَانِي عَلَى سِرِّي الْخَفِيِّ

ومتى أخبرنا بحقيقة الأمر فإننا نطلع على حاله ونفعل به ما نحب ونختار، فإن الحالة التي هو فيها أخشى عليك من عواقبها؛ فربما تطمع نفسه في الملك، فيشتمل العسكر بالكرم وبذل المال، ويعزلك ويأخذ الملك منك. فقال له الملك: صدقت. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما دبرَ للملك هذا التدبير، قال له: صدقت. وباتا متفقين على هذا الأمر. فلما أصبح الصباح خرج الملك إلى المقعد وجلس، وإذا بالخدامين والسُّيَّاس دخلوا عليه مكروبين. فقال لهم: ما الذي أصابكم؟ قالوا: يا ملك الزمان، إن السُّيَّاس تمروا الخيل وعلقوا عليها وعلى البغال التي جاءت بالحملة، فلما أصبحنا وجدنا الممالك سرقوا الخيل والبغال، وفَتَّشْنَا الإصطبلات فما رأينا خيلاً ولا بغلاً، ودخلنا محل الممالك فلم نَرِ فيه أحداً، ولم نعرف كيف هربوا. فتعجَّبَ الملك من ذلك؛ لأنه ظن أن الأعوان كانوا خيلاً وبغلاً وممالك، ولم يعلم أنهم كانوا أعوان خادِم الرصد، فقال لهم: يا ملاعين! أَلَف دابة وخمسمائة مملوك وغيرهم من الخدام، كيف هربوا ولم تشعروا بهم؟ فقالوا: ما عرفنا كيف جرى لنا حتى هربوا. فقال: انصرفوا حتى يخرج سيديكم من الحريم وأخبروه بالخبر. فانصرفوا من قدام الملك وجلسوا متحيرين في هذا الأمر. فبينما هم جالسون على تلك الحالة، وإذا بمعروف قد خرج من الحريم، فرأهم مغتمين، فقال لهم: ما الخبر؟ فأخبروه بما حصل، فقال: وما قيمتهم حتى تغتموا عليهم؟ امضوا إلى حال سبيلكم. وقعد يضحك، ولم يَغْتَضَّ ولم يَغْتَمَّ من هذا الأمر. فطلَّ الملك في وجه الوزير وقال له: أيُّ شيء هذا الرجل الذي ليس للمال عنده قيمة؟! فلا بد لذلك من سبب. ثم إنهم تحدَّثوا معه ساعة وقال الملك: يا نسيبي، خاطري أن أروح أنا وأنت والوزير بستاناً لأجل النزهة، فما تقول؟ قال: لا بأس. ثم إنهم ذهبوا وتوجَّهوا إلى بستان فيه من كل فاكهة زوجان، أنهاره دافقةٌ وأشجاره باسقةٌ وأطيَّاره ناطقةٌ، ودخلوا فيه قصرًا يزيل عن القلوب الحزن، وجلسوا يتحدَّثون والوزير يحكي غريبَ الحكايات، ويأتي بالنكت المضحكات والألفاظ المطربات، ومعروف مُصِغٌ إلى الحديث حتى طلع الغداء وحطوا سفرة الطعام وباطية المدام، وبعد أن أكلوا وغسلوا أيديهم ملأ الوزير الكأس وأعطاه

للملك، فشربه، وملاً الثاني وقال لمعروف: هَاكَ كَأْسُ الشَّرَابِ الَّذِي تَخْضَعُ لِهَيْبَتِهِ أَعْنَاقُ ذَوِي الْأَلْبَابِ. فقال معروف: ما هذا يا وزير؟ قال الوزير: هذه الْبِكْرُ الشَّمْطَاءُ، وَالْعَانَسُ الْعِذْرَاءُ، ومهدية السرور إلى السرائر، التي قال فيها الشاعر:

كَانَتْ لَهَا أَرْجُلُ الْأَعْلَاجِ دَائِرَةً بِالْدَّوْسِ فَانْتَصَفَتْ مِنْ أَرْوُسِ الْعَرَبِ
يَسْقِيكُهَا مِنْ بَنِي الْكُفَّارِ بَدْرٌ دُجَى الْحَاطَّةُ لِلْمَعَاصِي أَوْكُدُ السَّبَبِ

ولله در القائل:

فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ حَامِلَ كَأْسِهَا إِذْ قَامَ يَجْلُوهَا عَلَى النُّدْمَاءِ
شَمْسُ الضُّحَى رَقَصَتْ فَنَقَطَ وَجْهَهَا بَدْرُ الدُّجَى بِكَوَاكِبِ الْجَوَازِ
رَقَّتْ فَكَادَتْ مِنْ لَطِيفِ مِرَاجِهَا تَجْرِي كَمَجْرَى الرُّوحِ فِي الْأَعْضَاءِ

وما أحسن قول الشاعر:

وَبَاتَ بَدْرٌ تَمَامَ الْحُسْنِ مُعْتَنِّقِي وَالشَّمْسُ فِي فَلَكِ الْكَاسَاتِ لَمْ تَأْفَلِ
وَبِتُّ أَنْظُرُ لِلنَّارِ الَّتِي سَجَدْتُ لَهَا الْمَجُوسُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ تَسْجُدُ لِي

وقول الآخر:

وَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءِ فِي السَّقَمِ

وقول الآخر:

عَجِبْتُ لِعَاصِرِيهَا كَيْفَ مَاتُوا وَقَدْ تَرَكُوا لَنَا مَاءَ الْحَيَاةِ

وأحسن من ذلك قول أبي نواس:

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتَهُ سَرَاءُ

فَلَاخَ مِنْ ضَوْئِهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
فَلَا تُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا
لَهَا مُجَبَّانِ لُوطِيٍّ وَزَنَاءِ
حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ
طَافَتْ عَلَى فَنِيَّةِ ذَلِّ الزَّمَانِ لَهُمْ
مَنْ كَفَّ ذَاتَ جِرٍّ فِي زِيٍّ ذِي ذِكْرٍ
وَقُلْ لِمَنْ يَدْعِي فِي الْعِلْمِ مَعْرِفَةٌ

وأحسن من الجميع قول ابن المعتز:

وَدَيْرَ عَبْدُونَ هَطَّالٌ مِنَ الْمَطَرِ
فِي غُرَّةِ الْفَجْرِ وَالْعُصْفُورُ لَمْ يَطِرْ
سُودَ الْمَدَارِعِ نَعَائِينَ فِي السَّحَرِ
بِالْغُنَجِ يُطْبِقُ جَفْنِيهِ عَلَى حَوَرِ
يَسْتَعْجِلُ الْخَطْوُ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ حَذَرِ
ذُلًّا وَأَسْحَبَ أَذْيَالِي عَلَى أَثَرِي
مِثْلُ الْقَلَامَةِ قَدْ قَدَّتْ مِنَ الظُّفْرِ
فَظَنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ

سَقَى الْجَزِيرَةَ ذَاتَ الظِّلِّ وَالشَّجَرِ
فَطَالَمَا نَبَّهْتَنِي لِلصَّبُوحِ بِهَا
أَصْوَاتُ زُهَبَانَ دَيْرٍ فِي صَلَاتِهِمْ
كَمْ فِيهِمْ مَنْ مَلِيحِ الشَّكْلِ مُكْتَجِلِ
وَرَارَنِي فِي قَمِيصِ اللَّيْلِ مُسْتَتِرًا
وَقُمْتُ أَفْرِشَ حَدِّي فِي الطَّرِيقِ لَهُ
وَلَاخَ ضَوْءٍ هَلَالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا
وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ

ولله درُّ القائل:

مُسْتَبْشِرًا بِالْفَرَحِ
أَكْتَالُهُ بِالْقَدَحِ

أَصْبَحْتُ مِنْ أَغْنَى الْوَرَى
عِنْدِي نُضَارٌ ذَائِبٌ

وما أحسن قول الشاعر:

وَكُلُّ مَا قَبِلَ فِي أَبْوَابِهَا كَذِبٌ
يَعُودُ فِي الْجَيْنِ أَفْرَاحًا وَيَنْقَلِبُ

تَاللهِ مَا الْكَيْمِيَا فِي غَيْرِهَا وَجِدْتُ
قِرَاطُ خَمْرٍ عَلَى الْقِنْطَارِ مِنْ حَزَنِ

وقول الآخر:

حَتَّى إِذَا مِلَنْتُ بِصَرْفِ الرَّاحِ
وَكَذَا الْجُسُومِ تَخَفُ بِالْأَرْوَاحِ

ثَقُلْتُ زُجَاجَاتُ أَتَيْنَا فُرْعَا
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ مَعَ الْهَوَى

وقول الآخر:

وَلِلْكَاسِ وَالصَّهْبَاءِ حَقٌّ مُعْظَمٌ وَمِنْ حَقِّهَا أَلَّا تَضِيعَ حُقُوقُهَا
إِذَا مِتُّ فَأَذِفْنِي إِلَى جَنْبِ كَرَمَةٍ تُرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُروُقُهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي فِي الْفَلَاةِ فَإِنَّنِي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَدُوقَهَا

وما زال يرغبه في الشراب ويذكر له من محاسنه ما استطاب، ويُشده ما ورد فيه من الأشعار ولطائف الأخبار، حتى مال إلى ارتشاف ثغر القَدَح، ولم يبق له غيرها مقترح. وما زال يملأ له وهو يشرب ويستلذ ويضطرب حتى غاب عن صوابه، ولم يميز خطأه من صوابه، فلما علم أن السكر بلغ به الغاية وتجاوز النهاية قال له: يا تاجر معروف، والله إنني متعجب من أين وصلت إليك هذه الجواهر التي لا يوجد مثلها عند الملوك الأكاسرة؟ وعمرنا ما رأينا تاجراً حاز أموالاً كثيرة مثلك ولا أكرم منك، فإن أفعالك أفعال ملوك وليست أفعال تاجر، فبالله عليك أن تخبرني حتى أعرف قدرك ومقامك. وصار يمارسه ويخادعه وهو غائب العقل. فقال له معروف: أنا لست تاجراً ولا من أولاد الملوك ... وأخبره بحكايته من أولها إلى آخرها. فقال له: بالله عليك يا سيدي معروف إنك تفرجنا على هذا الخاتم حتى ننظر كيف صنعته. فقلع الخاتم وهو في حال سُكره وقال: خذوا تفرجوا عليه. فأخذه الوزير وقلبه وقال: هل إذا دعكته يحضر الخادم؟ قال: نعم ادعكته يحضر لك وتفرج عليه. فدعكه، وإذا بقائل يقول: لبيك يا سيدي، اطلب تُعط، هل تخرب مدينة أو تعمر مدينة أو تقتل ملكاً؟ فمهما طلبته فإنني أفعله لك من غير خلاف. فأشار الوزير إلى معروف وقال للخادم: احمل هذا الخاسر ثم ارمه في أوحش الأراضي الخراب حتى لا يجد فيها ما يأكل ولا ما يشرب، فيهلك من الجوع ويموت كمدًا ولم يدرك به أحد. فخطفه الخادم وطار به بين السماء والأرض. فلما رأى معروف ذلك أيقن بالهلاك وسوء الارتباك، فبكى وقال: يا أبا السعادات، إلى أين أنت رايح بي؟ فقال له: أنا رايح أرميك في الربع الخراب يا قليل الأدب، مَنْ يملك رصداً مثل هذا ويعطيه للناس يتفرجون عليه؟ لكن تستأهل ما حلَّ بك، ولولا أنني أخاف الله لرميتك من مسافة ألف قامة فلا تصل إلى الأرض حتى تمزقك الرياح. فسكت وصار لا يخاطبه حتى وصل به إلى الربع الخراب ورماه هناك، ورجع وخلَّه في الأرض الموحشة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٩٩٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخادم أخذ معروفًا ورماه في الربع الخراب ورجع وخلاه. هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الوزير، فإنه لما ملك الخاتم قال للملك: كيف رأيت؟ أما قلت لك إن هذا كذابٌ نصابٌ فما كنتَ تصدقني؟ فقال له: الحق معك يا وزير، الله يعطيك العافية، هاتِ هذا الخاتم حتى أتفرّج عليه. فالتفت الوزير بالغضب وبصق في وجهه وقال له: يا قليل العقل، كيف أعطيه لك وأبقى خدامك بعد أن صرتُ سيدك؟ ولكن أنا ما بقيت أبقيك. ثم دعك الخاتم فحضر الخادم، فقال له: احمل هذا القليل الأدب وارمه في المكان الذي رميت فيه نسيبه النصاب. فحملة وطار به، فقال له الملك: يا مخلوق ربي، أي شيءٍ ذنبي؟ فقال له الخادم: لا أدري، وإنما أمرني سيدي بذلك، وأنا لا أقدر أن أخالف من ملك خاتم هذا الرصد. ولم يزل طائرًا به حتى رماه في المكان الذي فيه معروف، ثم رجع وتركه هناك. فسمع معروفًا يبكي، فأتى له وأخبره وقعدا يبكيان على ما أصابهما، ولم يجدا أكلًا ولا شربًا.

هذا ما كان من أمرهما، وأما ما كان من أمر الوزير، فإنه بعدما شئت معروفًا والملك قام وخرج من البستان، وأرسل إلى جميع العسكر وعمل ديوانًا وأخبرهم بما فعل مع معروف والملك، وأخبرهم بقصة الخاتم وقال لهم: إن لم تجعلوني عليكم سلطانًا أمرتُ خادم الخاتم أن يحملكم جميعًا ويرميكم في الربع الخراب فتموتوا جوعًا وعطشًا. فقالوا له: لا تفعل معنا ضررًا؛ فإننا قد رضينا بك علينا سلطانًا، ولا نعصي لك أمرًا. ثم إنهم اتفقوا على سلطنته عليهم قهرًا عنهم، وخلع عليهم الخلع، وصار يطلب من أبي السعادات كل ما أراده فيحضره بين يديه في الحال. ثم إنه جلس على الكرسي وأطاعه العسكر، وأرسل إلى بنت الملك يقول لها: حضري روحك؛ فأني داخلٌ عليك في هذه الليلة؛ لأنني مشتاقٌ إليك. فبكت وصعب عليها أبوها وزوجها، ثم إنها أرسلت تقول له: أمهلني حتى

تنقضي العدة، ثم اكتب كتابي وادخل عليّ في الحلال. فأرسل يقول لها: أنا لا أعرف عدة ولا طول مدة، ولا أحتاج إلى كتاب، ولا أعرف حلالاً من حرام، ولا بد من دخولي عليك في هذه الليلة. فأرسلت تقول له: مرحباً بك، ولا بأس بذلك. وكان ذلك مكرّاً منها، فلما رجع له الجواب فرح وانشرح صدره؛ لأنه كان مغرماً بحبها، ثم إنه أمر بوضع الأطعمة بين جميع الناس وقال: كلوا هذا الطعام؛ فإنه وليمة الفرح، فإني أريد الدخول على الملكة في هذه الليلة. فقال شيخ الإسلام: لا يحلّ لك الدخول عليها حتى تنقضي عدتها وتكتب كتابك عليها. فقال له: أنا لا أعرف عدة ولا مدة، فلا تُكثِر عليّ كلاماً. فسكت شيخ الإسلام وخاف من شره، وقال للعسكر: إن هذا كافر ولا دين له ولا مذهب له. فلما جاء المساء دخل عليها فرأها لابسة أفخر ما عندها من الثياب، ومزينة بأحسن الزينة، فلما رآته قابلته وهي ضاحكة وقالت له: ليلة مباركة، ولو كنت قتلت أبي وزوجي لكان أحسن عندي. فقال لها: لا بد أن أقتلها. فأجلسته وصارت تمازحه وتظهر له الوداد، فلما لطفته وتبسمت في وجهه طار عقله، وإنما خادعته بالملاطفة حتى تطفر بالخاتم وتبدل فرحه بالنكد على أم ناصيته، وما فعلت معه هذه الفعال إلا على رأي من قال:

وَلَقَدْ بَلَغْتُ بِحِيلَتِي مَا لَيْسَ يُبْلَغُ بِالسُّيُوفِ
ثُمَّ انْتَنَيْتُ بِمَغْنَمٍ حُلُوِّ الْمَجَانِي وَالْقُطُوفِ

فلما رأى الملاطفة والابتسام هاج عليه الغرام وطلب منها الوصال، فلما دنا منها تباعدت عنه وبكت وقالت: يا سيدي، أما ترى الرجل الناظر إلينا؟ بالله عليك أن تسترني عن عينه، فكيف تواصلني وهو ينظر إلينا؟ فاغتاظ وقال: أين الرجل؟ قالت: ها هو في فص الخاتم يطلع رأسه وينظر إلينا. فظن أن خادم الخاتم ينظر إليهما، فضحك وقال: لا تخافي، إن هذا خادم الخاتم، وهو تحت طاعتي. قالت: أنا أخاف من العفاريت، فاقبله وارمِه بعيداً عني. فقلعه وحطّه على المخذة، ودنا منها فرفسته برجلها في قلبه، فانقلب على قفاه مغشياً عليه، وزعقت على أتباعها فأتوها بسرعة، فقالت: أمسكوه. فقبض عليه أربعون جارية، وعجلت بأخذ الخاتم من فوق المخذة ودعكته، وإذا بأبي السعادات أقبل يقول: لبيك يا سيدتي. فقالت: احمل هذا الكافر وضعه في السجن، وثقل قيوده. فأخذه وسجنه في سجن الغضب ورجع وقال لها: قد سجنته. فقالت له: أين ذهب بأبي وزوجي؟ قال: رميتهما في الربع الخراب. قالت: أمرتك أن تأتيني بهما في هذه الساعة. فقال: سمعاً وطاعة. ثم طار من قدامها. ولم يزل طائراً إلى أن وصل إلى الربع الخراب

ونزل عليهما فرأهما قاعدَيْن يبكيان ويشكوان لبعضهما، فقال لهما: لا تخافا، قد أتاكما الفرج. وأخبرهما بما فعل الوزير، وقال لهما: إني قد سجنْتُه بيدي طاعةً لها، ثم أمرتني بإرجاعكما. ففرحا بخبره، ثم حملهما وطار بهما، فما كان غير ساعة حتى دخل بهما على بنت الملك، فقامت وسلَّمت على أبيها وزوجها وأجلستهما وقَدَّمت لهما الطعام والحلوى، وباتا بقية الليلة. وفي ثاني يوم ألبستُ أباهما بدلةً فاخرة، وألبستُ زوجها بدلةً فاخرة، وقالت: يا أبت، اقعدْ أنتَ على كرسيك ملِكًا على ما كنتَ عليه أولاً، واجعل زوجي وزيرَ ميمنة عندك، وأخبر عسكرك بما جرى، وهات الوزير من السجن واقتله، ثم احرقه؛ فإنه كافرٌ وأراد أن يدخل عليَّ سفاحًا من غير نكاح، وشهد على نفسه أنه كافر، وليس له دين يتديَّن به، واستوص بنسيبك الذي جعلته وزيرَ ميمنة عندك. فقال لها: سمعًا وطاعةً يا بنتي، ولكن أعطيني الخاتم أو أعطيه لزوجك. فقالت: إنه لا يصلح لك ولا له، وإنما الخاتم يكون عندي، وربما أحميه أكثر منكما، ومهما أردتماه فاطلباه مني وأنا أطلب لكما من خادم الخاتم، ولا تخشيا بأسًا ما دمتُ أنا طيبة، وبعد موتي فشأنكما والخاتم. فقال أبوها: هذا هو الرأي الصواب يا بنتي. ثم أخذ نسيبه وطلع إلى الديوان، وكان العسكر قد باتوا في كربٍ عظيمٍ بسبب بنت الملك وما فعل معها الوزير من أنه دخل عليها سفاحًا من غير نكاح، وأساء الملك ونسيبه، وخافوا أن تُنتَهَك شريعة الإسلام؛ لأنه بان لهم أنه كافرٌ. ثم اجتمعوا في الديوان وصاروا يعنّفون شيخ الإسلام ويقولون له: لماذا لم تمنعه من الدخول على الملكة سفاحًا؟ فقال لهم: يا ناس، إن الرجل كافرٌ وصار مالِكًا للخاتم، وأنا وأنتم لا يخرج من أيدينا في حقة شيء، فالله تعالى يجازيه بفعله، واسكتوا أنتم لئلا يقتلكم. فبينما العساكر مجتمعون في الديوان يتحدثون في هذا الكلام، وإذا بالملك دخل عليهم في الديوان ومعه نسيبه معروف. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٠٠٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العساكر من شدة غيظهم جلسوا في الديوان يتحدثون في شأن الوزير وما فعل بالملك ونسيبه وبنته، وإذا بالملك دخل عليهم في الديوان ومعه نسيبه معروف، فلما رآته العساكر فرحوا بقدومه، وقاموا له على الأقدام وقَبَلُوا الأرض بين يديه، ثم جلس على الكرسي وأخبرهم بالقصة، فزالَت عنهم تلك الغصّة، وأمر بزيّنة المدينة، وأحضَرَ الوزيرَ من الحبس، فلما مرَّ بالعساكر صاروا يلعنونه ويشتمونه ويوبخونه حتى وصل إلى الملك، فلما تمثَّل بين يديه أمر بقتله أشنع قِتْلَةً، فقتلوه ثم حرقوه وراح إلى سقر في أسوأ الأحوال، وأجاد فيه مَنْ قال:

فَلَا رَحِمَ الرَّحْمَنُ تُرْبَةَ عَظْمِهِ وَلَا زَالَ فِيهَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ

ثم إن الملك جعل معروفًا وزيرَ ميمينّةٍ عنده، وطابت لهم الأوقات وصَفَتْ لهم المسرّات، واستمروا على ذلك خمس سنوات. وفي السنة السادسة مات الملك فجعلته بنت الملك سلطاناً مكانَ أبيها ولم تعطهِ الخاتم، وكانت في هذه المدة حملتُ منه ووضعتُ غلاماً بديع الجمال بارع الحُسْن والكمال، ولم يَزَلْ في جِبر الدادات حتى بلغ من العمر خمس سنوات، فمرضت أمه مرض الموت، فأحضرت معروفًا وقالت له: أنا مريضة. قال لها: سلامتك يا حبيبة قلبي. قالت له: ربما أموت فلا تحتاج إلى أن أوصيك على ولدك، وإنما أوصيك بحفظ الخاتم خوفًا عليك وعلى هذا الغلام. فقال: ما على مَنْ يحفظه الله بأس. فقلعت الخاتم وأعطته له، وفي ثاني يومٍ تُوفِّيَتْ إلى رحمة الله تعالى، وأقام معروف ملكًا وصار يتعاطى الأحكام، فاتفق له في بعض الأيام أنه نفِضَ المنديل فانفضَّت العساكر من قدامه إلى أماكنهم، ودخل هو قاعة الجلوس وجلس فيها إلى أن مضى النهار وأقبل

الليل بالاعتكار، فدخل عليه أرباب منادَته من الأكابر على عادتهم، وسهروا عنده من أجل البسط والانشراح إلى نصف الليل، ثم طلبوا الإجازة بالانصراف، فأذِنَ لهم، وخرجوا من عنده إلى بيوتهم، وبعد ذلك دخلت عليه جارية كانت مقيّدة بخدمة فراشه، ففرشت له المرتبة وقلّعت البدلة وألبستَه بدلة النوم، واضطجع، فصارت تكبّس أقدامه حتى غلب عليه النوم، فخرجت من عنده وراحت إلى مرقدِها ونامت.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر الملك معروف، فإنه كان نائماً فلم يشعر إلا وشيء بجانبه في الفراش، فانتبه مرعوباً وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! ثم فتح عينيه فرأى في جانبه امرأة قبيحة المنظر، فقال لها: مَنْ أَنْتِ؟ قالت: لا تخف، أنا زوجتك فاطمة العرّة. فنظر في وجهها فعرفها بمسخة صورتها وطول أنيابها، وقال: من أين دخلتِ عليّ؟ ومن جاء بك إلى هذه البلاد؟ فقالت له: في أي البلاد أَنْتِ في هذه الساعة؟ قال: في مدينة خيتان الختن، وَأَنْتِ متى فارقتِ مصر؟ قالت: في هذه الساعة. قال لها: وكيف ذلك؟ قالت: اعلم أنني لما تشاجرتُ معك وقد أغراني الشيطان على ضررك واشتكتك إلى الحكّام، ففتشوا عليك فما وجدوك، وسأل القضاة عنك فما رأوك، وبعد أن مضى يومان لحقتني الندامة، وعلمت أن العيب عندي، وصار الندم لا ينفعني، وقعدت مدة أيام وأنا أبكي على فراقك، وَقَلَّ ما في يدي واحتجْتُ إلى السؤال لأجل القوت، فصرتُ أسأل كل مغبوطٍ وممقوتٍ، ومن حين فارقتني وأنا أكل من ذلِّ السؤال، وصرت في أسوأ الأحوال، وكل ليلة أقعد أبكي على فراقك وعلى ما قاسيتُ بعد غيابك من الذلِّ والهوان، والتعاسة والخسران. وصارت تحدّثه بما جرى لها وهو باهت فيها، إلى أن قالت: وفي أمس درت طول النهار أسأل فلم يعطيني أحد شيئاً، وصرت كلّما أقبلَ عليّ أحد وأسأله كسرة يشتمني ولا يعطيني شيئاً، فلما أقبل الليل بُتُّ من غير عشاء، فأحرقني الجوع وصعب عليّ ما قاسيت، وقعدت أبكي، وإذا بشخصٍ تصوّر قدامي وقال لي: يا امرأة، لأي شيء تبكين؟ فقلت: إنه كان لي زوجٌ يصرف عليّ ويقضي أغراضي، وقد فُقد مني ولم أعرف أين راح، وقد قاسيتُ الغلب من بعده. فقال: ما اسم زوجك؟ قلت: اسمه معروف. قال: أنا أعرفه. اعلمي أن زوجك الآن سلطانٌ في مدينة، وإن شئت أن أوصلك إليه أفعل ذلك. فقلت له: أنا في عرضك أن توصلني إليه. فحملني وطار بي بين السماء والأرض حتى أوصلني إلى هذا القصر وقال: ادخلي في هذه الحجرة تَرَي زوجك نائماً على السرير. فدخلتُ فرأيتك في هذه السيادة، وأنا ما كان في أمني أنك تفوتني وأنا رفيقتك، والحمد لله الذي جمعني عليك. فقال لها: هل أنا فُتُّك أو أَنْتِ التي فُتُّني وَأَنْتِ تشكينني من قاضٍ إلى قاضٍ،

وختمت ذلك بشكايتي إلى الباب العالي حتى نزلت عليَّ أبا طبق من القلعة فهربت قهراً عني؟! وصار يحكي لها على ما جرى له إلى أن صار سلطاناً وتزوج بنت الملك، وأخبرها بأنها ماتت وخلف منها ولداً صار عمره سبع سنين. فقالت له: والذي جرى مقدّر من الله تعالى، وقد ثبت، وأنا في عرضك أنك لا تفوتني، ودعني أكل عندك العيش على سبيل الصدقة. ولم تزل تتواضع له حتى رقى قلبه لها وقال لها: توبي عن الشر واقعدي عندي، وليس لك إلا ما يسرك، فإن عملت شيئاً من الشر أقتلك ولا أخاف من أحد، فلا يخطر ببالك أنك تشكينني إلى الباب العالي وينزل لي أبو طبق من القلعة؛ فإنني صرت سلطاناً والناس تخاف مني، وأنا لا أخاف إلا من الله تعالى، فإن معي خاتم استخدام، متى دعكته يظهر لي خادم الخاتم واسمه أبو السعادات، ومهما طلبته منه يجيئني به، فإن كنت تريدين الذهاب إلى بلدك أعطيك ما يكفيك طول عمرك وأرسلك إلى بلدك بسرعة، وإن كنت تريدين القعود عندي فإنني أخلي لك قصراً وأفرش لك من خاص الحرير، وأجعل لك عشرين جاريةً تخدمك، وأرتب لك المأكّل الطيبة والملابس الفاخرة وتصيرين ملكة وتقيمين في نعيم زائد حتى تموتي أو أموت أنا. فما تقولين في هذا الكلام؟ قالت: أنا أريد الإقامة عندك. ثم قبلت يده وتابت عن الشر، فأفرد لها قصراً وحدها، وأنعم عليها بجوار وطواشية، وصارت ملكة. ثم إن الولد صار يذهب عندها وعند أبيه، فكرهت الولد لكونه ما هو ابنها، فلما رأى الولد منها عين الغضب والكراهة نفر منها وكرهها. ثم إن معروفاً اشتغل بحب الجوّاري الحسنان، ولم يفكر في زوجته فاطمة العرّة؛ لأنها صارت عجوزاً شمطاء بصورة شوهاء، وسحنة معطاء، أقبح من الحية الرقطاء، خصوصاً وقد أساءته إساءة لا مزيد عليها، وصاحب المثل يقول: الإساءة تقطع أصل المطلوب، وتزرع البغضاء في أرض القلوب. والله درُّ القائل:

أَحْرَضَ عَلَى حِفْظِ الْقُلُوبِ مِنَ الْأَذَى فَرَجُوعِهِ بَعْدَ التَّنَافُرِ يَعْسُرُ
إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَ وَدُّهَا مِثْلُ الزُّجَاجَةِ كَسَرُهَا لَا يُجْبَرُ

ثم إن معروفاً لم يأوها لخصلة حميدة فيها، وإنما عمل معها هذا الإكرام ابتغاء مرضاة الله تعالى.

ثم إن دنيا زاد قالت لأختها شهرزاد: ما أطيب هذه الألفاظ التي هي أشدُّ أخذاً للقلوب من سواحر الأحاظ! وما أحسن هذه الكتب الغريبة والنوادر العجيبة! فقالت شهرزاد: وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك! فلما أصبح الصباح وأضاء

بنوره ولاح، أصبح الملك منشراح الصدر ومنتظرًا لبقية الحكاية، وقال في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها. ثم خرج إلى محل حكمه وطلع الوزير على عادته بالكفن تحت إبطه، فمكث الملك في الحكم بين الناس طول نهاره، وبعد ذلك ذهب إلى حريمه ودخل على زوجته شهرزاد بنت الوزير على جري عادته. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ١٠٠١

ذهب الملك إلى حريمه، ودخل على زوجته شهرزاد بنت الوزير، فقالت لها أختها دنيازاد: أتممي لنا حكاية معروف. فقالت: حبًا وكرامة، إنَّ أَدْنَ لي الملك بالحديث. فقال لها: قد أَدْنْتُ لك بالحديث؛ لأنني متشوّق إلى سماع بقيتها. قالت: بلغني أيها الملك، أن معروفًا صار لا يعتني بزوجه من أجل النكاح، وإنما كان يُطعمها احتسابًا لوجه الله تعالى، فلما رآته ممتنعًا عن وصالها ومشتغلًا بغيرها، بغضته وغلبت عليها الغيرة، ووسوس لها إبليس أنها تأخذ الخاتم منه وتقتله وتعمل ملكة مكانه. ثم إنها خرجت ذات ليلة من الليالي ومشت من قصرها متوجّهة إلى القصر الذي فيه زوجها الملك معروف، واتفق بالأمر المقدّر والقضاء المسطر أن معروفًا كان راقدًا مع محظية من محاضيه ذات حُسن وجمال، وقدّ واعتدال، ومن حُسن تقواه كان يقلع الخاتم من إصبعه إذا أراد أن يجامع؛ احترامًا للأسماء الشريفة التي هي مكتوبة عليه، فلا يلبسه إلا على طهارة. وكانت زوجته فاطمة العرّة لم تخرج من موضعها إلا بعد أن أحاطت علمًا بأنه إذا جاعَ يقلع الخاتم ويجعله على المخذة حتى يتطهر. وكان من عادته أنه متى جاعَ يأمر المحظية أن تذهب من عنده خوفًا على الخاتم، وإذا دخل الحمام يقفل باب القصر حتى يرجع من الحمام ويأخذ الخاتم ويلبسه، وبعد ذلك كل من دخل القصر لا حرجَ عليه، وكانت تعرف هذا الأمر كله، فخرجت بالليل لأجل أن تدخل عليه في القصر وهو مستغرق في النوم وتسرق هذا الخاتم، بحيث لا يراها. فلما خرجت كان ابن الملك في هذه الساعة قد دخل بيت الراحة ليقضي حاجةً من غير نور، فقعد في الظلام على ملاقي بيت الراحة، وترك الباب مفتوحًا عليه. فلما خرجت من قصرها رآها مجتهدة في المشي إلى جهة قصر أبيه. فقال في نفسه: يا هل تُرى لأي شيء خرجت هذه الكاهنة من قصرها في جُنح الظلام وأراها متوجّهة إلى قصر أبي؟ فهذا الأمر لا بدّ له من سبب. ثم إنه خرج وراءها وتبع أثرها من

حيث لا تراه، وكان له سيف قصير من الجوهر، وكان لا يخرج إلى ديوان أبيه إلا متقلداً بذلك السيف؛ لكونه مستعزاً به، فإذا رآه أبوه يضحك عليه ويقول: ما شاء الله! إن سيفك عظيمٌ يا ولدي، ولكن ما نزلت به حرباً ولا قطعته به رأساً. فيقول له: لا بد أن أقطع به عنقاً يكون مستحقاً للقطع. فيضحك من كلامه.

ولما مشى وراء زوجة أبيه سحب السيف من غلافه، وتبعها حتى دخلت قصر أبيه، فوقف لها على باب القصر، وصار ينظر إليها، فرآها وهي تفتش وتقول: أين وضع الخاتم؟ ففهم أنها دائرة على الخاتم، فلم يزل صابراً عليها حتى لقيته، فقالت: ها هو! والتقطته وأرادت أن تخرج، فاختمت خلف الباب، فلما خرجت من الباب نظرت إلى الخاتم وقلبت في يدها، وأرادت أن تدعكه، فرفع يده بالسيف وضربها على عنقها، فزعت زعقة واحدة، ثم وقعت مقتولة، فانتبه معروف فرأى زوجته مرميةً ودمها سائل، وابنه شاهر السيف في يده، فقال له: ما هذا يا ولدي؟ قال: يا أبي، كم مرة وأنت تقول لي: إن سيفك عظيمٌ، ولكنك ما نزلت به حرباً ولا قطعته به رأساً، وأنا أقول لك: لا بد أن أقطع به عنقاً مستحقاً للقطع؟ أنا قد قطعت لك به عنقاً مستحقاً للقطع. وأخبره خبرها، ثم إنه فتش على الخاتم فلم يره، ولم يزل يفتش في أعضائها حتى رأى يدها منطبقة عليه، فأخذه من يدها، ثم قال له: أنت ولدي بلا شك ولا ريب، أراحك الله في الدنيا والآخرة كما أرحمتني من هذه الخبيثة، ولم يكن سعيها إلا لهلاكها، والله درُّ من قال:

إِذَا كَانَ عَوْنُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مُسْعِفاً تَأْتَى لَهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ مُرَادُهُ
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ثم إن الملك معروفاً زعق على بعض أتباعه فأتوه مُسرِعِينَ، فأخبرهم بما فعلت زوجته فاطمة العرة، وأمرهم أن يأخذوها ويحطوها في مكانٍ إلى الصباح، ففعلوا كما أمرهم، ثم وكَّل بها جماعة من الخدام فغسلوها وكفَّنوها وعملوا لها مشهداً ودفنوها، وما كان مجيئها من مصر إلا لترابها، والله درُّ من قال:

مَشَيْنَاهَا خُطَى كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَى مَشَاهَا
وَمَنْ كَانَتْ مَنِيتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

وما أحسن قول الشاعر:

وَمَا أَذْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
هَلِ الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي

ثم إن الملك معروفاً أرسل يطلب الرجل الحرّاث الذي كان ضيفه وهو هارب، فلما حضر جعله وزير ميمنته وصاحب مشورته، ثم علم أنّ له بنتاً بديعة الحسن والجمال، كريمة الخصال، شريفة النسب، رفيعة الحسب، فتزوَّج بها، وبعد مدّة من الزمان زوَّج ابنه وأقاموا مدّة في أرغد عيش، وصفّت لهم الأوقات، وطابت لهم المسرات، إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرّق الجماعات، ومخرّب الديار العامرات، ومُتِمّ البنين والبنات. فسبحان الحي الذي لا يموت، ويبيده مقاليد الملك والملوكوت.

الخاتمة

وكانت شهرزاد في هذه المدة قد خلّفت من الملك ثلاثة أولاد ذكور، فلما فرغت من هذه الحكاية قامت على قدميها وقبّلت الأرض بين يدي الملك وقالت له: يا ملك الزمان، وفريد العصر والأوان، إني أنا جاريتك، ولي ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين، فهل لي في جنابك من طمع حتى أتمنّى عليك أمنية؟ فقال لها الملك: تمنّي تُعطِي يا شهرزاد. فصاحت على الدادات والطواشية وقالت لهن: هاتوا أولادي! فجاءوا لها بهم مسرعين؛ وهم ثلاثة أولاد ذكور: واحد منهم يمشي، وواحد يحبي، وواحد يرضع. فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك وقبّلت الأرض وقالت: يا ملك الزمان، هؤلاء أولادك، وقد تمنّيت عليك أن تعتقني من القتل إكراماً لهؤلاء الأطفال؛ فإنك إن قتلتنّي يصير هؤلاء الأطفال من غير أم ولا يجدون من يُحسن تربيتهم من النساء. فعند ذلك بكى الملك وضمّ أولاده إلى صدره وقال: يا شهرزاد، والله إني قد عفوتُ عنك من قبل مجيء هؤلاء الأولاد؛ لكوني رأيته عفيفة نقيّة حرّة تقيّة، بارك الله فيك وفي أبيك وأمك وأصلك وفرعك، وأشهدُ الله عليّ أنني قد عفوتُ عنك من كل شيء يضرّك. فقبّلت يديّه وقدميّه، وفرحت فرحاً زائداً وقالت له: أطال الله عمرك، وزادك هيبةً ووقاراً. وشاع السرور في سراية الملك حتى انتشر في المدينة، وكانت ليلة لا تُعدُّ من الأعمار، ولونها أبيض من وجه النهار، وأصبح الملك مسروراً، وبالخير مغموراً، فأرسل إلى جميع العسكر فحضرُوا وخلع على وزيره أبي شهرزاد خلعةً سنيّةً جليّةً وقال له: سترك الله حيث زوجتني ابنتك الكريمة التي كانت سبباً لتوبتي عن قتل بنات الناس، وقد رأيتهَا حرّة نقيّة عفيفة زكية، ورزقني الله منها بثلاثة أولاد ذكور، والحمد لله على هذه النعمة الجزيلة. ثم خلع على كامل الوزراء والأمراء وأرباب الدولة، وأمر بزيينة المدينة ثلاثين يوماً، ولم يكلف أحداً من أهل المدينة شيئاً من ماله، بل كامل الكلفة والمصاريف من خزانة الملك. فزيّنوا المدينة زينة عظيمة

لم يسبق مثلها، ودُقَّت الطبول وزمرت الزمور، ولعبت كامل أرباب الملاعب، وأجَزَلَ لهم الملك العطايا والمواهب، وتصدَّق على الفقراء والمساكين، وعمَّ بإكرامه سائر رعيته وأهل مملكته، وأقام هو ودولته في نعمة وسرور، ولذة وحبور، حتى أتاها هادم اللذات ومفرِّق الجماعات، فسبحان مَنْ لا يفنيه تداوُل الأوقات، ولا يعتريه شيءٌ من التغيُّرات، ولا يشغله حال عن حال، وتفرَّد بصفات الكمال، والصلاة والسلام على إمام حضرته وخيرته من خليقته، سيدنا محمد سيد الأنام، وتضرع به إليه في حسن الختام.

